جامعة الجزائر 2 ـ أبو القاسم سعد الله
كلية العلوم الإنسانية
قسم التاريخ

المجتمع الجزائري في الكتابات الأنثربولوجية الفرنسية حالة الشرق الجزائري إبان الفترة الاستعمارية 1880-1962م

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث والمعاصر

الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة	الصفة
أ.د/ أحمد رضوان شرف الدين	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر2	رئيسا
أ.د/ بن يوسف تلمساني	أستاذ التعليم العالي	جامعة البليدة 2	مشرفا ومقررا
أ.د/ محمد القورصو	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر2	عضوا
د./ عبد الحميد دليوح	أستاذ محاضر	جامعة الجزائر2	عضوا
د./ جمال يحياوي	أستاذ محاضر	جامعة الجزائر2	عضوا
د./ حورية عيوش	أستاذ محاضر	جامعة الجزائر2	عضوا

إعداد الطالب: إشراف الأستاذ الدكتور:

عبد النور غرينة بن يوسف تلمساني

السنة الجامعية: 1439/1438 هـ 2018/2017 م

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كلمة شكر وعرفان

بعد الحمد لله وشكره أتوجه بكامل الشكر والامتنان
إلى أستاذي المشرف الأستاذ الدكتور بن يوسف تلمساني
الذي يعود له الفضل في إتمام هذا العمل المتواضع والذي لم
يذخر جهدا في مساعدتي وتوجيهي وأشكره على صبره
ورحابة صدره.

المختصرات:

-الأرشيف الوطني ما وراء البحار *-ANOM : archive nationale D'Outre Mer:*

-المصلحة التاريخية للجيش البري *-SHAT : Service Historique Armée de Terre :*

-أرشيف ولاية قسنطينة *-AWC : Archive wilaya de Constantine:*

-الديوان الوطني للمنشورات الجامعية: *-OPU : Office Publications Universitaire*

-المطبوعات الجامعية الفرنسية *-PUF : Presses Universitaires de France*

-المجلة الإفريقية *-R.A : Revue Africaine :*

الحكومة العامة بالجزائر *-GGA : Gouvernement Général de l'Algérie :*

- دون مكان الطبع *- (S.É) Sans Éditions :*

-دون مكان الطبع ودار النشر *« S.L.N.É» Sans lieu de publication Sans éditeur:*

- دون مؤلف *-(S.A) : Sans Auteur*

المـــقدمـة

المقدمة

واجهت الإدارة الاستعمارية حين دخولها الجزائر مجتمعا تجهل لغته، عاداته وتقاليده وثقافته ونظرا للمهمة التي يقتضيها الاستعمار الاستيطاني كان يتوجب على هاته الإدارة اتخاذ سياسات الإخضاع الكامل والشامل اقتصاديا، اجتماعيا، ثقافيا وسياسيا وما انجر عنه من ردود فعل مختلفة من قبل المجتمع المستعمَر، ولأجل استعمار ناجح وقليل التكلفة تحتم على هذه الإدارة فهم هذا المجتمع ومعرفته، ولإقرار سياسات تحقق أهدافها الكبرى استدعى هذا تسخير عقول لفهم واستيعا ب هذا المجتمع في عاداته وتقاليده واكتشاف مصادر القوة والضعف فيه، فاستعانت بالأنثربولوجيا التي رافقت الاستعمار لمعرفة الإنسان والمجتمع الجزائري وقد تولى الضباط العسكريون هذه المهمة في البداية وانتقلت بعد ذلك إلى دراسات تولاها جامعيون ومختصون في الأنثربولوجيا، فكانت لهم إسهامات على شكل كتابات جسدت حسب تعبير البعض بـ"الأنثربولوجيا الاستعمارية" التي خصت الجزائر واعتبرت مصادر تقدم مادة دسمة عن المجتمع الجزائري الذي أخضع للسيطرة، ومادة مهمة في الكتابة التاريخية.

والخوض في الكتابات الفرنسية الأنثربولوجية إبان الفترة الاستعمارية يقتضي منا العودة إلى عهد الكتاب العسكريين والجامعيين لكننا جنحنا للعهد الثاني أين نال الشرق الجزائري نصيبا معتبرا من الكتابات الأنثربولوجية الفرنسية التي درست طبيعة وبنية المجتمع من زاوية أنثربولوجية.

ومن هذا المنطلق تحاول هذه الدراسة معالجة قضية الكتابة التاريخية للجزائر وذلك من خلال تحليل الكتابات الأنثربولوجية، ورغم أن الفترة الممتدة مابين 1880 إلى 1962 تعتبر ضمن المرحلة الثانية التي ساهم فيها الفرنسيون الذين كان أغلبهم أساتذة جامعيون وباحثون مختصون في كتابة تاريخ الجزائر ، والذين وجدوا دعما من الإدارة الفرنسية ومكانا مناسبا بتأسيس المعاهد العليا وجامعة الجزائر لخدمة أغراضهم، ولأن المادة التي كتبوها هي نتاج البيئة والظروف الاستعمارية السائدة.

ومما لاشك فيه أن تتبع الكتابات الانثروبولوجية الفرنسية التي تخص المجتمع الجزائري عامة والشرق الجزائري خاصة ليس بالأمر اليسير في ظل جميع التطورات التي عرفتها هذه المنطقة خاصة العسكرية، الإدارية والسياسية والاجتماعية.

وانطلاقا من هذا كان اختيارنا لموضوعنا هذا الموسوم بـ **"المجتمع الجزائري في الكتابات الأنثربولوجية الفرنسية حالة الشرق الجزائري إبان الفترة الاستعمارية 1880-1962"**

فجاءت هذه الدراسة كمحاولة للوقوف على أهم الكتابات التي مست المجتمع في الشرق الجزائري مع ذكر أبرز المواضيع التي تناولها هؤلاء الفرنسيون وأهم التغيرات التي طرأت عليها.

دوافع اختيار موضوع البحث:

لقد اعتنت الشعوب المتقدمة بتاريخها من خلال نقده وتقييمه ثم تثمينه ؛ تجمعه وتصنفه لتسد تلك الهوة التي راح البعض يوسعها من خلال النيل من هذا التاريخ وتزييفه فجاء اهتمامي بهذا الجانب ولو بمساهمة متواضعة في تقديمه للمهتم بشكله الحقيقي الموضوعي، خاصة وأن جل من كتب تاريخ المنطقة هم الفرنسيون والذين غلبت على كتاباتهم نظرة استعمارية استعلائية أفلا يكون لنا الحق في كتابة تاريخنا؟

ومنه جاء مبرر اختياري لهذا الموضوع رغبة في البحث في تاريخ الجزائر ومنطقة الشرق الجزائري بالخصوص هذا من جهة، أضف إلى ذلك قلة الدراسات والكتابات التاريخية في هذا الموضوع فأغلبها تناولت المجتمع من منظور فرنسي دون نقدها ونقد إيديولوجية من كتبها.

وفي هذا الإطار حاولنا أن نركز ونسلط الضوء على ما كتبه الأنثربولوجيون الفرنسيون عن منطقة الشرق الجزائري فجاءت هذه الدراسة كمحاولة للإحاطة بأغلب ما كتب عن المنطقة التي لم تنل حظها من الدراسة الكافية من قبل ولم يسلط عليها الضوء بشكل دقيق ولم تتناولها الدراسات التاريخية الجزائرية بشكل نقدي، علمي، وأكاديمي.

كما رأينا أن ما كتب يحتاج للمزيد من التمحيص، النقد والدراسة المعمقة وإننا بحاجة ماسة إلى إعادة النظر في ما كتبه هؤلاء، خاصة الكتابات والدراسات الأنثروبولوجية الفرنسية التي يعتمد عليها- غالبا- في معرفة خصوصيات المجتمع الجزائري وعاداته وتقاليده وثقافته الأصيلة.

وقد تعلقت أكثر بالموضوع وصممت على البحث فيه لأنني شعرت أن الفرنسيين حاولوا طمس بعض الحقائق التاريخية في كتاباتهم وفسروا بعض الجوانب في غير وجهها الحقيقي.

كما أن المؤرخين الفرنسيين خلال الفترة الاستعمارية كتبوا عن الجزائر باعتبارها منطقة جغرافية ولم يكتبوا عن الجزائريين كسكان لهذه المنطقة، خاصة في بداية كتاباتهم التي ما فتئت أن تمدح الحركة الاستعمارية والغزو الفرنسي للجزائر.

أهداف البحث :

تهدف الدراسة إلى تحقيق جملة من الأهداف هي :

– البحث في العلاقة الموجودة بين الأنثروبولوجيا والاستعمار الفرنسي في الجزائر وذلك من خلال تحليل نماذج من أهم هذه الكتابات في نظرنا.

– محاولة الوقوف على التغيرات التي طرأت على الكتابات الأنثروبولوجية الفرنسية التي خصت الجزائر والشرق الجزائري بشكل خاص خلال عهد الكتاب الجامعيين.

– فهم نظرة الأنثربولوجيين الفرنسيين للمجتمع الجزائري بجميع جوانبه.

– الكشف عن جزء هام من تاريخ منطقة الشرق الجزائري .

– محاولة تحليل ونقد الكتابات الأنثروبولوجية الفرنسية للمنطقة.

– معرفة حقيقة تلك الكتابات و مدى الاعتماد عليها في الدراسات التاريخية الأكاديمية، وكشف ما أمكن من مواطن اللبس ومحاولة دراستها دراسة موضوعية.

– الوقوف على ايجابيات وسلبيات الكتابات الأنثربولوجية الفرنسية لمنطقة الشرق الجزائري.

– الإسهام في تخليص تاريخ الجزائر من الأفكار والتوجهات الاستعمارية وما تؤسسه من تصورات مغلوطة حول الشعب الجزائري وكيان هذه الأمة، بتحرير التاريخ الجزائري من النزعة الاستعمارية.

إشكاليـة البحث:

تحاول هذه الدراسة الإجابة عن إشكالية الموضوعية والأيديولوجي ة في الكتابات الأنثربولوجية الفرنسية الخاصة بمجتمع الشرق الجزائري بشكل خاص خلال فترة الاستعمار الفرنسي للجزائر، أو البحث في الصورة التي قدمتها الكتابات الفرنسية لمجتمع الشرق الجزائري في الكتابات الأنثربولوجية.

وإذا ما اعتبرنا أن الأنتروبولوجية الاستعمارية ركيزة أساسية في المعرفة التاريخية، فإلى أيّ مدى يمكن أن تساهم الكتابات الأنتروبولوجية الفرنسية في كتابة تاريخ المجتمع

الجزائري وبشكل خاص الشرق الجزائري ؟ وهل شكّلت تلك المعرفة مادة أ حاط ت بالخصوصيات الدقيقة للجوانب المختلفة للمجتمع الجزائري ؟ ثم هل يمكن انطلاقا من النماذج المعوّل عليها أن تتوفّر لنا مادة جديدة تسمح لنا بالتعرف على الماضي بشكل موضوعي؟ أو بعبارة أخرى معرفة مدى مساهمة الأنثربولوجيا الفرنسية في كتابة تاريخ الجزائر، كل هذه الأسئلة سوف أحاول مناقشتها من خلال دراستي لجوانب هذه المذكرة.

حدود البحث:

يعود تركيزنا على الفترة الممتدة بين 1880-1962 إلى كونها فترة ظهرت فيها الكتابات الأنثربولوجية الجامعية بداية من تأسيس أولى المعاهد العليا بالجزائر سنة 1880 والتي مثلت النواة الأولى لجامعة الجزائر ونهاية بسنة 1962 التي تمثل استرجاع السيادة الوطنية.

المناهج المعتمدة:

لمعالجة الإشكاليةِ المطروحة اعتمدنا على عدة مناهج للإحاطة بجميع جوانب الدراسة:

فاعتمدنا على المنهج التحليلي الذي يعلل الوقائع والأحداث التاريخية ويتعرض إلى تفسير دوافعها بقدر الإمكان ، كما اعتمدنا على المنهج الوصفي الذي سوف أوظفه على قدر واسع لتقديم صورة واضحة عن المجتمع الجزائري، وإلى جانب هذا المنهج سوف أعتمد على المنهج النقدي لمحاولة الوقوف على ايجابيات وسلبيات الكتابات الأنثربولوجية الفرنسية، وبالإضافة إلى هذه المناهج سأوظف كذلك المنهج المقارن لمقارنة التطورات التي طرأت على الكتابات الأنثروبولوجية الفرنسية منذ البداية إلى نهاية الفترة المدروسة.

واعتمدت على المنهجية التاريخية المتمثلة في التوثيق من خلال القيام بعملية استقراء لمختلف الدوريات والصحف التي استطعت أن اطلع عليها وحاولت أن اعرض ما احتوته من مادة أنثربولوجية تاريخية متبعا المنهجية باحترام السلم الكرونولوجي للأحداث.

خطة البحث ومحتواها:

تتناول هذه الدراسة موضوع:" **المجتمع الجزائري في الكتابات الأنثربولوجية الفرنسية حالة الشرق الجزائري إبان الفترة الاستعمارية 1880-1962 م**

" وقد جاء مضمون الفصول على النحو التالي:

– الفصل الأول : جاء تحت عنوان: مصطلحات ومفاهيم، التحديد الجغرافي للشرق الجزائري وهذا لضبط بعض المفاهيم و تعريف الأنثربولوجيا ومجالاتها وعلاقتها بالتاريخ وبالاستعمار، كما أردنا أن نوضح فيه التحديد الجغرافي للشرق الجزائري.

–أما الفصل الثاني والذي كان بعنوان: المجتمع الجزائري في الكتابات الأنثربولوجية العسكرية الفرنسية، فقد اخترنا نماذج من الكتابات العسكرية التي تناولت المنطقة و قمنا بتحليلها، لفهم تطور الكتابات الفرنسية التي مست المجال الأنثربولوجي للمجتمع الجزائري.

– أما الفصل الثالث: الموسوم بـ مجتمع الشرق الجزائري في الكتابات الأنثربولوجية الفرنسية "الصحافة الدورية" فعالجنا فيه مجتمع الشرق الجزائري من خلال (الصحافة الدورية) متطرقا إلى نماذج جسدت المجال الأنثربولوجي، ووقع اختيارنا على بعض المجلات الفرنسية التي صدرت بالجزائر خلال الفترة الاستعمارية وحاولنا تتبع الطرح الأنثربولوجي لدى بعض الكتاب الفرنسيين فيها.

– واستعرضنا في الفصل الرابع المعنون بياكورة الكتابات الأنثروبولوجية الجامعية الفرنسية والمجتمع الجزائري ، أهم التحولات التي عرفتها الكتابات الأنثربولوجية التي مست المجتمع الجزائري وخاصة الشرق الجزائري، فركزنا على بعض الكتابات المصنفة ضمن الأنثربولوجيا الجامعية ودرسنا المجالات الأكثر اهتماما من طرف الكتاب الفرنسيين في تلك الفترة كالدين الإسلامي والفلكلور والمرأة.

–الفصل الخامس: الموسوم بـ الأنثربولوجيا بين العلم والسياسة "جرمان تيون" واخترنا أيضا نماذج من بعض الأنثربولوجيين الجامعيين المختصين الفرنسيين الذين رأينا أن لهم أثرا في توجيه السياسة الفرنسية بكتاباتهم وتطرقنا لعلاقاتهم بالثورة التحريرية فاخترنا شخصية جرمان تيون Germaine Tillion.

– أما الفصل السادس: والذي كان بعنوان الكتابات الأنثربولوجية الفرنسية خلال الثورة التحريرية "بيار بورديو Pierre Bourdieu" فخصصناه لأنموذج آخر من الكتاب الأنثروبولوجيين خلال الفترة نفسها باعتباره أحد أبرز الأنثربولوجيين في تلك الفترة.

– أما الفصل السابع فتطرقنا فيه إلى أحد الكتاب الأنثربولوجيين الفرنسيين وهو جون سارفييه الذي جسد " الأنثربولوجيا في خدمة السلطة الاستعمارية الفرنسية، فكان الفصل

معنونا بـ الكتابات الأنثربولوجية الفرنسية خلال الثورة التحريرية: جون سارفييه Jean Servier لأنه شهد الأحداث الأولى لانطلاق الثورة التحريرية في منطقة آريس.

أما الخاتمة فقد حاولت فيها قدر الإمكان الإجابة عن الإشكال الأساسي لهذا البحث، وذيلت هذه الأطروحة بمجموعة من الملاحق التي تخدم الموضوع.

الدراسات السابقة:

فيما يخص الدراسات السابقة فقد وقفنا على البعض الدراسات الأكاديمية لكنها تناولت جزء من موضوعنا خلال الثورة ومنها دراسة فابيان ساكريست *Fabien Sacriste* " المعنون بـ *Germaine Tillion, Jaque Berque, Jean Servier, Des ethnologues dans la guerre d'indépendance, algérienne*" ولئن كان قد اعتمد على مصادر أولية ومراجع أجنبية إلا أننا نعيب في هذه الدراسة عدم رجوعه إلى الشهادات والكتابات الجزائرية إلا النادر منها فجاء عمله من منظور فرنسي أيضا.

ومن المصادر التي اعتمدت عليها فقد نهلت من المجلات الأجنبية ما استطعت والتي ضمت ومضات أنثروبولوجية عن مجتمع الشرق الجزائري كالمجلة الإفريقية " *La Revue africaine"* والتي تتبعنا فيها إسهامات الأنثربولوجيين في الجزائر، كما استقينا المادة الخبرية من كتابات معاصرة لتلك الفترة صنفت على أنها كتابات أنثربولوجية أو فرعا من فروعها.

صعوبات البحث:

واجهتنا مجموعة من الصعوبات في إنجاز هذه الدراسة:

لعل أهم ما واجهنا في هذا البحث هو صعوبة تصنيف الكتابات الأنثربولوجية لكننا اعتمدنا على مراجع تناولت دراسات مشابهة، ومن جهة أخرى وجدنا صعوبة في الحصول على بعض مصادر البحث وخاصة الوثائق الفرنسية الرسمية الأرشيفية لأنها مازالت تحت الحضر القانوني، ونظرا لنقص الأبحاث التاريخية والأنثربولوجية الجزائرية في الفترة المشار إليها فسوف اعتمد في دراستي هذه –في معظم الأحيان – على المصادر الأولية الفرنسية، ثم أحاول ترجمتها إلى العربية الشيء الذي قد يغير الكثير من مقاصد هذه الكتابات.

الفصل الأول

مصطلحات ومفاهيم، التحديد الجغرافي للشرق الجزائري

1 المبحث الأول: ضبط المصطلحات والمفاهيم.

2 المبحث الثاني: التحديد الجغرافي لإقليم الشرق الجزائري.

لقد لاحظ الإنسان بصفة عامة الفروق القائمة بين الجنس البشري وحاول أن يفهم الطبيعة الإنسانية من خلال تفسير الاختلافات الموجودة بين سائر البشر في الملامح الجسمية، لون البشرة، العادات والتقاليد، الديانة والثقافة، ومن هذا الإطار تطورت الدراسات خلال العصور وتبلورت بنشأة علم جديد كفرع من فروع المعرفة اصطلح على تسميته بالأنثربولوجيا.[1]

1 المبحث الأول: ضبط المصطلحات والمفاهيم.

تعريف الأنثربولوجيا:

الأنثربولوجيا كلمة إغريقية مكونة من جزأين الأول هو أنثروبوس Anthropos وتعني الإنسان أما الجزء الثاني لوجي Logy فالمقصود بها من حيث اللفظ علم أو دراسة الإنسان لكن عند الترجمة إلى اللغة العربية قد يبتعد اللفظ عن التعريف العلمي والحقيقي لها فيتداخل مع علوم أخرى [2]ويعرفها القاموس الفرنسي لاروس Larousse على أنها العلم الذي يدرس الأبعاد الاجتماعية للإنسان.[3]

أما في قاموس الأنثربولوجيا فيعرف هذا العلم على أنه يختص بدراسة الإنسان طبيعيا، واجتماعيا وحضاريا.[4]

ويمكن تعريف الأنثربولوجيا أيضا على أنها العلم الذي يدرس الإنسان وأعماله [5]، وللأنثربولوجيا علاقة قد تكون قريبة أو بعيدة مع كافة العلوم التي يحويها محيط المعرفة الإنسانية.

وتعرف كذلك على أنها العلم الذي يتناول الإنسان من جميع جوانبه الفيزيولوجية الاجتماعية والثقافية ومختلف مجالاته.[6]

---

1 حسين فهيم، قصة الأنثربولوجيا، فصول في تاريخ علم الإنسان، مطابع الرسالة، الكويت، 1986، ص 13.

2عيسى الشماس، مدخل إلى علم الإنسان(الأنثربولوجيا)، منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق – 2004، ص5.

3 Le petit Larousse illustré 2007, Maury imprimeur S.A- Malesherbes, France, 2006.p94.

4 شاكر مصطفى سليم، قاموس الأنثربولوجيا، إنكليزي-عربي، ط1، 1981.ص56.

5 بيرتي ج بيلتو، دراسة الانثربولوجيا، المفهوم والتاريخ، ترجمة كاظم سعد الدين، بيت الحكمة بغداد،ط1، 2010، ص 17.

6 سعاد علي حسن شعبان، الأنثربولوجيا الثقافية لإفريقيا، طباعة قسم التصوير جامعة القاهرة، 2004، ص 1.

ويرى البعض أن الأنثربولوجيا هي العلم الذي يدرس المجتمعات شبه البدائية والمتخلفة، حيث نجد مثلا القاموس الفلسفي يعرفها على أنها دراسة الجماعات البشرية الفطرية أو التي لا تزال قريبة إلى الفطرة [1]، وإذا ما أخذنا الأنثربولوجيا بمفهومها الواسع الشمولي فهي تجمع كل فروع المعرفة التي تدرس الإنسان ومن أهم ميزاتها أنها تهدف إلى معرفة المجتمع بتعريفات مونوغرافية والأنثربولوجيا الاجتماعية التي ولدت من لدن دراسة هذه المجتمعات التي أطلق عليها الأوربيون أنها بدائية توسعت فيما بعد لتشمل عامة المجتمعات التقليدية حتى في العالم الصناعي دارسةً بذلك الحياة في المدينة كمحور جديد للدراسة فتماثل بشكل كبير علم الاجتماع، وهذا العلم يجبر الأنثربولوجيين على دراسة معمقة ونوعية للوحدات الاجتماعية التي تكون بالضرورة محددة كالقرية أو القبيلة أو الحي.

والواقع أن منهج الأنثربولوجيا هو الذي يجعلها تختلف عن علم الاجتماع فالأولى تعتمد على الملاحظة المباشرة للمجتمعات المدروسة فيكون الملاحظ في واقع يعيشه ويعاينه في ذات الوقت، أما علم الاجتماع فيعتمد أساسا على صبر الآراء والاستجوابات والإحصاءات.

ولكننا في الكثير من الأحيان نجد هذين العلمين–الأنثربولوجيا وعلم الاجتماع– يعتمدان على منهاج بعضهما البعض [2]، هذا التراكم المعرفي اندرج تحت اسم الأنثربولوجيا والتي تعني في تعريف آخر دراسة الخصائص الاجتماعية والثقافية للإنسانية بأكملها [3]، ويتفق الكثير من العلماء على أن يتخصص الباحث الأنثربولوجي في أحد هذه المجالات لتشعبها وتوسع حقل دراساتها.[4]

1-مدكور إبراهيم، المعجم الفلسفي، طبع بالهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية (1982-2000)ص 24.

2 Encyclopaedia Universalis, corpus 2, Aluminium-Arnold 2002 France, p513.

3 فليب لابورت-تولرا، جان .بيار فارنييه، إثنولوجيا أنثربولوجيا، ترجمة د مصباح الصمد، ط 1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 2004، ط1، ص7.

4 فاروق عبد الجواد شويقة، توفيق الحسيني عبده، سلوى يوسف درويش، سعاد علي شعبان، عادل علي مصطفى، سعد عبد المنعم بركة، الموسوعة الأفريقية - المجلد الرابع: الأنثربولوجيا،دار مجدي محمود للطباعة و النشر،1997،ص13

فالأنثربولوجيا علم واسع يضم مجالات متعددة خاصة بالإنسان إذ تدرس كيانه المادي ونشاطه الثقافي وعلاقاته الاجتماعية.[1]

إذا ما حاصرنا أنفسنا باعتبار الأنثربولوجيا كفرع من فروع العلم فيعتبر البعض أن جذورها ترجع إلى عصر التنوير الذي عرفته أوروبا خلال القرن الثامن عشر والبعض الآخر لم يعتبرها كعلم إلا بداية من منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، أما آخرون فلم يعتبروا الأنثربولوجيا كعلم إلا بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها فكانت بدايتها الأولى في العالم الغربي.[2]

وحسب ما أوردته الباحثة الأنثروبولوجيةة الأمريكية مارغريت ميد Marguerite Mead* واصفة ما يقوم به الأنثربولوجي حيث تقول: " نحن نصف الخصائص الإنسانية البيولوجية ونحلل الصفات البيولوجية والثقافية للنوع البشري عبر الأزمان وفي سائر الأماكن، ونحلل الصفات البيولوجية والثقافية المحلية كأنساق مترابطة ومتغيرة، وذلك عن طريق نماذج ومقاييس ومناهج متطورة، كما نهتم بوصف وتحليل النظم الاجتماعية والتكنولوجية ونعني أيضا ببحث الإدراك العقلي للإنسان وابتكاراته ومعتقداته ووسائل اتصالاته..."[3]

يظهر هذا الوصف تعريفا موضوعيا لهذا العلم مبرزا أهم مجالاته أو على الأقل تصور الأمريكيين لأهم حقول دراساته، فهؤلاء يفرقون بين الأنثروبولوجيا الفيزيولجية والتي تدرس الجوانب العضوية للإنسان والأنثروبولوجي ا الثقافية والتي تدرس الجوانب الاجتماعية والثقافية للإنسان [4] لكن يبقى هذا التعريف معاصرا ومتأخرا، فمصطلح

---

1 شويقة وآخرون، المرجع نفسه، ص، ح.

2 Thomas Hylland Eriksen, And Finn Sivert Nielsen, A History of Anthropology, Pluto press, London, 2001, p1.

* Margaret Mead مارغريت ميد ولدت سنة 1901بفيلادلفيا باشرت دراسة علم النفس ثم التحقت بقسم الأنثربولوجيا حيث تحصلت على منحة لدراسة الفتيات الشابات المراهقات في ساموا(جزر تقع في جنوبي المحيط الهادي) توفيت سنة 1978 اختصت في ثقافات المحيط الهادي، ناشطة شعبية، طورت استعمال مفهوم الثقافة في الرأي، أصدرت وشاركت في إصدار 44 كتاب وتصنف على أنها من أبرز الأنثربولوجيين الأمريكان، وكانت من الأوائل الذين درسوا تربية الأطفال، أنظر : Gérald Gaillard,Dictionnaire des ethnologues et des anthropologues,Armand Colin/Masson,Paris, 1997,pp,117-120

3 فهيم، المرجع السابق، ص، 13.أنظر أيضا: سعيدي محمد، الأنثربولوجيا، مفهومها، وفروعها، واتجاهاتها، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، القبة القديمة-الجزائر، 2013،ص 15.

4 فهيم المرجع نفسه، ص 14.

الأنثروبولوجيا ذاته ظهر في كتابات علماء الطبيعة خلال القرن الثامن عشر وكان المقصود منها دراسة التاريخ الطبيعي للإنسان ويرى البعض أن العالم الألماني يوهان فردريك بلومينباخ Blumenbach Johann.Friedrich[1] أول من أدخل كلمة الأنثروبولوجيا في منهج تدريس التاريخ الطبيعي في المقررات الجامعية.[2]

والواقع أنه في ظل التحولات القومية والسياسية التي عرفتها الدول الأوروبية ستظهر الأنثروبولوجيا كتخصص أكاديمي وكان لظهور أولى المتاحف الإثنوغرافية سببا مهما في تطورها حين تم تأسيس المتاحف الوطنية في الكثير من الدول كالمتحف الذي ظهر بلندن سنة 1753، ومتحف باريس الذي تم تأسيسه سنة 1801 ولاحقا أسست هذه الأخيرة معاهدا إثنوغرافية ذات تأثير كبير، بيد أن أولى هذه المتاحف الإثنوغرافية المختصة ظهرت لدى الشعوب الجرمانية في فيينا وبرلين وميونيخ على الرغم من عدم امتلاك هذه الدول لإمبراطوريات استعمارية على الأقل في تلك الفترة.[3]

وفي هذا الصدد يرى جان بواريي J.Poirier *أن الفيلسوف الألماني إيمانويل كانت قد استخدم مصطلح الانثربولوجيا بدء من صدور كتابه "الأنثروبولوجيا من منظور عملي" "Anthropologie in pragmatischer Hinsicht "

وبما أن مجالات الأنثروبولوجيا متعددة ومادتها غنية فقد تنوعت فروعها إلى:

1 -الأنثروبولوجيا الطبيعية:

ويقصد بالأنثروبولوجيا الطبيعية ما يطلق عليه أيضا بالأنثروبولوجيا الفيزيائية Anthropologie physique والتي تسمى في بعض الأحيان الأنثروبولوجيا البيولوجية[4]، وهي دراسة الإنسان من حيث هو كائن بيولوجي يعرف تطورا عضويا، كما تدرس الاختلافات الموجودة في الشكل وحجم الأعضاء كالأنف،

1 سليم، المرجع السابق،ص 122.
2 فهيم، المرجع السابق، ص15
3 T,Hylland Eriksen, And F,S, Nielsen,Op,cit,p15.
* جان بوريي Jean Poirier ولد سنة 1921 درس القانون، ابتداء من سنة 1947 بدأ يدرس الإثنولوجيا العامة، عين على كرسي الإثنولوجيا في جامعة ليون الفرنسية أسس سنة 1961 في مدغشقر قسم العلوم الإنسانية له عدة مؤلفات أهمها: الإثنولوجيا العامة، تاريخ العادات، أنظر: Gaillard,Op.cit, pp, 203,204.
4 سعيدي المرجع السابق، ص47.

والأذن، والرأس وهي تهتم أيضا بتصنيف وتوزيع هذه السمات عند مختلف الشعوب والأعراق.[1]

ونتيجة لهذا فإن الأنثروبولوجيا الطبيعية تقترب بشكل لصيق بميادين الطب البشري والتشريح ومنه ظهر علم آخر تفرع عنها وهو الأنثروبومتري Anthropométrie[2] والذي يهتم بالمقاييس التشريحية لملامح وأعضاء الإنسان.[3]

وتعود الجذور الأولى للأنثروبولوجيا الفيزيقية إلى القرنين السابع والثامن الميلادي حيث كانت بادئ الأمر تهتم بدراسة الخصائص المرفولوجية للإنسان وتصنيف سلالاته، كما ركز الأنثربولوجيون الأوائل على تصنيف ووصف البقايا العظمية والسلالات.[4]

وعرفت الأنثروبولوجيا الطبيعية تطورا مهما بعد اهتمام العلماء بإجراء الحفريات واستخدام الكربون 14 المشع [5] لمعرفة التاريخ التقريبي للإنسان وتصنيفه وانتشاره خاصة في العالم القديم، وقد تطور هذا العلم فأصبح يبحث عن العلاقة الموجودة بين الإنسان وبيئته وتأثيرها على ثقافته وعلى مورفولوجيته .[6]

2 -الأنثروبولوجيا الثقافية:

من اللائق قبل تعريف الأنثروبولوجيا الثقافية تحديد مصطلح الثقافة، هذا المفهوم الذي نجد تعريفات متعددة له في القواميس والكتب منها أنها عنوان المجتمعات البشرية، وهي كل ما ينير العقل البشري وينمي ملكته وتشمل المعارف والمعتقدات

1 شويقة وآخرون، المرجع السابق، ص14.

2 وهو علم قياس جسم الإنسان، أي دراسة مقاييس جسم الإنسان ومقارنتها للوصول إلى نتائج علمية في الأنثروبولوجيا الطبيعية وتشمل دراسة قياس أجسام الأفراد الإحياء والهياكل العظمية للأموات وأهم المقاييس التي تؤخذ بعين الاعتبار طول القامة الجمجمة، والرأس العيون، والأذن، أنظر: سليم، المرجع السابق، ص57.

3 بيلتو، المرجع السابق،ص19.

4 شعبان، المرجع السابق، ص، 5.

5 وهو تحديد التاريخ بالإشعاع الكربوني في البقايا العضوية القديمة كالعظام والقش، والحبوب وذلك عن طريق حرقها في جهاز خاص تحديدا لعمرها، ولقد استفاد علماء الآثار والأنثروبولوجيا الطبيعية كثيرا باستعمال هذه الطريقة، أنظر: سليم، المرجع السابق، ص ص،803-804.

6 شويقة، المرجع السابق، ص ص، 14، 15.

والأخلاق والفن والعادات التي اكتسبها الإنسان من الماضي والتي أضاف لها من الحاضر.[1]

وتعرف الأنثروبولوجيا الثقافية بشكل عام على أنها العلم الذي يدرس الإنسان من حيث هو كائن يعيش في مجتمع يمتاز بثقافة معينة، فيهتم هذا العلم بالثقافة الإنسانية ومظاهرها سواء أكانت قديمة أو معاصرة لبني البشر [2]، أو يدرس أنماطا من السلوك المتعلم اجتماعيا.[3] ونتاجه الثقافي المعنوي والمادي.

وتذكر بعض المراجع أن إدوارد ب.تايلور Taylor, Edward Burnett* هو أول من أعطى تعريفا أنثروبولوجيا للثقافة، حيث قال:" الثقافة، أو الحضارة هو الكل الذي يظم المعرفة، المعتقد، والفن والقانون والأخلاق والعادات، وقدرات أخرى اكتسبها الإنسان كعضو في المجتمع.[4]

ولم تظهر الأنثروبولوجيا الثقافية كفرع منفصل إلا في القرن التاسع عشر حيث توسعت وتطورت بشكل كبير في الولايات المتحدة الأمريكية فكانت تشمل كل من الإثنولوجيا أو التحليل المقارن والتاريخي للثقافات [5]، وتمدنا هذه المقاربة بمعلومات مفصلة بناء عن ملاحظات شخصية للثقافات معاشة في فترات زمنية.[6]

لكن الاتجاهات التي سادت الأنثروبولوجيا الثقافية تقر بمرور ثقافة المجتمعات الإنسانية عبر مراحل من البدائية أو"الهمجية" إلى حالة التحضر والتمدن، وتصل إلى ما وصلت إليه أوروبا آنذاك، وهذا الاتجاه نجده عند تايلور نفسه ونجده حتى عند

---

1 إبراهيم مدكور، المعجم الفلسفي، ص 58.

2 محمد الجوهري، علياء شكري، مقدمة في دراسة الأنثروبولوجيا، القاهرة، دون دار الطبع، 2007، ص 35.

3 بيلتو، المرجع السابق، ص19.

* عالم أنثر وبولوجي انجليزي ولد سنة 1832 ينتمي إلى العصر الفيكتوري، أول من درس الأنثروبولوجيا الاجتماعية في جامعة وأكسفورد سنة 1884، اشتهر بصياغته للتعريف الشهير الخاص بالثقافة الوارد في المتن، من أهم مؤلفاته الثقافة البدائية سنة 1871 ، أنظر: جوردن مارشال، موسوعة علم الاجتماع المجلد الأول ترجمة محمد الجوهري، محمد محي الدين، عدلي السمري، أحمد زايد، محمود عبد الرشيد، هناء الجوهري، مراجعة وتقديم محمد الجوهري، الطبعة الثانية 2007، ص 301.

4 William A. Darity Jr, International Encyclopedia of the Social Sciences, 2nd edition, VOLUME 1 ABORTION–COGNITIVE DISSONANCE, Printed in the United States of America, p121.

5 شعبان، المرجع السابق، ص 16.

6 Darity, Op,cit.p 123.

الأنثروبولوجيين الأمريكان المتأخرين [1]، لكن في المقابل نجد أن تايلور يؤكد على دراسة كل الثقافات سواء أكانت بدائية أو متحضرة، ونلمس من خلال ما ذكرناه أن الأنثروبولوجيا الثقافية قد تبنت النظريات التطورية والتي لاقت جدلا كبيرا في الأوساط الجامعية[2]، بل وظهرت اتجاهات فرقت بين الثقافة العامة والتي هي موجود عند عامة البشر والثقافة المحلية أو ما اصطلح عليه الثقافة المجهرية التي تستخدم للإشارة إلى ثقافة معينة والتي تشمل مجموعات أثنية أو مجتمعات أهلية.[3]

وتتفق الكثير من المراجع على أن الأنثروبولوجيا الثقافية تستعين بعلم الآثار [4] بشكل كبير للدراسة ولفهم العوامل التي أدت إلى إحداث تغير في الثقافات[5]، بل وهناك بعض بعض المراجع التي تصنف الأركيولوجيا كأهم فرع انقسم عنها [6]، حيث يُضم للأنثروبولوجيا الثقافية لأغراض التدريس [7]، ويمكن القول أن الأنثروبولوجيا تبدأ حين ينتهي علم الآثار، فالمعلومات التي يتحصل عليها عالم الآثار من التنقيب عن المساكن، الأسلحة ومختلف الأدوات، الفنون، النصب تُكوّن رصيدا هاما من المادة المعرفية التي تفيد الأنثروبولوجيا الثقافية وبما أن علماءها يعنون بالتنقيب عن كل ما هو مرتبط بالإنسان فنجد أنها ذات صلة وثيقة بالتاريخ والمؤرخين.[8]

والواقع أن هناك خلافا قد يكون مفاده محاولة الفصل ما بين الأبحاث التي يقوم بها عالم الآثار والذي وصف على أنه باحث تقليدي وما يقوم به الأركيولوجيون الأنثروبولوجيون والتي أجمع الكثير من العلماء على أنها أكثر عمقا وغموضا وفي ظروف مغايرة، فهو مثلا يبحث عن بقايا بعض الشعوب التقليدية والبسيطة ويستقرئ منها شيئا من الثقافات القديمة [9] وبخاصة فهم تطورها، ازدهارها وانحطاطها، ومعرفة

---

1 فهيم، المرجع السابق، ص ص 135-136.
2 المرجع نفسه، ص 137.
3 Darity, Op,cit.p 122.
4 ويمكن تعريف علم الآثار حرفيا "أنه دراسة القديم" مع التركيز على الثقافة الإنسانية، بدأ هذا العلم في أوروبا في القرن التاسع عشر تركز على التنقيب على التحف وبقايا مصنوعات الإنسان، ويضم حقلين متفرعين عنه وهما علم الآثار ما قبل التاريخ وبعده، أنظر: Darity,Ibid,p171.
5 الجوهري، شكري، المرجع السايق، ص 38.
6 فاروق مصطفى إسماعيل، الأنثروبولوجيا الثقافية، مطبعة الجيزة بالإسكندرية، ص 29.
7 بيلتو، المرجع السابق، ص20.
8 بيلتو المرجع نفسه، ص20.
9 إسماعيل، المرجع السابق، ص30.

العوامل التي أدت إلى ذلك [1]، ومنه يستنتج" أن عالم الآثار يحاول أن يقدم صورة لأسلوب الحياة في الثقافات القديمة".[2]

والحق أن الأنثروبولوجيا الثقافية واسعة ضمت فروعا أخرى أقل ما يقال عنها أنها ذات أهمية بالغة، لكننا نحس في نفس الوقت بأن موضوعها وأساليبها غامضة نوعا ما فهي تتأرجح مابين العديد من العلوم الأخرى محاولة أن تثبت نفسها.3

الإثنولوجيا*:

هي كلمة إغريقية مكونة من شطرين إثنوس ولوغوس [4]، ويقصد بإثنوس أقلية شعبية، أو جماعة، أو قبيلة، في حين يقصد بلوغوس علم، فتصبح الكلمة علم الشعوب أو الأجناس.[5]

و يعرف شاكر مصطفى سليم الإثنولوجيا في مؤلفه قاموس الأنثروبولوجيا "على أنها الدراسة المقارنة لأوجه الاختلاف والاتفاق بين الحضارات لاستنباط تعميمات حول أصولها وتطورها وتنوعها" ونجد أنه يدرجها كفرع من فروع الأنثروبولوجيا، والشيء نفسه نجده بالنسبة للأمريكيين الذين يضمونها لـ"الأنثروبولوجيا الحضارية".[6]

وورد في قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفلكلور أنها العلم الذي يدرس الإنسان ككائن ثقافي، وجاء في المؤلف نفسه عدة تعريفات أعطيت للإثنولوجيا من بينها

1 الشماس، المرجع السابق، ص ص، 103، 104.
2 إسماعيل، المرجع السابق، ص 31.
3 جان فرونسوا دارتيه، معجم العلوم الإنسانية، ترجمة د.جورج كتورة، كلمة ومجد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية منقحة، 1432هـ -2011م، ص 585.
* للإثنولوجيا مجموعة من الأقسام والأجزاء أهمها: الإثنولوجيا الأثرية الإثنولوجيا الإقليمية، إثنولوجيا الحضارات القديمة (Paléœthnologie)، الإثنولوجيا الدينية وغيرها، أنظر: إيكه هولتكرانس، قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفلكلور، ترجمة محمد الجوهري، حسن الشامي، الأمل للطباعة والنشر، دون سنة الطبع، ص ص، 20-22.
4 Larousse, Op.cit,p, 435.
5 سعيدي، المرجع السابق، ص 20.
6 سليم، المرجع السابق، ص ص 314-315.

تعريف أ.ل كروبر * A.L Krober والذي يقول:"بأنها علم شعوب وثقافتها وتاريخ حياتها كجماعات، بقطع النظر عن درجة تقدمها" [1] وتعريف هوبل آدمسون Hoebel Adamson * [*] الذي حدد مفهومها بأنها" ذلك القسم من الأنثروبولوجيا المختص بتحليل المادة الثقافية وتفسيرها تفسيرا ممنهجا" أو التعريف الذي نجده لـ Stern وجاكوبز Jacobs "بأنها التحليل العلمي القائم على الإثنوغرافيا للأنساق الاجتماعية والاقتصادية وللتراث الثقافي للشعوب ذات المستوى التكنولوجي المتخلف بهدف الكشف عن أصول ووظائف وعمليات التغيير في سماتها الثقافية"، أما و. شميدت W. Schmidt [***] فيرى أن "الإثنولوجيا هي علم العقل والعلاقات المكانية والزمانية" [2] وفي تعريف آخر له يورد أنها " العلم الذي يدرس تطور الفكر والعمل البشري الصادر عنه في حياة الشعوب" [3] ونستنبط من خلال هذه التعريفات أن الإثنولوجيا هي علم يختص بدراسة خصائص الشعوب مسلطة الضوء على الثقافات واللغة، والسلالات، كما تفسر بعض الظواهر كالهجرات وتوزع القبائل جغرافيا في مناطق مختلفة، أضف إلى ذلك

* كروبر آلفرد لويس، ولد 1876 سنة في هوبوكن التابعة لنيوجرسي من عائلة بروتستانتية تعود أصولها إلى ألمانيا، التحق بجامعة كولومبيا لدراسة الآداب الإنجليزية حيث اكتشف الأنثروبولوجيا من خلال المحاضرات التي كان يلقيها بواس ثم اختار الأنثروبولوجيا كمجال للدراسة ونشر أول مقال له حول الفلكلور سنة 1899 وناقش أطروحته الخاصة بالدكتوراه سنة 1902 حول قبيلة (أراباهو) من قبائل الهنود الحمر التي تسكن في منطقة الكولورادو، درس في العديد من الجامعات كجامعة كولومبيا، هارفارد، يال، له عدة إصدارات منها "الأنثروبولوجيا "" Anthropology" سنة 1923 توفي في باريس سنة 1960، أنظر: Gaillard,Op.cit, pp, 79-81.

1 هولتكرانس، المرجع السابق، ص18.

** هوبل آدامسون، ولد بولاية ماديسون بالولايات المتحدة الأمريكية سنة 1906، درس علم الاجتماع في جامعة ويسكونسين ثم التحق بجامعة نيويورك ثم في جامعة كولومبيا حيث درس الأنثروبولوجيا فتابع محاضرات بواس، ناقش أطروحة الدكتوراه سنة 1943 التي تتعلق بالقوانين السائدة عند بعض القبائل من الهنود الحمر، دَرّس في جامعة نيويورك ويوتاه ثم في جامعة مينيسوتا وأكسفورد كان له الفضل في فتح آفاق جديدة خاصة بالأنثروبولوجيا القانونية توفي سنة 1993، أنظر:Gaillard,Op. cit., p, 91

*** ويلهالم شميدت، قس، ولد بواستفاليا، سنة 1868، بعد دراسات دينية انضم إلى "جماعة أو طائفة الكلام " التي أسست سنة 1875، درس في جامعة فيينا، كانت له مساهمة كبيرة في تأسيس المدرسة الإثنولوجية النمساوية، أنشأ سنة 1906 مجلة أنثروبوس التجأ الى سويسرا أثناء الحرب العالمية الثانية، وعين بروفيسور في جامعة فريبورغ سنة 1941 توفي سنة 1954.أنظر: . Ibid, p,50

2 Melville J. Herskovits, (1950) Les bases de l'Anthropologie culturelle, François Maspero, Editeur, 1967.p191.

3 هولتكرانس، المرجع السابق، ص 18.

أنها تدرس التنظيم القبلي والنظم القانونية والأعراف والعقائد الدينية وغيرها من السلوكيات الحضارية.[1]

وعلى الرغم من هذه التعريفات التي ربما توضح مفهوم الإثنولوجيا بشكل واضح إلا أننا نجد اختلافا فيها من منطقة إلى أخرى فهي تشمل في أوروبا مثلا على البعدين الجغرافي والتاريخي بل أصبحت تغطي ميدان الفلكلور [2] معتمدة دائما على التحليل المقارن والتاريخي للثقافات الاجتماعية [3]على أسس ومناهج ثابتة، فعندما تدرس ثقافة جماعة ما فهي بذلك تقوم بتحليلها، وفي المقابل إذا ما تم مقارنة هذه الثقافة بثقافة أو ثقافات أخرى فهي هنا تعتمد على المنهج المقارن باحثة عن نتائج رصينة سواء أكان ذلك في المجتمعات المعاصرة أو تلك التي انقرضت.[4]

والواقع أن الإثنولوجيا قد تركت الأهداف التي سطرتها لإعادة البناء والتشكيل الخاصة بالمجتمعات واهتمت بالمشاكل التي تخص أشكال وطرائق العادات مركزة على الملاحظة المباشرة.[5]

وقد عرف مصطلح الإثنولوجيا شهرة واسعة بداية من عام 1839م عند تأسيس "الجمعية الإثنولوجية الباريسية" من طرف الإنجليزي إدوارد W.F.M Edwards* وتبعتها عدة جمعيات من هذا القبيل ففي لندن تم تأسيس " الجمعية الإثنولوجية" سنة 1843، وكذا تأسيس الجمعية الإثنولوجية الأمريكية" سنة 1846.

وإلى عهد ليس ببعيد كانت الإثنولوجيا تعرف بأنها الدراسة التاريخية والمقارنة للشعوب التي يطلق عليها "بدائية".[6]

---

1 سعيدي، المرجع السابق، ص 20.

2 الجوهري وآخرون، المرجع السابق، ص 204.

3 محمد الجوهري، علياء شكري، سعاد عثمان، نجوى عبد الحميد، منى الفرنواني، هدى الشناوي، آمال عبد الحميد، الأنثروبولوجيا الاجتماعية، قضايا الموضوع والمنهج، دار المعرفة الجامعية- الاسكندرية، 2004.ص 388.

4 الشماس، المرجع السابق، ص ص 105-106.

5 Herskovits, Op. cit. p148.

* وليام فردريك إدوارد، ولد سنة 1776 بجمايكا المستعمرة البريطانية آنذاك، درس الطب في بروج (بلجيكا) ثم في باريس ابتداء من سنة 1814، أسس الجمعية الإثنولوجية الباريسية التي كانت تهدف الوقوف على الخصائص الأخلاقية للسلالات، الموجودة في الأقاليم الوطنية، أنظر: Gaillard,Op.cit, p15.

6 هولتكرانس، المرجع السابق، ص 19.

لقد ظل مفهوم الإثنولوجيا إلى وقت قريب (أوائل القرن العشرين) يعرف خلطا في استخدامه فقد كان يطلق عليه في الجامعات البريطانية ما يصطلح عليه بالأنثروبولوجيا الاجتماعية، وكانت الثقافة دائما محور دراساتها في المجتمعات المتحضرة أو البدائية بغية الوصول إلى خصائص الجماعات البشرية ثقافيا، لكن يميل تركيز علماء الإثنولوجيا على المجتمعات البدائية أكثر لأنها متميزة.[1]

وقد اعتبر العديد من علماء الإثنولوجيا في منتصف القرن العشرين الميلادي أن هذا العلم سيتوقف مع اختفاء أواخر البدائيين، فكان هؤلاء يبحثون عن بقايا مجتمعات ظلت بعيدة عن تأثير الحضارة [2]، وبصفة عامة يمكن القول أن أغلب الإثنولوجيين الأوروبيين يميلون إلى إجراء أعمالهم ودراساتهم بعيدا عن ثقافاتهم الخاصة وهذا لتسليط الضوء على ثقافات وما تضمه من فنون وفلكلور ومعرفة عادات وتقاليد وأعراف.[3]

علم اللغة : Linguistique أو اللسانيات:

يصنف علم اللغة ضمن الأنثروبولوجيا الحضارية حيث ارتبطت به ارتباطا وثيقا خاصة خلال القرن التاسع عشر[4] وهو العلم الذي يدرس اللغات دراسة علمية من حيث حيث أصولها التاريخية وأسسها وأشكالها، وتطورها وغالبا ما يقسم هذا العلم إلى ثلاثة أقسام[5]: علم اللغة التاريخي وهو دراسة تغير اللغة عبر الزمن، والوصفي والذي يهتم بوصف بناء اللغة وأخيرا علم اللغة المقارن والذي يدرسها حسب المتغيرات الاجتماعية[6]، ومن خلال هذا المنهج يحاول علماء الأنثروبولوجيا اللغويون إيجاد السمات المشتركة بين اللغات وإيجاد الكيفية التي أدت إلى امتزاج اللغات واللهجات لتصبح أخيرا لغة مجتمع ما.[7]

1 إسماعيل، المرجع السابق، ص 34.
2 .تولرا، فارنييه، المرجع السابق ، ص9.
3 اسماعيل، المرجع السابق، ص 36.
4 شعبان المرجع السابق، ص 22.
5 سليم، المرجع السابق، ص569.
6 Darity, Op. cit.p118. .
7 اسماعيل المرجع السابق، 41.

ويهتم دارس اللغة الذي يكون متخصصا في الأنثروبولوجيا بالعلاقات المتعددة القائمة بين لغة شعب ما والجوانب الثقافية الأخرى، فيدرس مثلا الرموز اللغوية المستخدمة في الشعائر والاحتفالات الدينية، وكذا الطرق التي تنتقل بواسطتها اللغة من جيل إلى آخر وكيف تساعد هذه الأخيرة على نقل المعتقدات والتقاليد في المجتمع نفسه، ويحاول هذا الدارس أن يفهم دور اللغة في المجتمعات البشرية وعلاقتها المباشرة بالحضارة.[1]

الإثنوغرافيا Ethnographie:

الإثنوغرافيا هي كلمة ذات أصل إغريقي مكونة من قسمين إثنوس والتي تعني جماعة أو أقلية أو مجموعة، أو عرق، والقسم الثاني لفظة غراف والتي تعني "وصف" أو "رسم" [2] لكن يبقى هذا التعريف بهذا الشكل مضللا نوعا ما لأن هذا المصطلح تطور بشكل كبير ليصبح ما يعرف عليه حاليا أي أنها الدراسة الوصفية للحياة الاجتماعية للشعوب والمجتمعات محاولة تحليل مظاهر النشاط الاجتماعي والنظم [3] في في حين يرى البعض أنها إثنولوجيا وصفية من خلال الملاحظة وتسجيل المادة الثقافية في الميدان [4] وتعرف كذلك على أنها العلم الذي يصف حضارة الشعوب عن طريق رسم صورة دقيقة لطرائق عيشها وعلاقاتها الاجتماعية [5] ويعنى هذا العلم بذلك دراسة المظاهر المادية للنشاط الإنساني كالمأكل، والمشرب، والملبس ونحوها [6]وهو من العلوم العلوم التي تساعد كثيرا في الدراسات الاستشراقية وخاصة لمعرفة بعض الجوانب من الحياة الاجتماعية والتنظيمية لدى الشعوب.[7]

لقد أثارت الإثنوغرافيا منذ نهاية القرن التاسع عشر فضول الجموع المتعلمة حين تأسست معاهد وجمعيات وكراسي ومجلات بهدف تعلم وتدريس هذا العلم الجديد حيث أحصيت 48 ثمانية وأربعين مؤسسة ذات سمة إثنوغرافية ضمت أكثر من أربعة

1 الجوهري وآخرون، المرجع السابق، ص 24.

2 Darity, Op. cit.p14.

3 شويقة وآخرون، المرجع السابق، ص 11.

4 شعبان، المرجع السابق، ص، 19.

5 سليم، المرجع السابق، 314.

6 مدكور، المرجع السابق، ص3.

7 محمد العربي معريش، الاستشراق الفرنسي في المغرب والمشرق من خلال المجلة الآسيوية (1822-1872)، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 2009، 31-32.

وسبعين بروفيسور وأساتذة مساعدين، كما بلغ عدد المجلات الإثنوغرافية حوالي 65 مجلة .

واستطاعت الدول الأوربية خلال هذه الفترة نفسها أن تسيطر على العالم وذلك بمساعدة الإثنوغرافيا بشكل كبير والتي ساهمت في معرفة الشعوب في إفريقيا وآسيا وحتى في الجزر المتناثرة في المحيطات ومعرفة أعرافهم وعاداتهم ونظمهم.

ويرى البعض أن الإثنوغرافيا ما هي إلا فصل أو مرحلة من علم الأنثروبولوجي ا وذهبت المدرسة الأنثروبولوجية إلى نفس المنحى على الأقل في تلك الفترة.

ويفسر هذا الخلط والالتباس بكون الكثير من العلوم وبخاصة في بداية ظهورها تواجه مشاكل ومصاعب جمة والحال عند الكثير منها، فقد عرفت الإثنوغرافيا مشكلة عدم دقة أهدافها وعدم استقرار منهجها واستقلالها عن العلوم الأخرى.

ففي المجلس التعليمي الأول الخاص بالعلوم الاجتماعية والذي عقد في باريس سنة 1900 طرحت إشكالية وسؤال تحديد مفهوم الإثنوغرافيا والتي وجدت الظروف والبيئة الملائمة لنضوجها وترعرعها وتطورها في أمريكا وليس في المنطقة التي ولدت بها.

ويمكن تقسيم تاريخ الإثنوغرافيا إلى أربع مراحل كبرى، المرحلة الأولى التي تمتد من بداية التاريخ إلى سنة 1400 والمرحلة الثانية والتي تمتد من 1400 إلى سنة 1830 وهي المرحلة التي تضم الكشوف الجغرافية الكبرى، والمرحلة الثالثة والتي تمتد من سنة 1830 إلى سنة 1860 وهي المرحلة التي حاولت فيها الإثنوغرافيا أن تستقل عن العلوم الأخرى أي التأسس كعلم خالص قائم بحد ذاته، فالمرحلة الأخيرة والتي تبدأ من سنة 1860 إلى يومنا هذا حيث بلغت الإثنوغرافيا مرحلة النضج فأصبح لها أهدافها الخاصة المستقلة ومنهجها الخاص بل ووسعت من حقل أبحاثها

وتشير المصادر أن مصطلح الإثنوغرافيا لم يدخل القواميس العلمية الفرنسية إلا في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي حين صنفته الأكاديمي ة الفرنسية سنة 1833 وضمته إلى علم الإحصاء "ويهدف للدراسة الوصفية للشعوب".[1]

[1] Gollier Théophile. Revue d'ethnographie. In: Revue néo-scolastique. 11° année, N°42, 1904. pp. 184-186, 188,300.

وبالرغم من أن كلمتا إثنولوجيا وإثنوغرافيا تضمان جذرا واحدا وهو اثنوس، إلا أن الأولى هي أعم من الثانية حيث أقرت الجمعية الأنثروبولوجية الباريسيۃ في الاجتماع الذي عقدته في الأول من شهر جوان سنة 1876 بعد أحد المداخلات الموسومة بـ "إثنولوجيا إثنوغرافيا" أن الإثنوغرافيا تتناول بعض المظاهر بشكل وصفي خاص أما الإثنولوجيا فهي دراسة عامة لمجموعة من المظاهر.[1]

وتفيد الكثير من المراجع أن علم الإثنوغرافيا قد نشأ منذ فترة قديمة نلمسه في ثنايا كتابات الرحالة القدامى الذين كانوا يكتبون كل ما يقع نصب أعينهم من مظاهر اجتماعية، اقتصادية وثقافية، وعلى الرغم من كون هذه الكتابات وصفية، إلا أنها كانت تفتقر لمنهاج علمي، والملاحظ أن الكتابات الإثنوغرافية الأولى التي عرفتها إفريقيا مثلا قد دونها رجال الدين والمبشرون.[2]

ويحاول الباحث الإثنوغرافي الحصول على معلومات وبيانات المجتمع الذي يدرسه [3] بعد أن يعيش فيه مدة زمنية معينة تمكنه من استقاء المعلومات والتي يرتبها ثم يصنفها طبقا لمنهجية منظمة دون تأويلها أو تفسيرها وتحليلها أو حتى مقارنتها، حيث يعتمد الباحث في هذا المجال على الملاحظة، أو المقابلات، والاستجوابات ودراسة الحالة وغيرها من الوسائل والطرق، على أن طبيعة المجتمع المدروس والأهداف المسطرة هي التي تتحكم في هذه الوسائل المستخدمة في البحث.[4]

العلاقة بين الأنثروبولوجيا والإثنولوجيا والإثنوغرافيا:

من خلال ما استعرضناه من تعريفات للأنثروبولوجيا والإثنولوجيا والإثنوغرافيا أمكننا تبيين علاقة هذه العلوم الثلاثة فالأنثروبولوجيا هي العلم الكامل للإنسان والإثنولوجيا هي العلم الذي يختص بدراسة الشعوب أما الإثنوغرافيا فهي وصف نفس الشعوب، لكن تبقى هذه العلاقة في جانبها النظري فحسب لأنه وفي الكثير من

1 Hovelacque A. Ethnologie et ethnographie. In: Bulletins de la Société d'anthropologie de Paris, II° Série. Tome 11, 1876. p.299.

2 شعبان، المرجع السابق، ص ص 20-21.

3 توجد عدة مراحل في عملية البحث الإثنوغرافي فمنها المرحلة التحضيرية وهي كتابة مشروع بحث يتم فيه تقديم العمل بإتباع مواصفات محددة ثم يتم بعد ذلك العمل في الميدان بجمع المعلومات بشكل مباشر من المجتمع المدروس وتدوينها في سجل يومي أنظر: Werner Jean-François. L'ethnographie mise à nu par l'écriture In: L Homme et la société, N. 134, 1999. Littérature et sciences sociales.p 64.

4 شويقة وآخرون، المرجع السابق، ص ص11-12.

الأحيان وبخاصة في الميدان تخرج هذه العلوم عن مناهجها وأهدافها ونراها تتداخل مع بعضها البعض.

ويدرج الكثير من العلماء الإثنوغرافيا والإثنولوجيا كمراحل فقط تنتهي عند علم الأنثروبولوجيا، حيث أن العالم المختص في المجال الأخير يستعين في الكثير من الأحيان بالإثنوغرافيا كدراسة وصفية للأحداث، ويستعين بالإثنولوجيا حين يصنف ويقارن الجماعات البشرية [1] ويرصد أوجه اختلافها وتشابهها وكذا تحليل مظاهرها الثقافية والاجتماعية والعقائدية قصد إبراز عناصرها الأساسية، ليصل هذا الباحث إلى مرحلة يستنبط فيها القواعد والأطر والنسق التي تخص المجتمعات البشرية وهي المرحلة الأخيرة من البحث الأنثروبولوجي.[2]

وتجدر الإشارة إلى ذهاب بعض الباحثين المختصين في علم الاجتماع إلى اتجاه مغاير لما رأيناه من اختلاف بين الأنثروبولوجيا والإثنولوجيا حيث يعتبر هؤلاء أن هذين العلمين هما وجهان لعملة واحدة، أو بمعنى علم واحد بتسميتين مختلفتين وهذا حسب المدارس الأنثروبولوجية، فقد جنحت المدرسة الفرانكفونية إلى استعمال مصطلح إثنولوجيا بدل أنثروبولوجيا عكس ما تذهب إليه المدرسة الانجلوسكسونية حيث تصطلح إطلاق تسمية أنثروبولوجيا.[3]

ومن خلال استقرائنا لما سبق يبدو أنه لا يوجد فرق بين الإثنولوجيا والأنثروبولوجيا، فقد كانت الأنثروبولوجيا في فرنسا القرن التاسع عشر علما طبيعيا يتضمن دراسة الأنماط الطبيعية للإنسان وفي بداية القرن العشرين كانت كلمة "إثنولوجيا" تشير إلى التصنيف الثقافي لهذه النماذج، لكن في القرن العشرين ارتأى رواد الأنثروبولوجيا الفرنسية كـ" ليفي ستروس وجورج بالنديه" استخدام مصطلح " أنثروبولوجيا" الشائع في العالم الانجلوساكسوني بدل إثنولوجيا [4]وبالتالي فإن

1تولرا، فارنييه، المرجع السابق ، ص 54.
2 سعيدي المرجع السابق، ص ص 21-22.
3 سعيدي، المرجع نفسه، ص22.
4 دورتيه، المرجع السابق، ص 585.

الأنثروبولوجيا الثقافية حسب المدلول الأمريكي يصطلح عليها عند الفرنسيين بالإثنولوجيا.[1]

علاقة الانثروبولوجيا بالتاريخ:

صرح إميل دوركايم قائلا:" إن التاريخ هو بمثابة المعمل بالنسبة لرجل علم الاجتماع " فقبل أن يوجد علم الاجتماع كان التاريخ علما قائما وكذا فلسفة التاريخ التي في أحضانها نضجت الأفكار السوسيولوجية.

وتفيد المعلومات أن النظريات الكبرى التي شهدها علم الاجتماع في القرن التاسع عشر والعشرين ما هي إلا ثمرة الفلسفة التاريخية[2]، ففي الكثير من الأحيان يقدم المؤرخ مادة يستعين بها عالم الاجتماع وفي المقابل يستفيد المؤرخ أيضا من علم الاجتماع لتحليل الأحداث التاريخية، وبهذا يشترك كل من التاريخ وعلم الاجتماع في استخدام نفس الأطر المرجعية الرسمية في دراسة نماذج المجتمع.[3]

ومن هذا المنطلق صرح أحد المفكرين قائلا: " إن تصرفات الإنسان هي موضوع دراسة التاريخ وكل ما سعى إليه الإنسان وما أقامه من نظم اجتماعية تدخل تحت هذه الدراسة" ولا شك أن العلاقة بين التاريخ وعلم الاجتماع علاقة وطيدة لا يمكن الفصل بينهما في الكثير من الأحيان. وذهب سان سيمون Saint Simon إلى نفس المنحى حين رأى أن حركة التاريخ ما هي إلا صراع الطبقات الاجتماعية التي يتأسس منها المجتمع والتي تتعارض وتتضارب مصالحها [4]، وحتى مدرسة الحوليات والتي تعتبر من أهم المدارس التي ظهرت في فرنسا أكدت من خلال أهم روادها كمارك بلوخ Marc Bloch والذي أكد أن كل تحليل تاريخي ينبغي أن يبنى على أسس التركيب الاجتماعي والاقتصادي.[5]

---

1 فهيم المرجع السابق،ص16.

2 موسوعة علم الاجتماع ص12

3 قاسم يزبك، التاريخ ومنهج البحث التاريخي، دار الفكر اللبناني، الطبعة الأولى، 1990، ص ص 63-64.

4 سيد أحمد علي الناصري، فن كتابة التاريخ وطرق البحث فيه، الطبعة الأولى، دار النهضة العربية للنشر، القاهرة 1982.، ص ص، 35، 112.

5 حسن مؤنس، التاريخ والمؤرخون دراسة في علم التاريخ ماهيته وموضوعاته ومذاهبه ومدارسه عند أهل الغرب وأعلام كل مدرسة وبحث في فلسفة التاريخ ومدخل إلى فقه التاريخ، دار المعارف، 1984 ص 185.

وحسب ما أوردنا سابقا فإن التاريخ وعلم الاجتماع يكملان بعضهما البعض وإذا كان البعض يعرف علم الأنثروبولوجيا على " أنه التاريخ الطبيعي للجنس البشري للإنسان" فهو إذن علم الإنسان على مختلف الأصعدة[1] ،وبذلك اعتبرت الأنثروبولوجيا أشد العلوم قرابة للتاريخ لأن هذان العلمان يتعرضان لمشاكل واحدة، وقد رأينا سابقا كيف أن هذه الأخيرة تعتمد بشكل كبير على علم الآثار، وفي الوقت نفسه تتناول المسائل التاريخية عندما تحاول دراسة التطور البشري ودراسة نشوء الثقافات والحضارات والبنى الاجتماعية.[2]

لكن لا يتفق كل الباحثين الأنثروبولوجين على نفس الموقف فهناك فريق آخر رأى وجود قطيعة بين التاريخ والأنثروبولوجي ا امتدت إلى غاية الخمسينيات من القرن العشرين، مبررين ذلك أن الكثير من الحضارات هي تقليدية "لا تاريخ لها"، "أو خارجة عن نطاق الخطاب التأريخي الأوروبي" وقد يكون للنزعة الاستعمارية دخل في هذا التوجه الأيديولوجي.[3]

وثمة البعض من المفكرين أمثال كارل بوبر Karl Popper الذين يؤكدون وجود هذه القطيعة –بين التاريخ والأنثربولوجيا– ليس لعلاقة سببية فحسب لكن بسبب عقم "التاريخ" أساسا، حتى أن بوبر أصدر كتابا عنونه "عقم المذهب التاريخي" نفى فيه كل ارتباط بين العلوم الاجتماعية والتاريخ.[4]

في نهاية القرن التاسع عشر عندما كانت الفلسفة والتاريخ يملآن الساحة العلمية الخاصة بتفكير الإنسان والحياة الاجتماعية كان علم الاجتماع يحاول أن يخطو خطواته الأولى باحثا عن مكانة له في الجامعات خاصة الفرنسية وكان إميل دوركايم من الأوائل الذين أسسوا ركائز لهذا العلم الجديد.

ويؤكد الكثير عكس التيار الأول على أهمية الأحداث التاريخي ة بالنسبة للباحث الأنثروبولوجي والتي تعتبر مصدرا مهما للتجارب التي يمكن الاستفادة منها عند

---

[1] فريد بن سليمان، مدخل إلى دراسة التاريخ، مركز النشر الجامعي، تونس، 2000، 127.
[2] الناصري، المرجع السابق، 228.
[3] بن سليمان المرجع السابق، ص 128
محمد عبده محجوب، الاتجاه السوسيوأنثروبولوجي في دراسة المجتمع، وكالة المطبوعات، الكويت ، ص 102.

محاولته تحليل الظواهر [1]، ويذهب البعض الآخر إلى أن هذا الباحث يجب أن يكتب التاريخ من داخل المجتمع المدروس وأن يكتبه كذلك من الخارج إذ ينظر الباحث لنفس المجتمع من الخارج.

ويبدو أن الكثير من الباحثين السوسيولوجيين والأنثربولوجيين أمثال كلود ليفي ستروس يرون أن التاريخ لا يتعارض مع الكثير من فروع الأنثربولوجيا كالإثنولوجيا والإثنوغرافيا وهذا من منطلق أن القوانين الاجتماعية ما هي إلا قوانين تاريخية وربما أمكننا من خلالها الاستشراف والتنبؤ للمستقبل.[2]

ومهما يكن فإنه في منتصف الستينيات من القرن العشرين ظهر تقارب بين التاريخ والأنثربولوجيا جراء الظروف والتحولات التي عرفها العالم والتي أدت إلى البعث والتجديد [3] في هذين العلمين إذ أدرك علماء الأنثربولوجيا بشكل جلي أنه لفهم حاضر المجتمعات المدروسة أنثروبولوجيا لا مناص من معرفة ماضيها ومعرفة ذاكراتها الجماعية، وأصبحت تدرس حتى المجتمعات المتقدمة، وظهرت فروع جديدة مثل الأنثربولوجيا الاقتصادية والأنثربولوجيا السياسية، والأنثربولوجيا القانونية، وعلى صعيد آخر لا ننسى أن لمدرسة الحوليات دور مهم في هذا التقارب بين العلمين بعدما أعطت نفسا جديدا للتاريخ ولم يصبح "تاريخ الحرب" أو "تاريخ الملوك" أو ما يطلق عليه التاريخ الكلاسيكي، بل تاريخا جديدا أصبح يستعين بالعديد من العلوم المساعدة لتحليل الأحداث التاريخية.[4]

[1] الشماس، المرجع السابق، ص 127.
[2] محجوب، المرجع السابق، ص 101.
3 فرنسوا دوس، التاريخ المفتت من الحوليات إلى التاريخ الجديد، ترجمة محمد الطاهر المنصوري، مراجعة جوزيف شريم، الطبعة الأولى، بيروت، 2009، ص 9.
4 بن سليمان، المرجع السابق، ص ص 128-129.

المبحث الثاني: التحديد الجغرافي لإقليم الشرق الجزائري:

عرفت الجزائر خلال الفترة الاستعمارية الكثير من الدراسات الأنثربولوجية، وكان الشرق الجزائري محل اهتمام الكثير من الكتاب الفرنسيين، وانصب الكتاب الأنثروبولوجي ون الفرنسيون لدراسة المجتمع في الشرق الجزائري لعدة اعتبارات منها أهمية وخصوصية هذا الإقليم بالمقارنة مع الأقاليم الأخرى من الجزائر في الجانب الطوبوغرافي، الاقتصادي، والسكاني، وتمتد حدود إقليم الشرق الجزائري خلال الفترة الاستعمارية المدروسة من البحر الأبيض شمالا إلى مدينة ورقلة جنوبا ومن عمالة الجزائر غربا إلى الحدود التونسية شرقا [1]، وقد قسمت السلطات الاستعمارية الفرنسية عمالة قسنطينة سنة 1879 إلى ست دوائر إدارية وهي:

- عنابة (Bone).
- بجاية (Bougie) .
- قسنطينة.
- قالمة.
- سكيكدة (Philippeville).
- سطيف.[2]

وتضم أربع قسمات عسكرية وهي:

باتنة، عنابة، قسنطينة، وسطيف [3]، بلغ عدد سكانها سنة 1880 حوالي 1141939 *موزعة بين 59333 فرنسي و 8950 يهودي و 25998 أوروبي و 1037668 من

1Charles Gouillon, Annuaire général de l'Algérie, année 1880, imprimerie Pézé & Cie, Rue de la Casbah, 4 Alger, 1880, p 351.

[2] ف.أكاردو، معجم قبائل ودواوير الجزائر، مرفق بخارطة قبائل ودواوير الجزائر، تحت إشراف لومي ردي فيلر، ترجمة حمزة الأمين يحياوي، مالك بن خدة، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، طبعة خاصة 2015، ص 9.

* وردت في الكتاب على أنها 1141939 نسمة بينما المجموع الصحيح هو 1131949 نسمة.

3 Gouillon, Op.cit. 351.

4 أنظر الملحق رقم 1

الجزائريين[1]، وحسب إحصاء سنة 1881 فقد بلغ عدد سكان إقليم الشرق الجزائري حوالي

1174002 نسمة[2]، أما الإحصاء الذي أعدته السلطات الاستعمارية عشية اندلاع الثورة التحريرية بتاريخ 31 أكتوبر 1954 فقد قدر عدد سكان مقاطعة قسنطينة بحوالي 3424217 نسمة[3] في مساحة تبلغ حوالي 12735513 هكتار موزعة على 49 بلدية كاملة الصلاحيات تضم 81 فرعا بلديا، و 18 بلدية مختلطة تضم 150 فرعا بلديا.

ويمكن أن نقسم مقاطعة قسنطينة إلى أربع مناطق متباينة جغرافيا من الشمال إلى الجنوب:

- المنطقة الساحلية.
- المنطقة الوسطى أي منطقة الهضاب العليا.
- المنطقة شبه الصحراوية الجبلية.[4]
- المنطقة الصحراوية.

وعلى كل حال فإن هذا التباين الطبيعي أثر على الجانب البشري في توزيع السكان وكثافتهم من الشمال إلى الجنوب ولسنا هنا بصدد التفصيل حول الخصائص الجغرافية لإقليم الشرق بقدر محاولتنا إبراز تأثيرها على الخصوصية السكانية.

ومهما يكن من أمر فإن تناول الكتاب الفرنسيين للخاصية السكانية والمجتمع الجزائري خلال الفترة الاستعمارية كان يتركز على عنصر العرق فقد كانت الوثائق والتقارير الأولى التي أعدتها الإدارة الاستعمارية تتصل بالحياة الاجتماعية والاقتصادية مما لها من أهمية لدى الإدارة الاستعمارية منذ الفترة الأولى لاحتلال الجزائر، وتؤكد إحدى المذكرات التي

---

2 Ernest Mercier, L'Algérie et les questions algériennes, etude historique, statistique et économique, Callamel Ainé, Paris, 1883, p 138.

3 Documents Nord-Africains, Etudes sociales Nord Africaines, Document N° 214 février 1956, 7eme Année, 6 Rue Barye Paris 17e. pp 1-2.

4 André Nouschi, Enquête sur le niveau de vie des populations rurales constantinoise, de la conquête jusqu'en 1919, Edition Sedia, Algérie, 2010, p 59.

عثر عليها الأستاذ ناصر الدين سعيدوني بأرشيف وزارة الحربية الفرنسية بفانسان والتي ترجع لتلك الفترة المتقدمة للاحتلال الفرنسي أي بعد سنة 1839 أن المجتمع في الشرق الجزائري قد صنف على أساس عرقي بل وطائفي، وضمت هذه الوثيقة إحصاء مفصلا وشاملا لقبائل الشرق الجزائري، والأكيد أن معظم الكتابات الفرنسية قد صنفت سكان إقليم الشرق وفق أحكام وإيديولوجية استعمارية الغرض منها المساس بالسكان الجزائريين.[1]

ولو رجعنا أيضا إلى مختلف الدراسات التي قامت بها الإدارة حول الجانب الديموغرافي لشدنا التقسيم العرقي والقبلي في إحصاء السكان ويكفي أن نعود إلى "الجدول العام"" Tableau général d'Algérie الذي كانت تصدره الحكومة العامة بالجزائر لنقف على ذلك بشكل بين ولا يقتصر ذلك على مقاطعة قسنطينة فحسب بل المقاطع تين الأخريين الجزائر ووهران. على الشكل الآتي:

1 فرنسيون 2- يهود مجنسون 3- رعايا فرنسيون(عرب، قبائليون، ميزابيون) 4- تونسيون ومغاربة 5- جنسيات مختلفة.[2]

ومهما يكن من أمر فإن مثل هذا التقسيم هو وليد النظرة الضيقة للمجتمع الجزائري من لدن الفرنسيين ومن جهة أخرى فإن الإدارة الاستعمارية في الجزائر أحصت جميع القبائل المنتشرة في الجزائر حسب الأراضي التي تستغلها وهذا طبعا من خلال رسم خرائط تبين تواجدها في إقليم الشرق.[3]

---

1 ناصر الدين سعيدوني، مذكرة حول إقليم قسنطينة ، Notice sur la province de Constantine sans nom d'auteur sans date postérieure a 1839 مجلة الأصالة عدد 70-71 جوان جويلية 1979، مطبعة البعث قسنطينة الجزائر، ص ص5،3.

2 Gouvernement general de l'Algérie, Tableau général des communes de plein exercice mixte et indigènes des trois départements de l'Algérie, Imprimerie P. Fontana et Cie, Alger, 1892, pp 132-206.

3 أنظر الخريطة المرفقة (الملحق رقم 2).

الفصل الثانـي

المجتمع الجزائري في الكتابات الأنثربولوجية العسكرية الفرنسية.

1 المبحث الأول : الأنثربولوجيا واللجنة العلمية لاكتشاف الجزائر.
2 المبحث الثاني : الكتابات الأنثروبولوجية العسكرية والمرأة الجزائرية.

كتب رئيس الجمعية التاريخية الجزائري ل.بيربروجر،L.A.Berbrugger*" في مدخل العدد الأول من المجلة الإفريقية Revue Africaine، أن الفرنسيين منذ استعمارهم للجزائر سنة 1830 شرعوا في إدخال نظمهم العلمية الأدبية والفنية، أما الدراسات التاريخية فنجد الأثر الوحيد في هذا المجال يكمن في قرار 16 ديسمبر 1831 الذي أذن فيه الجنرال "بيرتزين P.Berthezene"** للسيد "شيافي Sciavi "–الذي يزعم أنه عالم للآثار بينما كان من الذين يجمعون الآثار القديمة ويبيعونها بأثمان طائلة– أن يقوم بمجموعة من التنقيبات في المنازل والحدائق العامة.[1]

ومن هنا اتجه الفرنسيون للبحث في ثلاث مجالات وهي:

- نشر الآثار القديمة عن الجزائر.
- تكوين الجمعيات المختصة، والصح ف والدوريات التي تحفظ الاكتشافات التاريخية وتعرف بها.
- إنشاء اللجان العلمية.

ففي المجال الثاني، كانت الدراسات التاريخية بحاجة إلى عنصر مهم، وهي الصحافة الدورية، والمتمثلة في المجلات التي لعبت دورا في نشر الأبحاث العلمية التي أجريت في الجزائر [2]، وسوف يأتي لاحقا استعراض بعض النماذج التي تناولت الجانب الأنثربولوجي.

والمجال الذي يهمنا أكثر الآن هو "إنشاء اللجان العلمية" فاللجنة الإفريقيةة التي زارت الجزائر أنهت تقريرها بمحاضر غنية عن الجزائر في المجالات الاقتصادية

---

* لويس أدريان بيربروجر، مستشرق فرنسي مؤرخ،عالم بالخطوط و الآثار (1801-1869) قدم إلى الجزائر سنة 1834 كسكرتير لكلوزيل، صاحب الأعمدة العسكرية الاستكشافية في الأرياف و كان يجمع الأرشيف الخاص والعمومي، كان أول محافظ للمكتبة الوطنية،أنظ ر: Annie- Rey Goldzeiger le Royaume Arabe , SNED, Alger1977, p757.

** بيار بيرتزين، ولد سنة 1780 في بروفانس شارك في غزو الجزائر كقائد للمشاة،منح له وسام جوقة الشرف 1830 ثم عين كبديل للجنرال كلوزيل سنة 1831، أنظر Joseph Marie Quérard, La littérature française contemporaine XIXe siècleT1.Paris, Imprime, Béthune et Plon, 1842, pp, 380-381.

[1] A.Berbrugger, Introduction, (R.A) Vol N°1 année 1856, Alger A. Jourdan, Libraire-Éditeur.p 4.

[2] A.Berbrugger, Loc.cit.p.4.

والاجتماعية[1]، كما أسست وزارة الحرب سنة 1837 اللجنة التي قررت البدء تحت عنوان Exploration scientifique de l'Algérie "الاكتشاف العلمي للجزائر" فنشرت سلسلة من المؤلفات والمطبوعات تخص العلوم الطبيعية وعلم الآثار والفنون الجميلة والتاريخ والإثنوغرافيا[2]، كما قام العديد من الباحثين العسكريين بنشر أعمالهم في التاريخ المحلي، اللهجات، الطرق الصوفية والنظم، وطبائع السكان، والزوايا والحياة القبلية، وكانت السلطة الفرنسية تتكفل بنشر هذه الدراسات التي تزكيها هذه "اللجان العلمية"، ومن بين أهم أعضائها البارزين نجد أدريان بيربروجر L.A.Berbrugger، و A.Carette[3] كاريت، Pellissier de Reynaud[4] وبيليسيه دي رينو وبعض الشخصيات السانسيمونية أمثال Barthélemy Prosper Enfantin[5] أونفنتان و Warnier وارنييه.

المبحث الأول : الأنثربولوجيا واللجنة العلمية لاكتشاف الجزائر:

كما رأينا آنفا فقد نشرت هذه اللجنة العديد من المؤلفات تحت وصاية وزارة الحرب بقيادة العقيد جون باتيست بوري دي سان فانسان Jean Batiste Bory de Saint Vincent التي أصدرت ما يقارب 39 التسعة والثلاثون مجلدا ضمت المجلدات

---

[1] سعد الله، أبحاث وأراء، المرجع السابق، ص14.

[2] Alazard, E.Albertini, A.Bel, F.Braudel, GEsquer, E.F.Gautier, Dr E.Leblanc, G.Marçais, P.Martino, M.Morand, M.Reygasse, Ch.Tailliart, G. Yver, J.Zeiller, Introduction de Stéphane Gsell, histoire et Historiens de l'Algérie, (1830-1930), Collection du Centenaire de l'Algérie, IV Archéologie et Histoire, Felix.Alcan, Paris p.7.

[3] هو انطوان أرنست هيبوليت كاريت، ولد في 1808دخل إلى المدرسة المتعددة التقنيات 1828، وساهم مساهمة فعالة في ثورة جويلية 1848، ثم انضم إلى الهندسة العسكرية للجيش الفرنسي شارك في عدة حملات في الجزائر، قام بالعديد من الأبحاث التاريخية التي تخص أفريقيا القديمة، شارك في النقاشات التي تخص مسألة الجزائر أنظر: Vapereau,Op.cit.p.360.

4 هو بيليسيي دير ينو (هنري-جون-فرنسوا-إيدموند) ولد نحو 1800، ودخل المدرسة العسكرية سان سير، ثم عين كضابط ملحق في هيئة الأركان العامة لغزو الجزائر، ثم قائدا للمكتب العربي للجزائر العاصمة من سنة 1833 إلى 1835 من أهم مؤلفاته كتاب حوليات جزائرية " Annales Algériennes" أنظر: Narcisse Faucon, , Le livre D'Or de l'Algérie,(Histoire politique, militaire, administrative, événement et Faits principaux, biographie des hommes ayant marque dans l'armée, les sciences, les lettres,ect.de1830 a 1889) Tome 1,Challamel et Cie éditeurs, librairie Algérienne et coloniale 5,rue Jacob, et Fürstenberg, 2,Paris 1889 p 446.

5 بارثيلمي بروسبير أونفنتان، Berthélemy Prosper , Enfantin من أهم مؤسسي السانسيمونية ولد بباريس في 8 فيفري 1796 وتوفي في 31 ماي 1864، أنظر:Vapereau,Op.cit.p XXIII

الخمسة الأولى دراسات حول منطقة القبائل لكاتبها العسكري أرنست كاريت ذلك السان سيموني الذي أوكلت له مهمة إنشاء جمعيات ومؤسسات علمية في الجزائر وتقديم الدعم لها، ولعل هدفها يكمن حسب المنظور الاستعماري الفرنسي في "تقديم صورة حقيقية عن الجزائر".[1]

وقد منح احتلال الجزائر للكتاب الفرنسيين أعمالا جديدة فرضت نفسها عليهم، من منطلق معرفة الماضي كضرورة لمعرفة الحاضر، فتساءل هؤلاء بادئ الأمر عن أصول السكان الذين اصطدموا بهم، وكيف تشكلت عاداتهم ومؤسساتهم ومجتمعاتهم ومعتقداتهم، لذلك كثرت المؤلفات الفرنسية التي اهتمت بالإجابة عن أصل السكان أي الأثنوغرافيا، وتساءل هؤلاء أيضا عن الأمثلة والعبر التي يمكن استخلاصها من دراسة الاحتلال الروماني للمنطقة، الذي بدأ قويا إذ تمكن من فرض نفسه بالقوة على السكان ولكن تبعه تقهقر كبير ثم تلاش وزوال.[2]

ومنه فإن دافع الفرنسيين في كتابة تاريخ الجزائر يكمن حسبهم في التعرف على هذا الشعب المغلوب تحت رحمة الحضارة الأوربية، بالإضافة إلى دافع السيطرة والاحتلال، ولا يمكن أن يكون إلا بجمع الآثار المكتوبة وغير المكتوبة وتقييمها واستخلاص النتائج منها بالإضافة إلى دافع الفضول العلمي الذي انبثق عنه ما يسمى بالاستشراق [3] الذي كانت مهمته التعرف على الآخر، وقد أشرف على هذه الحركة الفرنسية مجموعة من المستشرقين كان منهم الموضوعيون، ومنهم المادحون

1 Patricia M. E. Lorcin, **Kabyles, Arabes, Français : Identité coloniale**, traduit par Loïc Thommeret, Presses universitaires de Limoges, p 62.

2 Alazard, et al, Op.cit.p 2.

3 إن السين في كلمة الاستشراق تفيد طلب دراسة ما في الشرق، وهو حب الأشياء الشرقية كما أن المستشرق هو العالم باللغات الشرقية، و الذي يأخذ معارفه من مصادر الشرق، وهنا يمكن تعريفها كحركة علمية تهتم بدراسة كل ما يتعلق بالشرق و حضارته من قوى روحية وآثار فكرية وأدبية وفنية، أنظر: محمد العربي معريش الاستشراق، الفرنسي في المغرب العربي من خلال المجلة الأسيوية الفرنسية(1822-1872) أطروحة لنيل شهادة دكتوراه دولة في تاريخ الحديث والمعاصر2007/2006، ص26.

ومنهم المنتقدون والمشوهون للإسلام والمسلمين.[1]

الواقع أن إسهام الفرنسيين في كتابة تاريخ الجزائر عموما والأنثربولوجيا بصفة خاصة جسدها أول الأمر الكتاب العسكريون في الخمسين سنة الأولى من الاحتلال 1830–1880 والتي غالبا ما جاءت على شكل مذكرات شخصية و تقارير رسمية سجلها القادة العسكريون.

لقد ظهر مجموعة من الفرنسيين لدراسة الجانب الأنثربولوجي للجزائر، بالرغم من تعليمهم ومهنهم التي كانت بعيدة كل البعد عن هذا المجال، إلا أنهم استطاعوا حسب ما أورده"ستيفان غزال Stéphane,Gsell*" ؛ "أن يبرهنوا على أنهم علماء وليسوا هواة، وعلى أنهم ذوو قيمة عالية بمعارف مستطردة، ولهم روح الواقع، والدقة والذكاء الحي والحكم الأكيد"، كما أضاف قائلا: " أنه لا يمكننا حصر الخدمات التي قدمها هؤلاء المتطوعون"، وكان منهم خاصة الضباط العسكريون أو التراجمة العسكريون والمستشرقون[2] الذين استغلوا التقارير الرسمية التي تأتيهم بالإضافة إلى الوثائق المختلفة التي وجودوها خلال عمليات الغزو لكتابة تاريخ الجزائر أو على الأقل ما كتبوه في مختلف الجوانب بحكم النظام العسكري الذي طبق في الجزائر

[1] مر الاستشراق الأوربي وحتى الفرنسي بمرحلتين مهمتين: الاستشراق الذي ظهر في العصور الوسطى قبل وبعد طوماس الاكويني يريد اكتشاف العالم الإسلامي، أما المرحلة المعاصرة، فهي المرحلة الاستعمارية كان فيها الاستشراق في خدمة الاستعمار، أنظر: مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين، وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، دار الإرشاد للطباعة النشر و التوزيع، بيروت، ط 1، 1969،ص ص،8-9.

* ستيفان غزال ولد بباريس يوم 7 فيفري 1864، من عائلة ألزاسية بروتستانتية، انتقلت إلى سويسرا،دخل إلى المدرسة النورمالية في 1883، تخرج منها سنة 1886 بالمرتبة الأولى لتدريس التاريخ، كان ميلا للتاريخ القديم فانظم إلى المدرسة الفرنسية في روما، ثم تخصص في دراسة تاريخ القديم لإفريقيا الشمالية ثم كلف لتقديم الدروس في علم الآثار في مدرسة الآداب بالجزائر العاصمة، ثم عين في كرسي إفريقيا العصور القديمة، له عدة إسهامات في المجلة الإفريقية خاصة الفترة الرومانية وله عدة مؤلفات منها: التاريخ القديم لإفريقيا الشمالية والنقوش اللاتينية في الجزائر...ألخ توفي سنة 1932، أنظر: E. Albertini, Stéphane Gsell (1864-1932 N° 73(O.P.U) Alger1986 (R.A)،pp, 20-21 1932) 24,49.

2 Alazard, et al, Op.cit.pp, 7-8.

منذ الاحتلال.[*]

ظهرت في العديد من الكتابات الفرنسية في عهد الكتاب العسكريين بعض الومضات الأنثربولوجية خصت العناصر البربرية فقد رأى الجنرال دوفيفيي Duvivier في كتابه "حل للمسألة الجزائرية" Solution sur la question de l'Algérie" أن هناك عناصر متمايزة في الجزائر وهي "العنصر العربي" و"العنصر القبائلي" من جانب أنثربومتري أي فيزيولوجي فكتب في فصله التاسع والخمسون المعنون بـ " القبايل Des Kabaïles ": "القبايل مقارنة بالعرب لهم خاصية مهمة وجب وضعها حيز الاستخدام ...القبايل هم بطبعهم مستقرون أساسا... ولا يرغبون في الطاعة والخضوع ... وبطبعهم يعادي القبايل العرب ، ويعتقد هؤلاء أنهم متفوقون على العرب...القبايل يحبون العمل لهم حرف وورشات".

وانتقل هذا الكاتب العسكري إلى تقديم وصف للعربي ورأى أن له طابعا مغايرا للقبائلي فهو شخص ذو نقص خلقي عقلي ومهني إذ يخبرنا في كتابه قائلا: " العربي على العكس من ذلك يبغض عمل الأرض... ومن الواضح أن استقرار القبايل وحب هذه العناصر للعمل ينبغي أن يكون محورا سياستنا لاستقرارنا ونجاحنا في إفريقيا" [1]، وركز هؤلاء الكتاب العسكريون على منطقة القبائل بالدرجة الأولى لأنها منطقة جبلية صعبت توغل الفرنسيين فيها، وفي سنة 1847 صدر كتاب آخر لعسكريين آخرين العقيد دوماس Daumas والنقيب فابار Fabar والذين ركزا أيضا على منطقة القبائل فأرادا أن يبينا مدى سطحية إسلام سكان منطقة القبائل فكتبا في الصفحة 76 ما يلي: " دعونا نمر لتحليل الخصائص والقوانين الاجتماعية، فبينما يتمسك المسلمون في العالم بالقرآن حيث يتقيد هؤلاء بأصغر التفاصيل التي تسير

---

[*] لقد طبق في الجزائر منذ الاحتلال الحكم العسكري فكان الجيش هو السلطة القوية المسيرة للبلاد من إدارة الحاكم العام العليا إلى إدارة المكتب العربي القاعدية فكان القادة العسكريين هم أصحاب الكلمة الأخيرة، وهي فترة إخضاع الأهالي من خلال سياسية الإبادة والتقتيل لبسط السيطرة الفرنسية في الجزائر، وأستمر إلى غاية 1871، حيث تم استبداله بالحكم المدني أنظر: شارل روبير أجيرون- تاريخ الجزائر المعاصرة- ترجمة عيسى عصفور- منشورات عويدات- بيروت باريس. الطبعة الأولى 1982، ص ص 35-36. وأنظر:سعد الله،الحركة الوطنية(1860-1900)، ص 57.

1 Le général Duvivier, **La solution sur la question de L'Algérie**, Imprimerie et librairie militaire De Gautier-Laguionie, rue et passage Dauphine, 36, Paris 1841.pp153-154.

حياتهم، فإن القبائليين كاستثناء يراعون قوانين ورثوها من أسلافهم تعود إلى عهود قديمة فيما يخص الكثير من النقاط المهمة كقمع السرقة والقتل وغيرها وهذه القوانين لا تتفق مع أحكام القرآن، ويبدو أنهم يميلون إلى قوانينن ا الجزائية، هذه التشريعات التي مازالت تحتفظ باسمها الذي يغطي أصلهم المسيحي"ويسجلان في كتابهما أيضا "أن المجتمع القبائلي جزء منه أصلي وجزء منه جرماني كان في وقت سابق مسيحيا كاملا ولم يتغير كثيرا في دينه الجديد".[1]

ومهما يكن فإن هذه الكتابات تناولت من زاوية أنثربولوجية مسألة استمالة العناصر البربرية وأشار المؤرخ شارل روبير آجرون إلى وجود سياسة بربرية فرنسية تعود أصولها إلى البدايات الأولى للاحتلال.[2]

وتطبيقا لهذا التصور فإن العناصر البربرية وفق هذه الإشارات الأنثربولوجية تختلف عن العرب، وبهذا فقد عبر هؤلاء الفرنسيون عن وجود سهولة في فرنسة وإدخال هذه العناصر في بوتقة الحضارة الفرنسية.

وتعتبر كتابات كاريت Carette الذي كان عضوا في اللجنة العلمية خلال السنوات 1840-1841-1842[3]، من بين أهم المؤلفات التي اهتمت بالجانب الأنثربولوجي للجزائر، وجاء في كتاب "وصف وتقسيم الجزائر"" Description et division de l'Algérie" الذي ألفه بمشاركة وارنيي Warnier**[4] تعليلا لتقسيم القبائل في الجزائر إلى مجموعات وهذا بسبب اختلاف الظروف التي أرجعها خاصة إلى تأثير العوامل الطبيعية، أو السياسية أو كلاهما ؛ ووفق هذا المنظور فإن القبائل تنقسم إلى ثلاثة أنواع:

---

1 M.Daumas, M.Fabar, **La grande Kabylie, études historique**, Imprimerie, CH. Monginot, Alger 1847, pp76-77.

2 شارل روبير أجرون، تاريخ الجزائر المعاصرة من انتفاضة 1871 إلى اندلاع حرب التحرير 1954، المجلد الثاني، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، طبعة 2013، ص 218.

3 Faucon, Op.cit.pp137-138.

** طبيب جراح من دعاة السان سيمونية، ولد سنة 1810 بفرنسا، تعلم اللغة العربية عاش في وسط القبائل، أصبح سنة 1840من أعضاء اللجنة العلمية، قام بمجموعة من الأبحاث في الشرق الجزائري، أنظر:Goldzeiguer, le Royaume, Op.cit.p.783

4 Carette et Warnier, **Description et division de l'Algérie**, imprimerie de A.Guyot, rue Neuve des Mathurins, 18.1847. p.5.

- القبائل المستقرة.
- القبائل الرحل.
- القبائل المزدوجة.

فالقبائل المستقرة" Tribus Sédentaires" هي "عامة التي تسكن وتجوب نفس الإقليم وتمتهن الزراعة " واستدل كاريت بسكان منطقة القبائل وقدم أمثلة عن المناطق الداخلية والكتل الجبلية من الجزائر التي تضم هذا النوع من هذه القبائل كقبائل الشاوية في جبال الأوراس التي كان بعضها يسكن القرى ويزرع الفواكه ؛ أما بعضها الآخر فيسكن الخيام ويزرع الحبوب، والقارئ المتأني لهذا الكتاب سيشده تركيز المؤلف على توزيع القبائل في الجزائر.[1]

وقد تضمن كتاب، "الجزائر l'Algérie"، الذي اشترك كاريت مع النقيب روزي Rozet في تأليفه سنة 1850، دراسة عن الجزائر من جميع الجوانب كالتاريخ والجغرافيا، الآثار ووصف سكان الجزائر وديانتهم، عاداتهم وتقاليدهم؛ وأشار هذا العسكري إلى أن سكان الأوراس أي "الشاوية" قد استطاعوا العيش بعيدا عن سلطة الأتراك وانعزلوا عنها في جبالهم ويضيف كاريت " أن لهؤلاء عادات دائمة مختلفة تماما عن تلك التي تميز العنصر العربي، وأينما وجدوا نراهم منفصلين عن الباقي.[2] ويبدو من خلال هذه الدراسة أن كاريت يذهب إلى اعتبار العنصر البربري بمثابة وحدة بشرية مختلفة ومنفصلة عن العرب وبذلك فهو ينفي وجود مجتمع واحد في الجزائر.

وفي اعتقادنا أن وجود عناصر بشرية متعددة في إقليم واحد لا يعني عدم وجود تجانس وترابط بين هذه المجموعات وربما ينطبق ذلك على فرنسا ذاتها.

ومن جهة أخرى اعتبر كتاب "Origine et migration des principales tribus de "l'Afrique septentrionale et particulièrement de l'Algérie" من أهم الأبحاث التي تناولت مختلف قبائل الجزائر [3]، فقد كان كاريت

[1] Rozet et Carette, **l'Algérie**, Imprimeur de l'institut, rue Jacob, 56, Paris, 1850. pp.20-21.
2 Rozet et Carette, Op.cit.pp.203, 221.
3 Alazard, et Carette, Loc.cit.p.8.

من الفضوليين لمعرفة عادت الأهالي وتاريخهم والآثار الموجودة في البلاد [1]، وقد حدد توزيع وتواجد مختلف القبائل في الجزائر وخاصة في مقاطعة قسنطينة حيث تتواجد قبيلتي زناتة وهوارة، واعتمد في ذلك على الإدريسي وابن خلدون [2] ثم رأى أن جبال الأوراس تضم أهم المجموعات من هاتين القبيلتين.[3]

لقد حكم كاريت على الجزائر من خلال كتاباته بأنها تعيش فترة العصور الوسطى التي مرت بها فرنسا قبل توحدها لغويا، مسقطا ذلك على الجزائر فهي مقسمة بين تلك الناطقة بالعربية والأخرى الناطقة باللغة البربرية نافيا بذلك وجود أمة واحدة. فتكون الجزائر بالنسبة إليه مجرد "Des Provinces " مقاطعات قبائلية (بربرية) وعربية، وبعد سلسلة دراساته التي كتبها عبر مهماته استنتج أن القبائليين أقرب للفرنسيين من العرب الذين يبقى إدماجهم ضئيلا جدا[4]، فهل يتلخص محتوى مؤلفات العسكريين الفرنسيين بـ "قبائل جيدون" و"عرب سيئون"؟

قبل الإجابة لعل الأجدر بنا أن نتساءل قبل ذلك عن حقيقة وجود سياسة عسكرية اتجاه البربر تحت غطاء علمي في لدن هذه الكتابات، وسنحاول إبراز ذلك من خلال تقديم بعض الأمثلة.

وفي الإجابة عن التساؤل الأول نعتقد أن هناك فعلا محاولة لضرب المجتمع الجزائري من خلال استمالة "البربر" من قبيل "المسألة البربرية"، ولكي لا تكون إجابتنا متسرعة غير مثبتة يكفي أن نشير إلى تناول أعمال العسكريين الفرنسيين للكثير من المسائل المتعلقة "بالبربر" كلغة سكان منطقة القبائل وأصولهم التي أصبحت في مصاف النقاشات العلمية التي هدفت إلى خدمة السياسة الاستيطانية وكان من توصيات هذه الكتابات إمكانية الاستعانة بالسكان المستقرين لتوسيع الاحتلال الفرنسي في الجزائر.[5]

1 Julien, Op.cit. 354.
2 Carette, Op.cit.p.126.
3 Ibid, p .138.
4 Lorcin, Op.cit, p 66.
5 Ibid. p 74.

وتجدر الإشارة إلى أن هؤلاء الكتاب وبالرغم من بعدهم عن مجال الانثربولوجيا إلا أن أعمالهم الميدانية مكنتهم من الاحتكاك المباشر بمختلف الظواهر الاجتماعية التي ألفوا عنها أو على الأقل كانوا قد أشاروا إليها وكان نتاج هؤلاء لا يعدو أن يكون دراسات أو "أدبيات"عنصرية.

وحسب ما ذكرناه فإنه خليق بنا أن نقف على بعض المؤلفات التي تنتمي إلى عهد الكتاب العسكريين 1830–1880 الذين يحسبون على المدرسة الاستعمارية الفرنسية الكلاسيكية في كتابة تاريخ الجزائر وذكر أبرز ما جاء فيها في الجانب الأنثربولوجي ونورد أهم مثال عن ذلك: " كتاب تعاليم حول أنثربولوجية الجزائر، اعتبارات عامة " للجنرال فيدرب* Général Faidherbe

" Instructions sur l'anthropologie de l'Algérie, considérations générales instructions particulière par le Docteur Paul Topinard والذي صدر سنة 1874 والذي يقع في 63 صفحة وهو التقرير الذي ألقي على الجمعية الأنثربولوجية بباريس في جلستها بتاريخ الخامس من جوان سنة 1873.[1]

عرض الجنرال فيدرب في بداية هذا الكتيب الأصول العرقية للشمال الإفريقي ولم يخرج عن الحدود الضيقة لتلك النظرية القائلة بأن المجتمع المغاربي هو وليد غزو وهيمنة مختلف الشعوب، واستغل كغيره من الكتاب العسكريين الفرنسيين غياب الوثائق التاريخية لخلق نظريات واهية تبرر أصول "البربر""الأمازيغ"، فتبدو النزعة

* هو لويس ليون سيزار فيدرب جنرال فرنسي ولد بمدينة ليل الفرنسية سنة 1818 تخرج من مدرسة المتعددة التقنيات شارك الحملات التي استهدفت منطقة القبائل والتي استقر بها لمدة ثلاث سنوات ثم حول إلى السنغال حيث عين حاكما عليه، أصدر مجموعة من المؤلفات تخص الجزائر والسنغال خاصة في المجال اللغوي والإثنوغرافي وكان من بين مسيري الجمعية الانثربولوجية بباريس ومراسلا للمجلة الإفريقية la Revue Africaine أنظر: Vapereau,Op.cit.pp 677-678 وأنظر أيضا Lorcin, . Op,cit. p 157.

1 Général Faidherbe, **Instructions sur l'anthropologie de l'Algérie**, considérations générales, Instructions particulières par le Docteur Paul Topinard, Typographie A. Hennuyer, Paris, 1874, p 03.

الاستعمارية ظاهرة في كتابات هذا العسكري، ولعل أبرز ما يدل على هذا هو حينما كتب في الصفحة 5 قائلا:" تواجد الرجال البيض في إفريقيا في هذا المناخ التاريخي يبدو غريبا، هؤلاء البيض الذين قدموا إلى إفريقيا عبر مضيق جبل طارق من شمال أوروبا" وتأكيدا لهذه النظرية استدل بالدولمن أو المقابر الجنائزية المتواجد في الشمال الإفريقي.[1]

لقد حرص فيدرب كغيره من الكتاب العسكريين على توضيح أن "البربر" خليط من الليبيين القدماء والرجال البيض، وفي المقابل فإن العرب غزاة سيطروا على الشمال الإفريقي وأثروا في الجانب الديني والإثني بشكل كبير [2]، أما في الجزء الثاني من هذا الكتيب فإن الطبيب "بول توبينار Paul Topinard" يؤكد أيضا فرضية وجود أجناس مختلفة في الشمال الإفريقي وحسبه فإن الباحث عن السكان الأصليين وجب عليه البحث في المناطق الداخلية ليجد القبائل صافية العرق ويكتب قائلا: لجأت الشعوب المهزومة ويقصد هنا "البربر" منذ القدم إلى المناطق التي يصعب الوصول إليها فاستطاعت بسهولة الحفاظ على أصولها الإثنية عندما التجأت إلى الجبال"ويرى أن المتنقل لجبال الأوراس وجبال جرجرة سيجد حتما بقايا السكان الأصليين "البربر".[3]

وليس غريبا أن يضع هذا الطبيب تصنيفا للتنظيمات الاجتماعية وفق تصور استعماري ينفي وجود لحمة بين أبناء الوطن فيرى أن تنظيمات "البربر" ديمقراطية يتمتع الفرد فيها بجميع حقوقه، بينما التنظيمات عند "العرب" حسب تصوره فهي ارستقراطية وثيوقراطية*.[4]

---

1 Faidherbe, Topinard, Op, cit, p 5
2 Ibid. pp 6 ,8.
3 Ibid. pp 13-14.

* هي كلمة إغريقية مكون من جزئين ثيو وتعني الاهي وكراتوس التي تعني حكم، وهي نظام حكم يجمع فيه الحاكم بين السلطة الزمنية والروحية، أنظر: المعجم الوجيز، طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم 1994، ص 80.

4 Faidherbe, Topinard, Op, cit, p19.

وينفي ويستبعد الكاتبان وجود إحساس بالأمة عند "البربر" ويكفي أن نقف على إحدى التصريحات في هذا الكتاب فنجد مثلا في الصفحة 20:" لا وجود لإحساس بالجنسية عند البربري أما الوطنية فلا تتعدى عنده حدود الفرقة" وليس بعيدا عما ذكرناه سابقا يقارن الكاتبان "العرب" و"البربر" في سلسلة من المظاهر التي لا تثبت سوى وجود اختلاف بينهم، فعن إسلامهم يكتب الطبيب توبينار في الصفحة 21: "إذا كان العرب يتبعون الإسلام بحذافيره فإننا نجد فتورا في إسلام البربر" وفي جانب آخر يرى توبينار أن "البربري مُجد فكتب مصرحا: لا نجده أبدا دون عمل يقوم به وجوده هو مصدر ثروة بالنسبة لمستعمرتنا " أما العربي من جهة أخرى " فهو خامل وكسول شارد الذهن يمكن أن يبقى تسعة أشهر دون أن يقوم بأي عمل" ويواصل دائما احتقار العرب حين يكتب: "القبائلي فرد مدخر يبقي ماشيته في المأوى ويخزن أعلافها في انتظار فصل الشتاء" أما "العربي فيعيش ليومه معرضا نفسه وماشيته للمجاعة المفاجئة".[1]

ويشد انتباهنا تعصب هذا الكاتب وظهور نزعته المسيحية المعادية للإسلام والعرب حين يضيف: "يكتفي البربري بزوجة واحدة الأمر الذي نتج عنه أسرة أفضل تشكيلاً من تعدد الزوجات عند العربي... فالمرأة عند الأول هي امرأة حقا وهي ربة بيت وليست قطعة أثاث أو بهيمة كما عند الثاني" أي عند العربي، ثم قدم هذا الطبيب مقارنة أخرى أنثروبومترية بين البربر والعرب من الصفحة 25 إلى الصفحة 32 لينهي هذه المقارنة متسائلا هل تكفي هذه الفوارق الأنثروبومترية لمعرفة البربري من العربي؟ ويجيب أن وجود دراسات عن البربر متوفرة ويقصد الكتابات الإغريقية والرومانية لكنها لا تتكلم عن تواجد العرب كثيرا ومن هذا المنطلق خلص إلى القول: إن العربي لا يحس في الجزائر أنه في بلده بل إن موطنه شبه الجزيرة العربية"، ولو أراد أحد منا أن يخمن هدف هذه الدراسة سيجد القارئ دون عناء مبتغاه حيث كتب: "أنه من واجبنا الوطني معرفة البربر فالعرب لا يندمجون فورا في نمطنا الحضاري على عكس البربر الذين هم مستعدون لذلك".[2]

1 Faidherbe, Topinard, pp 20-23.
2 Ibid. pp25, 32.

ودون شك إن الكتابات الأنثربولوجية الفرنسية خلال العهد العسكري ألفت لتقديم نظريات وأطاريح أسست للمسألة البربرية" [1] ونستطيع أن نشير مثلا إلى التعبير الصريح الذي كتبه دون تحفظ: " كل شيء يقربهم منا المصالح المشتركة، تشابه المشاعر والقدرات وربما حتى وجود أصول مشتركة، ومن هذا المنظور الذي أشار إليه توبينار ولكي تكون السياسة الفرنسية الاستعمارية ناجحة يجب أن تعول على العناصر التي نعتها "بالأصيلة"، ولذلك فإنه يوصي بإقامة خريطة إثنوغرافية للجزائر في أقرب وقت خدمة للسياسة الاستعمارية الفرنسية.[2]

وفي هذا السياق آثرنا أن نشير إلى أهم المعالم الأنثروبولوجية البارزة في هذه الكتابات العسكرية التي ركزت على الجانب العرقي فاصلة بين "البربر" و "العرب" والمتتبع لهذه الكتابات سيقف على ذلك الانطباع السائد عند الفرنسيين والذي يخيم حول صعوبة التحكم في العنصر العربي لعدم استقراره وكثرة ترحاله، وأشار بعض الفرنسيين إلى أن هذا التنقل المستمر يزيد من تعصب "العربي" الذي يعيش حالة من "التشرد" تعيق تحضره، وقد رأت سلطات الاحتلال الفرنسي في ذلك خطورة وجب اتخاذ تدابير عاجلة أمامها.

ومن هذا المنطلق فقد أصبحت عملية توطين Sédentarisation العرب الرحل من أولى اهتمامات الدوائر الاستعمارية، ونقرأ في بعض المؤلفات: "لا تحضر للعرب إلا بإتباع نمط عيش على الطريقة الفرنسية" ولا يكون ذلك إلا بعملية الاستقرار.[3]

ولا غرابة أن تكمن الحلول الاستعمارية في تفكيك النظام الاجتماعي الذي كان سائدا في الجزائر بضرب القبيلة لهذا كثرت الكتابات الفرنسية الأثنولوجية التي كانت من مهام العسكريين.

---

1 هي من القضايا التي أشار إليها العديد من المؤرخين الفرنسيين كاشارل روبير آجرون وبعض المؤرخين الجزائريين كالأستاذ الدكتور بوعزة بوضرساية في كتابه : سياسة فرنسا البربرية في الجزائر 1830-1930 وانعكاساتها على المغرب العربي والذي أصدر سنة 2010 عن دار الحكمة الجزائر.

2 Faidherbe, Topinard, Op, cit, pp32 , 34,57.

3 Patricia M. E. Lorcin, **Kabyles, Arabes, Français : Identité coloniale**, traduit par Loïc Thommeret, Presses universitaires de Limoges, p 52.

وتعلق بعض الفرنسيين حينئذ بسراب عملية التحضر المزعومة حتى أن وزير الحربية دي هتوبول De Hautopoul كتب تقريرا إلى نابليون الثالث يصرح فيه: "بدأ العرب يتقبلون شيئا فشيئا مبادئ الحضارة"، وهذا يقودنا للاعتقاد أن هذه المؤلفات بقيت سجينة الإيديولوجية المبررة للاستعمار خلال الجمهورية الفرنسية الثانية.

المبحث الثاني : الكتابات الأنثروبولوجية العسكرية والمرأة الجزائرية:

إن تأكيدنا على توجهات الفكر الاستعماري الذي خص أغلب الكتابات الفرنسية عهدئذ لا يعني عدم اهتمامهم بجوانب علمية أخرى، فنجد الكثير من القضايا التي ارتبطت بالمجتمع الجزائري وكانت ظروف المرأة الجزائرية من بينها فنجد الكثير من المقابلات بين المرأة البربرية التي كانت تحظى حسب الكتاب العسكريين بحرية كبيرة تشبه تلك التي عند الفرنسيات ولا تعرف مشكل تعدد الزوجات، في حين أن المرأة العربية تعيش حياة بائسة "فهي لا تساوي أكثر من دابة".[1]

يمكن أن نجد من خلال قراءة المجلة الإفريقية في مختلف أعدادها أن المجتمع الجزائري جرد من هويته الجماعية، فالإنسا ن الأوربي هو الوحيد الذي يسير العالم وفق معاييره الخاصة وسلم مقاييسه وقوانينه، فكان عالم المرأة من خلال انتمائها إلى نظام اجتماعي أول مجال يتم نقده حين نرى أن شارل فيرو" Charles Féraud"* على سبيل المثال يسرد الكيفية البدائية التي تتنصل بها المرأة الأوراسية من علاقتها الزوجية[2]والتي تسيء إلى سكان المنطقة، ونخلص إلى مبالغة فيرو في إبراز تفشي

1 Lorcin, Op.cit, p 91.

* فيرو لورون شارل ولد بمدينة نيس الفرنسية سنة 1829 جاء مبكرا إلى الجزائر عين كعضو إضافي في الحكومة العامة للجزائر ثم أصبح عن سن يناهز التسعة عشر سنة كسكرتير مترجم للمحافظة العامة ثم عين كمترجم تابع للجيش من الدرجة الثانية شارك تقريبا في كل الغزوات الفرنسية في مقاطعة قسنطينة ، شارك أيضا في الحملة العسكرية الفرنسية ضد الشريف بوبغلة، ثم عين كملحق مترجم للعديد من الحكام العامين، له عدة مقالات في المجلة الإفريقية، وأصدر العديد من المؤلفات منها مترجمو الجيش الإفريقي،أنظر: L.Paysant , Un Président de la Société Historique algérienne, Laurent-Charles Féraud, Revue Africaine, Vol N° 55, année 1911,Alger (O.P.U), 1986, pp, 5-6-7

2 يريد فيرو أن يمس من شرف المرأة والرجل في منطقة الأوراس إذ يسرد قائلا: " تفر المرأة في الأوراس مع عشيقها عندما تنفخ القربة على غير العادة بالهواء بدل الماء وتتركها على جنب العين"، وما يقال عن المرأة الأوراسية ينطبق على الرجل حيث يضيف: " أنه إذا ضجر الرجل من زوجته وطمع في زوجة جاره يقترح التبادل مع هذا الأخير وفي حالة التفاضل يجبر أحد الطرفين على=

هذه العادات السلبية بين المجتمع الأوراسي، إذ أن الوسيلة التي تفسر هجرة المرأة زوجها تثبت حسب رأي الفرنسيين أنها تبحث عن الخلاص في ظل عدم وجود قواعد أخلاقية تنظم هذه المجتمعات التي رأوا أنها مجتمعات مختلفة منفصلة عن باقي سكان الجزائر المسلمين.[1]

ويلاحظ كذلك [2]من خلال المقارنة التي قام بها فيرو C.Féraud* أن المرأة في الأوراس هي عامل من عوامل التخلف المتعددة الأخرى في هذا المجتمع، كما أن هذه الأعراف أفِلت في ظل القوانين الجديدة التي استحدثها الفرنسيون "قوانين مكتوبة" وأصبحت ممارسات التبادل والشرف والقواعد الجارية المتصلة بالزواج والملكية والتمتع بالممتلكات حقوقا وواجبات ومستلزمات عند إدخال القوانين الفرنسية عليها.[3]

لقد كانت المجلة الإفريقية منبرا مهما للضباط العسكريين الفرنسيين لدراسة السكان الجزائريين أنثروبولوجيا، فنجد أنها في مضامينها تتناول أصول القبائل في الجزائر لأنها وببساطة تريد اكتشاف البربري الذي ارتبط اسمه بالحرية والعزة، فتساءل الفرنسيون عن ماهية هذا العرق الذي تكلم عنه ابن خلدون في شمال إفريقيا، والذي تصدى للجيوش الفرنسية في المناطق الجبلية، ومن هذا المنطلق فقد حاول الكتاب الفرنسيون الإجابة عن هذه التساؤلات الملحة في دراساتهم المختلفة عن الأعراق والقبائل، مثل ما ذهب إليه المترجم فيرو حين كتب عن قبائل الحنانشة في منطقة

= تقديم تعويض مالي، أنظر .Charles Féraud, Mœurs ET costumes Kabyles, (R.A) 1, Place Centrale de Ben-Aknoun Vol N°6 année 1862 (O.P.U) .(Alger).pp.281-282

1 Charles Bocher, Prise de Narah (souvenirs d'une expédition, dans le djebel-Aurès) Revue Des Deux Mondes, Imprimerie de J.Glaye, rue Saint-Benoît, Paris, p.855.

* يعرف نفسه 1829 أنه كان مترجما عسكريا مساعدا ثم مترجم رسمي، وكان مراسلا لوزارة التعليم العام، له مجموعة من المؤلفات والمقالات في المجلة الإفريقية، أنظر: Charles Féraud, Les interprètes de l'armée de l'Afrique, Alger, A Jourdan, Libraire-éditeur, 4 place du gouvernement, 4, 1876. Pp 330-333

[3] فيليب لوكا، وآخرون المرجع السابق، ص ص 13-14.

الأوراس مستثمرا كتابات ابن خلدون، لكنه يؤكد"أن بعضهم يفتخر أنهم ينحدرون من أصول رومانية، ومازالت عندهم طقوس مسيحية كالاحتفال بعيد المسيح".[1]

وأورد شارل فيرو – هذا المستشرق الذي كان مساعدا للجيش الفرنسي بترجماته[2]– دراسات دقيقة Monographies تناول فيها القبائل والمدن الموجودة بمقاطعة قسنطينة، كمدينة بجاية[3]، وتبسة واعتقد أن القوات الفرنسية بغزوها لهذه المناطق استطاعت أن تنظمها، فذكر في سياق ذلك أن قبائل النمامشة بعثت بأشرافها معلنة خضوعها للفرنسيين بعد انتشار الفوضى التي ترتبت عن زوال الحكم العثماني[4]، ويبالغ فيرو في طريقة خضوع هذه القبائل حين أورد على سبيل المثال:" كانوا يصلون في المساجد داعين لانتصارنا لتصل حمايتنا إليهم " ومما لا شك فيه أن كتابات فيرو وبالرغم من أنها جاءت من عسكري ومن وجهة نظر استعمارية إلا أن الباحث في التاريخ في هذا المجال لا يمكنه الاستغناء عنها، فهذه الدراسات المفصلة لشارل فيرو حول المدن والقبائل بضواحي قسنطينة وملاحظاته عن العائلات الكبرى جاءت كمساهمة لتاريخ نفوذ فرنسا في هذه المنطقة من الجزائر.[5]

لقد التحق فيرو بالجيش الإفريقي كمترجم وصاحب الكثير من الحملات العسكرية الفرنسية وجنرالاتها بالشرق الجزائري ومن خلال تفانيه وإخلاصه لمهامه ولقادته تدرج في الوظائف العسكرية والإدارية وحتى العلمية كرئاسته للجمعية التاريخية الجزائرية من 1876 إلى 1878 التي كانت تهتم بالجانب العلمي والتاريخي وتخدم بالدرجة الأولى الغزو الفرنسي.[6]

---

1 Charles Féraud, Les Harar, seigneurs des Hanencha (R.A). Vol N°18 Année1874 (O.P.U) 1, Place Centrale de Ben-Aknoun (Alger).pp.29-30.

2 سعد الله، الحركة الوطنية (1860–1900) المرجع السابق، ص531.

3 Charles Féraud, Bougie, Notices ET mémoires, (R.A) Vol N°13, Année 1869.p.87.

4 Charles Féraud, Notes sur Tebessa (R.A) Vol N°18 Année1874 (O.P.U) 1, Place Centrale de Ben-Aknoun (Alger).pp.430-431.

5 فيليب لوكا، و آخرون المرجع السابق،ص226.

6 مياسي، إبراهيم مقاربات في تاريخ الجزائر 1830–1962.دار هومة للطباعة و النشر والتوزيع، الجزائر،2007، ص ص 110–111.

يمكن أن نقول بأن اهتمامات هؤلاء الكتاب لا تختلف عن اهتمام السلطة الفرنسية، فالكتاب العسكريون ينشرون أعمالا ودراسات لكنها محملة بفكر يشيد بالاستعمار، كما بحث هؤلاء عن تراث روما القديم وتقاليدها في مجال الحكم وحدودها في السيادة والعمران ورأوا أن العرب والمسلمين هدموا ذلك وأسسوا على حطامها حضارة أخرى ما كان لها أن تكون [1]، فجاءت فرنسا لتعيد مجد الحضارة الأوربية في هذه المنطقة، ولكن الكتابات التاريخية تغيرت في هذه المرحلة نوعا ما بتغير الظروف التي تحيط بها ليس فقط على المستوى المحلي أي الجزائر، بل وحتى على مستوى المتروبول، وقد أشارت المؤرخة آني راي قولدزقر GoldzeiguerAnnie Rey- إلى محور الأبحاث الذي وجه الكتاب الفرنسيين في عهد الجمهورية الفرنسية الثانية بالإضافة إلى اهتماماتهم.

فقد كانت الجمهورية الثانية في الجزائر مرحلة اختبار ومحاولات تم التعرض فيها لجميع المسائل التي تخص الجزائريين ومناقشتها حتى على الساحة العامة، ففي ذلك الحين وضعت الهياكل الاقتصادية وتمخضت الإيديولوجية الكولونيالية، فتم التساؤل عن مكانة الجزائر بالنسبة إلى فرنسا، والوضعية التي يجب أن تكون عليها والدور المخصص للجزائريين والظروف التي ستخصص للمعمرين الأوربيين، وإذا كان الإمبراطور خلال ست سنوات اهتم قليلا بالجزائر نراه وبتأثير السان سيمونيين يعيد بعث الجزائر في مغامرة اقتصادية رأسمالية كبرى على الطريقة الانجليزية.[2]

ولهذا فقد كان الكتاب الفرنسيون في هذه الفترة مهتمين بالدور الذي تلعبه الدراسات التاريخية الاجتماعية والأنثربولوجية في دعم الاحتلال لذلك حاول هؤلاء جمع ما أمكنهم من معلومات عن المجتمع الجزائري المستعمر وقد تمخضت عنها دراسات مازال يعتمد عليها حتى اليوم؛ كدراسات فايدارب * Faidherbe، بومال Pomel** في الأنثربولوجيا كما رأينا سابقا.

---

[1] سعد الله، الحركة الوطنية (1860-1900) المرجع السابق، ص.586.

2 Annie Rey-Goldzeiger, Les problèmes Algériens du second empire vue par les historiens Français, In : Revue d'Histoire moderne et contemporaine, Tome XXI Janvier-Mars1974. Imprimerie Bellanger et Files, 1974.p.111.

ورغم أن تسمية المرحلة الأولى من كتابة تاريخ الجزائر اصطلح عليها بعهد الكتاب العسكريين لكن يجب علينا أن نشير إلى وجود كتابات ودراسات غير عسكرية تناولت الجوانب الانثربولوجية للجزائر مركزة على العناصر الإثنية وقد أشار المؤرخ شارل روبير آجرون لبعض الكتاب الذين تم تصنيفهم على أنهم متعاطفون مع الأهالي أو بمعنى أدق "متعاطفين مع القبائل" Kabylophiles"،[1] ورغم بعد هؤلاء عن التخصص في مجال الأنثروبولوجيا إلا أننا نجد محاور وفصول وأبواب في هذا المجال، وإذا تصفحنا بعض هذه المؤلفات فإننا نقف على الحقد الدفين الذي يكنه هؤلاء الفرنسيون للعرب وللإسلام وفي المقابل نجدهم يستعطفون "العناصر البربرية" ومن الأمثلة التي يمكننا الاستدلال بها بامتياز نذكر الكاتب "أوغيست بومال Auguste Pomel"* والذي لم يكن أنثروبولوجيا بل متخصصا في الجيولوجيا وعالم نبات وله كتاب: " السلالات الأهلية للجزائر وقدراتهم الاحتياطية " Des races indigènes de l'Algérie et du rôle que leur réservent leurs aptitudes" الذي صدر في سنة 1871 فقد أورد في الصفحة 04[2] مايلي:" العربي آخر غاز لإفريقيا الشمالية الذي يختلف تماما عن القبائلي أو البربري "الساكن الأصلي Autochtone" الحقيقي الذي طرد إلى الجبال" ثم إذا حاولنا تحليل الكثير مما كتبه تتبين لنا تلك الروح الحاقدة المتأصلة عند الكثير من الفرنسيين اتجاه العرب إذ كتب أيضا: " دون شك العربي هو الأكثر عجزا من غيره زراعيا فهو لا يصلح إلا لتبذير وتحطيم الثروات الطبيعية" ويضيف أيضا :" القبائلي كريم بشكل واضح عكس العربي الذي ينفق إلا رياء" وعن استمالة البربر كتب:" أما الثاني–ويقصد البربري– فهو جندي جلف والذي بقي دائما وفيا لواجبه".

1 Ageron Charles-Robert, De l'Algérie française a l'Algérie algérienne, ENAG, Réghaia, 2010, p 286.

* هو أوغيست بومال عصامي التعليم، جيولوجي وعالم نبات فرنسي نفي للجزائر بسب توجهه الاشتراكي في 2 ديسمبر 1848، تقلد عدة مناصب إدارية كمستشار رئيسي بوهران، عين كمدير لمدرسة العلوم سنة 1880 التي تم تأسيسها في مدينة الجزائر، وكان أيضا مدير مصلحة الخرائط الجيولوجية للجزائر توفي سنة 1898، أنظر: Émerit Marcel. Roland Villot, Auguste Pomel, démocrate et savant (1821-1898). In : Annales. Économies, Sociétés, Civilisations. 14e année, N. 1, 1959. pp. 171-172

2 A.Pomel, Des races indigènes de l'Algérie et du rôle que leur réservent leurs aptitudes, topographie et typographie Veuve Dagron, Oran, 1871.p4

ويلوم أ. بومال السياسة الفرنسية اتجاه البربر متسائلا :" هل من الخطر الحفاظ على المؤسسات الديمقراطية الخاصة بالجماعة عند البربر؟ "[1]

يعكس لنا ما كتبه بومال تقسيم الكتاب الفرنسيين للمجتمع الجزائري حينئذ إلى أعراق وكان العرب بالنسبة له ولغيره شعبا دخيلا همجيا مناهضا للحضارة والتقدم هذه العيوب التي توارثها عن أسلافه إضافة إلى ديانته جعلته في منظور الكتاب العسكريين غير قابل للدخول في المدنية المزعومة التي جاءت بها فرنسا.[2]

صرح الأنثربولوجي الفرنسي كاترفاج * Quatrefages سنة 1867 مشيدا بالدور الذي لعبه الجيش الفرنسي في دعم وتطوير الأنثربولوجيا الفرنسية" تسير بجانب الجندي–أي الانثربولوجيا– فجاءت هذه الشراكة بنتائج معروفة ومثال ذلك في مدينة الجزائر أين قدمت لنا اللجنة العلمية التي وجدت في صفوف الجيش باحثين ملتزمين" هكذا يبدو أن الانثربولوجيا الفرنسية نمت في أحضان الجيش الفرنسي حين ساهم البحث العسكري في دفع الاهتمام بمجموعة من ميادين البحث كالدراسات اللغوية والأثرية الإثنولوجية والأنثربولوجية وما يشد انتباهنا أنها ركزت على البربر أكثر من الجزائريين الآخرين.

ولمعرفة أكثر للشعوب المستعمرة بما فيها الجزائر عمل رجالات الجيش الفرنسي على إرسال مختلف الوثائق والدراسات التي اقتطفوها من الميدان إلى الجمعيات الإثنوغرافية والأنثربولوجية في المتروبول والتي شكلت قاعدة لتطوير النظرية العرقية Ethnocentrisme[3] التي تبناها الباحثون والعلماء في تلك الفترة، وبتأسيس الجمعية الأنثربولوجية بباريس سنة 1859 سجلت بداية حركة عبر أوروبا تخص التفوق العرقي والتي احتضنت الفكر الاستعماري.[4]

---

1 Ibid. pp 5, 18,58-59,61.

2 فيليب لوكا، جون كلود فاتان، جزائر الأنثروبولوجيين، نقد السوسيولوجيا الكولونيالية، منشورات الذكرى الأربعين للاستقلال، ص ص 143-144.

* هو جون لويس أرمان كاترفاج دوبريو عالم طبيعيات وانثربولوجي فرنسي ولد سنة 1810 درس الطب والعلوم تقلد في سنة 1855 كرسي الأنثربولوجيا والإثنولوجيا في متحف التاريخ الطبيعي نشر عدة مقالات في مجلة العالمين Deux Mondes أنظر: Vapereau, Op.cit.p.1488

3 التمركز حول السلالة هو شعور الفرد أن جماعته الاجتماعية تتميز على باقي الجماعات يصاحبه احتقار عام لكل المجتمعات الأخرى، أنظر:شاكر، المرجع السابق، ص313

4 Lorcin, Op.cit, pp163-164,206.

ففي سياق الاستعمار الفرنسي سيتم تشجيع الكثير من الدراسات الإثنوغرافية والأنثروبولوجية لمعرفة المجتمعات التي سيتم إخضاعها وكانت المكاتب العربية وسيلة مهمة بل رئيسية في جمع كل ما تعلق بالمجتمع الجزائري فكانت الدراسات المونوغرافية غزيرة من حيث الكم والكيف وقد شبه أحد الكتاب هذه العملية بـ " تفيك شفرة التنظيمات الاجتماعية والروحية للسكان الجزائريين".

ويستشف من خلال كتابات العسكريين الفرنسيين اهتمامهم الكبير والواضح الذي حظي به المجتمع الجزائري في حين ركزت أيضا على مناطق بعينها دون غيرها كمنطقة القبائل أو ركزت على التفرقة بين عناصر المجتمع الجزائري فدرست عن كثب البربر لذلك كثرت المهمات الأنثروبولوجية وكلف بها عساكر وإداريون ينتمون للمكاتب العربية، وتميز هؤلاء بإتقانهم للغة العربية التي كانت خير وسيلة لدراسة المجتمع الجزائري بل ومنهم من أتقن البربرية بشكل لافت [1] ليس من قبيل المعرفة العلمية بل لإدراك المستعمر الفرنسي ضرورة عدم نجاعة العمل العسكري دون دراسات للمجتمع المستعمَر في جانبه الديني، اللغوي، الثقافي والقبلي ولذلك صنفت الأنثربولوجيا علما استعماريا صرفا.

ويبدو أن التركيز على بعض الدراسات جاء من وحي الإدارة الاستعمارية وهي تلك التي تمكن الجيش الفرنسي وسلطات الاحتلال من إيجاد الحلول المناسبة للمصاعب التي واجهتها في بسط سيطرتها على الجزائر ولذلك أبعدت كل ما يمثل وحدة وتلاحم المجتمع الجزائري بل نجدها عكس ذلك تماما اهتمت بكشف التباين الحاصل بين عناصره.[2]

وخير مثال نستشهد به يلخص أهداف هذه الدراسات عهدئذ ذلك التساؤل الذي طرحة ستيفان غزال Stéphane Gsell في تقديمه للكتاب الموسوم بـ " تاريخ ومؤرخو الجزائر" Histoire et historiens de l'Algérie " الذي أصدر

1 Abderrahmane Moussaoui, La pratique de l'anthropologie en Algérie, La méditerranée des anthropologues, fractures, filiations, contiguités, Maisonneuve Larose, Paris, 2005, pp 272-273.

2 Mahieddine Djender, Introduction a l'histoire de l'Algérie, éditions ENAG, 2006, p 84.

بمناسبة مئوية احتلال الجزائر من قبل فرنسا فقال: "تبدو معرفة الماضي مهمة للمستقبل. ما هي أصول هؤلاء السكان الذين نصطدم معهم، كيف تشكلت أعرافهم ونظمهم ومعتقداتهم؟[1]

لكننا نتساءل إن كان هذا الطرح بريئا خاصة إذا ما أردنا أن نبين دور الكتابات الأنثروبولوجية الفرنسية في صناعة أو كتابة تاريخ الجزائر ؟

على كل يمكن أن نبين خصائص الكتابات الأنثروبولوجية الفرنسية العسكرية فيما يلي:

الأنثروبولوجيا العسكرية [2]
– ألفها مجموعة من الضباط ؛ علاقة تفوق، تعريف رومنطيقي.
– منتجة دائما من طرف المستعمر (الغازي)
– تهتم بالنقاط المهمة للمجتمع المستعمَر (البنى الاجتماعية، الطرق الصوفية...)تعمل على الكليات.
– تهتم بالحاضر (المواضيع الملحة).
– تخاطب المستعمِر.
– أنتجت العديد من الأعمال ذات نوعية.
– وظيفتها: معرفة من أجل الانتصار

ولا يخلو الأمر إذن من وجود سوء نية فيما كتبه هؤلاء العسكريون إذ لم تكن علمية محضة، فهي تعبر عن ذلك الشعور بالتفوق في إطار الاحتلال، وتبطن النزعة الاستعمارية الفرنسية.[3]

1 J. Alazard, E. Albertini, A. Bel, F. Braudel, G. Esquer, E.-F. Gautier, Dr E. Leblanc, G. Marçais, W. Marçais, P. Martino, M. Morand, M. Reygasse, Ch. Tailliart, G. Yver, J. Zeiller, Histoire et Historiens de l'Algérie, introduction de Stéphane Gsell, Imprimerie des presses universitaire de France, Paris, 1931, p 2.

2 Colonna, Fanny, Savants Paysans (Eléments d'histoire sociale sur l'Algérie rurale) Office des publication Universitaire.1, Place Centrale de Ben-Aknoun1987.
p,245.

3 نسيب يوسف، الجزائر وأقطار العالم الثالث في نظر الإتنولوجيا في القرن التاسع عشر، الأصالة، العدد 14-15، 1973، ص 115.

الفصل الثالث

مجتمع الشرق الجزائري في الكتابات الأنثربولوجية الفرنسية (الصحافة الدورية)

1 -المبحث الأول: المجلة الإفريقية مرآة الأنثربولوجيا الفرنسية في الجزائر.

2 -المبحث الثاني : نشرة الجمعية الجغرافية الباريسية Bulletin de la société de géographie de Paris.

3 -المبحث الثالث: مجلة المراسل الإفريقي Bulletin de correspondence Africaine.

4 – المبحث الرابع: الكتابات الأنثربولوجية القانونية والمجتمعات البربرية.

إن ظهور الصحافة بالجزائر بل وحتى بفرنسا أدى إلى حتمية ظهور الصحافة الدورية والمجلات التي كانت تنشر دراسات وأبحاث مختلفة خاصة في الجانب الأنثروبولوجي وكان سكان الشرق الجزائري ضمن اهتمامات هذه الكتابات.

المبحث الأول: المجلة الإفريقية مرآة الأنثروبولوجيا الفرنسية في الجزائر:

أولت "المجلة الإفريقية La revue africaine"* أهمية كبيرة للدراسات الأنثروبولوجية، متطرقة بذلك إلى دراسة مواضيع شتى، لكنها ركزت على الآثار القديمة، بدء بالعدد الأول الذي استندت مقالاته على مراسلات المبعوثين ومساعديها من الكتاب، الذين اهتموا بالتاريخ القديم والآثار الرومانية.[1]

ورغم تنوع المجالات التي كتبت فيها خلال فترة صدورها أي من سنة 1856 إلى غاية الاستقلال إلا أننا نقف على ملاحظة مهمة وهي تغييبها لاستعمال مصطلح "المجتمع الجزائري" وبدل ذلك قدمته على أنه تجمع بشري غير منسجم وعناصر عرقية لا ترقى إلى أن تكون أمة واحدة حتى في وقت متأخر.[2]

لقد جاء خلال العشريات الأخيرة من القرن التاسع عشر مجموعة من الحكام العامين الذين شجعوا الدراسات في مختلف المجالات خدمة للاستعمار الفرنسي في الجزائر والتي تكفل بها مجموعة من الباحثين من أبرزهم إميل ماسكاري.

عندما كتب إميل ماسكاري في المجلة الإفريقية تقريره الرسمي للحاكم العام "أ.شانزي A.Chanzy"**"حول مهمته في الجنوب القسنطيني، تطرق إلى وصف وإحصاء الآثار الموجودة في مدينة تيمقاد الرومانية، واعتبرها أهم المناطق الأثرية

* من أول المجلات التي ظهرت في الجزائر المحتلة كانت تصدرها الجمعية التاريخية الجزائرية بداية من سنة 1856

1 Julia CÆsarea, (Cherchel), (R.A) Vol N°1 année 1856.pp.115-116

2 كمال لحمر، صورة المجتمع في (La Revue Africaine) 1856م-1962م، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في علم اجتماع التنمية، أطروحة غير منشورة ، جامعة منتوري قسنطينة، السنة الجامعية 2010-2011، ص 31.

** شانزي أنطوان أوجين آلفرد، ولد سنة 1823بالاردان بفرنسا انظم إلى البحرية ثم ترقى إلى أعلى الرتب في الجيش انتقل إلى الجزائر وتولى عدة مهام منها مدير الشؤون العربية في قسنطينة وعين حاكما عاما للجزائر من سنة 1873 إلى سنة 1879 أنظر: Goldzeiger, Op. cit.758

في الجزائر فكانت دراسته تاريخية أثرية "لروما" عبر مخلفاتها وأثرها بأرض الجزائر التي سبقت مجيء الإسلام [1]، وفي نفس الوقت بعث بمقال مشابه إلى الجمعية الأثرية لقسنطينة والذي نشر سنة 1875[2]، وبالرغم من أن هذا الجامعي كان متحمسا للعلم[3] إلا أنه كان يخدم الإدارة الفرنسية والجيش في الوقت نفسه حيث اعترف بذلك قائلا: "...كنت قد ذهبت إلى سهل مدينة التي تقع على سفح شيليا في الأوراس دارسا عادات و تقاليد أولاد داود، وكنت أرسل تقريرا إلى وزيري...".[4]

ويذكر المؤرخ شارل روبير آجرون أن إ. ماسكاري كان من بين الليبراليين* الفرنسيين في الوقت الذي لم يكن فيه من السهل على أبناء المتربول تبني هذا التيار في الجزائر المستعمرة خاصة في السنوات الأولى من إحلال النظام المدني لتبنيه مواقف تعارضت ومصالح المعمرين الفرنسيين، وهو الكاتب الذي مر بالمدرسة النورمالية العليا قبل نجاحه في أستاذية التاريخ وكان أول بروفيسور لثانوية الجزائر العاصمة الذي عين فيها سنة 1872 وسرعان ما بدأ في تعلم اللغة العربية ثم اللغة البربرية ودرس في الجزائر حتى مماته، قام بزيارات في عمق منطقة القبائل وميزاب، واستقر بتيمقاد والأوراس ليقوم بأبحاث أثرية على مدار سنتين، وبعد تأسيس مدرسة الآداب في الجزائر عين على كرسي التاريخ والحضارة الإفريقية القديمة

1 E.Masqueray, Rapport a M.Le général Chanzy gouverneur général de l'Algérie, sur une mission dans le sud de la province de Constantine, (R.A). Vol N°20 Année1876 (O.P.U) 1, Place Centrale de Ben-Aknoun (Alger).p.164

2 E.Masqueray, Lettre de M Masqueray, sur quelques inscriptions trouvées à Thamgad, Notices ET mémoires, (R.A) Vol N°17 Année1875. p.441.

3 Alazard, et al, Op cit, p.9.

4 Emile Masqueray, Souvenirs et visions d'Afrique, Orléans. Imprimerie G.Morand, 47, Rue Bannier.1894.p.259.

* الليبرالية كفكر سياسي واجتماعي حديث مؤسس على احترام حرية الأفراد وتساهم الليبرالية في حركة علمنة السياسة فهي تطالب باستقلالية السياسة اتجاه الدين فتصبح أمرا شخصيا، أنظر: Raymond Besnard, Mohamed Cherkaoui, Bernard-pierre Lécuyer, Boudon,Philippe Dictionnaire de Sociologie, Saint-Amand-Montrond (Cher) 2005, p.135. ويبدو أن القصد من الليبرالية في الجزائر المستعمرة في تلك الفترة هو مطالبة بعض الفرنسيين بتحسين أحوال الجزائريين على الأقل في الحفاظ على تقاليدهم وأعرافهم وهذا ما نجده عند هذه الشخصية.

ليصبح مديرها عن عمر يناهز سبعة وثلاثين سنة [1]، وقد صنفه الدكتور أبو القاسم سعد الله ضمن العلماء والمستشرقين الفرنسيين.[2]

وإذا ما تتبعنا الأعمال التي قام بها ماسكاري نجد أن له جملة من الإسهامات في المجلة الإفريقية مابين سنتي 1876 إلى 1879 حيث ركز فيها على منطقة الأوراس دون غيرها لعدة اعتبارات–"آثار رومانية وبربر"– فكانت مراسلاته الأولى عبارة عن تقارير بعث بها إلى الحاكم العام شانزي عن مدينة تيمقاد الأثرية كما ذكرنا سابقا ليضيف إليها تقريرا آخر عن الأوراس الغربي، والملاحظ أنه كان مطلعا على الأعمال السابقة "ليون رنيي[3] Léon Rénier الذي تحت توصياته أصبح ماسكاري مكلفا بمهمة في الأوراس، [4]واستقى بعض المعلومات الأخرى من المصادر الشفوية المحلية[5]، كمحاولة لإنتاج دراسة جديدة من مصادر متعددة.[6]

وقد ضمت هذه المجلة في العدد نفسه مقالا آخر له بعنوان: "وثائق تاريخية مقتطفة في الأوراس" "Documents Historiques recueillis dans l'Aurès " رأى فيه أن الذكريات التاريخية لسكان الأوراس ترجع ببساطة إلى غاية المرحلة الرومانية واستدل على أن بعضهم يزعم أنهم رومان ينحدرون من "بورق" الروماني ويسقط صحة ذلك على معرفة أغلب الشاوية للكاهنة وكسيلة، كما رأى أن دراسة تقاليد وعادات، أعراف وقوانين وحروب "الشاوية" بشكل خاص لها أهميتها في العصر الحديث.[7]

وعند دراسته لمختلف قبائل الأوراس أكد أنه باستثناء قبيلة أولاد زيان العربية كل القبائل الموجودة في الأوراس هي قبائل بربرية واستطرد في مقاله هذا ليبين أصولها

---

[1] Charles-Robert Ageron, Les Algériens Musulmans, et la France, (1871-1919) T1, Presses Universitaire De France, 108, Boulevard Saint-Germain, Paris, 1968,Op. cit., p.421.

[2] سعد الله، الحركة الوطنية (1860-1900) المرجع السابق، ص.305.

[3] Masqueray, Rapport a M.Le général, (R.A). Vol N°21 Année1877 (O.P.U) 1, Place Centrale de Ben-Aknoun (Alger).p.33.

[4] Augustin Bernard, Émile Masqueray, (R.A). Vol N°38 Année1894 (O.P.U) 1, Place Centrale de Ben-Aknoun (Alger). p.351.

[5] Masqueray, Rapport a M.Le général, Loc. cit.p.33.

[6] Colonna, Op. cit, p.89.

7 E.Masqueray, Documents historiques. Op.cit p.97.

الأولى وما يميز هجراتها من منطقة إلى أخرى. ومن زاوية أخرى أضاف أنه كان لهذه القبائل قوانينها الخاصة المماثلة لما كان سائدا في منطقة القبائل فهم لا يحتكمون إلى قاض ليؤكد أن الفرنسيين هم الذين فرضوا على سكان الأوراس النظام القضائي وحتى القانون الإسلامي في حين كانت كل منطقة الأوراس مقسمة إلى مجموعات متعادية، ويزعم أيضا أن الفرنسيين هم الذين وحدوا هذه القبائل وأرسوا السلم فيها، ويقر ماسكاري أن أغلب سكان الأوراس مازالت عندهم بعض الممارسات التي تذكر بالأعياد الرومانية أو المسيحية، لكن هذه الطقوس بدأت تتلاشى لتحل مكانها الأعياد الإسلامية، أما عن اللغة فقد ذكر أن أغلب سكان المنطقة كانوا في السابق يتكلمون أو قد تكلموا لهجة من اللهجات البربرية التي حافظ عليها الشيوخ والنساء الذين بقوا جاهلين للغة العربية والتي لا نراها إلا عند الرجال والشباب الذين يستعملونها في علاقاتهم مع الفرنسيين.[1]

لقد كان ماسكاري من المستشرقين الذين ألفوا الكثير عن اللهجات البربرية واهتموا بالآثار والكتابات الجنائزية والنقوش والرسومات [2] ، ومن هذا الجانب الفيلولوجي* Philologie كانت له مساهمات ذات أهمية في دراسة لهجات وفقه اللغة البربرية، ومما لا شك فيه أن أهداف دراسته هذه تصبو إلى إعادة توجيه السياسة المعتمدة من قبل الإدارة الاستعمارية إزاء السكان موضوع التحليل فهو الذي صرح أن الفرنسيين هم أكثر الدارسين للغة البربرية[3]، كما أراد إثبات أن تاريخ إفريقيا إفريقيا الشمالية أساسا هو تاريخ ديني، حيث بحث عن القرينة التي تربط إفريقيا العصور الوسطى بإفريقيا الرومانية [4] وهو الذي قال: " إن عاجلا أم آجلا سوف يخضع الشرق".

والملاحظ أن الأبحاث الاستعمارية حول البربر في بعض الأعمال التي وصلت إلى حد تشبيهها بالأسطورة أو الخرافة هدفها الأول المسطر هو تقريب غير العرب

1 E.Masqueray, Documents historiques. Op. cit pp.97-98-99.

[2] سعد الله، الحركة الوطنية (1860-1900) المرجع السابق، ص536.

* دراسة لغة ما على أسس تحليلية نقدية للنصوص، أو هي دراسة نقدية للنصوص بمقارنة المخطوطات، أنظر:.Larousse, Op.cit, P.814

3 Bernard, Op. cit, p.353.

4 Ibid, pp.354-355

المغاربة من "النظرية العرقية" حول أوربا بقدر الإمكان [1]، ويبدو أن ماسكاري أراد أن يثبت ذلك من خلال كتاباته التي ركزت بشكل خاص على البربر.

بالإضافة إلى الأعمال والأبحاث الأثرية التي كان يقوم بها ماسكاري فقد كلف أيضا بدراسات إثنوغرافية[2] لمنطقة الأوراس فقدم دراسة مفصلة عن الحياة الاجتماعية لسكانها والقوانين العرفية التي كانت مطبقة فيها، وحاول أن يقارن كل ضاحية زارها بأخرى مثل قبائل بني فرح ومنعة، نارة، أولاد عبدي، تاقوست [3]، وتجلت نشاطاته تحت أشكال مختلفة، استطاع من خلالها أن يجمع في نفس الوقت نصوص رمزية ووثائق لمعرفة لهجات البربر وتقاليدهم ثم الاستعلام عن عاداتهم، وقوانينهم، خاص ة في العصور الحديثة بفضل ميزة التكيف التي امتلكها حسب تعبير "برنار أغسطين" Augustin Bernard".[4]

على الرغم من أن الدراسات التي قام بها هذا الباحث كانت على قدر من الأهمية إلا أن هذه الجهود لم تكن علمية محضة وبريئة بل هي مهمات فرنسية قبل كل شيء، لا يستفيد منها طبعا الجزائريون فقد كان ماسكاري وأمثاله جنودا في الميدان وليسوا علماء باحثين عن الحقيقة المجردة، [5] فبالرغم من أنه اشتغل في منجم للفحم خلال سنتين يعيش بين أولاد داود إلا أنه كان يتمتع بمركز عال ودعم من السلطة الاستعمارية في الجزائر، لذلك تؤكد عالمة الاجتماع والأنثروبولوجيا "فاني كولونا" أن كل التحقيقات التي عرفتها منطقة الأوراس قبل استقلال الجزائر كانت من وحي السلطة الاستعمارية في الجزائر.[6]

تعتبر السبعينيات من القرن التاسع عشر هي المرحلة الأكثر إنتاجا في حياة ماسكاري مركزا على الجنوب القسنطيني فلقد تضمن عدد سنة 1878 من المجلة

---

[1] El Qadéry.Mustapha, (R.H.M.C) Les Berbères entre le mythe colonial et la négation nationale. Le cas du Maroc, Tome 45-2, Avril Juin 1998 Imprimerie CHIRAT 42540 Saint-Just-la-Pendue, 1998, p.428.

[2] Masqueray.E, Introduction, Chronique D'Abou Zakaria, Alger Imprimerie de l'Association Ouvrière V.Aillaud et Ce, 1878.pVII

[3] Masqueray, Documents historique, Op.cit, pp.99-123

[4] Bernard, Loc.cit.p.353.

[5] سعد الله، الحركة الوطنية (1860-1900) المرجع السابق، ص.537.

[6] Colonna, Loc.cit, p.89.

الإفريقية مقالا عن جبل ششار * وهي دراسة جغرافية وأثرية وانثربولوجية لم يخلص فيها إلا ليزيد من تأكيد العادات الرومانية عند هؤلاء السكان حتى في طريقة استخراج الزيت** وصناعته وهي الطريقة الشبيهة بتلك التي كانت عند الرومان في السابق.[1]

وأشار ماسكاري إلى انتشار مجموعة من الرجال الذين حاولوا بصدق الإنصاف والعدل في ما يخص القتل والنهب في منطقة جبل ششار، ونسبهم إلى طبقة محترمة إلى حد ما عبر الأزمنة وهم المرابطون ويطلق عليهم الأهالي أسم "السوياس" أو "سيار"، الذين كانوا يسوون الخلافات ويدفنون الموتى، ويمضون معظم أوقاتهم في تطبيق الشعائر الدينية يعيشون خاصة من عملهم أو من صدقة القرى مقابل بركتهم وفي المقابل كانوا أيضا يعلمون القرآن للأطفال ويدرسون بعض المبادئ الأخلاقية الدينية للسكان، ويذهب ماسكاري للقول:" إن من أطلق عليهم السياس هم الوحيدون الذين علموا أن القتل جريمة وأن السرقة ذنب"، لكن المتقصي لدراسات ماسكاري يخلص إلى ذلك التناقض الذي وقع فيه في الكثير من الأحيان ويكفي أن نشير إلى دور الجماعة في الحفاظ على كيان هذا المجتمع، فهل كان "السياس" حكرا على هذه المنطقة فحسب؟

يشير هذا الكاتب إلى أن دور هؤلاء السياس انتهى بعد أن أخضعت السلطة الفرنسية سكان هذه المناطق إلى القاضي المسلم، وأفشت السلم، وهذا الاستنتاج الذي خلص إليه ماسكاري –بأن الاستعمار نعمة– ليس بجديد حين نراه قد قال"إن النصر

---

* وهي حاليا المدينة التي تقع جنوب خنشلة سميت نسبة لجبل ششار ضمت خلال الفترة الاستعمارية مجموعة من القبائل : الأعشاش، بني إملول، بني بربر، أولاد معافة وغيرهم، أنظر: أكاردو المرجع السابق، ص .96

** تكمن هذه الطريقة استخراج الزيت بأن يوضع الزيتون الناضج فوق جزء من الصخر المسطح على ضفة الوادي، هذا الصخر به ثقوب بيضاوية طول اكبر محور لها هو 50 إلى 60سم تملأ زيتونا ثم تدحرج صخرة أخرى بحجم التجاويف بيضاوية الشكل بالأرجل حتى تصبح كالعجينة تؤخذ بالأيدي إلى صهريج صغير بالجوار عمقه حوالي75سم محفور هو الآخر في الصخر مملوء بالماء - ويمكن ملؤه وتفريغه بسهولة بواسطة ساقية- فيطفو الزيت و يصبح جمعه سهلا، وهي طريقة فضة تؤدي إلى ضياع كميات كبيرة من الزيت.

[1] Masqueray.E., Le djebel Chechar, (R.A). Vol N°22 Année1878 (O.P.U) 1, Place Centrale de Ben-Aknoun (Alger) 1985.p.36.

لا يكون شرعيا إلا عندما يستفيد منه المنهزم" [1]، ويتخيل ماسكاري التوحش الذي كان يغص فيه السكان آنذاك وحتى في فترات متأخرة فنقرأ ما صرح به: "On imagine à peine la barbarie dans laquelle ces populations étaient plongées." "بالكاد نتخيل التوحش الذي يغرق فيه هؤلاء السكان" حيث أن سارق الليل المسلح هو جدير بالاحترام في ششار والمناطق الأخرى حسب هذا المؤلف.[2]

وإلى جانب آخر يرى هذا الباحث أن كل سكان منطقة الأوراس يجهلون فن التداوي من الحمى والأمراض الصدرية، وأمراض الأمعاء الغليظة والأمراض الداخلية الأخرى ويورد" أن هؤلاء السكان يكتفون في حالة الحمى مثلا، بممارسات بدائية كأن يسجل أحد الكتاب بعض الرموز الغامضة على قشور البصل، ويقوم المريض برمي واحدة كل يوم متفوها ببعض الكلمات، وفي حالة الإعياء الذي ينظر إليه على أنه مس من الأرواح الشريرة، فيطاف حول رأسه بدجاجة سوداء على سبيل الشفاء" [3] وهذا ربما ما يفسر انتشار الكثير من الأمراض عند سكان الأوراس خاصة عند النساء والأطفال.[4]

ورغم وجود الشعوذة والسحر إلا أن بعض الشهادات تؤكد الانتشار الحقيقي للطب والجراحة، ففي شهادة أحد الإنجليز الذي كان قد زار المنطقة وأصدر كتابا

[1] Ageron, les Algeriens musulmans, Op. cit, p.333.
[2] Masqueray, Le djebel, Op.cit, pp. 134-135.
3 Ibid, p 143.
[4] Chellier, Dorothée Voyage dans l'Aurès, Notes d'un médecin, Tizi-Ouzou Imp. Nouvelle J. Chellier-Tizi-Ouzou, 1895, p.38.

عنوانه Among the Hill-folk of Algeria *أكد في أحد فصوله وجود عمليات جراحية معقدة يقوم بها سكان المنطقة لكنها تتم بسرية تامة رغم انتشار السحر والشعوذة، وأرجع الدكتور أبو القاسم سعد الله هذه السرية إلى إصدار السلطات الاستعمارية قانونا يمنع هذه الممارسات الطبية تحت طائلة العقوبات.[1]

لكن التقرير الذي أعدته إحدى الطبيبات التي زارت المنطقة يؤكد فعلا انتشار ممارسات طبية ذات أهمية عند سكان الأوراس، أين قدمت لنا أمثلة عن الكيفية التي تتم بها معالجة كسور الفخذ أو الذراع فكان سكان الأوراس يعرفون تجبيرها بواسطة أعواد من الخشب ويمارسون هذه الطرق بأمان بل وحتى العمليات الجراحية الأكثر تعقيدا مثل معالجة شقوق الجمجمة، فكان أحمد بن بلقاسم في تافرنت والذي عاصر أحمد باي من الجراحين الذين اشتهروا في هذا المجال، وحتى الأتراك التجؤوا إليه وأعفوه من دفع الضرائب مثل المرابطين وأهدوه أداة جراحية في غمد من فضة.[2]

وعلى ما يبدو فإن ماسكاري أقر أن شاوية الأوراس انقسموا بسبب بنية جبالهم فتمسكوا بالعرش ولكنهم أهملوا القبيلة [3]، ومن جهة أخرى وهو ربما ما نراه مهما اعتماده على من سبقوه من الكتاب ككريت، ليون الإفريقي وحتى المؤرخين العرب كالبكري وابن خلدون وذلك بالرغم من أن هذا المؤلف قد اعتمد كثيرا على الشهادات

---

* عنوان هذا الكتاب هو Among the hill-folk of algeria, Journeys among the shawia of the Aurès montains, يقع في 311 صفحة لصاحبه مالفيل ويليم هيلتون سيمسون أصدره سنة 1921 بلندن وقد كان عضوا بالجمعية الجغرافية لمدينة الجزائر Société de géographie d'Alger وقد أصدر كتابا آخر عن العلاج عند "العرب"الجزائريين بعد أن أمضى أربع أشتية في الأوراس لجمع ما أطلقت عليه ذات الجمعية " عينة من الفن "الأهلي" لصالح المتحف التابع لجامعة أوكسفورد بيت ريفرز Pitt Revers museum ولإجراء دراسة إثنوغرافية عن قبائل الأوراس الشاوية والعرب الرحل، وسمح له هذه الاقامة من تكوين صداقات مع بعض أطباء المنطقة الذين توارثوا هذه الممارسات أبا عن جد، أنظر: J. Aubry, Arab medicine and surgery, A study of the Healing art in Algeria by M.W Hilton, London Oxford university press, 1922, in : Bulletin de la société de géographie d'Alger et de l'Afrique du nord, volume 23, Vingt-septieme année 1er trimestre, Imprimerie algerienne,1922. P 734.

1 سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج7، ص ص243-244.

2 Masqueray, Le djebel, Op.cit, p.143.

3 Bernard, Op.cit.p.357.

الشفوية للسكان وكانت المعلومات التي استقاها تتأرجح بين التأكيد والنفي حسب ذكاء وكياسة شهوده.[1]

ولعل أهم ما أورده هذا الكاتب اكتشافه للثنائية الموجودة في منطقة الأوراس والتي تبرز خاصة في اختلاف اللهجات، بين المنطقة (الشرقية والغربية) والذي يكمن أساسا في النطق والمفردات، أما الصرف فهو نفسه في الجانبين، ونلمسه أيضا عند الزواوة والطوارق، وبالنسبة إليه فإن مسألة النطق هي الأكثر أهمية لأنها تشكل الجزء الأكبر من التشابه الموجود بين اللهجة الزناتية والتامازيغت (الأمازيغية)، وتمس أيضا عن قرب موضوع إثنولوجي[2] مهم.*

ويبدو أن هذا التقسيم في الجغرافيا واللهجات يهدف إلى خلق مناطق اجتماعية بالدرجة الأولى يسهل التعامل معها فهي تغذية للنزعات والتفرقة، ويصور لنا ماسكاري بذلك أن القبائل التي تسكن المنطقة هي في صراع دائم[3]، ولم يشر ولو من بعيد إلى تأثيرات الوضعية الاجتماعية والحالة الاقتصادية وحتى الطبيعية على سكان المنطقة وهي ربما ما تفسر تلك الغلظة والخشونة التي اشتهر بها سكان الاوراس[4]، كما نجده مهتما بمنطقة الأوراس الشرقي، ويظهر ذلك جليا في تخصيص جزء من أبحاثه لدراسة الآثار الرومانية ومجموع القبائل القاطنة بمنطقة خنشلة مركزا دراسته على قبيلة النمامشة.[5]

والحقيقة أن الأبحاث التي قام بها ماسكاري خدمت الإدارة الفرنسية بالدرجة الأولى فقد كان يراسل أعلى هرم في الإدارة الفرنسية، فهو يصرح أن الدراسة التي قام

---

[1] Masqueray, Le djebel, Op.cit, p.136.

[2] Ibid, pp.269-270.

* يحاول ماسكاري إثبات أن هذا الاختلاف في اللغة له ما يفسره اثنولوجيا فهو يرجعه أساسا إلى الاختلاف الواضح بين أصول سكان المنطقة وهنا نصل إلى نتيجة مفادها النزعة التي جاء بها الفرنسيون ليحكموا السكان الأهالي ومحاولة إثباتهم أن المجتمع الذي كان يعيش على ارض الجزائر هو مزيج لا يرقى أن يكون أمة موحدة.

3 محمود بن ضيف الله، ملاحظات حول بعض الكتابات الغربية عن الاوراس، تاريخ الاوراس ونظام التركيبة الاجتماعية والإدارية في أثناء فترة الاحتلال الفرنسي من 1837-1954.ص ص294-295.

4 ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000، ص 447.

[5] Masqueray, Ruines Anciennes de Khenchela (Mascula) A Besseriani (Ad majores) (R.A). Vol N°23 Année1879 (O.P.U) 1, Place Centrale de Ben-Aknoun (Alger) 1985.pp.90-92.

بنشرها في العدد 23 لسنة 1879 هي مثل تلك التي بعث بها إلى وزير التعليم العمومي خلال خريف 1877.[1]

وقد كان لمسكاري نجاحات أخرى في المجال الأدبي أرجعها البعض إلى ملاحظاته الدقيقة ومحاولته إتباع أسلوب صادق حين أصدر كتاب"ذكريات ونظرات إفريقيا Souvenirs et visions d'Afrique" سنة 1894 الذي اقتبس فيه الكثير من الدراسات الاثنوغرافية وهي المادة التي ساعدته في أبحاثه وتقصياته العلمية التي ضمت تلك المعرفة.[2]

إن القارئ للمجلة الإفريقية خلال فترة الثمانينيا ت من القرن التاسع عشر الميلادي والتي تميزت بظهور المدارس العليا كنواة لجامعة الجزائر [3]، يرى تركيز المؤلفين على الدراسات القديمة وبخاصة الأثرية منها، ونجد بعض الضباط العسكريين كـ" لويس رين" على سبيل المثال بعد نشره لعدة مقالات في هذه الدورية التي خصصها للدراسات اللغوية والإثنولوجية حول أصول البربر منذ العصور الأولى خلص إلى أنه كلما تعمقنا في الدراسات التاريخية واللغوية لإفريقيا الشمالية كلما تأكدنا من حقيقة أن البربر الذين يكونون أغلبية سكان الجزائر هم من عرق ولغة هندو أوربية [4]، وعليه فإن أغلب الدراسات الأنثربولوجية في المرحلة الاستعمارية اهتمت بالنقوش المختلفة أو التصنيفات البدائية، لأنها بكل بساطة تنتهي إلى نفس الأصل التاريخي مع هؤلاء الانثروبولوجيين، وبالتالي إذا ما وجدت قراءة أنثربولوجية للنقوش فهي أنثربولوجيا سلبية تريد إخفاء الإسلام وحجبه وتحويره.[5]

إن ملاحظات ماسكاري حول النمامشة تبعتها بعد ثلاثة عشر سنة دراسات ضابط الشؤون الأهلية فيسيار A.Vaissière في عدد سنة 1892 و 1893 من المجلة

---

1 Masqueray, Ruines Anciennes, Op. cit, p. 92

2 محمد صالح دمبري، الفرنكوفونية الأدبية والسياسة الاستعمارية في الجزائر(1830-1962) صورة الجزائر في الأدب الجزائري الناطق بالفرنسية، ترجمة حسن بن مهدي، مجلة الثقافة العدد 101-1988 طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية وحدة الرغاية الجزائر 1989.ص44

3 Colonna, Op. cit, p.140.

4 Rinn. L, Essai d'études linguistiques et ethnologique sur les berbères, (R.A). Vol N°33 Année1889 (O.P.U) 1, Place Centrale de Ben-Aknoun (Alger) .p.121.

5 Colonna, Op.cit, p.10.

الإفريقية قدمها على شكل"دراسة مفصلة" تحت عنوان "أولاد رشايش Les Ouled-Rechaich"*، هذه الدراسة التي تعزز العديد من النقاط التي ذكرها ماسكاري إضافة إلى أشياء جديدة جاء بها كشجرة نسب أولاد رشايش وفروعها [1]، كما تؤكد هذه الدراسة التأثير العربي الهلالي على هؤلاء البربر من خلال مجموعة التقاليد الشفوية التي تدعم ذلك [2]، وبالرغم من أن أولاد رشايش من أصول شاوية إلا أنهم يدعون أن أصولهم عربية، ربما لإعجابهم الكبير بالعرب أو من منطلق "المغلوب مولع بتقليد الغالب". [3]

ثم تناول فيسيار تتمة لمقاله في العدد 37 لسنة 1893 الاحتلال الفرنسي لمنطقة أولاد رشايش على شكل حوليات، وركز بعد ذلك على تأثير "القرار المشيخي Senatus Consulte "1863 الذي كان يراه آلة الحرب الأكثر فعالية عليهم وعلى الحالة الاجتماعية للأهالي والوسيلة الأكثر قوة وخصوبة التي وضعت بين أيدي الكولون، وبفضله يمكن لأفكار الفرنسيين وعاداتهم التغلغل شيئا فشيئا في هذا المجتمع الجزائري الذي يقاوم ويرفض الحضارة الفرنسية ؛ حتى أن أحد شيوخ القبيلة صرح قائلا:" الفرنسيون قتلوا شبابنا، فرضوا علينا ضرائب الحرب. كل هذا كان لاشيء؛ شفينا من هذه الجراح، لكن تأسيس الملكية الفردية، والترخيص الذي منح لكل واحد لبيع الأراضي التي تؤول إليه بالتقسيم يعتبر حكما بالموت بالنسبة للقبيلة وسوف ينتهي أمر قبيلة أولاد رشايش بعد عشرين سنة من تطبيق هذه الإجراءات" [4] ولا شك في خطورة هذا المرسوم خاصة أن هذا القانون حول الملكية الجماعية للأرض التي كانت في يد القبيلة ولا تقبل القسمة إلى ملكية فردية لتمكين الفرنسيين

* أولاد رشايش قبيلة استقرت شرق بلدية خنشلة المختلطة تتكون من البطون التالية : أولاد زيتون، أولاد عاشور، كياطة، أولاد احمد بن علي، أولاد بلقاسم بن علي، أولاد سي ثابت، أولاد نسر، أولاد زايد و أولاد سليم، أنظر : أكاردو، المرجع السابق، ص 231.

1 Vaissière.A, Les Ouled-Rechaich. (R.A). Vol N°36 Année1892 (O.P.U) 1, Place Centrale de Ben-Aknoun (Alger) 1985 .p.241.

[2] Vaissière, Op. cit, pp.313, 317, 323,324.

[3] Ibid, pp.236.

[4] Vaissière, (R.A) Vol N°37.Année 1892.Op.cit, p.144

من الاستيلاء على الأرض والتي كانت في الكثير من الأحيان تمتزج بمبدأ وجود الجزائريين وحياتهم الاقتصادية والاجتماعية.

اعتبرت الفترة التي تمتد ما بين السبعينيات والتسعينيات أعلى مرحلة من الاحتلال الفرنسي في الجزائر حين تدعمت الهيمنة الاقتصادية والسياسية للكولون فكانت الفترة التي تمتد مابين سنة 1890 إلى 1920 تمثل المرحلة الامبريالية القصوى لفرنسا في الجزائر [1] ومما لا شك فيه أنها أثرت على الكتابات الفرنسية بهذه التطورات فراحت تؤكد الفصل بين القبائل والعرب الذي هو مؤشر المذهب الاستعماري الجديد الذي انتشر في الجزائر بين محترفي السياسة والصحافة، والقائم على سياسة " فرق تسد".[2]

ولقد أصر الكتاب الفرنسيون لإفريقيا الشمالية على اعتبار "الفتح الهلالي" وكأنه أوقف نهائيا كل حضارة في الجزائر، فالخطاب الانثروبولوجي لدى هؤلاء استخدم لتبرير الاحتلال الغربي الذي قدم التشكيلات الاجتماعية المدروسة على أنها دون تاريخ، وبالتالي هي تشكيلات جامدة [3]، وليس من هذا المنطلق–التاريخي– فحسب بل حتى المفكرون والأدباء والفلاسفة الفرنسيون أمثال لويس برتراند Louis Bertrand الذين أظهروا كراهيتهم للجزائري L'Indigène* وأبعدوه آليا من حقل ملاحظتهم.[4]

كتب في المجلة الإفريقية في بداية القرن العشرين مجموعة من المستشرقين الفرنسيين الذين اضطلعوا في اللغة العربية والبربرية وكانوا يشغلون كراسي الدراسات

---

[1] Mostefa Lachraf, L'Algérie nation et société, S.N.E.D.1978, p.83.

[2] سعد الله، أبحاث وآراء، ج4، المرجع السابق، ص56، 58.

3 Addi.Lahouari, De l'Algérie pré-coloniale a L'Algérie coloniale (Economie et Société) entreprise Nationale du Livre, Alger 1985.p.15.

* تعني كلمة الأنديجان "ابن البلد الأصلي" وهذا ما تعرفه أغلب القواميس الفرنسية و بهذا أمكن تطبيقه حتى على كل الفرنسيين الذين يسكنون المتربول، لكن هذا المصطلح كان يعبر عن الشّر والانحراف بالنسبة للجزائريين وأصبح معناه احتقاري، أنظر: حماميد، المستوطنون الأوربيون، المرجع السابق،ص ص16-17.

4 Yahiaoui Massaouda, Louis Lecoq, Histoire et roman coloniale, Diplôme d'études Approfondies, juin1975.p.33.

العربية في الجزائر العاصمة، قسنطينة ووهران، ومن هؤلاء الأستاذ الكسندر جولي Alexandre Jolly الذي ظل ملازما ووفيا للمدرسة ولهذا المستعرب عدة أعمال[1] عن الطريقة الشاذلية[2]، الأولياء في الإسلام[3]، وأنتج عملا خصه عن اللهجة الشاوية لأولاد سلام في منطقة نقاوس حيث رأى أن اللهجة الشاوية المتكلم بها بدأت تتلاشى وحلت مكانها العربية، مستدلا بأن البربري يحس نفسه أدنى من العربي الذي يتميز بوحدة أكبر، كما أن نطاق أولاد سلام نطاق صغير، أدى به لا محالة إلى التأثر بالعوامل الخارجية التي غيرت مفردات لغته الشاوية.[4]

وإذا أمعنا التركيز في إصدارات المجلة التي تناولت الجانب الانثربولوجي نخلص إلى استنتاج مهم هو تركيزها على البربر، ومن هنا يبدو لنا جليا محاولة استمالة هذه العناصر وفق مخطط "الأطروحة البربرية" التي مازلت تلوح بظلالها.

وعبر أعوان الإدارة الفرنسية في هذه المجلة في مطلع القرن العشرين عن مواقفهم المهينة للجزائريين، فنجد المتصرف البلدي الرئيسي للاوراس آريب Arripe الذي نشر مقالا حول الفلكلور في هذه البلدية المختلطة والذي لمح فيه إلى أن سكان المنطقة لا يعتبرون الزواج أمرا جديا واقتبس مقطعا من كتاب مونوغرافية الأوراس Monographie de l'Aurès لدولارتيق " De Lartigue"، فنراه يحط من قدر المرأة الشاوية، التي كان ينظر إليها على أنها عامل من عوامل التخلف، هذا من جهة وعلى صعيد آخر يرى أن الأخلاق في منطقة الأوراس هي أخلاق مائعة حيث يتميز المجتمع بظاهرة تكرار الزواج وكثرة الطلاق [5]، ويمكن التساؤل من خلال هذا

---

[1] إسماعيل العربي، الدراسات العربية في الجزائر(في عهد الاحتلال الفرنسي) المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية وحدة الرغاية-1986.ص48.

[2] Joly. A, Étude sur les Chadouliyas, (R.A). Vol N°51 Année1907 (O.P.U) 1, Place Centrale de Ben-Aknoun (Alger) .p.5.

[3] Joly. A, Saints de l'Islam, (R.A). Vol N°52 Année1908 (O.P.U) 1, Place Centrale de Ben-Aknoun (Alger) .p.171.

[4] Joly. A, Le Chaouiya des Ouled Sellem, (R.A). Vol N°55 Année1911 (O.P.U) 1, Place Centrale de Ben-Aknoun (Alger) .p.414.

[5] Arripe. H-J.: Essai sur le Folklore de la commune mixte de L'Aurès. (R.A). Vol N°55 Année1911, pp.450-451,453.

المقال عن إمكانية وجود روابط متينة بين عائلات هذه المنطقة في ظل هذه الظواهر، ومن خلال دراسات الإثنولوجيين الاستعماريين نجد أن مجالات البحث التي كانت ذات قيمة في القرن التاسع عشر من عادات وتقاليد وفلكلور، قد أصبحت مواضيعها أقل شأنا، ولا يخرج إطار بحثها عن حقل المصلحة الثانوية بشرائح وليس بمجموعات مبنية وبتفاصيل لمجتمع مجزأ وليس بمجموع المجتمع المتناسق، وهي لا تعدو أن تكون مجرد شواهد لفلكلرة* البحث.[1]

إن القراءة المتأنية للمجلة الإفريقية Revue Africaine، التي هي المرآة الصادقة لفترة وذهنية بعينها تمكننا من الوقوف في مضمونها على أمثلة تزيد في تأكيد عهد إنكار المجتمع الجزائري الذي لم تكن له حضارة في الأعمال التي نشرتها وهي الفترة التي ربما أيقن فيها المستعمر أنه لا يمكن أن يدمج هذا الجزائري في الحضارة المزعومة التي جاءت بها فرنسا.[2]

وهنا نصل إلى حقيقة مفادها أن الفرد الجزائري الذي تم اكتشافه في السابق بهدف السيطرة والهيمنة عليه قد تم نسيانه وما أصبح إلا عنصرا من الديكور فالنظا م لم يعد يحتاج إليه واستغنى عنه، والحصيلة العامة التي تم الوقوف عليها هي: أن الإسلام تافه، أما التقاليد والقيم فهي بالية، فتبدو المجلة الإفريقية غارقة فيما لا يهم من موضوعات.[3]

وإضافة إلى هذه المجلة ظهرت عدة دوريات و مج لات لمختلف الجمعيات التي أنشئت بالجزائر كنشرة الجمعية الأثرية لمقاطعة قسنطينة ونشرة الجمعية الجغرافية لمدينة وهران، كما ظهر بالمتروبول ** أيضا جمعيات اهتمت بتعريف المستعمرات لدى الجمهور القارئ خاصة في بداية الجمهورية الثالثة، حين عظم شأن دعاة

* بعد ما كانت المجلة الإفريقية في القرن التاسع عشر تهتم بمواضيع مهمة شملت جميع الميادين شأنها شأن أغلب المجلات الفرنسية، نجد موضوعات ودراسات المجلة الإفريقية تتميز بتقهقر ملحوظ وأصبحت تهتم بالتراث الشعبي والمأثورات و حتى الخرافات والأساطير.

[1] لوكا، و آخرون المرجع السابق،ص ص 30-31.

[2] المرجع نفسه، ص24.

[3] نفسه، ص45.

** للاستزادة أكثر لأهم الجمعيات التي ظهرت بالمتروبول والجزائر كالجمعية الآسيوية التي غذت الاستشراق الفرنسي والجمعية الشرقية والجمعية الجغرافية لباريس وغيرها التي ظهرت بالجزائر أنظر: سعدالله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج6، 89-100.

الاستعمار الفرنسي وكان من بينهم أعضاء الجمعيات الجغرافية والناشرون ورجال السياسة، ونضيف إليهم العسكريين والإداريين الاستعماريين والمستكشفي ن والمبشرين الذين كان لهم تأثير في توجيه الرأي العام والبرلمان الفرنسي.

وما من شك أن انعكاسات التحمس للحركة الاستعمارية نشط وألهم الجغرافيين في هذا المجال حتى أصبحت الجغرافيا في 1872 مادة خاصة في التعليم الثانوي فاهتم الجمهور عندئذ بما أطلق عليه اسم "الحركة الجغرافية" التي سجلت تطورا في استكشاف الأرض، و كذا "الجغرافيا التطبيقية" الت ي امتزجت بالأدب الاستكشافي والرحلات، فكان لها أن ألهمت فرنسا المثقفة.

فبدأ جمهور من القراء التمتع بهذه الرحلات مما مكنهم من الاطلاع على معارف نشرت في هذه الجرائد المتخصصة مثل لوتور دي موند Le Tour du monde أو جريدة الأسفار Le Journal des voyages، فازدادت و تضاعفت الجمعيات الجغرافية لإرضاء فضول العامة، وتأسست في فرنسا مابين سنة 1871 و 1881 اثنتي عشرة جمعية جغرافية *جديدة على شاكلة الجمعية الجغرافية الباريسية الشهيرة في المدن الفرنسية الرئيسية [1]، والتي كانت تصدر نشرة تحت اسمها وهي نشرة الجمعية الجغرافية لباريس ورغم هذه التسمية إلا أننا نجد دراسات أنثربولوجية خصت المجتمع الجزائري وقال الدكتور أبو القاسم سعد الله عن هذه الجمعيات: " بأنها كانت ضيقة الأفق منطلقة من وجهة نظر عنصرية أحيانا –خاصة في القرن التاسع عشر الميلادي– إذا كانت تقوم على البحوث العرقية والأنثربولوجية والنظريات التي تدعو إلى التفوق الحضاري الفرنسي والإنسان الأبيض على العموم".[2]

واهتمت الجمعية الجغرافية التي تأسست بباريس بالاستكشافات الاستعمارية لبلدان المغرب والمشرق، وفي السياق ذاته حاولنا أن نستعرض بعض الدراسات الأنثربولوجية ورأينا أنه من اللازم التعرض أيضا لما نشر لإيميل ماسكاري بمجلتها.

---

* في 1876 ظهرت أولى الجمعيات الجغرافية التجارية، و في باريس انعقد أول مؤتمر عالمي للجغرافيا التجارية.إذ أن هذا الميل للاكتشاف و الجغرافيا يرتبط بطبيعة الحال بالإرادة الكولونيالية، أنظر:
Ageron, Charles-Robert, France coloniale ou parti coloniale ? Presses . universitaires de France 108, Boulevard Saint-Germain, Paris, 1978, p 132.

[1] Ibid, pp.131-132.

2 سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج6، ص 89.

المبحث الثاني : نشرة الجمعية الجغرافية الباريسية Bulletin de la société de géographie de Paris:

اهتمت هذه المجلة بالجغرافيا وعلم الآثار وما قبل التاريخ، ونشرت الكثير من الدراسات التي خصت الجزائر، ومن بين البحوث التي نشرتها الرحلة الاستكشافية التي قام بها إميل ماسكاري الذي وصفه بعض الفرنسيين بالجغرافي والرحالة المستكشف.[1] وعلق على هذه الرحلة أحد الجغرافيين الفرنسيين وهو هنري ديفيريي Henri Duveyrier، وقد كتب ماسكاري عدة مقالات عن رحلاته في الأوراس حين كلف بمهمة أثرية ولسانية في جنوب مقاطعة قسنطينة لاستكشاف الآثار الرومانية في تيمقاد وعند اجتيازه لبلزمة والحضنة.[2]

في مستهل دراسته حاول تعريف الأوراس مستدلا ببعض الآثار الرومانية التي ربما تحمل هذا الاسم[3] واعتمد أيضا على الرواية الشفوية التي استقاها من الطبقة المتعلمة الحاكمة كالقياد وشيوخ المنطقة،* لكتابة مقاله الذي أورد فيه أن "سيدي عبد الله" هو الذي أدخل كل سكان الأوراس إلى الإسلام و سماهم بني بوسليمان المشتقة من كلمة"سلامنا **" رغم التقدير الذي يحظى به عقبة بن نافع الذي توفي في تاهودة.

ولا يستوقفنا في هذا الصدد التعريف بالأوراس الذي صار معروفا بقدر ما يستوقفنا اهتمام هذا الكاتب بالتقسيم والنسب القبلي في المنطقة.

ويذكر أنه لا يوجد أي ساكن في الأوراس إلا ويعرف على الأقل اسم أولاد عزيز الذين تبقى أصولهم غير مؤكدة لكنه من الثابت أنهم يتكلمون البربرية، وبعد صراع

---

1 Bernard, Op.cit, pp.358-359.

2 الميدان الذي أختاره ماسكاري كمسرح رئيسي لأبحاثه هي سلسلة جبال الاوراس.

3 Emile, Masqueray, Voyage dans l'Auras, Etudes Historique, In : Bulletin de la Société de Géographie de Paris, Tome 14eme, 1876, Imprimerie De Martinet, Rue Mignon, 2 Paris, 1876, p.41.

* حيث يذكر ماسكاري مايلي:((شيخ تاغيت الذي سألته أجابني أن هذه القمة في السابق حملت أشجار الأرز)) كما انه استجوب بعض الأشخاص الأكثر تعلما من بين سكان المنطقة مثل القايد محمد بن عباس و القايد السابق للأوراس و سي سعيد بن محمد الذي يقيم في سيدي عقبة

** تعني هذه الكلمة ((دخلنا الإسلام))

قبلي في المنطقة هاجرت قبيلة أولاد عزيز نحو التل وخلفتها في الأوراس القبائل التالية:

1- في الغرب وفي الجنوب: أولاد زيان وبني فرح .

2- في الشرق على شريط صغير من الأرض: التوابة (أولاد داود).

3- في الوسط، من الجنوب إلى الشمال: أولاد عبدي في منعة، نارة، تاقوست، الأرباع وبوزينة.

وأولاد عزوز حيث تمتد القرى من شير إلى باعلي بالإضافة إلى أم الرحى وتاغيت.[1]

ويبدو أن هذا المؤلف- في بداية حديثه عن هذه القبائل- أشار إلى أن هناك بعض الخلط بين أهالي منعة، نارة، بوزينة، لرباع، وتاقوست وبين أولاد عبدي، أولاد مومن وأولاد عزوز .فالكثير يعتبر أن كل هذه القبائل هي " أولاد عبدي" ولعل هذا الخلط يعود إلى أنهم جميعا يخضعون لقيادة "محمد بن عباس".[2]

أما قبيلة أولاد زيان فينظر إليها على أنها عربية تستخدم اللغة العربية بالرغم من أن أغلبها يعرف البربرية الشاوية، وهي من قبائل البدو الرحل التي ترتحل في الأراضي التي تمتد من برانيس إلى وادي الطاقة، وتمتلك واحات برانيس، جمورة وبني سويق التي تستقر بها خلال فصل الشتاء، أما صيفا فيتجه أفراد هذه القبيلة نحو تيزراران ووادي الطاقة حيث يتبع هؤلاء كلأ ماشيتهم، ويبقى الفقراء منهم في هذه الواحات خلال الصيف.

وأورد ماسكاري بناء على شهادة شيخ نارة المتعلم والعارف بالتقاليد، أن منعة نارة وأولاد عبدي هم إخوة ؛ أما الآخرون فهم غرباء، في حين يذكر أن قاضي الأوراس السابق سي سعيد بن محمد أخبره بأن منعة نارة و أولاد عبدي "بالإضافة إلى التوابة، أولاد يعقوب وبني بوسليمان " هم رومانية Roumania، وتاقوست والأرباع وبوزينة هم بربر، وربما يكون هذا التصنيف أو التقسيم عبارة عن محاولة للإجابة على

[1] Masqueray, Voyage, Op. cit. pp.43-45.

[2] بن ضيف الله، المرجع السابق، ص ص 296-297.

الفرضية التي انطلق منها ماسكاري، وهي البحث عن إمكانية وجود نظام الأقنان والأسياد في هذه المنطقة، أو إثبات وجود أصول رومانية لدى سكان المنطقة ؟[1]

ويرجع ماسكاري التمايز الموجود بين مختلف هذه القبائل إلى التقاليد والعادات والدم، ولون الشعر والبشرة ويركز على ذوي البشرة البيضاء الذين يجد أغلبهم في نارة، حيث يشار إليهم دائما باسم "أولاد الرومانية". وعند حديثه عن أصول منعة ونارة وأولاد عبدي فيرى أن لهم ذكريات أكثر دقة، فهم يتداولون فيما بينهم مثل التوابة أنهم منحدرون من "الرومي" "بورك"Bourk".[2]

وعلى كل فنحن نجد أن ماسكاري يركز على إبراز العنصر الروماني البعيد المدى لكنه يعجز في نفس الوقت عن إيجاد العلاقة مع الأصول العربية الإسلامية القريبة، واعتمد على أسطورة "بورك" الغامضة للتأكيد على ارتباط سكان الأوراس بالعنصر الروماني، كما أن المعلومات التي تلقاها من الأهالي حول أصل بورك متضاربة إلى حد بعيد.[3]

ومن خلال هذه المعطيات التي جاء بها ماسكاري فليس غريبا أن ي ركز على الصراعات داخل قبائل الأوراس فيرى مثلا أن نارة كانت في حرب مع جارتها القريبة منعة ؛ وبوزينة كانت في حرب مع أم الرحى، وتاقوست مع بني فرح رغم استبعاده للاختلاف العرقي كعامل لهذه الصراعات إلا أنه أرجعها لأسباب تعود للنزاع القائم على منابع المياه والأراضي، ويذهب إلى ذكر أنه نتج عن الأحزاب التي ظهرت قرى يصرح أهلها أنهم إخوة في حين أنهم مسلحون ضد بعضهم البعض وحلفاء مشتركون مع الغرباء، وهذه الأحزاب يمكن أن تكون مجموعتين أو صفين رئيسيين وهما:

1- صف التوابة الذي كان ينتمي إليه أولاد زيان، نارة، تاقوست، بوزينة، فضالة مع نصف قبيلة بني فرح ومشونش.

---

[1] ، المرجع نفسه، ص.297.

[2] Masqueray, Voyage, Op.cit, p.47.

[3] بن ضيف الله، المرجع السابق، ص.299 .

2- صف أولاد عبدي الذي تنتمي إليه مستوطنة أم الرحى، الأرباع ونصف من قبيلة معافة، أولاد عزوز وبني بوسليمان وأولاد ملول، أولاد وجانة، وأولاد عشاش.[1]

ويعتقد أن تكريس فكرة الصراع داخل هذه القبائل وتوجيهه وعدم إشارة ماسكاري إلى دور الإسلام في توحيد هذه القبائل والقضاء على الصراعات بينها، هي محاولة لتوجيه المناوشات الموجودة بين هذه القبائل عن غير حقيقتها، وذلك أن ماسكاري يطرحها دائما في صورة مزدوجة: (أولاد عبدي-التوابة)، (أولاد عزيز-أولاد زيان) و(بني بوسليمان-أولاد وجانة)، وبهذا يريد أن يثبت ديمومة العداوة بينها، غير أن الواقع يظهر عكس ذلك ؛ فهذا العداء لم يكن ثنائيا، فبالإضافة إلى الصراع الذي كان بين التوابة -مثلا- وأولاد عبدي كان لهم أيضا صراع مع بني وجانة، وبني بوسليمان وأولاد زيان [2]، والملفت للانتباه أن السلطات الفرنسية نفسها عملت على تقسيم القبيلة والقضاء عليها، باعتبارها الوحدة التي كانت تمثل خلية المجتمع الجزائري وتقف أمام التغلغل الفرنسي فيه، ومنه فإن الدراسات الأنثروبولوجية الفرنسية تهدف في الواقع إلى إيجاد أهم الوسائل للقضاء على القبيلة وإنشاء نظام العائلة على أنقاضها [3]، وإلى غاية 1918 كانت الحركة الكولونيالية الأكثر شدة والمقاومة الجزائرية مازالت تستند على عناصر الماضي أي بمعنى الريف، وعلى تضامن القبائل، فحاولت الحركة الاستعمارية الفرنسية المستطردة إضعافها من القاعدة، وإضعافها بمصادرة الأراضي وبواسطة النظام الاقتصادي الجديد الذي جاءت به.[4]

الحقيقة أن تناول ماسكاري للمجتمع الأوراسي بهذه الطريقة يراد به بناء نظريات تنتهي بنتيجة مفادها وجود فوارق وتفككات بين الجزائريين ولهذا نجد الكثير من الكتاب الفرنسيين يبحثون عن الاختلافات في المقابر والحوادث التاريخية وفي لون البشرة ويقول الدكتور أبو القاسم سعدالله في هذا الصدد:" وكانوا يدخلون البربري

---

[1] Masqueray, Voyage, Op.cit. pp.49, 52-53.

[2] بن ضيف الله، المرجع السابق، ص.300.

[3] سعد الله، الحركة الوطنية(1830-1900)، المرجع السابق ص113.

4 Djender .M, Introduction a l'histoire de l'Algérie, S.N.E.D, p.197.

والعربي في المخبر الفرنسي ويأخذون عينات من دم هذا وذاك، ومن جمجمة هذا وذاك ومن جلد هذا وذاك، ثم يحللونها بمهارتهم "العلمية" باستعمال تقنيات الأنثربولوجيا، واللسانيات، والأنساب، والسلالات، ثم يعلنون النتيجة الباهرة، في نظرهم، وهي أن هناك أكثر من شعب يسكن الجزائر، وأن هناك اختلافا بين عناصر هذه الشعوب".[1]

الأعياد والاحتفالات:

تناول ماسكاري الأعياد والاحتفالات عند سكان منعة، نارة وأولاد عبدي، ورأى أن (بو يني) يصادف احتفالات عيد المسيح عند "هؤلاء الشاوية الرومانية" [2] ومن هنا فهو يعتبر أن هذا الاحتفال مشتق من كلمة " BONI ANNUS " والواقع أن هذه التسمية هي محلية ومشتقة من "ايني" أو "اينق" التي تعني الحجرة حيث يتم تغيير إحدى الأحجار التي تحيط بموضع النار والتي يطبخ عليها. وحاول على صعيد آخر تأكيد هذا الحضور الروماني عندما ذكر أن احتفال رأس السنة الميلادية، يسمى في كل ربوع هذه المنطقة "ينار" "جانفي"، أما عيد الربيع الذي يصادف "Rogations" أي صلوات الربيع يرتبط عند هؤلاء السكان بفرحة نهاية الشتاء وبردها القارس وعودة الماشية من المناطق الدافئة، وحتى عيد الخريف الذي يصادف موسم قطف العنب، وفي الواقع أن ارتباط الأهالي بمثل هذه المناسبات هو ارتباط طبيعي لا يخص منطقة الأوراس وحدها بل يخص الإنسان ككل، بمعنى علاقة الإنسان النفسية والوجدانية مع تحولات الطبيعة التي هي عبارة عن "مواعيد".[3]

والحقيقة أن ماسكاري حاول دائما ربط البربر بالرومان الأوربيين وبالفرنسيين المسيحيين ، حينما يورد العادات الشرعية ل لجزائريين "القانون العرفي " ويربطها بالبرغنديين والفرنك.

ومن الواضح أن هذه الدراسات قد أثرت على السياسة الفرنسية اتجاه البربر فقد تم البحث في صلب الدراسات الإثنولوجية العسكرية والجامعية فيما بعد من طرف رجال

1 سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج6، ص 305.

2 Masqueray, Voyage, Op. cit.p.48.

3 بن ضيف الله، المرجع السابق، ص300.

السياسة الفرنسيين لصياغة واستخلاص آليات التقسيم وترسيخ السيادة الاستعمارية وقد ظل مصطلح العرق والقبيلة قائما لإظهار كيانات منفصلة في الجزائر وعلى أنها متخاصمة بالأساس.[1] وقد عبر بول لروا بوليو Paul Leroy Beaulieu الذي كان أحد منظري السياسة الاستعمارية عن ضرورة الاستفادة من "عدم تجانس الجزائريين إذ صرح قائلا: " يفيدنا عيب لا تجانس السكان في الجزائر جدا في سياسة العلمنة التي نخوضها، فنحن نمتلك فرصة تفتيت الكتلة الأهلية من خلال التفكيك المنهجي للمؤسسات الأساسية التي كونت قوة تماسكها"، ويشير إلى وجود اختلاف في عقيدة العرب والبربر، ويقدم لنا مغالطات واهية حين كتب قائلا:" نحن نعلم أنه يوجد في الجزائر حوالي 1000000 من العنصر القبائلي أو البربري النقي الذي يمثله السكان البدائيون للبلاد ويوجد 500000 من العرب الأقحاح ترجع أصولهم للغزاة و1200000 من البربر المستعربين أي أن أصولهم غير عربية لكنهم اكتسبوا عادات وتقاليد العرب"[2] وتذكرنا هذه الأفكار بأفكار الطبيب ورانيي الذي جاء بأخطر القوانين التي عرفتها الجزائر المستعمرة بعد القرار المشيخي.

وبعد أن استكشف ماسكاري نهائيا الجانب الإثنوغرافي والأثري للوادي الأعلى لأولاد عبدي ووادي الطاقة، خلص للإجابة عن إشكالية المهمة التي ذكرناها آنفا وهي إمكانية وجود ذكرى نظام الأسياد والأقنان في منطقة الأوراس، ورأى أن سكانها قد عاشوا هذا النظام الاقتصادي والاجتماعي بطريقة أو بأخرى [3] مستدلا بأمثلة عن الرعي: فأولاد مؤمن كانوا رعاة عند أولاد عبدي، الذين فرضوا عليهم عاداتهم وحتى شكاويهم الخطيرة كانت ترفع إلى قرية شير من قبل كبير قبيلة أولاد يوسف التابعة لأولاد عبدي.[4]

1 لوكا، وآخرون المرجع السابق، ص44.

2 Paul Leroy-Beaulieu, De la colonisation chez les peuples modernes, Guillaumin , Paris, 1882.p 354

3 بن ضيف الله، المرجع السابق، ص.298.

4 Masqueray, Voyage, Op.cit, p.450.

لقد كان ماسكاري أول من تولى إدارة مدرسة الآداب التي تعتبر النواة الأولى لجامعة الجزائر[1]، وكانت المرحلة الأكثر إنتاجا في حياته هي تلك التي تبدأ بالخطوة الأولى في الأوراس سنة 1876 إلى غاية مناقشة أطروحته عشر سنوات بعد ذلك [2] وكتب في عدة مجلات وجرائد فرنسية مثل جريدة الفيجارو والنقاشات السياسية الأدبية وكان من مراسليها اللامعين والذي ساهم فيها منذ سنة 1880[3] بعد أن خلف إسماعيل عربان– الذي التقى به و تحمس له –أين كان ينشر فيها تحت اسم مستعار، أما سياسيا فكان من دعاة الإدماج بالرغم من أنه ظهر أقل تأييدا لارتباط الجزائر بفرنسا ومنه فقد تشبع بأفكار تقضي بمنح الجزائر حرية أكثر في تسيير شؤونها وأن تكون لها ميزانية مستقلة، ويبدو أن لمسكاري توصيات قد بعث بها لجول فيري حول السياسة التي يجب إتباعها اتجاه الجزائريين معلقا آمال تجسيدها على جول كومبون.

واعتبر المؤرخ شارل روبير آجرون ماسكاري ككاتب متعاطف مع الأهالي " Indigénophile " أين يظهر دائما مصيبا ومعتدلا بالرغم من أنه خدش الإقطاعية الجزائرية (للكولون) عندما كان يكتب على طريقة عربان:" الحفيد المتأخر لسكان الريف الذي حررته الثورة–يقصد بها الثورة الفرنسية–هو هنا أي في الجزائر سيد (إقطاعي) صغير، له خدمه من العرب، يسكن في مزرعة محصنة وحولها يعيش المالكون القدامى في أكواخ من الأغصان. ومهما يكن فهو الاستعباد الذي يتوسع". [4] وقد سار هذا الأنثربولوجي على خطى فكر إسماعيل عربان والحركة "الأندجانوفيلية" كفكر واقعي حول السياسة الاستعمارية الفرنسية الناجعة التي وجب اتباعها اتجاه الجزائريين، فالاستعانة بالنخب الجزائرية وتوسيع التعليم وتطوير التعليم المهني هي ركائز هذه السياسة بالنسبة لماسكاري، إذ كتب في عمود له في إحدى الصحف "

1 سعد الله، الحركة الوطنية(1830-1900)، المرجع السابق ص.532.
2 Colonna, Op. cit, p.136.
3 Journal des débats, (13Avril1895)
4 Ageron, Les Algériens Musulmans, T1 Op. cit. p.422.

الرجوع إلى النخب المسلمة نشر المدارس.. . عدم التخوف من تشريف رجال الدين الذين يكونون عند قومهم حراس الأخلاق".[1]

وأسس ماسكاري في الجزائر مجلة المراسل الإفريقي التي كانت لسان حال المستشرقين لمدة طويلة[2]، والتي بدأت في الصدور بداية من 1882 إلى 1886 وبما أن الثمانينيا ت تميزت بالبدء المؤسساتي [*] والإبستمولوجي كما سبق ذكره فقد تضمنت أعماله مزيجا من دراساته الأولى وخبراته السابقة.[3]

لم تكن الكتابات التي أسهم بها ماسكاري إلا بعد تعيينه كمدير للمدرسة العليا للآداب فعمل على بعث الدراسات الأثرية والتاريخ المقارن مركزا على مختلف أشكال الاحتلال التي عرفها الشمال الإفريقي، وتحت عنايته بدأت هذه الكلية تصدر نشرة باللغة الفرنسية للدراسات اللغوية فاهتمت باللهجات البربرية ونشرت دراسات أثرية وتاريخية، وأنثروبولوجية من إنجاز أساتذة هذه المؤسسة بعنوان "نشرة المراسلات الإفريقية" " Bulletin de correspondance Africaine"[4].

المبحث الثالث: مجلة المراسل الإفريقي Bulletin de correspondance Africaine:

بدأت مدرسة الآداب منذ سنة 1882 بإصدار نشرة المراسل الإفريقي [**] Bulletin de correspondance Africaine ويعود الفضل في ذلك إلى ليبرالية وزير التعليم العمومي بول بارت ومبادرة آلبير دومون الذي كان يشغل مدير التعليم العالي، وتشهد هذه المجلة أيضا على نشاط ماسكاري الذي كان أهم كتابها والذي ترأس تحرير هذه النشرة نصف الشهرية التي كانت تتضمن أيضا الدراسات الأثرية

---

1 Journal des débats, 28 Mars 1891.

[2] سعد الله، الحركة الوطنية(1830-1900)، المرجع السابق ص.533.

[*] يقصد بالبدء المؤسساتي هو بداية ظهور المدارس العليا في الجزائر وتبعه ظهور الجامعة، أما الإبستمولوجيا فهي الدراسة النقدية للمعارف العلمية ومناهجها.

3 Colonna, Op.cit, p.140.

4 Journal des débats 21/06/1883.

[**] لم تستطع هذه المجلة الاستمرار في الصدور لذلك ستتحول سنة 1890 إلى مجموعة من الدراسات المونغرافية أنظر: François Pouillon, Dictionnaire des Orientalistes de langue française , Nouvelle édition revue et augmenté, Editions Karthala, 2012 .p 871.

واللسانيات [1]، الأنثروبولوجيا والاستكشافات والجغرافيا في الجزائر، فتضمنت عدة مقالات له عن الآثار الرومانية في منطقة الأوراس والنقوش التي وجدها في بور (أراضي) أولاد زيان [2]، كما نشر مقالا آخر يؤكد فيه ارتباط أولاد عبدي بالرومان زاعما أن الأثر الأكثر بروزا والذي بقي منذ الأزمنة القديمة الكلاسيكي ة في المنطقة الأوراسية لأولاد عبدي، هو خاصة ذلك التقليد الأهلي الذي يتمثل في الاعتقاد بأن نصف السكان الذين يحتلونها هم من أصل روماني [3]. وقد صرح ماسكاري سنة 1885:" يجب الإقرار أنه لا يوجد دليل تاريخي وإثنوغرافي صالح لإفريقيا الشمالية" [4]، وحسب رأيه فإنه يجب أن تصبح نشرة المراسل الإفريقي عملا رئيسيا ملما بما يجري في إفريقيا من أحداث.[5]

لكن إذا رجعنا إلى تقديم أول عدد من هذه النشرة والذي أصدر سنة 1882 فإننا نتأكد أن هذه الأعمال لم تكن مستقلة في سبيل العلم بل كانت الإدارة الاستعمارية وراء تشجيع مثل هذه الأعمال فقد جاء في تقديم أول عدد ما يلي:" يرجع الفضل في صدور هذه النشرة إلى ليبرالية وزير التعليم العمومي بول بارت Paul Bert وإلى السيد مدير التعليم العالي البير ديمون Albert Dumont الذي يواصل في مدرسة الجزائر عمل روما وأثينا.[6]

1 Bernard, Op.cit, p .352.

2 Masqueray.E, Le bour des Aouled Zeian et le Fedj près Khenchela. In : Bulletin de Correspondance Africaine, Septembre et Octobre, 1882, Imprimerie de L'Association ouvrière P.Fontana et Compagnie, Alger, 1882.p. 266

3 Masqueray.E, Inscription de Ouad Abdi, In : Bulletin de Correspondance Africaine, Novembre Décembre, 1882, P. Fontana et Compagnie, Alger, 1883 p.327.

4 Colonna, Op.cit, p.143.

5 Ibid.p.141.

6 Emile Masqueray, La Stèle lybique de Souama, In : Bulletin de correspondance Africaine, Antiquités Lybiques puniques grecques et romaines, Fascicule 1 Janviet et Fevrier, 1882, Imprimerie de l'association ouvriere P. Fontana et Compagnie, Alger, 1882. p 5.

كثرت المجلات التي كان الفرنسيون ينشرونها باختلاف توجهاتهم واختصاصاته م مستخدمين في ذلك تقنيات حديثة كالتصنيف، وتنظيم الفهارس والتنظيم الأبجدي والتصوير والتمثيل بالخرائط [1]، وكتبوا في مجلاتهم وصحفهم عن الجزائر كإقليم جغرافي تداولت عليه شعوب مختلفة ولا وجود لمجتمع متماسك، وإنما هي قبائل متصارعة لم تعرف السلم حتى مجيء الفرنسيين.[2]

هذه المجلاّت التي كانت تصدر باسم الجمعيات التي تخصصت في مجالات وميادين مختلفة تناولت بشكل أو بآخر الجزائر لكن كفسيفساء من العناصر الإثنية وظهرت فيها إمكانية توظيف التاريخ المحلي في خدمة السياسة الاستعمارية، إذ كان الضباط العسكريون والكتاب الجامعيون يعملون صفا لصف لإنجاح المشاريع الاستعمارية في الجزائر.[3]

وفضلا عن ذلك وجدت مجلات أخرى تضمنت مادة تاريخية وأنثروبولوجية يمكن الاستفادة منها في الكتابة التاريخية، حيث أنها تطرقت للعالم الإسلامي– وربما نعزو ذلك إلى ضعفه وسقوطه تحت وطأة الاستعمار– ولهذا وجب تتبعها عن كثب وتصنيفها بدقة، فمجلة "العالم الإسلامي Le Monde musulman " على سبيل المثال التي نشرت إلى جانب الدراسات اللافتة للأنظار الخاصة بالإسلام نشرت أيضا ملخصات الصحف وعرائض الأهالي في كل العالم الإسلامي [4]، ونحن نتوقع إذن أن نجد مبكرا تجمعا من رجال السياسة والصحافيين والكتاب الذين يوصون بسياسة استعمارية توسعية.[5]

نستنتج مما سبق ذكره أنه بتقدم الاستعمار الفرنسي في الجزائر بدأ بعض المستشرقين التنسيق مع الباحثين في الإدارة الاستعمارية لإقامة مؤسسات تقوم بنشاطات ميدانية للنقوش والآثار أدى إلى ظهور العديد من الجمعيات التي رسمت

---

[1] سعد الله، أبحاث وآراء، ج1، المرجع السابق، ص35.
[2] المرجع نفسه، ص36.
[3] سعد الله، الحركة الوطنية(1830-1900)، المرجع السابق ص ص371-372.
[4] Julien.Charles-Andrée, Une pensée Anti-coloniale positions 1914/1979, Sindbad 1et3 Rue Feutrier, Paris18, 1979.p.79
[5] Ageron, France coloniale, Op.cit, p.133.

أهدافها منذ الوهلة الأولى وهي استكشاف البقايا الكثيرة التي خلفتها الهيمنة القرطاجية النوميدية والرومانية والعربية [1]،هؤلاء الكتاب الذين حاولوا من خلال مجلاتهم الدورية التأكيد على أنهم مسؤولون عن كتابة تاريخ الجزائر مركزين على بقايا الرومان كشاهد على حضارة وجب استخلافها من قبل الفرنسيين فكانت جل الكتابات والدراسات الفرنسية في هذه المجلات غير خالصة للعلم لكن هذا لا ينفي إمكانية الاستفادة منها، ومن جهة أخرى أسهمت الأنثروبولوجيا كعلم تحليلي وتشريحي في فهم المجتمع الجزائري لكنها لم تتخلى عن إيديولوجيتها العنصرية.

بالإضافة إلى الكتابات والمساهمات الأنثروبولوجية التي ظهرت خلال الفترة الاستعمارية خاصة في الصحافة الدورية إلا أننا نجد بعض الكتابات اللأنثروبولوجية الفرنسية التي تناولت الجانب القانوني للمجتمع الجزائري، لكننا نتساءل عن المجالات التي ركزت عليها هذه الكتابات؟ ولماذا تناولت القوانين العرفية لدى البربر؟

4- المبحث الرابع: الكتابات الأنثروبولوجية القانونية* والمجتمعات البربرية:

لقد اهتم الفرنسيون منذ بداية احتلالهم الجزائر بالقوانين الع رفية التي كانت سائدة في ا لكثير من مناطق الجزائر وكانت أولى الأعمال التي نشرت في هذا المجال هي دراسات هانونتو و لوتورنو اللذان نشرا كتابا تحت عنوان: " منطقة القبائل والقوانين القبائلية La Kabylie et les coutumes Kabyles"، والذي ضم النظم القضائية العرفية الخاصة بمنطقة القبائل الكبرى، واعتبره البعض من الفرنسيين كأهم المصادر الأولى التي يعتمد عليها في هذا المجال، وجاءت هذه الدراسة بعد تعيين هانوتو كقائد على دائرة ذراع الميزان سنة 1859 حيث بدأ يقوم بالأبحاث التي

[1] معريش، المرجع السابق، ص28.

* تعنى الأنثروبولوجيا القانونية بدراسة القانون ، والنظم القانونية ، ووسائل الضبط الاجتماعي الرسمية وغير الرسمية ، ومفهوم الأمن والعدالة الاجتماعية ، ونظم القضاء غير الرسمية، والأعراف المستخدمة في حل المنازعات الشخصية ، بغية فهم الحقيقة الكلية للقانون الرسمي ، والعرف الاجتماعي ، ووسائل التعبير التي يمكن الإحساس بها وملاحظتها ، والتعرف على مداها ،. إن تلك المظاهر المادية للقانون تنطوي على معان خفية يمكن الكشف عنها من خلال الكشف عن علاقة القانون بالمتغيرات الاجتماعية وبخاصة تلك التي تتعلق بوسائل الضبط الاجتماعي.

تخص القوانين العرفية القبائلية تحت الوصاية والتعليمات التي أصدرتها السلطات العسكرية الفرنسية لفهم المجتمعات التي كانت مجهولة بالنسبة إليها ومعرفة أدق التفاصيل عن السكان الذين سيديرونهم، وقصد صياغة قرارات ومراسيم لبسط الاحتلال الفرنسي في هذه المناطق، على أن الإ دارة الفرنسية حاولت أن تبقي على هذه التنظيمات كما هي عليه [1]، وهذا طبعا لأن الكثير منها يتنافى مع الإسلام، وقد أوصى العديد من رجالات القانون بفائدة هذه الدراسات التي هي في خدمة مصالح فرنسا وكذا لمعرفة الحياة الاجتماعية للجزائريين وخلص البعض منهم إلى أن القانون العرفي استطاع الصمود بالرغم من وجود التشريعات الإسلامية والقوانين الفرنسية.[2]

ولقد قسم الفرنسيون المغرب العربي فيما يخص المجال القضائي إلى قسمين كبيرين؛ بلاد القانون المكتوب، وبلاد العرف، فالقسم الأول تبنى الإ سلام والشكل القضائي الذي جاء به ؛ أما القسم الآخر فبقي وفيا محافظا على القوانين والتنظيم ات القضائية المحلية، وهي قوانين عرفية غير مكتوبة "غير مسطورة " أو محررة في سجلات أو على ورق، حتى إلى وقت قريب.[3]

وقد أجرى الفرنسيون الدراسات الخاصة بالقوانين العرفية لمعرفة أساليب معالجة النزاعات والإ دعاء ضمن إطار تاريخي يشمل جميع السكان ا لجزائريين والنماذج القانونية فيها ، فمعرفة توزيع وكيفية استخدام الأساليب المختلفة لحل المنازعات الفردية منها "الإدعاء" والثنائية " التفاوض" وثلاثية الأطراف " الوساطة ، التحكيم وإصدار الحكم" هي أمر أساسي لتفهم الاتجاه التطوري للقو انين من مرحلة النزاع

1 Hanoteau. M (Général.) : Quelques souvenirs sur les collaborateurs de "la Kabylie et les coutumes kabyles". In : (R.A). Vol N°64 année 1923 (O.P.U) 1, Place Centrale de Ben-Aknoun (Alger).pp.134-138

2 Bousquet.G, Enquête sur le domaine respectif de la législation française, de la loi musulmane et de la coutume, en Afrique du Nord, In : (R.A). Vol N°76 année 1935 (O.P.U) 1, Place Centrale de Ben-Aknoun (Alger).1998.pp. 373-374,376.

3 M.Rémond, L'élargissement des droits politiques des indigènes. Ses conséquences en Kabylie. In : (R.A). Vol N°53 année 1909 (O.P.U) 1, Place Centrale de Ben-Aknoun (Alger) 1986.p.228.

وحتى مرحلة الإدعاء بعد أن ازداد التعامل مع خارج المناطق البربرية وفسر هؤلاء الكتاب أن بعض المجتمعات لم تطور في نظمها القانونية لأنها تعيش اقتصادا بسيطا يعتمد على أسلوب التفاوض كطريقة لحل المشاكل ولا تحتاج إلى نظام قضائي معقد، وقد احتفظ الكثير من البربر البعيدين عن المراكز الكبرى بالعادات القديمة، وأحلوها محل الحكم الشرعي، هذه العادات التي أصبحت عرفا وقانونا ينفذه رجال الجماعة.[1]

وكانت منطقة القبائل، ميزاب والأوراس ضمن القسم الثاني الذي ذكرناه سابق ا حيث لا يوجد قانون مكتوب بها و محرر في وثائق رسمية، فهو يورث من جيل إلى جيل عن طريق التقليد الشفوي خاصة لدى العائلات المرابطية، و بعد الاحتلال الفرنسي تم تقريبا التخلي عن هذه القوانين العرفية ولم تبق في هذه المنطقة سوى بعض الروايات عند بعض الطُّلبة.[2]

وإذا كان العرف هو اعتياد الأشخاص على اتخا ذ سلوك معين في مسألة معينة بحيث يستقر الشعور لدى الجماعة باعتباره سلوكا ملزما و مستتبعا لتوقيع الجزاء على مخالفته، فقد نشأت هذه القاعدة تلقا ئيا تدريجيا مع نشوء الحاجة إلى تنظيم العلاقات الاجتماعية، وتطورت تلقائيا كذلك مع تطورها [3]، ولما كان القانون ضروريا لحفظ كيان الجماعة البشرية و استقرارها وأمنها، ولا حياة للإنسان إلا في الجماعة فكان القانون ضروريا لحماية هذه الحياة.

وإذا كانت المناطق البربرية هي أكثر استخداما للقوانين العرفية فإن بعض الفرنسيين يقسمون مدى تطبيق الأعراف حسب درجة تعريبهم فتظهر لدينا ثلاثة أصناف:

الصنف الأول من البربر المستعربون يطبقون الإسلام كتشريع لهم.

---

[1] أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، (ط 2)المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص.344.

2 (S.N) Kanoun Kabyles, 1895, p. IX.

[3] محمد حسنين، الوجيز في نظرية القانون(في القانون الوضعي الجزائري)المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.ص47.

الصنف الثاني من البربر غير المستعربين تماما يخضعون للإسلام لكنهم يطبقون القوانين العرفية وخاصة ما تعلق بالإجراءات العقابية.

أما الصنف الثالث وهم البربر غير المستعربين فلا يحتكمون إلا لأعرافهم.[1]

والحقيقة أن إميل ماسكاري من بين الكتاب الفرنسيين الذ ين أولوا اهتماما منقطع النظير بالقوانين العرفية السائدة في المناطق البربرية الثلاث "القبائل، ميزاب والأوراس" ولكانت بداية هذا الاهتمام الدراسة التي نشرها في المجلة الإفريقية فقد أورد ماسكاري قائلا: " صرح لي أحد الر جال في م نعة قائلا ؛ لا أحد كان يحكمنا و لا نعترف إلا بالجماعة" فكانت "الجماعة" هي السلطة الوحيدة التي يعترف بها جميع سكان منطقة الأوراس، والتي هي عبارة عن مجلس " يضم أفراد من عامة السكان"أو تضم كل بالغ يستطيع حمل السلاح وكان يسير ها في الغالب الأشراف الذين لهم بعض الميزات الاستثنائية كالثروة والقوة أو الدهاء، ووصفها قائلا:" إنها المدينة الحيّ، سيدة نفسها، حرة في سلطتها" و حسب ماسكاري فإن المؤسسات السياسية في منطقة الأوراس هي مؤسسات متطابقة تقريبا في جميع المناطق الأخرى من الجزائر، وتعتبر القوانين ا لعرفية في العديد من المناطق كمنعة، شير وتاقوست كمثال للجماعة، ووظيفتها الأولى هي قمع، منع والوقاية من العنف و الجرائم التي تعيق حرية نشاط الأفراد وتهدد حياتهم [2]، لقد اهتم ماسكاري في كتابته "تشكل المدن" بالقوانين العرفية التي كانت سائدة في منطقة الأوراس، ورأى أن هذه الأعراف الشرعية– كما سماها– تستند على نظام التعويض – خاصة المادي– كجزاء [3]، وقد تناول ماسكاري بالتفصيل في ا لمقال الذي نشره في المجلة الإفريقية لسنة 1877[4]، جملة القوانين المطبقة والعقوبات الخاصة بها.[5]

لقد اهتم الكثير من الفرنسيين بالقوانين العرفية التي كانت سائدة في بعض المناطق الجزائرية خاصة المنعزلة منها، كمنطقة القبائل، والمنطقة الأوراسية ومنطقة

1 Marcel Morand, Etudes de droit musulman et de droit berbère, Jules Carbonel, imprimeur, Alger, 1931. p 295.
2 Masqueray, Formation, Op.cit pp.39,50 ,78.
3 Masqueray, Voyage, Op.cit.p. 49.
4 Masqueray, Documents historique, Op.cit.p.97.
5 أنظر الملحق رقم 3.

ميزاب، فحاول ماسكاري في هذا السياق أن يقيم مقارنة بين السكان ا لمستقرين في تلك المناطق والأعراف التي كانت تسير مجتمعاتهم، ومهما يكن فإن جملة القوانين السابق ذكرها هي بوجه خاص مجموعة من القواعد التي تنظم علاقات الناس في المجتمع الأوراسي، وأغلبها قواعد أخلاقية، وكان العرف في المجتمعات القديمة هو المصدر الرسمي الأول للقانون الوضعي لكن أهم ميزاته هي مطابقته لحاجة المجتمع ومرونته وهو يتغير بتغير ظروف المجتمع ومتطلباته، ومن أهم عيوبه عدم كتابته لأنه يثير صعوبات عند تطبيقه.[1]

وقد رأى بعض الفرنسيين أن هذه القوانين وهذه المؤسسات البربرية لم تنشأ من حاجة المجتمع، لكنها مستقاة من القوانين الرومانية وهي مثل القوانين الفرنسية [2]، ويبدو أن اهتمام ماسكاري بالأعراف لم يكن بعيدا عن التنظير الاستعماري فقد صرح في هذا السياق: "أن القوانين البربرية تساعد بشكل خاص سياستنا، لأنها تختلف عن القوانين الإسلامية، فالقانون البربري هو وسيلة ثمينة بالنسبة لنا: كلما استعملناه كلما اتسعت الهوة بين المسلمين العرب و مهزوميهم السابقين"، وكان أيضا من الفرنسيين الناقمين على العرب الذين ينظر إليهم بشكل سلبي وفي المقابل كان من المدافعين عن السياسة الموالية (للقبائل) وضد المسلمين حيث قال: "بالتأكيد إذا كان عندنا واجب في الجزائر، فهو محاربة الإسلام عدونا الأبدي بجميع الوسائل [3]"وبالتالي فقد قامت السلطة الاستعمارية الفرنسية بتدعيم هذه القوانين لأنها كما صرح "ج.مارسي G.Marcy[*] " : "النفي والإنكار الأكثر فعالية لمبادئ الإسلام"، [4]ولكي تتجنب وجود الجماعات المعادية للسياسة الاستعمارية، فكرت السلطة الفرنسية في أن تختار هي

[1] حسنين، الوجيز، المرجع السابق، ص ص14، 54.

2 Ageron, Les Algériens Musulmans, Op.cit. p.271.

3 Ibid. p 276.

[*] جورج مارسي من أهم الكتاب الذين اختصوا في القوانين العرفية البربرية له عدة مقالات في المجلة الإفريقية وله كتاب"مشكل القانون العرفي البربري" Le problème du droit coutumier berbère" أنظر:. Ageron, Les Algériens Musulmans, Op.cit.p 275.
هامش 4

4 Ibid. p. 275.

نفسها أفراد الجماعة [1] فأصدرت مرسوم 06 فيفري 1919 الذي أنشأ هيكلا انتخابيا للجماعة[2]، ويبدو أن فرنسا كانت تريد احتواء تلك السلطة التي كانت في أيدي العائلات القوية "اقتصاديا" وحولها تأسس هذا المجلس الاستشاري –"الجماعة"– الذي كان يبدي رأيه في جميع المسائل ذات الفائدة المشتركة.[3]

كانت كتابات الفرنسيين تعكس نظرتهم اتجاه الجزائريين الذين غالبا ما صنفوهم إلى مجموعات غير متجانسة فحاولوا استغلال ذلك خدمة لمصالح فرنسا وكان البربر في نظرهم أكثر المجموعات ق ابلية للاندماج، ويبدو أن الدراسات القانونية التي خصت الأعراف في الأوراس لها ما يفسرها حيث رأي نا سابقا أن هذه الأعراف اعتبرت وسيلة لخدمة السياسة الاستعمارية حي ن قامت السلطات الفرنسية بفرض القوانين العرفية بدل الشريعة الإسلامية على أهل زواوة مثلا.[4]

وتشير بعض التقارير المحفوظة في أرشيف ما وراء البحار إلى أنه استمر العمل بالقوانين العرفية تحت سلطة الجماعة إلى غاية سنة 1955 وتؤكد هذه التقارير أيضا قلة اهتمام سكان منطقة الأوراس بالقوانين الشرعية الإسلامية.

وقد كتب جون عمروش وهو أحد الجزائريين الذين تنصروا في مجلة "اقتصاد وإنسانية" Economie et Humanisme" أن التنظيمات والقوانين العرفية فككها المستعمر الفرنسي وفي وقت لاحق تم استخدام النخب في استغلال الجزائريين و عن الإدماج الذي اقترحته فرنسا فوجد أنه لم يكن إلا مكيدة و"إفكا" وخديعة بغرض عزل الجزائريين عن مقاومة المستعمر.[5]

---

1 Charles-Robert Ageron, Jules Ferry et la question algérienne, en 1892 (d'après quelques Inédits)In :Revue, d'histoire moderne et contemporaine, Tome X Avril Juin 1963 (P.U.F) France, 1963. p.137.

2 Charles-Robert, Ageron, Une politique Algérienne libéral sous la troisième république(1912-1919)in :Revue d'Histoire moderne et contemporaine,Tome VI Avril-Juin1959, Presses Universitaire de France –Vendôme France, p .151.

3 M'hamed Boukhobza, L'agro-pastoralisme traditionnel en Algérie (de l'ordre tribal au Désordre coloniale) Office des publications Universitaires 29, rue Abou Nouas, Hydra, Alger, 1982.p.75

4 سعد الله، الحركة الوطنية، المرجع السابق، ص587.

5 ANOM 6 SAS/51. Bulletin de la Presse d'Algerie(Questions Musulmanes).

ومهما يكن فإن التأكيد على تقاليد وأعراف وعادات المناطق البربرية الثلاث وتأكيد خصوصيتهم العرقية والاجتماعية من شأنه إبعادهم عن الأحكام الإسلامية، فتمت صياغة العرف البربري في شكل قوانين قابلة للتطبيق بدء بمنطقة القبائل ليتم تعميمها على بقية المناطق الأخرى ثم في المغرب الأقصى على شكل الظهير البربري.[1]

وأكد بعض الحقوقيين الفرنسيين في بحوث نشرت سنة 1940 أنه يجب على فرنسا أن تحافظ على المؤسسات القانونية العرفية "للأهالي" كونهم "مختلفين جدا في الحضارة والتكوين"، هذه الأعراف التي لها علاقة متينة بالحالة الاجتماعية والمفاهيم الأخلاقية والدينية للجزائريين، ويستنتج من ذلك حسب تعبير أحدهم: " قد يكون من غير المناسب بل والخطير مساواتهم مع الفرنسيين في الحقوق السياسية والحريات الفردية" إذ لم يكن الجزائريون مهيئين للتمتع بها لأنهم ليسوا سوى رعايا فرنسيين لا مواطنين فرنسيين.[2]

ختاما لهذا الفصل يمكن القول أن الكتاب الفرنسيين استعملوا الصحافة الدورية كمنبر لجمعياتهم وأبحاثهم، وتعرضوا في دراساتهم لكل المجا لات وكانت منطقة الأوراس من أهم مناطق الشرق الجزائري ا لتي خصصت لها دراسات أ نثربولوجية لوجود المجتمع البربري[3]، واحتفاظه بتقاليده وممارساته التي حاول البعض منهم تفسيرها بابتعاده عن الإسلام الذي غير كل المجتمع الجزائري ما عدا هذه

---

[1] سعيدوني، المسألة البربرية في الجزائر دراسة الحدود الإثنية للمسألة المغاربية، مجلة عالم الفكر، العدد 1 المجلد 32 أفريل-جويلية 2004، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ص ص 149، 151.

[2] أولفييه لوكور غرانميزون، في نظام الاهالي، تشريح مسخ قانوني القانون الاستعماري في الجزائر وفي الإمبراطورية الفرنسية، ترجمة العربي بوينون، الطبعة الاولى، منشورات السائحي، الجزائر، 2011، ص ص 81-82.

3 ركز الكتاب الفرنسيون في البداية على منطقة القبائل لأنها أول منطقة بربرية اصطدموا بها، وحسب هؤلاء أيضا يمكن لسكان هذه المنطقة بعد استمالتهم أن يأثروا على بقية الجزائريين، لذلك نجد اهتماما بالغا ورصيدا معتبرا من الأدبيات والدراسات التي تناولت الأنثربولوجيا بجميع مجالاتها كما أن الهدف من هذا الاهتمام هوتكوين كيانات محلية قائمة على التمايز اللغوي والخصوصية الإثنية، أنظر سعيدوني المسألة البربرية"، المرجع السابق، ص ص 142-143

المجموعات التي بقيت متقوقعة على نفسها كمظهر بدائي، وتعدى اهتمام ال دراسات الأنثروبولوجية الكولونيالية إلى أحد فروعها وهي الأنثربولوجية القانونية كما رأينا.

الفصل الرابع

باكورة الكتابات الأنثربولوجية الفرنسية الجامعية والمجتمع الجزائري.

1 -المبحث الأول: المجتمع الشرق الجزائري في الكتابات الأنثروبولوجية الجامعية: أطروحة إيميل ماسكاري.
2 -المبحث الثاني: المجتمع الجزائري وأنثربولوجيا الدين إيدمون دوتي أنموذجا.
3 -المبحث الثالث: الكتاب الأنثربولوجيون الفرنسيون والفلكلور الجزائري.
4 -المبحث الرابع: المرأة الجزائرية في الكتابات الأنثربولوجية الفرنسية.

نتحدث في هذا الفصل عن المجتمع في الشرق الجزائري في بعض النماذج من الكتابات الأنثروبولوجية الفرنسية الجامعية التي كانت متعددة و التي لامست تقريبا جميع الميادين.

1-المبحث الأول: المجتمع الشرق الجزائري في الكتابات الأنثربولوجية الجامعية: أطروحة إيميل ماسكاري.

لقد تكونت الأنثربولوجيا في القرن التاسع عشر وتأسست تدريجيا في القرن العشرين الميلادي في أوربا لتصبح علما من العلوم الإنسانية والاجتماعية، أين تأثرت بالأحداث والتغيّرات العلمية المنهجية والاجتماعية والسياسية، طرأت عليها تغيّرات جذرية في موضوعها ومنهج ها العملي، وتحولت إلى المنهج التطبيقي في شكله الواسع ، إضافة إلى تحديد علاقة التأثير والتأثّر بينها وبين مختلف العلوم الاجتماعية والإنسانية الأخرى ، وكان على الأنثربولوجيا أن تحيط بمختلف أبعاد الظواهر التي تدرسها [1]، وإذا كانت الأنثربولوجيا تعني دراسة الممارسات والأبعاد الاجتماعية للإنسان، فقد انقسمت إلى عدة فروع كالأنثربولوجية الاجتماعية والثقافية التي تهتم بكل مظاهر الحياة في المجتمع "صلة القرابة، الزواج، الولادة، الجنائز وبشكل عام أسلوب العيش، التقاليد والطقوس" كما ترتبط بإقرار الاختلافات الموجودة بين المجتمعات خاصة، ونجد أيضا الأنثربولوجيا الاقتصادية، السياسية، الدينية والأنثربولوجيا التاريخية التي تضع التشكيلات الاجتماعية مع علاقة بالتاريخ الخاص لكل شعب.[2]

وهكذا فقد ضمت الأنثربولوجيا الاستعمارية الفرنسية جميع المجالات وكان "إميل ماسكاري" حسب الكثير من المؤرخين وعلماء الاجتماع ك أول الأنثربولوجيين الجامعيين الفرنسيين ، ويعتبر البعض الآخر أنه لم يكن له وريث في هذا المجال فالأعمال الوحيدة التي نجدها في النصف الأول من القرن العشرين والتي مازالت

1 عيسى الشماس ، مدخل إلى علم الإنسان(الأنثربولوجيا)، منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق – 2004، ص5.

2 Larousse, Op.cit, p.94.

تحتفظ ببعض الأهمية، هي تلك الأعمال الخاصة بإيدمون دوتي * E.Doutté و Desparmet**[1]، والتي تشهد توجهات أعمالهما على أنهما فلكلوريان.[2]

ومن أهم الأعمال التي لاقت صيتا واسعا خلال الثمانينيات من القرن التاسع عشر الميلادي لإميل ماسكاري أطروحته عن تشكل المدن عند السكان المستقرين للجزائر " Formation des Cités chez les populations sédentaires de l'Algérie والتي أصدرها على شكل كتاب سنة 1886[3]، واعتمد في هذه الأطروحة على مجموعة من المؤرخين القدماء أمثال هيرودوت، سالوست، سترابون وبروكوب، والمؤرخين العرب كالمسعودي في مؤلفه "مروج الذهب" وابن خلدون عن مؤلفه " تاريخ البربر" ، واعتمد على كتاب "المؤنس في أخبار افريقية وتونس" لمحمد ابن أبي القاسم القيرواني[4]، في محاولة للإحاطة بجوانب الموضوع الذي كتب عنه.

لقد جمع ماسكاري في هذا المؤلف أفكاره وآراءه عن سكانالمناطق الثلاث والتي كانت قد شغلته وأثارت حفيظته[5]؛ فكان كتابه عبارة عن مقارنة بين سكان القبائل في جرجرة، الشاوية في الأوراس، وبني مزاب، فكتب عن طراز البناء عندهم.[6]

---

* إيدمون دوتي اهتم بالدراسات في التاريخ الطبيعي لكن تواجده بالجزائر وجهه نحو اختصاصات أخرى دخل في إدارة البلديات المختلطة فتعلم العربية وبعد أن أصبح أستاذا في مدرسة تلمسان تقلد كرسي علم الاجتماع الإسلامي في المدرسة العليا التي سوف تتحول إلى جامعة الجزائر، وكان أمينا عاما للجمعية التاريخية الجزائرية من سنة 1904 إلى سنة 1908 ساهم بالكثير من النشاطات لتطوير المجلة الإفريقية فأصبح نائب رئيس الجمعية والمجلة، له عدة أعمال مثل: "الإسلام الجزائري" توفي سنة 1926 عن عمر يناهز 59 سنة، أنظر: (R.A). Vol N°67 année 1926 (O.P.U) 1, Place Centrale de Ben-Aknoun (Alger) 1986, p.237.

** جوزيف ديسبارمي، ولد سنة 1863 بفرنسا وتوفي بها سنة 1942 قضى معظم حياته بالجزائر من 1890 إلى 1940 حيث كان يدرس اللغة اللاتينية ثم بعد ذلك العربية في العديد من الثانويات، تخصص سنة 1908 في تدريس ودراسة اللهجة العربية، أنظر : Fanny, Colonna Questions à propos de la littérature orale comme savoir. In : Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, N°22, 1976. Édisud, Aix en-Provence, p.19.

1 Colonna, Savants Op.cit, p.243.

2 Ibid.p.243.

3 Djender, Op. cit, p.96.

4 E.Masqueray., Formation des Cités chez les populations sédentaires de l'Algérie : (kabyles du Djurdjura, Chaouia de l'Aouras, Beni Mezab) Ernest Leroux, Editeur 28, Rue Bonaparte, 28, 1886, pp.I-VI.

5 Bernard, Op.cit, p.356.

6 سعد الله، الحركة الوطنية (1860-1900)، المرجع السابق، ص532.

وبالرغم من تصنيف ماسكاري لأحد الأنثروبولوجيين الجامعيين في فترة استعمارية حرجة بالنسبة للجزائر إلا أنه – حسب الأنثروبولوجية "فاني كولونا" – "استطاع التحكم في المعارف التي خصت المجتمع الجزائري "[1]، رغم احتواء أطروحته على بعض المغالطات حين يناقض نفسه، فنراه على سبيل المثال لا الحصر يقول: " الشاوية في جبال الأوراس لا تحدهم الوديان، السهول والصحاري التي تحيط بهذه الكتلة المشهورة من باتنة إلى خنشلة ومن بسكرة إلى خنقة سيدي ناجي وإن صدقناهم نصف رومان ونصف زناتيين".[2]

وحسب البعض فقد كان ماسكاري أكثر العارفين بالمجتمعات "المستقرة sédentaires" الجزائرية، وقد منحه أعضاء المدرسة الاجتماعية الجديدة بفرنسا درجة الاستحقاق لأنه فضل استعمال مصطلح "الأفريقيين" بدل مصطلح البربر الذي يطلق عادة على كل سكان إفريقيا الشمالية الذين اعتبروا السكان الأصليين لها [3] عندما قال مثلا: "...وهكذا نشأت عند السكان المستقرين الإفريقيين المدن واختلفت أسماؤها مثل التقلعت في الأوراس... "[4]وقد نفهم من استعمال هذا المصطلح وجود نزعة عنصرية يطلق عليها arabophobie التي تعتبر "العرب" مجموعة دخيلة على الجزائر.

وبالنسبة له فإن هذه المجتمعات "الإفريقية المستقرة" نشأت كلها من نفس الأسس فهي تظاهرات اعتيادية من الحرية والانسجام المتبادل [5]، لكن إلى جانب آخر نجده متناقضا حين أقر أن العائلة أو الأسرة تولد من الحرب أو من ذلك الصراع من أجل البقاء خاصة في هذه المجتمعات البعيدة عن الدولة.

1 Colonna, Savants Op.cit, p.135 .
2 Masqueray, Formation des Cités, Op.cit p.17.
[3] Gabriel Camps. E Masqueray, Formation des Cités chez les populations sédentaires de l'Algérie : (kabyles du Djurdjura, Chaouia de l'Aouras, Beni Mezab, In: Revue de L'Occident musulman et de la Méditerranée, Edisud, Aix-en-Provence, Année 1983, Volume 36, Numéro 1, pp. 207 – 208.
[4] Masqueray, Formation des Cités Op. cit, p, 24.
5 Bernard, Loc.cit.p.356.

كما يشير إلى الفردية *أو "الفردانية"[1] التي ترمز إلى الواقع الاجتماعي والثقافي الذي يستطيع فيه الناس بوصفهم أفرادا اختيار طريقة حياتهم وسلوكاتهم وممارسة عقائدهم–مثل ما عرفته المجتمعات الغربية– كما ترمز أيضا إلى مجتمع يضمن فيه النظام الاجتماعي والقضائي حماية حقوق الناس، لكن من جهة أخرى تحمل الفردانية إيديولوجية أخرى مناقضة توظف لتصف الأشخاص بالسلبية والانعزال والأنانية، والتسلط وهذا ربما ما لاحظه ماسكاري في هذه المجتمعات "المستقرة".

واعتمد ماسكاري أيضا على مؤلفات هانوتو ولوتورنو التي دلته على أهمية وفائدة المجتمع القبائلي، فرحلاته السابقة جعلته يجمع وثائق عن المنطقتين الأخريين ليكتب عن تنظيم المدن الصغيرة حين قضى بها أياما طويلة [2]، فكشف كتابه "تشكل المدن" وسائل أكثر اتساعا وكان مشروعا تحليليا يقارب الموضوعية.[3]

لم يؤلف ماسكاري "تشكل المدن" إلا بعد سلسلة من الملاحظات الدقيقة للمناطق التي زارها وحاول مقارنتها ببعضها البعض، فقد قام بأبحاث عينية في هذه الإقامات لكن مقارنة المجموعات البربرية في الجزائر وخصوصية الممارسات الاجتماعية عندها والأشكال الجماعية والتجمع والسكن، هو مبدأ الفصل والتفرقة بين هذه المجموعات[4]، وهو كمحاولة لإثبات وجود مجتمع غير متجانس في الجزائر.

ويؤكد ماسكاري في كتاباته التي نشرها في المجلة الإفريقية وفي أطروحته أن أولاد عبدي وأولاد داود [5] يزعمون أنهم انحدروا من "بورك الروماني" الذي استقر

* الفردية أو الفردانية I'individualisme : اتجاه يرى في الفرد أساس الواقع و القيم، و يذهب في الفلسفة السياسية إلى أن المثل الأعلى للحكومة الصالحة إنما هو تنمية الحرية الشخصية و الحد من سلطان الدولة على الأفراد.أنظر:المعجم الفلسفي، إبراهيم مدكور،طبع بالهيئة العامة لشؤون المطابع الأمبرية (1982-2000)، ص135.

1 Masqueray, Formation des Cités Op.cit, p.21.

2 Bernard, Loc.cit.p.356.

3 لوكا، و آخرون المرجع السابق، ص.23.

4 المرجع نفسه،ص.23.

5 يذكر إيميل ماسكاري أنه استقر لمدة سنتين في خيمة عند "أولاد داود " وهي إحدى القبائل الأوراسية، الأوراسية، وأنه قضى ثلاثة أشهر في منطقة ميزاب، وأنه يعرف منطقة القبائل جيدا أنظر:

Emile Masqueray, Note concernant les Aoulad-daoud, du mont Aurès(Aourès) Adolphe Jourdan Imprimeur-Libraire-éditeur, 4 place du Gouvernement, *4, 1879. P 7.* ومن المفيد أيضا أن نقتبس ما ذكره الدكتور أبوالقاسم سعدالله في هذا الصدد إذ قال:" وقد زار أيضا الصحراء وجبل الأوراس، وزواوة، وعرف الحياة البدوية والعادات التي لا تكاد تظهر إلا لمن دقق النظر وأكثر المعاشرة : الحفلات، والثارات، والأساطير، والألغاز=

بالقرب من أحد المنابع التي يطلق عليها "عين الرومي" [1]، معتمدا على الأسطورة كمصدر تاريخي شفوي في كتاباته، لكنه لم ينقدها ولم يقارنها ولم يحللها لكي يصل إلى الحقيقة، وإذا سلمنا بأسطورة " بورك " فإننا لا نجد فقط أولاد عبدي وحدهم من أصل روماني، بل أيضا التوابة وأولاد سعادة، إذا ما اعتبرنا أن جدهم واحد.[2]

كما نراه قد بالغ عندما رأى أن بعض المناطق من الأوراس مثل سكان قرية منعة يقيمون احتفالات ذات أصل "وثني Païenne" أو مسيحي كدلالة ع لى المصالحة بعد مضي فصل الشتاء وحلول الربيع وهذا تأكيد منه أن الإسلام لم يستطع القضاء عليها.

وفي السياق نفسه عمل ماسكاري على إثبات ابتعاد سكان الأوراس عن الإسلام حينما كتب قائلا: " لقد لاحظت بنفسي تقليدا يهوديا عند أولاد داود" ويقصد هنا الاحتفال بعاشوراء وهو اليوم الذي أنجى فيه الله موسى من فرعون، وقد تناسى هذا الكاتب اشتراك المسلمين واليهود في بعض الطقوس الدينية كالصوم وإن اختلفت طريقة ذلك[3]، كما يحاول جاهدا أن يجد الصلة التي ربطت سكان المنطقة بالأجناس الأوربية من خلال بعض الممارسات.

لقد تعمق ماسكاري في دراسة العلاقة الموجودة بين آلية السياسة عند المجتمعات الأهلية "السكان الأصليين" في الجزائر والمشروع الاستعماري من منظوره الخاص، خاصة ما تعلق بالسياسة التعليمية والتي ينبغي لفرنسا إتباعها ف تمخض عنه تحمس لإنتاج –في أقرب وقت ممكن– معرفة أصلية عن المغرب ونتيجة لذلك كان له الفضل في إصدار "نشرة المراسل الإفريقي" [4] التي تكلمنا عنها سابقا، ويرى بعض الفرنسيين أن هذا المؤلف لم يتأثر كثيرا بالإيديولوجية السائدة عندئذ "ذات

= والأمثال ونحو ذلك، وهو من الأوائل الذين كتبوا عن قبائل البربر في الأوراس ولباسهم ولهجاتهم وبقايا الآثار والتاريخ هناك. كما اهتم بالحياة الداخلية لسكان زواوة، أنظر سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج6، المرجع السابق، ص 383.

[1] Masqueray, Formation des Cités Op. cit. p .26, 164.

[2] بن ضيف الله، المرجع السابق، ص ص.300-301.

[3] Masqueray, Formation des Cités Op. cit. pp 37, 164.

[4] Colonna, Savants, Op. cit, p 143.

النزعة الاستعمارية" لأنه كان متفتحا على مشاكل الجزائريين على الأقل مشاكل المجتمع البربري ، فكان مشروعه الأنثربولوجي يسير على نقيض مع الإيديولوجية الرسمية[1]، ونفهم من خلال الإهداء الذي وجهه في بداية أطروحته لوزير التعليم العمومي "بول بارت Paul Bert *" أن ماسكاري حاول أن يكون ضمن المؤسسة السياسية للجمهورية الثالثة كمخترع لتعريف جديد ومستحدث للمعرفة وأبعادها الاجتماعية.[2]

لكن لا يجب أن ننسى أن هذا الكاتب كان من منشدي "التواجد الفرنسي" في الجزائر وشارك المؤلفين الاستعماريين في جملة من تصوراتهم؛ لكن هـتميز بالتجديد والخاصية الموضوعية في البعض من آراءه؛ الدور والتأثير الأكيد للظروف المعيشة والزراعة وتربية المواشي–استثناء العامل العرقي– تشكل من الداخل إلى الخارج بتموضع طبقات متتالية**قرية، قبيلة، شعب، أمة. [3]

وعلى الرغم من ذلك فعندما يلخص ماسكاري تصوره لتاريخ الجزائر فهو يقر مثل سابقيه أن الغزو الهلالي أوقف كل تطور، هذا التطور الذي كان متتابعا من التاريخ القديم حتى العهد الزيري ويدمج العصور الوسطى المغاربية بالأوربية، ويرى أن التنافس العنيف الذي كان بين المماليك ليس فوضى لكنه امتداد اعتيادي

---

1 Camps, Op. cit. pp 206-207.

* بول بارت ولد بأوصير الفرنسية سنة 1833 رجل سياسة فرنسي دافع عن راديكالية ولائكية الجمهورية ومناصر "لإجبارية ومجانية ولائكية التعليم" تقلد منصب وزير التعليم العمومي الفرنسي من نوفمبر 1881 إلى جانفي 1882 أنظر: *Larousse, Op.cit, p 1212.* ، لا نعلم إن كان هذا الإهداء دليلا على تأييد ماسكاري للقانون الذي جاء به جول فيري "إجبارية مجانية ولائكية التعليم" أو هو دليل على تأييده لأهمية المدرسة في السياسة الاستعمارية في الجزائر ففي الخطاب الذي ألقاه بول بارت بتاريخ 14 أفريل 1897 إكد على دور المدرسة في بسط الاستعمار الفرنسي إذ صرح قائلا : " هنا وفي جميع المناطق ترتبط تطورات الاستعمار بالتعليم... فالمعلم، الجندي والفلاح يمثلون العمل الوطني للاستعمار" أنظر: *Fanny Colonna, Instituteurs algériens 1883-1939, Office des publications universitaires-Alger, p 71.*

2 *Colonna, Savants, Op. cit. p 145.*

** يمكن تفسيرها إلى (البنيانية) *structuralisme* هو اتجاه فلسفي ينصب على دراسة العناصر الكلية أو الأحداث التاريخية الكبرى، يطبق في الدراسات اللغوية، السيكولوجية التاريخية، أنظر: مدكور،المرجع السابق،ص34.

3 *Djender, Op. cit. p.97.*

للطاقات الخصبة أين تنتج الحضارة [1]، وكخلاصة يمكن أن نتساءل هل كانت كتابات ماسكاري مطية للسياسة الاستعمارية الفرنسية في المناطق البربرية؟

رغم اعتماد إيميل ماسكاري على المؤرخ ابن خلدون في أطروحته تزكية لأطاريح تاريخية وأنثروبولوجية تخص النظام القبلي السائد في المغرب، إلا أننا نتفق مع المؤرخ عبد الله عروي حينما كتب قائلا :" يريد المؤرخون الاستعماريون أن يسجنونا نحن المغاربة في المأزق التالي: إذا قصصتم أحداث التاريخ فإنكم تقصون في الحقيقة أعمال الغزاة الدخلاء على أرض المغرب، أما إذا أردتم أن تتكلموا عن السكان الأصليين فلا يمكنكم أن تخرجوا من نطاق قبل وقبيل التاريخ". [2]

لقد اعتبر الكثيرون أن إميل ماسكاري من أول الأنثربولوجيين الجامعيين الفرنسيين الذين اهتموا بالمجتمعات البربرية بالتحديد، لكن بعد تصفح وقراءة أطروحته التي تناولت ما أطلق عليه بالسكان "المستقرين" Sédentaire أو مصطلح "الأصليون" الذي يحلو للكثير من هؤلاء الكتاب استعماله تعبيرا على خاصية أبناء البلد الحقيقيين وليسوا "بالغزاة" ومرد تركيزه على البربر يرجع إلى كون حياتهم بقيت مستقرة في مناطق منعزلة، عكس حياة البداوة التي هي ميزة العرب" وتأكيدا لهذا يضيف هذا المؤلف في الصفحة إحدى عشر من أطروحته أن إفريقيا قد عرفت غزوا متتاليا من طرف العرب والأتراك حتى أصبح الكثير يظن أنها ملحقة للشرق الإسلامي. [3]

ونجد في الكثير من المواقع أن هذا المؤلف يقارن ما قام به الرومان وما تقوم به فرنسا في الجزائر، بل يقف على اختلاف مزعوم مفاده أن فرنسا جاءت لترفع مستوى الشعوب عكس الرومان الذين استعبدوهم، ومهما يكن فيجب على فرنسا حسب هذا المؤلف أن تقفو أثر خطى الرومان.

---

1 Djender, Loc.cit. p 97.

[2] عبد الله عروي، مجمل تاريخ المغرب، الطبعة الخامسة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، 1996، ص 51.

3 Masqueray, Formation des Cités Op.cit, pp 11,16.

ويطرح ماسكاري جدلية بقاء فرنسا في إفريقيا ويضيف قائلا:" قد نبقى في إفريقيا لكن لا أحد من الشعوب التي حلت هنا قبلنا رحلت ".[1]

والظاهر أن الكتابات الأنثربولوجية الفرنسية الجامعية التي خصت الجزائر بداية من سنة 1880 ركزت على شيء نراه مهما حتى في فترة ليست ببعيدة وهو تصنيف بعض المجتمعات بالبدائية وفي هذا السياق كتب إميل ماسكاري مايلي: " من حسن حظ الجزائر أنها تمتلك نماذج من حياة السكان المستقرين في شكلهم البدائي"Barbare" "[2]، فقد كان هذا الشكل من أهم الدوافع أيضا حسب الكثير من الأنثربولوجيين لدراسة والاهتمام بهذه المجتمعات فجاءت أطروحته كمحاولة لدراسة وتحليل سكان منطقة القبائل والأوراس وميزاب كما ركز هذا المؤلف على العامل الجغرافي لهؤلاء السكان والذي كان له دور في انعزالهم، وأدى إلى تكون "أمم منفصلة" فنجد الشاوية في جبال الأوراس والقبائل في جبال جرجرة وبني ميزاب الذين استقروا في الوديان المنعزلة في الصحراء، ويؤكد هذا الكاتب النظرية الرامية لإلغاء أي مظهر لوجود أمة في الجزائر فوضع منذ بداية الفصول الأولى من أطروحته جدولا صنف فيه المجتمع الجزائري.[3]

ولكي يؤكد ماسكاري الأطاريح التي تصب في تأكيد وجود قبائل بربرية بعيدة كل البعد عن المقومات العربية والإسلامية اعتمد على الكثير من المؤلفات التي أسست للمسألة البربرية ومن أهمها كتاب : "منطقة القبائل والعادات القبائلية" La Kabylie et les coutumes kabyles " للكاتبين أدولف هانوتو وأرستيد لوتورنو "Aristide Letourneux و Adolphe Hanoteau الذي طبع سنة 1873 وبالرغم من كونهما تناولا منطقة القبائل فقط إلا أن هذا الأنثربولوجي تأثر بكتابهما بشكل كبير فكتب: " مهد كتاب لوتورنو وهانوتو الطريق لجميع الباحثين وحتى السياسيين المهتمين بسكان إفريقيا المستقرين... ولي الشرف أن أسير على خطاهما"، فيعترف ماسكاري أنه زار منطقة القبائل عدة مرات سنة 1873 واستقر

1 Masqueray, Formation des Cités, Op. cit, p 13.
2 Ibid, p, 16.
3 Ibid, p,17 .

بها لمدة قاربت الثلاثة أشهر، ثم كلفه وزير التعليم العمومي لبدء دراسات أولية للمنطقة، فهل كانت هذه الدراسات التي هي من وحي الإدارة الاستعمارية خالصة للعلم؟ وبعيدة عن الإيديولوجية الاستعمارية؟

يذكر هذا الكاتب أنه استقر بمنطقة الأوراس لمدة قاربت السنتين لدراسة الآثار الرومانية والعادات والتقاليد واللهجات الشاوية ووصل إلى واحات الزعاطشة ونقرين كما حل بمنطقة ميزاب ومكث بها لمدة ثلاثة أشهر هي الأخرىّ، وركز في مؤلفه على سير تنظيم المدن الصغيرة عند هذه المجتمعات "البربرية" وحاول مقارنة التفاوت بينها.[1]

ولا شك أن الدراسات المونغرافية التي خصت المناطق البربرية كانت تهدف إلى التأسيس لسياسة استعمارية خاصة، كان من نتائجها حسب تأكيد ماسكاري هو بناء مدارس فرنسية في بني يني وتيزي راشد ميرة وجمعة صهاريج.

لقد قام ماسكاري من جانب انثربولوجي بدراسة القوانين العرفية السائدة في المناطق الثلاث القبائل، الأوراس * وميزاب وقارنها ببعضها البعض، وأقر بوجود تشابه كبير بينها وهذا طبعا لتأكيد وجود نظام مغاير تماما لما وجده الفرنسيون عند غيرهم من "العرب" أي التشريع الإسلامي، ووصف ماسكاري"الجماعة" على أنها "مجالس أقل ديمقراطية مما تبدو عليه في الواقع".[2]

لقد عمد هذا المؤلف على دراسة القوانين العرفية التي كانت شفوية وكتابتها كمساهمة لتحرير هذه الجماعات "المستقرة" من سيطرة "العرب" وتشريعهم الإسلامي لذلك قامت الإدارة الفرنسية بإلغاء قضاة المحاكم الإسلامية في بعض المناطق وتم تفعيل "الجماعة" "تاجماعت".[3]

---

1 Masqueray, Formation des Cités, Op.cit, pp,17,19.

* تكلمنا عن القوانين العرفية السائدة في منطقة الأوراس وفصلنا فيها لأنها من مناطق الشرق الجزائري في فصلنا السابق وقد ركز ماسكاري في أطروحته على ذكر القوانين العرفية السائدة عند بني ميزاب وفي منطقة القبائل.

2 Masqueray, Formation des Cités Op.cit, p 20.

[3] آجرون، تاريخ الجزائر، ج2، المرجع السابق، ص 220.

كما وضع ماسكاري تعريفا "للجماعة" في أطروحته "تشكل المدن" بعد عدة دراسات كان قد نشرها في المجلة الإفريقية في نهاية السبعينيات والثمانينيات من القرن التاسع عشر في أن مهمتها السهر على تنظيم المجتمعات البربرية في قراها المنعزلة وحماية والسهر على أمن أفرادها.[1]

لقد انتهى إ. ماسكاري بنتيجة تتلخص في أن هذه المجتمعات التي قارنها تشكلت بسبب الحروب القبلية التي عرفها الشمال الإفريقي وحاول الوقوف على الأنظمة الاجتماعية التي تسير قرى المناطق الثلاث ووصل إلى قناعة أن الشرف والتكافل الاجتماعي لهما أهمية بالغة عند المجتمعات البربرية وهذا بصرف النظر عن القرابة البيولوجية.[2]

وأشار ماسكاري إلى جانب آخر يضم إلى الأنثربولوجيا من بابها الواسع وهي الثقافة الشعبية السائدة عند المجتمعات التي درسها وذهب إلى تأكيد أصولها فرأى أن الاحتفالات التي تقام بحلول فصل الربيع إما وثنية أو مسيحية الأصل وبالتالي فالإسلام عند البربر حسب هؤلاء الكتاب الفرنسيين سطحي، والأهم من ذلك أن المجتمعات التي قارنها بالنسبة له بقيت بدائية استمدت أنظمتها من حضارات عتيقة.[3]

إذا ما تتبعنا الكثير من الكتابات الأنثربولوجية الجامعية الفرنسية خلال الاحتلال الفرنسي للجزائر وجدنا أنها تركز على القوانين العرفية بشكل نراه مبالغا لكن إذا ما تمعنا بشكل دقيق لوجدنا عدة تفسيرات لها لا تخرج عن النظرة الاستعمارية الضيقة ولا ينبغي أن نتسرع هنا لتقديم استنتاجات إيديولوجية مبكرة إلا بالعودة إلى ما كتبه إ.ماسكاري في أطروحته في هذا المجال.

قارن هذا المؤلف ما يسمى بـ"الجماعة" التي كانت مكونة من كبار القبيلة أو "العقلاء" في دراسته وشبهها "بمجلس الشيوخ "Sénat" ومن الواضح أنه حاول إيجاد

1 Masqueray, Formation des Cités, Op.cit, pp 47-50.

2 Ibid, pp 27, 33.

3 Ibid, p 37.

علاقة بين القوانين العرفية في المناطق البربرية بالحضارة الرومانية التي بدأت بقوانين بدائية في مدن صغيرة لتتطور وتصبح تنظيما لإمبراطورية كبيرة، ومهما يكن حسب هذا الكاتب فإن مختلف المناطق الجزائرية التي سكنها العنصر البربري تبنت مؤسسات ذات قوانين مستمدة من الرومان سواء أكانت ديمقراطية أو أرستقراطية أو الاثنين معا.

إن دراسة المجتمعات التي تصنف على أنها "مستقرة" عند ماسكاري وعند الكثير من الكتاب الأنثربولوجيين في ظل الاحتلال الفرنسي هو إثبات لمقاربة أخرى تتمثل في إيجاد تشابه بين المجتمع الفرنسي والمجتمعات البربرية وفي هذا الصدد كتب في الصفحة تسعة وأربعون: " لا يعدو أن يكون ما قمنا به إلا استبدال الاحتلال التركي لهذه المنطقة الخطرة " –ويقصد هنا منطقة القبائل–.

وإذا كانت القوانين العرفية السائدة في المجتمع الجزائري قد أثارت حفيظة الكثير من الكتاب الفرنسيين إلا أن ما يشد انتباهنا هو دراستهم وتحليلهم للقوانين المتواجدة عند "البربر" فهي النفي التام للشريعة الإسلامية بالنسبة "للعرب"، ومن هذا الركن فإن ماسكاري أقر بوجود قرائن واضحة بين القوانين العرفية الأمازيغية والقوانين الرومانية القديمة وهذا في أكثر من صفحة ويكفي الرجوع إلى الصفحات 52،51،54 فكتب في الصفحة 56 :" فالطابع الأساسي لمعظم القوانين الإفريقية هو نفسه تماما في الممنوعات أو المحظورات الرومانية" [1]، والأبعد في تفسيرات إميل ماسكاري أنه أقر بوجود الكثير من الكلمات في لهجة هؤلاء الذين أطلق عليهم "الإفريقيين"–ويقصد هنا البربر– مشتقة الأصل من اللغة الرومانية واستبعد أن تكون هذه القوانين مستوحاة من اللغة الكنائسية القديمة بل أرجعها للغزاة الرومان وقوانينهم الإدارية [2]، فراح يؤكد النظرية التي جاء بها الكتاب الفرنسيون العسكريون القائلة أن أصول النظام الاجتماعي "للبربر" ترجع إلى الرومان المسحيين [3]، بل ونجد أن هذا الكاتب في

1 Masqueray, Formation des Cités, Op.cit, pp 51-54,56.
2 Ibid, p 60.
3 بوضرساية، المرجع السابق، ص 64.

الصفحة 81[1] ينسب النظام الذي تسير عليه المدن الإفريقية كمثل ما عرفته روما وأثينا واسبرطا:" تسير المدينة الإفريقية بشكل منتظم مثل روما وأثينا".[2]

أشار ماسكاري إلى شيء مهم وهو بداية اهتمام سلطات الاحتلال بكتابة هذه القوانين غير المسطورة فشجعت الكثير من الدراسات لإعادة إحيائها بعد أن أعطتها صبغة شرعية أمام القوانين الفرنسية الاستعمارية التي طبقتها في الجزائر وهذا طبعا ليس حبا في المجتمعات البربرية لكن لإبعادها أكثر عن الإسلام.[3]

والمتتبع لما كتبه إ. ماسكاري عن سكان المناطق البربرية سيلاحظ ربما خلفيته التي تبطن "الأطروحة البربرية" ومن الأمثلة التي تثبت هذا التوجه هو أنه كتب :" إن جنود منطقة القبائل الذين كثيرا ما برهنوا على شجاعتهم ومثابرتهم في النضال ضد الهيمنة التركية".[4]

ومن النتائج التي خلص إليها في فصله الأول هي أن منطقة القبائل عاشت في صراعات قبلية ولم تتوحد إلا بغزو الفرنسيين، لذلك أوصى ماسكاري بسياسة خاصة ينبغي على فرنسا إتباعها اتجاه سكان منطقة القبائل وأن لا ترتكب الأخطاء التي وقع فيها الرومان من ازدراء واحتقار للتنظيمات الاجتماعية الخاصة بالمجتمعات النوميدية والموريطانية.[5]

لا مدعاة للشك أن ماسكاري قد تأثر بالكتاب العسكريين الذين كتبوا عن المجتمع الجزائري لكنه تأثر خاصة بالكتابات التي مست المجتمع البربري، فهل كان منطلق ماسكاري هو: لا اكتمال لأي دراسة إلا بمعرفة جهود السابقين في المجال نفسه؟ أم هو محاولة لتقديم دراسة جديدة ومغايرة؟

---

1 Masqueray, Formation des Cités, Op.cit, p.81

2 يبدو أن تسمية "الأفريقيين" عند ماسكاري تكن أحقاد دفينة اتجاه العرب وهذا يعبر عن توجه الكثير من الفرنسيين إلى التمييز بين العناصر المكونة للمجتمع الجزائري.

3 Masqueray, Formation des Cités, Op.cit, p 73.

4 Ibid. p 89.

5 Ibid. pp 110,134.

يذكر ماسكاري أنه تأثر بكتاب E.Carette أ.كاريت"[1] على الرغم من أننا لم نعثر على عنوان له لا في قائمته البيبليوغرافية ولا في إحالات أطروحته وفي اعتقادنا يكون كتاب "Origine et migration des principales tribus de l'Afrique septentrionale et particulièrement de l'Algérie" الذي صدر سنة 1853 والذي يقع في 489 صفحة[2] الأكثر ترجيحا في هذا التأثير لدلالة العنوان، ومهما يكن فإن التوصيات التي جاء بها هذا العسكري تصب في استمالة "العناصر البربرية" باستخدام طرق أخرى غير العسكرية لكسب سكان منطقة القبائل وتوظيفهم خدمة لفرنسا ويستشهد ماسكاري بأحد مقاطع كتاب كاريت :" هل الحرب ضرورية لتمدين شعب يمكن غزوه بالصناعة ومختلف وسائلها" ويضيف قائلا: "ينبغي استخدام سكان منطقة القبائل كوسطاء في تجارة الصناعات واستخدام الحرفيين القبائليين سينجر عنه نتائج مضاعفة أكثر تعود بالمنفعة أكثر من استخدام السلاح"، وأشاد ماسكاري بهذا العسكري أيضا لأنه من الفرنسيين الأوائل الذين أوصوا بإشراك مصالح الجزائريين بالفرنسيين في مختلف المؤسسات الاستعمارية.[3]

ليس هناك شك أن الكتابات الأنثربولوجية الفرنسية في أواخر القرن التاسع عشر قد تأثرت بالتيارات الفلسفية والفكرية التي انتشرت بأوروبا ومنها الاتجاه الدوركايمي الذي وجد صدى لفهم وتفسير آلية المجتمعات المغاربية فكان ماسكاري من بين الكتاب الذين تأثروا بالدوركايمية حين أشار إلى سكان منطقة القبائل كأنموذج من

1 هو انطوان أرنست هيبوليت كاريت ولد في 1808انظم إلى المدرسة المتعددة التقنيات 1828، ثم تخصص في الهندسة العسكرية للجيش الفرنسي شارك في عدة حملات في الجزائر، قام بالعديد من الأبحاث التاريخية، وإلى جانب عمله العسكري اهتم بالجانب التاريخي لمنطقة القبائل والأوراس حين كان عضوا في اللجنة العلمية خلال السنوات 1840-1841-1842 التي كونتها وزارة الحرب لاكتشاف الجزائر ومن أهم مؤلفاته بمعية بعض الفرنسيين الآخرين نذكر Description et division de l'Algérie والكتاب الذي ألفه مع روزي Rozet الموسوم بـ الجزائر Algerie: أنظر *G*.Vapereau, Dictionnaire universel des Contemporains, 5eme édition, Imprimerie, A Lahure, Paris, 1880, p 5525.

2 Carette, E. Exploration scientifique de l'Algérie, Origine et migration des principales tribus de l'Afrique septentrionale et particulièrement de l'Algérie. Imprimerie Impériale, Paris, 1853.

3 Masqueray, Formation des Cités, Op .cit, p 137.

المجتمعات "الانقسامية*"[1] ومن الواضح أن هذا التفسير ينطبق أيضا على المجتمع البربري في منطقة الأوراس ومنطقة القبائل وبني ميزاب لذلك خصص ماسكاري أطروحته لدراسة سكان هذه المناطق.

ينبغي أن نشير إلى أن هذا الجامعي قد استعمل الكثير من الجوانب العلمية ليؤكد فرضيات واهية وليؤكد أن الاحتلال نعمة حلت على "الشعوب البدائية" ومن الأمثلة التي يضربها لنا تأكيدا لذلك أن الرومان الذين غرسوا أشجار الزيتون في السفوح الجنوبية للأوراس هي رمز للسلام وفي هذا الشأن كتب: "لا تغرس أشجار معمرة مثل الزيتون إلا من مجموعة سكانية تأكدت من غدها لكن هذه الأشجار بدأت تتناقص لتختفي في بداية القرن الثامن الميلادي الذي فتح عهد الدمار ويقصد هنا هذا المؤلف الغزو الهلالي".

ونتساءل لماذا ركز هذا الكاتب على الغزو الروماني والذي اعتبر كل الشعوب الواقعة خارج أسواره بالبربرية كمثال للاستعمار الناجح؟ بل وحث حكومته الاستعمارية أن تستلهم من الأمثلة الرومانية شريطة إشراك السكان الجزائريين في عملها.[2]

يمكن أن نضم ماسكاري إلى قائمة الكتاب الفرنسيين الأنثربولوجيين الذين تبنوا مواقف سلبية أمام كل ما يمثل الشرق، فهؤلاء الفرنسيون صوروا لنا أن الحضارة الإنسانية هي إرث غربي وأن "الاستعمار نعمة" إذ كتب : " دمج الرومان سكان الشمال الإفريقي في حضارتهم الغربية إلا أن الفتح الإسلامي قام بتقويض هذه الحضارة عندما وصف هذا الفتح" ويمثل القرن الثامن الميلادي عنده "عهد الدمار".[3]

---

* يستخدم مصطلح الانقسامية لدلالة على مجتمع ينقسم إلى وحدات بسيطة "بدائية" تنتسب إلى سلف بعيد ويرتبط بعضها البعض بروابط القرابة، فالقبيلة تنقسم إلى عشائر تعيش كل واحدة في إقليم خاص بها وتمارس فعالياتها الاقتصادية بحرية، وبالتالي ليس في المجتمع الانقسامي سلطة سياسية مركزية موحدة، ورغم شيوع استعماله عند دوركايم إلا أن بعض يرجعها إلى ابن خلدون، أنظر: سليم، المرجع السابق، ص 860.

1 ليليا بن سالم، إرنست كلنير، عبد الله الحمودي، جان فافري، جاك بيرك، عبد الله عروي، الأنثربولوجيا والتاريخ، حالة المغرب العربي، ترجمة عبد الأحد سبتي وعبدالله الفلق، مطبعة سبو، الدار البيضاء المغرب، الطبعة الأولى 1988، ص ص 11-12.

2 Masqueray, Formation des Cités, Op .cit, p 153.

3 Ibid, pp 151-152.

أ –السكن في منطقة الأوراس :

اهتم ماسكاري بالسكن في المناطق الثلاث التي درسها لأنه رأى فيها ميزة تخص السكان "الأصليين للجزائر"، فكان للأوراس نصيب في هذا الاهتمام لأنه لاحظ وجود نوعين من المساكن حتمته الظروف الطبيعية للمنطقة فهي إما منازل أو خيام ويبدو أن كلتا الإقامتين لها دور وظيفي فقد استخدم سكان الأوراس الخيام لسهولة نقلها نظرا للطبيعة الجبلية السهبية، أم المنازل فقد اختلفت سقوفها عن تلك السائدة في منطقة القبائل فهي مبنية من الطين تستخدم لتجفيف بعض الفواكه والخضار وتميزت جدران هذه المباني بعدم الانتظام وهي مفصولة بأغصان الأشجار.[1]

وتطرق ماسكاري في هذا الإطار إلى حياة نصف البداوة عند سكان منطقة الأوراس الذين صنفهم ضمن السكان المستقرين في عنوان أطروحته ليبين أنها ميزة عند المجتمع البربري الأوراسي، غير أنه لم يبين لنا أنها تقتصر فقط على القبائل الأوراسية الأكثر فقرا أي تلك التي تعيش في السفوح الجنوبية لجبال الأوراس.[2]

قدم لنا ماسكاري كأنثربولوجي عاش بين سكان الأوراس وصفا للقرى المنتشرة في هذه المنطقة والتي كانت أغلبها تقع في أعلى المرتفعات يصعب الوصول إليها ولاحظ انتشار القلاع * في كل هذه القرى تقريبا إذ استخدمت كخزان مركزي لكل الثروات والمؤونة، كما لاحظ هذا الكاتب اختفاء هذه البنايات كلما اتجهنا نحو المنخفضات شمال جبال الأوراس وصوب النمامشة شرقا لتعوضها صوامع " Des Silos" لتخزين الحبوب.

---

1 Masqueray, Formation des Cités, Op.cit, p 155.

2 عدي، المرجع السابق، ص 102.

* يعتبر وجود القلعة ضرورة وليس إتقانا، فكل قرى الأوراس لها قلاعها، وهي بناء مكون من طابقين أو ثلاث، جدرانها الأربع مزودة بفتحات هي النوافذ و الأبواب في نفس الوقت، حيث يضع سكان القرى محاصيلهم ، وكل مالك له غرفة فارغة خاصة به، يضع فيها التمر أو الحبوب أو بعض الممتلكات. والقلعة في الواقع هي رابط اجتماعي يتجمع حولها السكان وترتبط بها الفوائد والمنافع ؛ وخلال فترات التوتر من تاريخ الأوراس كانت بمثابة رمز للأمن الجماعي والحماية المشتركة، فثروة القرية كلها مغلقة في مبنى واحد، تحت حراسة رجل واحد يكون أهلا للثقة، يتقاضى أجرة نسبية حسب كمية وقيمة السلع المسؤول عنها، أنظر: Ernest Fallot, (précédé d'une notice par Charles Simond) Les Monts Aurès, Publication, Plon, Paris, pp .12-14

بعد أن قدم لنا هذا المؤلف نمط السكن في قرى الأوراس قام بمقارنتها بقرى منطقة القبائل وأوضح أنها تعرف حركية ضئيلة مرجعا ذلك إلى تباعد القرى عن بعضها البعض والارتحال في الشتاء والصيف والذي نتج عنه قلة الاجتماعات التي تعقدها "الجماعة" خاصة في القرى التي يسود فيها الاستقرار.[1]

ب| معاداة العرب:

كتب ماسكاري متحاملا على العرب وصرح قائلا: "أن قبائل الأوراس لم تتوحد لصد الغزو الروماني مثلما فعلت مع "الغزو العربي" " l'invasion Arabe" حين توحدت بقيادة "كسيلة"، فمصطلح الغزو العربي يذكرنا بالأدبيات التي ظهرت فيما أطلق عليه بعهد الكتاب العسكريين أو مرحلة الكتاب الكلاسيكيي ن على حد تعبير "ستيفان غزال " Stéphane Gsell" التي حادت عن الموضوعية وأظهرت جليا وبشكل واضح تلك النزعة الاستعمارية لتشويه التاريخ الجزائري.

ولو عدنا إلى الصفحة 161 من أطروحته لوجدنا تحامله بشكل متعصب لشخصية عقبة بن نافع فوصفه ماسكاري بـ " الكسندر العربي" وكتب قائلا: " أنه عاد من الساحل الأطلسي ومنطقة سوس التي دمرها في طريقه" ،[2] ويميل هذا الكاتب إلى الاعتقاد أن سكان الأوراس لم يتقبلوا الإسلام إلا مكرهين ويذكر أيضا كيف توحدت قبائل الأوراس لمساعدة الكاهنة ملكة قبيلة "جراوة" وهذا يؤكد كراهيته للإسلام والعرب كما يظهر عاطفة إشفاقه على البربر.[3]

وإذا كانت أطروحته تصب في الموضوعية العلمية فلماذا نجده في الكثير من المواقع يربط "المجتمعات البربرية" بالسياسة الفرنسية؟

1 Masqueray, Formation des Cités, Op .cit, pp 156-157.
2 Ibid, pp 161.
3 محمد بن عميرة، حول منهج كتابة المؤرخين الفرنسيين لتاريخ الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، مجلة الدراسات التاريخية، العدد 05 السنة 1408هـ-1988 (Presses, d'I.A.I.G) 1991.ص 79.

مما لا يدعو للشك أن هذا الربط هو من قبيل إتباع سياسة خاصة اتجاه هذه المجتمعات التي اعتقد أنها قريبة من الثقافة الغربية المسيحية فقد كتب قائلا:" نحن الفرنسيون قدمنا أنفسنا للشاوية كمصلحين للإساءة التركية، ولم نكن في أعينهم كغزاة وكفرة، ولم نرى توحدهم في أحلاف قوية ضدنا" وأعطى مثالا عن ثورة *1879 التي كان النصر فيها حليف الجيوش الفرنسية على قبيلة أولاد داود دون تدخل من القبائل المجاورة لها كقبيلة أولاد عبدي وقبيلة وجانة.[1]

الحقيقة أن اندلاع الثورة عند اللحالحة التابعة لقبيلة أولاد داود تبعه انتشار لها عند أغلب قبائل الأوراس ومن جهة أخرى يتناسى إ.ماسكاري أثر السياسة الاستعمارية وما لإحلال النظام المدني من سلبيات وخيمة على الجانب الاقتصادي والاجتماعي للجزائريين.[2]

ج- التنظيم القبلي عند ماسكاري :

يصور لنا ماسكاري في أطروحته أن قبائل الأوراس تعيش في حروب قبلية لا متناهية مشبها الوضع العام الذي تعيش فيه المنطقة كلوحة الشطرنج، فهي في سلام مؤقت، وقد ترتب عن هذه الصراعات القبلية مجموعة من الصفوف أو الأحلاف وهما:

-صف أولاد عبدي.

- صف أولاد داود.

وقد اعتمد كثيرا على كتاب عبد الرحمان ابن خلدون الموسوم بـ

" لكتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر " ليوضح الكثير من الأحداث التي عرفتها منطقة الأوراس

* لا تختلف أسباب ثورة 1879 في الأوراس عند ماسكاري عن التقارير الفرنسية التي رأت أنها انتفاضة مختلف القبائل على غلو القياد، ويرجع البعض الآخر أسبابها إلى تعصب الطرق الدينية ودسائس الإخوان وهذه الأسباب حسب الفرنسيين تبقى غير مؤكدة، ويبدو أن السلطات الفرنسية حاولت تقزيمها واعتبرتها أحداثا محلية، ترجع أسبابها شخصية محضة، تمثلت في اغتيال بعض القادة الجزائريين في الأوراس ، وتناست التقارير الفرنسية الظروف الاقتصادية جراء السياسة الاستعمارية، أنظر : عبد الحميد زوزو، ثورة الأوراس 1879، زوزو، المؤسسة الوطنية للكتاب 3، شارع زيروت يوسف،الجزائر، 1986 ص ص 32-43.

1 Masqueray, Formation des Cités, Op.cit, p 163.

2 Luciani. D, Un souvenir de l'insurrection de 1879, (R.A) Vol N°66 année 1925. (O.P.U) 1, Place Centrale de Ben-Aknoun (Alger), 1986.pp.191, 194.

إلا أن هذه الاستعانة لم تكن إلا لإبراز الجوانب السلبية التي كانت سائدة عند مختلف المناطق التي درسها.

وفي هذا السياق ذهب ماسكاري إلى تبيين الدور الذي لعبته بعض الأسر المرابطية في تخفيف الصراعات القبلية، مؤكدا على ما بذلته من جهود لاحترام المعاهدات بين مختلف قبائل الأوراس وفي نفس الوقت عملت هذه الأسر على تهذيب عادات وآداب وأخلاق سكان المنطقة فمنعت بذلك اندلاع أكثر من حرب.[1]

ولابد من الإشارة هنا إلى أن هذا المؤلف كتب عن التحولات التي عرفتها هذه المنطقة جراء الاحتلال الفرنسي والذي كان من نتائجه المباشرة إخضاع الكثير من قبائل الأوراس المتصارعة حسبه إلى السلطة الاستعمارية عن طريق بعض العائلات المتنفذة أو المرابطية فوجدت تلك القبائل نفسها مجبرة على أن تتوحد في صف واحد، وقدم مثالا عن ذلك حين وجدت قبائل نارة ومنعة وأولاد عبدي نفسها تحت إمرة محمد بن عباس الذي عينه "الجنرال ديفو* Desvaux" قائدا على الأوارس.[2]

وإذا أمعنا النظر في تركيزه على انقسام قبائل منطقة الأوراس من الجانب الأنثربولوجي والاجتماعي لتأكدنا من سعيه إلى إثبات وجود"مجتمعات انقسامية" مبنية على نظام العشائر والذي يتميز بالملكية الجماعية للأرض والقرابة العائلية والقبلية والتكافل الاجتماعي، وقد ركز الأنثربولوجيون الفرنسيون في كتاباتهم مثل ماسكاري على الاستقلال الظاهري للمجتمعات البربرية عن السلط المركزية[3]، إن هذا التصور يدفعنا للقول أن هذا الكاتب يبحث عن وسائل عملية كفيلة تساعد على استمرار الهيمنة في هذه المناطق من خلال إتباع سياسة راشدة مستغلة البربر في ذلك.

---

1 Masqueray, Formation des Cités, Op.cit, pp 167, 169,171

* هو ديفو نيكولا، جيل توسان ولد بباريس سنة 1810 ضابط تخرج من مدرسة الخيالة، كان قائدا لقسمة قسنطينة ساهم في تحرير القرار المشيخي "سناتوس كونسولت" سنة 1863 وتطبيقه، توفي سنة 1884.أنظر: Annie- Rey Goldzeiguer, le Royaume Arabe, SNED, Alger, 1977.p 762

2 Masqueray, Formation des Cités, Op. cit, p 171.

3 بن سالم وآخرون، المرجع السابق، ص 12.

لذلك يعتقد أن المجتمع البربري لا يختلف كثيرا عن المجتمع الفرنسي فنراه يوصي بالتقرب من البربر وجعلهم يستفيدون من الاستعمار الفرنسي وذلك لامتلاك فرنسا وسائل عمل ناجعة في هذا المجال.[1]

حاول إ.مسكاري في الفصل الأخير من أطروحته أن يقارن بين القرى والمدن في روما القديمة والقرى القبائلية والميزابية والأوراسية وهذا لفهم التنظيمات التي وصفها بأنها "بدائية" في المناطق الثلاث التي اصطلح على تسميتها بـ" دويلات كلاسيكية" ليخلص لاستنتاج مفاده أن التنظيمات الاجتماعية التي عرفتها روما القديمة هي نفسها عند "السكان المستقرين" بالجزائر مستعملا المنهج المقارن ليثبت التشابه الموجود بين التقاليد التي كانت تسير القرى الرومانية وما تعرفه بعض المدن في الجزائر خاصة "البربرية" منها، أما الجماعة التي كان بيدها التشريع والسلطة فهي على شاكلة المجالس الرومانية بالنسبة له.[2]

وفي خاتمة أطروحته اعترف ماسكاري بوجود تغيرات اقتصادية واجتماعية حلت على المناطق الثلاث وقد أرجعها إلى الأنظمة الاستعمارية الفرنسية الإدارية والعسكرية الجديدة التي فرضت عليها، لذلك اتهم تأثير "الحضارة الفرنسية المزعومة" بأنها غيرت الأنظمة التي كانت سائدة عند المجتمعات البربرية إذ رأى أنها في مرحلة متقدمة من الانهدام والتقوض فكتب قائلا:" باختصار نشأت هذه المجتمعات– أي الثلاثة– من المبدأ نفسه هي تظاهرات منتظمة للحرية والاحترام المتبادل للرجال في حدود ضيقة".[3]

يوصي هذا الأنثربولوجي في النهاية بإعادة كتابة تاريخ السكان المستقرين "الأصليين" لأنهم "عرفوا قهرا من الرومان وانتهاكات من الوندال وطغيان البيزنطيين ونهبا قام به الغزاة العرب الأوائل لبلادهم" ثم يضيف متأسفا ومتحاملا على العرب دائما قائلا:" عندما بدأ هؤلاء –يقصد هنا سكان المناطق الثلاث– في إعادة تنظيم وتأسيس ممالكهم التي هي شبيهة بدويلاتنا في العصور الوسطى أضحوا فريسة

1 Masqueray, Formation des Cités, Op.cit, p 261.
2 Ibid, pp 222, 240,245.
3 Ibid, p 259.

للغزو العربي الهلالي الثاني الجشع الذي يحركه حب الحرب والاقتتال الذي يزدري ويحتقر كل الأمم المتحضرة، بالإضافة إلى الأتراك بغاراتهم المستمرة فعمت الفوضى وانتشرت الجريمة".

هكذا إذن كان إ.ماسكاري ضمن الكتاب الأنثربولوجيين الفرنسيين الذين أظهروا تحمسا –ليس فقط لإظهار انقسام الجزائريين – لتلك الأطروحة التي تقر بوجود أعراق غير منصهرة لا تكون مجتمعا ملتحما ووفق هذا التصور نجد العرب وعناصر أخرى بربرية مستقلة هي عبارة عن "كونفيدراليات" ليثبت إمكانية استمالتها وفرنستها لامتلاكها قابلية الاندماج في الحضارة الفرنسية ويمكن استخدامها في تطويع العرب ولن تكتمل هذه النظرية إلا بإحياء القوانين العرفية والتركيز على التباين القبلي وهذا ما نجده في أغلب كتاباته التي صنفت على أنها علمية.[1]

وتكمن سياسة التطويع هذه بإتباع خطوات أولية مهمة حسب هذا المؤلف تمر عبر مرحلتين أساسيتين: المرحلة الأولى هي إصلاح التقاليد الاستعمارية والعادات الإدارية المتعسفة وإرجاع الحق للجزائريين في إبداء رأيهم ومنحهم وسيلة لإسماع صوتهم، من خلال تطبيق القوانين الفرنسية مثلما يتم تطبيقها في المتروبول وعن طريق توسيع التعليم الفرنسي الذي يراه بالغ الأهمية، ثم بعد ذلك تأتي المرحلة الثانية وهي التي يتم فيها تجنيس الجزائريين الذين مازالوا رعايا وليسوا مواطنين، فتتلخص إذن فكرة ماسكاري "ليس في تطبيق القوانين الفرنسية على الجزائريين إنما يتعداه إلى خلق فرنسيين".[2]

ومهما يكن فإن الدور الذي لعبه إ.ماسكاري في التأثير على السياسة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر يتحدد أساسا في المدة القصيرة بين سنتي 1890–1893 وهي الفترة التي زار فيها جول فيري الجزائر ضمن "لجنة مجلس الشيوخ" التي كان يترأسها والتي حلت بالجزائر من أجل التحقيق في أوضاع الجزائريين سنة 1891 أو " لجنة الثمانية عشر عضوا".[3]

---

[1] سعدالله، الحركة الوطنية، المرجع السابق، ص 530.

2 Ageron, Les Algériens Musulmans, T I Op.cit. p 421

3 سعد الله، المرجع السابق، الحركة الوطنية، ج1، ص ص 524–525.

اعتبر بعض المؤرخين أبحاث إميل ماسكاري وأطروحته ضمن ما أصطلح عليه بـ"الأنثروبولوجيا التاريخية"، وتأكيدا لهذا يكفي أن نستدل بما صرح به حين قال:" لم أقم يوما بأبحاث أثرية أو لغوية إلا من وجهة نظر تاريخية" [1]، ويبدو أنه هنا تتلخص أهمية كتابات ماسكاري الأنثروبولوجية في كتابة تاريخ المجتمع الجزائري، ومن خلال استعراضنا لهذه النماذج من المؤلفات الفرنسية يتبين لنا محور اهتمام هؤلاء الكتاب الذين ركزوا على "عينة" أو "عنصر" من الجزائريين خاصة "البربر".

د- تصنيف إميل ماسكاري كمتعاطف مع الأهالي Indigènophile :

الحقيقة أن تصنيف المؤرخ شارل روبير آجرون لإميل مسكاري ضمن ما أطلق عليه بالمتعاطفين مع الأهالي قد استند إلى تلك الجمعية التي ترأسها مع بول لوروا بوليو Paul Leroy Beaulieu وفيكتور شولشر * V.Sholcher المسماة "الجمعية الفرنسية لحماية أهالي المستعمرات" " Société Française pour la protection des indigènes des colonie والتي استطاع هؤلاء من خلالها لفت انتباه جزء من الطبقة السياسية الفرنسية خاصة جول فيري وورومبو Rambaud لما يعانيه الجزائريون في الوقت الذي زاد فيه تكالب الكولون للحصول على الاستقلالية المالية.[2] ويجب أن نشير هنا إلى شيء نراه مهما أن إميل ماسكاري قد ناقش أطروحته باللغة اللاتينية الموسومة بـ De Aurasio Monte : ab initio secundi p. ch. saeculi usque ad solomonis expedionem بكلية

1 Andrée Nouschi, Réédition de la thèse d'E. Masqueray, Formation des cités chez les populations sédentaires de l'Algérie. In: Cahiers de la Méditerranée, n°26, 1, 1983. Cités et nations au Maghreb. p 101.

* هو فيكتور شولشر، Victor Sholcher ولد سنة 1804 له جهود ضد الاستعباد والدفاع عن حقوق الإنسان وبداية من سنة 1830 بدأ النضال من أجل إصلاح الأنظمة الاستعمارية، فتم نفيه بسبب هذه المواقف سنة ليعود إلى فرنسا سنة 1851 ليتم انتخابه كنائب ممثل لمنطقة المرتنيك ثم أصبح سيناتورا ليناضل ضد الحملات الاستعمارية والاستعمار. أنظر: Rivallain Josette. Schmidt Nelly, 1995, La correspondance de Victor Schoelcher. In: Journal des africanistes, 1997, tome 67, fascicule 1. L'Afrique vue du Brésil. p. 197

2 Jean Meyer, Jean Tourade , Annie rey Goldzeiguer, Jaque Thobie, Histoire de la France coloniale, des origines a 1914, Armand Colin, Paris, 1991.p 665.

الآداب بباريس في نفس السنة التي ناقش أطروحته "تشكل المدن عند السكان المستقرين" سنة 1886.

وإذا ما تتبعنا جل ما كتبه هذا الأنثربولوجي لاحظنا أنه ركز على المجتمعات البربرية وليس فقط المجتمع الأوراسي والقبائلي بل حتى بني ميزاب فقد كانت له عدة مقالات نشرها في "جريدة المناقشات السياسية والأدبية "[1] " Journal des débats politiques et littéraires" مما سهل عليه إنجاز أطروحته [2] ومما يؤكد اهتمامه بالمجتمعات البربرية دون غيرها أنه أصدر معجما فرنسيا طوارقيا [3]ويبدو أن هذا الاهتمام المبالغ فيه مدعاة للشك وتفسيره أن ماسكاري أراد أن يثبت من خلال دراساته ليس فقط أن المجتمع الجزائري مقسم إلى مجموعات بربر وعرب لا تكون مجتمعا موحدا فحسب بل إلى بدو رحل وآخرين مستقرين فصنفت كتاباته حسب معاصريه من الفرنسيين على أنها وصف للمجتمعات التي بقيت مستقرة في مدنها العتيقة وحاول في الفصل الأخير من أطروحته أن يقارن بين المدينة الإفريقية "الجزائرية" والمدينة الرومانية.[4]

وإذا كان المؤرخ شارل روبير آجرون قد صنف ماسكاري ضمن المتعاطفين مع الأهالي Les Indigènophiles الليبراليين الذين تتلخص إيديولوجيتهم في "لا استعمار دائم إلا بالتصالح مع الجزائريين ولا تصالح دون تحويل عادات الأهالي والذهنية الاستعمارية"، إلا أن ماسكاري كان مثل غيره من الكتاب متحمسا للتوسع الاستعماري الفرنسي لكنه دعا إلى سياسة واسعة من الإدماج، ونتساءل وفق هذا السياق إن كان بمقدورنا أن نصنفه ضمن ما أطلق عليهم بالمتعاطفين مع الأهالي ؟

[1] من الجرائد التي كانت تصدر بالمتروبول كانت ذات اتجاه محافظ مؤيدة لعائلة أورليان، وقامت بالمعارضة اليبرالية، أنظر : Julien,Charles-Andrée, Histoire de l'Algérie contemporaine Tome1 , PUF, 1964. p 509.

2 Journal des débats 12/01/1883.

3 Emile Masqueray, Dictionnaire Français- touareg (dialecte des Taitoq), Ernest le Roux Editeur, Paris 1893.

[4] Augustin Bernard, Revue de l'Afrique Française et des antiquités africaines, Tome IV-5eme Année, 1886.Macon imprimerie et lithographie, Protat Frères. P407.

إن الإجابة على ذلك هو أننا لا نختلف كثيرا في تصنيف المؤرخ آجرون لمسكاري كمتعاطف مع "الجزائريين" لكن بعد تتبعنا لمجمل كتاباته نصنفه بدورنا كمتعاطف مع البربر Berbérophile.[1]

كما وصف المؤرخ آجرون الرسائل والأعمال التي خصت الأوراس والمجتمعات البربرية وأطروحته "تشكل المدن عند السكان المستقرين في الجزائر 1886 كتضحية من ماسكاري لتعاطفه مع المجتمعات البربرية على حساب تكوينه الأول في الدراسات الرومانية.[2]

هـ- التعليم مطية للأطروحة البربرية:

وعلى صعيد آخر وإذا ما تناولنا اهتمام ماسكاري بالجانب التعليمي في الجزائر فقد ذكرت إحدى الصحف الثورية الاشتراكية التي كانت تصدر عهدئذ أنه كان متحمسا لتعليم الجزائريين، لكننا نعلم يقينا أن هذا التحمس خصه للبربر فقط وليس لكل الجزائريين[3]، وهذا ما تثبته الكثير من دراساته أين نجد أنفسنا أمام أحد الفرنسيين الذين دافعوا عن المجتمعات البربرية في الجزائر لكننا ندرك أنه كان في الوقت نفسه متحمسا أيضا لعمل رجال الدين المسيحيين في الجزائر، فقد كتب تأبينية في صحيفة النقاشات السياسية والأدبية[4] إثر وفاة "شارل لافيجري" Charles Lavigerie حين كتب متحسرا : "لقد غادر أرض الجزائر للأبد" فمهما أبدى هؤلاء الأنثروبولوجيون الفرنسيون عطفهم على البربر فهو من زاوية ضيقة مفادها أن إسلامهم سطحي يمكن تنصيرهم أو إعادتهم إلى ديانتهم الأولى غير الإسلام وأضاف في ذات التأبينية أن فرنسا خسرت رجلا بذل نفسه خدمة للمسيح وخدمة لفرنسا التي وصفها أنها "أم الديانة الصليبية".[5]

لقد كان هؤلاء الكتاب الانثربولوجيون عمالا في الميدان في مهمات علمية لكنها ذات أغراض سياسية واستعمارية فقد كتبت إحدى الصحف الصادرة بالمتروبول

1 Ageron, Les Algériens Musulmans, T I Op.cit. p 421
2 Ibid, pp 420-421.
3 Journal l'Attaque 23-30/ 01/1892.
1 وهي ذات اتجاه محافظ ثم ليبرالي مؤيدة للكولون وللنظام المدني،
5 Journal des débats 16/12/1892.

والمعاصرة لتلك الفترة أن إميل ماسكاري أستاذ التاريخ في ثانوية الجزائر قد أنهى مهمته التي كلفه بها وزير التعليم العمومي لدراسة اللهجة البربرية والبحث في الأصول التاريخية لسكان الأوراس، مستغربة وجود تشابه بين العادات السائدة عند سكان الأوراس وحالة المجتمع الفرنسي في العصور الوسطى التي كان قد أشار إليها هذا الأنثروبولوجي.[1]

ولا نستغرب الوصف الذي أطلقه عليه بعض الفرنسيين على أنه العالم المكتشف المؤرخ العالم الأثري عالم الكتابات المنقوشة واللغوي والإثنولوجي، فقد تمحورت جل اهتماماته على الجانب الأنثربولوجي للبربر وبشكل أخص الشاوية في منطقة الأوراس، ومن الطبيعي أيضا أن نجد بعضهم يشير إلى أن كتاباته قد ضمت ومضات تشبه ما نجده في كتابات الرحالة الذين أحبوا الجزائر.[2]

تعلم ماسكاري اللغة العربية مما أتاح له تقديم دروس في مدينة الجزائر للمترجمين العسكريين ويذكر ألفرد رامبو Alfred Rambaud أن ماسكاري قد أثبت أن العرب دخلاء غزاة وأن البربر هم السكان الأصليون وهم العنصر الأساسي والأهم الذي بقي كما هو بعد الغزو القرطاجي والروماني والوندالي، البزينطي، العربي والتركي ومن هذا المنطلق وجب الاعتماد عليهم إذا ما أرادت فرنسا البقاء في الجزائر. ولم يخلص إلى مثل هذه الايديولوجيات إلا بعد الزيارات بل الإقامات التي قام بها بدء بمنطقة القبائل التي كتب عنها تقريرا بخصوص الحالة الاجتماعية والتنظيمات الحزبية والشعر والأغاني التي ترنم أثناء الحرب وضمت هذه الدراسة أيضا إمكانية تقبل "القبائل" للحضارة الفرنسية، وكتب تقريرا آخر عن التعليم الابتدائي الفرنسي في منطقة القبائل والوسائل التي ينبغي توفيرها لتطويره في هذه المنطقة فكان هذا التقرير نقطة الانطلاق الكبرى لتأسيس المدارس الفرنسية المخصصة للجزائريين والتي أصبحت ضمن سياسة "جول فيري".

1 La Revue politique et littéraire, deuxième série-tome XIV 7eme Année-2e semestre, Janvier à Juillet 1878.Paris 1878. p 979.
2 Ibid. p 979.

وتشير بعض الكتابات إلى أن وزارة التعليم العمومي قد ضمت العديد من التقارير ومخططات بناء وخرائط وفواتير تقديرية لإنشاء مدارس في منطقة القبائل والتي أنجزها ماسكاري من أجل تجديد وإحياء وبعث هذه الشعوب "البدائية" من خلال التعليم الفرنسي.[1]

وفي سنة 1875 حول ماسكاري اهتمامه إلى منطقة أخرى وهي الأوراس * لأنها حسب هذا الأنثربولوجي بقيت ملجأ للسكان "البربر الأصليين" خلال ما أطلق عليه "بالغزو العربي".[2]

وخدمة للمشروع الاستعماري كان برنامجه هذه المرة يضم برنامجا كالتالي:

1 – من الناحية الإثنوغرافية البحث عن أصول الشاوية.
2 – ومن الناحية التاريخية تتبع أهم الهجرات الموسمية لقبائل الأوراس.
3 – وضع مخطط لغوي وتأليف قاموس شاوي– فرنسي ومقارنتها باللهجة القبائلية والطارقية.
4 – تمثيل العادات الشاوية في جدول ومقارنتها بالعادات القبائلية.
5 – التعرف على آثار ما قبل التاريخ والكتابات الليبية المتواجدة في السفوح الشمالية لجبال الأوراس.

وانطلاقا من هذه الإستراتيجية جاءت إسهامات هذا الأنثربولوجي على شكل مقالات نشرها في المجلة الإفريقية منذ سبعينيات القرن 19م، مركزا فيها على الآثار الرومانية بشكل كبير وهو يحاول بذلك –حسب رأينا– ربط المنطقة بالرومان ويذكر ذات الكاتب أن التنقيبات الأثرية والدراسات اللغوية التي أنجزها ما كان ليقوم بها إلا لأنها ذات علاقة بالتاريخ".

1 Alfred Rambaud, Un pionnier d'Afrique, Emile Masqueray, In : La Revue politique et littéraire, Quatrième série-tome III 32eme Année-1e semestre, Janvier à Juin, Paris 1895.pp 162-163.

* من الواضح أن أغلب الكتاب الفرنسيين ومهما كانت اختصاصاتهم قد ركزوا على الأوراس لما له من أهمية تاريخية حسبهم خاصة ما تعلق في مقاومة الوندال، والإغريق والعرب.

2 Rambaud,Op.cit,p 163.

ومما يدل على وجود "مسألة بربرية" وراء تحمس ماسكاري واهتمامه بالعناصر البربرية زيارته لرجلين من الطوارق*[1] بسجن باب عزون بمدينة الجزائر إذ تعلم منهما اللهجة التارقية ثم جاءته فكرة إنجاز قاموس فرنسي – تارقي (طيطوك) واعترافا بفضل هذين الرجلين اصطحبهما في رحلة إلى باريس [2]، فقد جنح إلى دراسة المجتمعات "البربرية" بدليل أنه أتقن اللغة العربية وتشير بعض المصادر إلى أن ماسكاري قد حضر الدروس التي كان يلقيها عبد الحليم بن سماية بمدينة الجزائر.

وإذا كان ماسكاري يصنف ضمن الكتاب الجامعيين الذين لهم إسهامات في كتابة التاريخ الجزائري إلا أننا نجده في الكثير من الأحيان كغيره من هذه الفئة يشيد بعمل العسكريين الفرنسيين، ففي أحد مقالاته نجده يبرر الفعل العسكري الاستعماري لفرنسا في الجزائر مستلهما ومستشهدا بالأعمال الرومانية خلال مرحلة موريتانيا القيصرية أين استطاع الرومان فرض نظامهم العسكري على السكان الأهالي فكتب ماسكاري قائلا: "إن الرومان قد فرضوا على الأهالي نفس النظام العسكري الذي نطبقه في الجزائر".[3]

ونلاحظ بشكل ملفت في مقالات هذا الأنثربولوجي تركيزه على العناصر "البربرية" بما لها من قابلية لاعتناق المسيحية، فقد جاء في التقديم الذي كتبه لأحد المؤلفات الفرنسية التي تناولت منطقة القبائل" Races Berbères Kabyles du jurjura":
" لقد استطاع سكان منطقة القبائل مقاومة غواية الإسلام رغم أنهم يؤمنون برب واحد وبنبيه الأمي" لكن إسلام هذه العناصر "البربرية" بقي – حسب أغلب هؤلاء الكتاب–

* يرى ابن خلدون أن الطوارق من الطبقة الثانية من قبيلة صهناجة وسماهم "بالملثمين" إذ قال: " هذه الطبقة من صنهاجة هم الملثمون المواطنون بالقفر وراء الرمال الصحراوية بالجنوب، أبعدوا في المجالات هنالك منذ دهور قبل الفتح لا يعرف أولها. فلصحروا عن الأرياف ووجدوا بها المراد وهجروا التلول وجفوها، واعتاضوا منها بألبان الأنعام ولحومها انتباذا عن العمران، واستئناسا بالانفراد، وتوحشا بالعز عن الغلبة والقهر. فنزلوا من ريف الحبشة جوارا، وصاروا ما بين بلاد البربر وبلاد السودان حجزا واتخذوا اللثام خطاما تميزوا بشعاره بين الأمم وعفوا في تلك البلاد وكثروا..."أنظر: عبد الرحمان ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، طبعة مستكملة ومقارنة مع= = عدة نسخ ومخطوطات ومذيلة بحواشي وشروح وتمتاز بفهارس للموضوعات والأعلام والأماكن الجغرافية، الجزء السادس، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 2000، ص 241.

1 Rambaud,Op.cit, pp 164,166.

2 Ibid, p 167.

3 Masqueray, La Stèle, Op.cit .p 41.

سطحيا بدليل أنهم لا يطبقون الشريعة الإسلامية في الميراث حين يمتنع الرجال عن توريث النساء وهذا من أجل الحفاظ على تناسق وتجانس العائلات القبائلية على مستوى أراضي القبيلة. ويتساءل إميل ماسكاري عن مصير منطقة القبائل بعد أن تم إخضاعها للفرنسيين؟ وهنا نلمس توصياته للسلطات الفرنسية باتباع سياسة أكثر دهاء ممن سبقهم من الغزاة ويقصد هنا خاصة الرومان ويشير هذا الكتاب إلى ضرورة إبقاء التنظيمات الاجتماعية السائدة في منطقة القبائل والقوانين العرفية.

ويستمر ماسكاري في تأكيد السياسة الفرنسية لاستمالة البربر وخاصة التعليم إذ يكتب مصرحا: " يجب أن يصبح الإداريون الفرنسيون معلمين وقادة هذه الشعوب الجاهلة والمتخوفة ومن البشائر التي تنذر –حسبه– بنجاح السياسة الفرنسية هو انتشار المدارس الفرنسية في المنطقة والتي أصبحت أكثر من المساجد".[1]

حتى أن "جول فيري Jules Ferry" أقر بشكل صريح بما يلي: " من بين جميع أنحاء الجزائر تبقى منطقة القبائل الكبرى الأفضل استعدادا للاندماج بسبب خصائص وتقاليد وأعراف سكانها... ليس هناك منطقة في المستعمرة ينتظر سكانها معلمينا بفارغ الصبر ويحرصون على توفير الوسائل الكافية لفتح المدارس "[2]، لكن يجب أن نتساءل هنا عن مدى نجاح تلك السياسة في منطقة الأوراس؟

الحقيقة أنه لم تقتصر مهام ماسكاري على معرفة الجانب الأنثربوبولوجي للمجتمع الجزائري خاصة أولئك الذين أطلق عليهم تسمية "المستقرين"، بل تعدته إلى استمالة واقتراح مدارس فرنسية ومعرفة مدى تقبل سكان منطقة القبائل لها فيذكر قائلا:" تحصلت على الإجماع عند أولاد فرعون عندما اقترحت عليهم إنشاء مدرسة فرنسية" ويشير إلى مقاربات تاريخية اجتماعية مضللة حين يكتب:" نجد عند بني بودرار وخاصة عند بني بوعكاش الحياة الجماعية مثلما هو متواجد عند بعض السكان الجبليين في فرنسا".[3]

1 Jules Liorel, Races Berberes Kabyles du Jurjura, préface de E, Masqueray, Paris, Ernest Leroux éditeur, 1892, pp VI-IX.
2 Alfred Rambaud, Jules Ferry, Plon-Nourrit et Cie, Imprimeurs -éditeurs, Paris, 1903, pp 161-162.
3 Masqueray, Formation des Cités, Op.cit, p 98.

ولعل الخلاصة التي يمكننا تحصيلها من خلال ما رأيناه هو أن الكتاب الأنثربولوجيين الفرنسيين قد ركزوا في نهاية القرن التاسع عشر على دراسة البربر من العهود القديمة الرومانية والبيزنطية إلى غاية الاحتلال الفرنسي. وإذا كانت الكتابات الأنثربولوجية الأولى هي دراسات إثنوغرافية بامتياز تناولت ما يسميه البعض بـ"الأسطورة البربرية" تعكس الاتجاه الإيديولوجي لهؤلاء الكتاب الاستعماريين المتمثل في وجود أعراق مختلفة عربية وبربرية، مؤمنين بتلك النظرية القائلة أن العرب شرقيون أما البربر فهم غربيون يمكن استمالتهم وتقريبهم من الفرنسيين، لكن لا يعني ذلك البتة انتقال البربر إلى مصاف الأوربيين المتحضرين بل يبقى هؤلاء في نظرهم "برابرة".

المبحث الثاني: المجتمع الجزائري وأنثربولوجيا الدين "إيدمون دوتي" أنموذجا:

لقد شهدت الدراسات العربية منذ قيام مدرسة الآداب نشاطا مضاعفا بحيث كان المستشرقون المستعربون يتسابقون في مجال البحث ونشر المؤلفات، لا في نطاق مدرسة الآداب فحسب بل أيضا في المدارس الثلاثة في الجزائر ووهران وقسنطينة وقد انضم إلى مدرسة الآداب كل من جبريال كولان G.Colin[1] وأميل غوتيي E.F.Gautier

[1] قبريال كولان: ولد سنة 1860 بمدينة ليون الفرنسية عمل في الجيش الفرنسي وتحصل على شهادة في اللغات الشرقية عمل كمتصرف إداري في أحد البلديات المختلطة في الجزائر، تحصل على الليسانس في الحقوق والأدب واشتغل في ثانوية مدينة الجزائر أين كان يقدم دروسا في اللغة العربية العامية له مجموعة من المؤلفات ومنها: عبد القادر الجزائري "طبيب عربي" 1905، و عناصر اللغة العربية "اللهجة الجزائرية *Eléments du language arabe , dialecte algerien 1903.:* وغيرها، أنظر: *pouillion Op Cit, pp231-232.*

وأيدمون دوتي وأصبحوا زملاء لروني باسي* René Basset.[1]

وتماشيا مع هذا فقد تنوعت الأنثروبولوجيا الجامعية إبان الفترة الاستعمارية فبرز على صعيد آخر أيدمون دوتي الذي اتجهت جهوده للأبحاث الاجتماعية والأنثربولوجية[2] وخاصة الدينية منها، إذ قام بمجموعة من الأبحاث بصفة شخصية وكانت ملاحظاته وخلاصاته حسب إسماعيل العربي[3] لا تستند في الظاهر على أي تحقيق إداري *، فقد نشر دوتي في سنة 1900 كراسة معنونة بـ "الإسلام

* رونيه باسيه تخرج من مدرسة اللغات الشرقية الحية في باريس بدبلوم التمكن من اللغة العربية التركية و الفارسية، جاء للجزائر كمكلف لدروس الآداب العربية في المدرسة العليا للآداب سنة 1880 فدرس اللغات الإفريقية و خاصة البربرية فعين على كرسي اللغة البربرية في الجامعة وبفضله تم إنشاء كرسي اللغة البربرية في باريس، عين كمدير لمدرسة الآداب بعد موت ماسكاري 1894، وعندما أصبحت هذه المدرسة العليا كجامعة الآداب للجزائر أختير كعميد لها ثلاثة مرات متتالية، توفي سنة 1924 له عدة كتابات خصت المنطقة مثل "كتاب الحملات على إفريقية و المغرب *L*ivre des Conquetes de L'Afrique et du maghrib أنظر: Alfred.Bel René Basse, In: (R.A). Vol N°65 année 1924 (O.P.U)1, Place Centrale de Ben-Aknoun (Alger) 1986.pp.12-13-14-15.

[1] العربي، المرجع السابق.ص43.

[2] سعد الله، أبحاث وآراء، ج1، المرجع السابق، ص ص.24-25.

[3] هو محند أعراب الذي عرف باسم إسماعيل العربي ولد بمنطقة القبائل وبالضبط في بني وغليس سنة 1919 حفظ القرآن وتعلم بمسقط رأسه ثم شد الرحال صوب مدينة قسنطينة سنة 1937 لينظم إلى دروس الشيخ عبد الحميد بن باديس وبعد تخرجه ونظرا لحذاقته كلفته جمعية العلماء المسلمين للانتقال إلى فرنسا للعمل والدعوة في إطار الجمعية تحت إشراف الفضيل الورتيلاني، ثم انتقل إلى مصر لينتسب إلى الجامعة الأمريكية متخرجا بشهادة الليسانس في الآداب، وعند عودته إلى أرض الوطن عهد إليه تنظيم التعليم العربي في مدار الجمعية، وكان عضوا في هيئة تحرير جريدة البصائر الخاص بالجمعية، له مجموعة من الإصدارات في التاريخ "كدولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية" و"العلاقات الدبلوماسية في عهد الأمير عبد القادر وغيرها الكثير، أنظر: مسعود فلوسي، من علماء الجزائر المعاصرين المؤرخ والمحقق والمترجم الأستاذ إسماعيل العربي، دون دار الطبع وسنة الطبع وترقيم الصفحات.

* لكن إذا رجعنا إلى بعض المؤلفات لوجدنا أن الكثير من الدراسات التي قام بها جامعيون قد جاءت بأمر من السلطات الاستعمارية العليا في الجزائر فها هو كتاب Enquête sur la dispersion de la langue berbère en Algérie دليل على ذلك وكان من إنجاز إيدمون دوتي بمعية إيميل فليكس غوتييه من أجل معرفة الحدود اللغوية ومحاولة الإجابة عن السؤال الذي مفاده : هل تتراجع اللغة البربرية في الجزائر؟ لأن فقدان لغة الأم يعني حسب ما جاء في هذا الكتاب هو وجود تطور عميق ذو انعكاسات بعدية، وما يشدنا أكثر في هذه الدراسة هو خلاصة الكتاب أين استدل هذين الكاتبين على مقولة إيميل ماسكاري : " كان لفرنسا حماقة تعريب البربر" عندما فرضت عليهم القاضي المسلم سنة 1866"وعن طريق الإدارة، لكن حسب خلاصة هذه الدراسة فإن البربرية تراجعت أكثر أمام الحضارة العربية الاسلامية بالقياس إلى الحضارة الفرنسية لكن أنظر : Edmond Doutté, E.F Gautier, Enquête sur la dispersion de la langue berbère en Algérie, typographie Adolphe Jourdan Imprimeur-Libraire,- Editeur Place du gouvernement, Alger, 1913. pp 156-157.

الجزائري"L'Islam algérien en l'an 1900 بمناسبة الاحتفال الذي كان سيقام بباريس من نفس السنة، وهو كتيب من الحجم الصغير [1] يقع في 183 صفحة أراد به دوتي أن يعرف بالإسلام بشكل وجيز وأن يثبت فيه كغيره من الكتاب الأنثربولوجيين الفرنسيين أن الدين الإسلامي عند "البربر" سطحي فقد كتب في الصفحة 38:" حقيقة هناك مجتمعات لم يتغلغل الإسلام فيها؛ فالقبائل الكبرى التي تبنت الإسلام وتعاليمه الخالصة لم يتقبل سكانها تحويل أحوالهم الشخصية البربرية فقد حافظت على عاداتها وعلى قوانينها المناقضة تماما للشريعة الإسلامية" ليخلص إلى استنتاج مهم في خاتمة كتابه حيث قال:" اعتنق رعايانا الجزائريون الإسلام بشكل بطيء وهو الشيء الذي أفضى إلى عبادة هؤلاء للأولياء...المرابطون هم العنصر الرئيسي للإسلام المغاربي منذ القرن السادس عشر" [2] وبالنسبة لدوتي فإنه من الأحسن لفرنسا بقاء الجزائريين "تحت وطأة إسلامهم المرابطي عوض أن تصيبهم الحضارة الفرنسية بنورها" ولم يختلف دوتي كثيرا عن الكتاب الفرنسيين السابقين الذين كانت لهم فلسفة تمجيد النظام الفرنسي فنجده تارة يصرح أن صراع "السلالات البربرية" قبل مدة قاربت الثلاثة قرون قد أنهكت المغرب فخلص إلى أن التنافس السياسي أبعد المسائل الدينية ورأى أن زوال حكم المسلمين في غرناطة "اسبانيا" وطردهم منها وتطور الأسبان والبرتغال هو الذي أيقض التعصب الإسلامي لدى المغاربة، ونراه تارة أخرى يتهم المرابطين بأنهم هم الذين حولوا البربر إلى عادة التبرك بالأولياء، ويؤكد أن المرابطية في تزايد مستمر وفي المقابل لم يصل الإسلام سكان بعض المناطق كمنطقة القبائل الكبرى حيث مازال هؤلاء يحتفظون بممارساتهم وقوانينهم العرفية بالرغم من تناقضها الصريح مع القانون الإسلامي الشرعي، ونجد هذا الكاتب يزعم أيضا أن الفرنسيين أنفسهم هم الذين ساهموا ولو بشكل اعتراضي في تعريب البلاد مثل منطقة الأوراس أين قامت السلطات الفرنسية الاستعمارية تقريبا بإزالة التقاليد الوطنية والإسلامية.[3]

[1] Ageron, Les Algériens Musulmans, T II Op. cit. p.891.
[2] Edmond Doutté, L'Islam algérien en l'an 1900, Alger Mustapha, Giralt, Imprimeur photograveur, Rue des Colons, 17, 1900.pp 38, 136, 138.
[3] Doutté, L'Islam algérien, Op. cit. pp.37, 38, 93.

ونشر دوتي في نفس السنة كتابا آخر تحت عنوان "ملاحظة عن الإسلام المغاربي –المرابطون" Note sur l'islam Maghrébin les marabouts "وهي دراسة تناولت توسع شعائر وطقوس العبادة والتبرك بالأولياء الصالحين خاصة في إفريقيا الشمالية وحاول البحث في جذور وأصول هذه الطقوس مؤكدا على القدرات السياسية للمرابطين، كما استحدث أيضا مصطلح "المرابطية Maraboutisme " الذي يحمل معنى ومفهوما جديدا ، حيث يعني طقوس تعبد الأولياء الصالحين في الإسلام و الذي يعني أيضا الثناء المخصص لخلفائهم الأحياء حاملي البركة الموروثة[1]، فالمرابطية بالنسبة لدوتي هي شعيرة الأهالي في إفريقيا، حتى أنه يرى– مثل غيره [*]– أن النساء عند أولاد عبدي مثلا في الأوراس بعد طلاقهن يتوجهن لممارسة الدعارة بالرغم من سكنهن في بيوت عائلاتهن، ويرى أولياؤهن أن تلك الممارسات شيء طبيعي، وعندما علمت السلطة الإدارية الفرنسية بذلك حاولت تنظيم هذه الدعارة، بيد أن السكان عارضوا ذلك الإجراء بدعوى أنه سوف يؤثر على وفرة المحاصيل؛ ومن هنا فهي بركة ترتبط حسب زعمه بهذه الدعارة [2]. كما أن الإدارة الفرنسية الاستعمارية العليا هي الأخرى فهمت أن شعيرة تعبد الأولياء الصالحين هي الديانة الأكثر شعبية في الجزائر، وخلصت إلى أنه تحت المظاهر الإسلامية ستجد طقوسا وثنية وحتى مسيحية سبقت الإسلام والتي تستمر تحت غطاء إسلامي.[3]

---

[1] Ageron, Les Algériens Musulmans, T II Op. cit. p 903 .

* يذهب دولارتيق إلى نفس المنحى، ويرى أن أخلاق أولاد عبدي تتميز بالانحلال خاصة في منعة، انظر: Delartigue LT.Colonel Monographie de l'Aurès, Constantine, 1904, pp.12, 200. وحسب آجرون فإن الأوراس بالنسبة للمتعلمين هو موطن الكاهنة، وأن الدعارة كممارسة من طقوس التخصيب، أنظر: الهامش Ageron, Les Algériens Musulmans, T II Op. cit.p, 889.

2 Doutté Edmond, Notes sur L'islam Maghrébin ; les Marabouts, In : Revue de l'histoire des Religion, Tome Xl XLI, 1899, Paris, imp. Garnis et Cie. Section orientale A. Burdin, Angers.1900.p.98.

3 Ageron, Les Algériens Musulmans, T II Op. cit. p.904.

ولو تمعنا بشكل دقيق في هذه الدراسة لاستنتجنا أن دوتي حاول تحليل الإسلام المغاربي وقدم استنتاجات يمكن للسلطات الاستعمارية الرجوع إليها وتطبيقها بشكل فعال كقاعدة لإخضاع الجزائريين المستعمرين.[1]

ومن أهم توصياته هي دراسة دور المرابطين في التاريخ السياسي والبحث عن أصول الطرق الصوفية ومعرفة العلاقة الموجودة بينها وبين المرابطية ولذلك وجب حسب دوتي إعادة دراسة الإسلام المغاربي من جديد خاصة حين "أصبحت عبادة الصلحاء "les Saints "هي الدين الإسلامي"، فالتصالح إذن مع المرابطين حسب هذا الفرنسي هو ضمان لعدم قيام ثورات ضد فرنسا وبتعبير آخر يجب على السلطة الاستعمارية الفرنسية أن تنتهج السياسة التي اتبعها سلاطين المغرب والأتراك حين استطاع هؤلاء كسب ود المرابطين من خلال الامتيازات التي منحت لهم وإعفاؤهم من الضرائب والاستعانة بهم عند الحاجة، ونتيجة لذلك وجب على الفرنسيين اتباع سياسة مرنة "لتأسيس الحكم الاستعماري في الجزائر".[2]

ويبدو من خلال هذه المعطيات أن إ.دوتي يؤمن أن الإسلام الجزائري هو دين طرقي تكثر فيه عادات وطقوس أقل ما يقال عنها أنها مبتدعة فكان كتابه سحر وديانة في إفريقيا الشمالية "[3]Magie et religion dans l'Afrique du nord " الذي أصدر سنة 1909 كحوصلة لاستنتاجاته الأنثربولوجية وسنرى في مبحثنا التالي كيف فسر الكثير من العادات والاحتفالا ت الشعبية المنتشرة في المجتمع خاصة عند سكان منطقة الشرق الجزائري.

1 Doutté, Notes, Op. cit. p 115.

2 Ibid. pp 117-119.

[3] يتكون هذا الكتاب الذي أصدر سنة 1909 من توطئة، مقدمة واثني عشر فصلا، الفصل الأول بعنوان السحرة العرافون والمشعوذون، أما الفصل الثاني بعنوان: الطقوس السحرية، الثالث: التعاويذ أو الطقوس الشفوية، الرابع: الطلاسم أو الطقوس المشكلة، الفصل الخامس: الغايات العملية للسحر، السادس: السحر العلم والدين، الفصل السابع: الألوهية الاستقرائية، الفصل الثامن: الألوهية الحدسية،الفصل التاسع: القوى المقدسة وانتقالها، الفصل العاشر: التضحية الفصل الحادي عشر: بقايا السحر القديم : الكرنفال الفصل الأخير : بقايا السحر القديم الأعياد الموسمية وطقوس الطبيعة، ثم خاتمة.

أ-العادات والمعتقدات والاحتفالات الشعبية في كتاب سحر وديانة:

يمثل كتاب "سحر وديانة" خلاصة المحاضرات التي كان إ.دوتي قد ألقاها في المدرسة العليا للآداب بمدينة الجزائر بعد الملاحظات التي سجلها في الميدان، تناول دوتي دراسته في كتاب "سحر و ديانة Magie et religion" حول الأشكال الأكثر بساطة من الحياة الدينية من المعتقدات والممارسات التي ربما يمكن القول عنها أنها على هامش الديانة الإسلامية الشرعية والتي انتشرت بشكل كبير في الريف.[1]

أراد دوتي أن يحلل الظواهر الدينية التي أشار إليها الإثنوغرافيون الفرنسيون الأوائل المنتشرة في الشمال الإفريقي وذلك وفق النظريات الأنثربولوجية الانجليزية والنظريات الاجتماعية الفرنسية التي بدأت تتجه صوب مناهج وطرق جديدة لتفسير الظواهر الاجتماعية.[2]

ويذكر إ.دوتي أنه اعتمد على القرآن وصحيح البخاري لتحليل بعض ما جاء في مؤلفه، وفيما يخص الفصول التي تناول فيها الاحتفالات الشعبية والفلكلور فقد اعتمد على ملاحظاته الشخصية وعلى الأدبيات المتوفرة في تلك الفترة في الشمال الإفريقي فكان موضوع هذا الكتاب يتلخص في تشكل كل ما هو "سحر ومقدس".[3]

ورغم اعتراف هذا الأنثربولوجي بوجود شكل من أشكال الحضارة عند الشعوب غير الأوروبية إلا أنه على النقيض من ذلك يرى أن هناك مظاهر بدائية في المجتمع الجزائري خاصة في الجانب الديني ويشير إلى ذلك التناقض الصارخ الموجود بين "ضوابط الشريعة الإسلامية والممارسات المحرمة كالسحر" ويكون هذا الأخير حسب دوتي "كمظهر من مظاهر بدائية الدين الجزائري والديانة المنتشرة في الشمال الإفريقي، فكان مؤلفه كإجابة عن التساؤل الذي طرحه في الصفحة 14 والذي مفاده "ما هي المظاهر البدائية التي تبقت من الديانات والمعتقدات القديمة للأهالي في شمال إفريقيا؟".

1 R H, E.Doutté- Magie et religion dans l'Afrique du nord, In : l'Année sociologique,Tome Xi 1906-1909, Evreux, imprimerie, 1910,pp 103-104.

2 Edmond Doutté, Magie & Religion dans l'Afrique du nord, typographie Adolphe Jourdan Imprimeur-Libraire-éditeur,9 , Place de la Régence, 9, Alger, 1909. p 1.

3, Doutté, Magie Op. cit. p 03.

يؤمن إ.دوتي كغيره من الفرنسيين أن الدين الإسلامي الذي انتشر في الجزائر هو إسلام سطحي واستدل ببقاء الكثير من الطقوس والعادات القديمة التي لم يقضي عليها الإسلام خاصة عند "البربر" [1]، ويمكننا القول أنه بإمكاننا تصنيف دوتي مع غيره من الفرنسيين الذين حاولوا فهم الإسلام ليفسروه تفسيرا يليق بالمصالح الفرنسية حين اختلق هؤلاء أسماء تحط من قيمته كتسمية "الإسلام الجزائري".[2]

وإذا كان الإسلام قد حرم تمثيل كل ذي روح بالصور والتماثيل إلا " أن الإثنوغرافيا المقارنة –حسب ذات المؤلف– قد أثبتت أن الشعوب البدائية بما فيها المجتمع الجزائري تتخوف من التمثيلات الرمزية والصور" ويرى أن بعض الاحتفالات الشعبية والكرنفالات[3] هي دليل قاطع على وجود هذه البدائية.[4]

ولدراسة المجتمع الجزائري انطلق دوتي من فكرة مفادها أنه مجتمع ديني فجاءت هذه الدراسة مركزة على هذا المجال لكنه لم يتبع تفسيرات رجال الدين والفقهاء المسلمين لعرض بعض الممارسات واستلهم الظواهر القديمة التي لها صلة بالدين واستنتج أننا لو بحثنا في ركائزه لوجدنا "السحر" *ولذلك يعترف دوتي بوجود صعوبة في دراسة الدين الإسلامي الجزائري دون التطرق للسحر.[5]

ويبدو أن هذا المؤلف انساق –كغيره من الكتاب الفرنسيين– وراء التفسيرات التي تصف المجتمع الجزائري بالمتخلف والبدائي، هذا المصطلح الذي شاع استعماله عند الغرب في بداية القرن العشرين والذي أطلق على جميع الدول المستعمرة، وقدم بعض الأمثلة التي تخص التداوي بالأعشاب والرقية كدليل على هذه البدائية رغم أنها

---

1 Doutté, Magie Op.cit. pp 06,08-14.

[2] سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 6، المرجع السابق، ص 424.

3 اختلف في أصل كلمة Carnaval وتذكر بعض المصادر أن أصلها إيطالي، وتعني احتفالات عيد الغطاس في بداية الصيام الكاثوليكي، وهي استعراض شعبي يجمع بين الاحتفال والسيرك من خلال التنكر وتقمص شخصيات أو حيوانات وغيرها، أنظر: Larousse, Op. cit, p 207.

4 Doutté, Magie, Op. cit. p 16.

* اختلف علماء الاجتماع والأنثربولوجيا عن ماهية الدين فيرى البعض منهم أمثال إيدموند دوتي أنه لا يمكننا فهم الظواهر الدينية إلا بمعرفة السحر والمعتقدات الشعبية، والممارسات الصوفية، وحتى الطقوس التي تعالج المرض ويكون بذلك قد تأثر بأفكار إميل دوركايم، أنظر: كلود ريفيير، الأنثربولوجيا- الاجتماعية للأديان، ترجمة وتقديم أسامة نبيل، الطبعة الأولى، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 2015، ص 32.

5 Doutté, Magie, Op. cit.pp 25-26.

معروفة حتى لدى الدول الأكثر تقدما، فالطب بالنسبة إليه هو "وليد السحر" فكتب: " بالكاد يمكننا أن نميز بين الساحر والطبيب في شمال إفريقيا" وحتى الصيدلة بالنسبة إليه هي فرع من فروع السحر.

وفي نفس السياق قدم لنا دوتي أمثلة كانت كافية حسب منظوره لتصنيف المجتمع الجزائري ضمن المجتمعات "المتوحشة" معتبرا أن عملية الختان التي كان يمارسها الحلاق دليلا واضحا على ذلك.[1]

إن ما أشار إليه دوتي عن تفشي الطب السحري يطابق إلى حد كبير الحقيقة في تلك الفترة، إلا أن الدكتور أبو القاسم سعد الله يذكر أن سبب هذا الانتشار رغم ظهور بعض الأطباء الجزائريين في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين وهم أولئك الذين تخرجوا من الجامعات الفرنسية أمثال ابن العربي محمد الصغير والطيب مرسلي وغيرهم يعود إلى انتشار التصوف والجهل حيث تعلق الناس بالتداوي بالممارسات السحرية والشعوذة وابتعاد الناس عن الدين والعلم والعقل كما صنف الدكتور أبو القاسم سعد الله إيدموند دوتي ضمن "علماء الاجتماع الذين رأوا أن المجتمع الجزائري سيتحلل من الداخل بنفسه وينتهي أجله عما قريب".[2]

يعتبر البعض أن مؤلف " السحر والديانة بإفريقيا الشمالية" هو أحد أكبر المؤلفات الفرنسية التي أنجزت حول المعتقدات الدينية بالمجتمع الجزائري خلال الفترة الاستعمارية، وأراد إ.دوتي من خلال أطروحته هذه أن يطرح فكرتين أساسيتين كما أشرنا آنفا:

تتلخص الفكرة الأولى في "أسلمة" المعتقدات الوثنية القديمة، أما الفكرة الثانية التي أراد أن يثبتها فتتعلق بضرورة ظهور وسطاء بين العابد والمعبود وهو "الله".

وينطلق دوتي في تحليل ما جاء به في هذا المؤلف من قناعة مفادها اضطرار سكان الشمال الإفريقي إلى "التحايل على الإسلام من أجل المحافظة على معتقداتهم القديمة الأصلية، وذلك بتكييف هذه المعتقدات الوثنية مع مقتضيات الدين الجديد عن طريق مزجها بطقوس وممارسات إسلامية" وحكم دوتي بعجز الإسلام عن

1 Doutté, Magie, Op. cit. pp, 36-37, 37,40.

2 أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، (1830-1954)، الجزء 6، عالم المعرفة، طبعة خاصة، الجزائر ، 2011، ص ص 249-250.

القضاء على الطقوس الوثنية القديمة المنتشرة والتي هي "في الأصل طقوس دينية لكنها تحولت إلى مجرد ممارسات لها علاقة بالسحر".[1]

وعلل دوتي انتشار "الصلحاء" و "الأولياء" في الجزائر بسبب تشدد الإسلام الذي أوجد هوة بين العابد والمعبود بإلغاء كل الصلات المجسدة مثل ما نجده عند النصارى، الأمر الذي دفع الكثير من المجتمعات المغاربية إلى البحث عن وسيط.[2]

يجب أن نشير إلى أن كتاب إ.دوتي "سحر وديانة في إفريقيا الشمالية" أنجز في فترة كانت قد سيطرت عليها نظريات المدرسة الاجتماعية الفرنسية الدوركايمية والمدرسة التطورية البريطانية والتي يكون دوتي قد تأثر بها لذلك صنف المجتمع الإفريقي ضمن المجتمعات البدائية فأردف في خاتمته قائلا:"...لأنه في كل المجتمعات البدائية معظم الممارسات والمعتقدات لها طابع جماعي وهي بالنسبة للفرد إلزامية...".[3]

كما أن فكرة البقايا والرواسب التي طبقها على المعتقد الديني في الجزائر تستند أساسا على النظرية الأنجلوسكسونية التطورية إذ كتب موضحا في الصفحة 599 " إن السحر البدائي قد اختفى أمام الإسلام لكننا سعينا لإعادة تشكيله من البقايا التي ظلت حية: البعض منها هي ممارسات شعبية يبيحها الإسلام الملتزم".[4]

إن الأفكار التي تبناها دوتي في أطروحته بغض النظر عن قيمتها تعبر عن إيديولوجية استعمارية اعتبرها من المسلمات لا تحتاج إلى برهان ودون تقديم أدلة ملموسة، وهي مستوحاة من النظريات الدوركايمية التي لا تعطي للدين إلا دورا ثانويا.[5]

1 عبد الغني منديب، الدين والمجتمع دراسة سوسيولوجية للتدين بالمغرب، أفريقيا الشرق، المغرب، 2006، ص ص 30-31.
2 المرجع نفسه، ص 32.
3 Doutté, Magie, Op. cit. p 597.
4 Ibid. p599 .
5 منديب، المرجع السابق، ص 33.

المبحث الثالث: الكتاب الأنثربولوجيون الفرنسيون والفلكلور الجزائري:

عني الأنثربولوجيون الفرنسيون بدراسة المجتمعات المستعمرة التي وصفت بأنها متخلفة من خلال تحليل وفهم الفلكلور * أو "التراث الشعبي" للجزائريين بغرض دعم سياسة التفرقة بين سكان مناطق الجزائر المختلفة وذلك بإحياء وتأكيد العادات السابقة للإسلام[1]، ومن هذا المنطلق يمكن القول أن هذا الاهتمام لم يكن بريئا بل لإدراك الكتاب الفرنسيين ما للفلكلور من تأثير على الدين.

فهو يركز على الاحتفالات الكبرى"الكرنفال" وعلى السحر الإسلامي، ويرى أنه يوجد في المغرب عادات شعبية مماثلة لما هو موجود في فرنسا كبقايا السحر القديم، مثل الاحتفال الذي يقام بمناسبة عاشوراء والأيام التي تليها [2]، والذي يسمى "طاكوكة * أو رأس الشايب" في منطقتي الأوراس والزيبان، فضلا عن كون هذا الاحتفال معروفا في مناطق الأغواط وميزاب وورقلة. ففي قرية خنقة سيدي ناجي "قبيلة جبل ششار " في دائرة خنشلة يقام هذا الاحتفال؛ خاصة من طرف أناس سوف الذين يقطنون هذه القرية حيث يتنكر الأهالي يوم عاشوراء بمختلف الأزياء، فالبعض منهم يغطون أنفسهم بنسيج من الصوف توحي ألوانها على أنهم أسود أو جمال ويجولون في القرية ويصدرون أصواتا تشبه هذه الحيوانات يرافقهم بعض عازفي الموسيقى، ثم يتم بعد ذلك تقديم عروض درامية كرجل تخونه زوجته. ونجد هذا الاحتفال أيضا عند أولاد رشاش، أما في البلدية المختلطة خنشلة فيختلف الأمر إذ يتم الاحتفال في أواخر شهر فيفري أو في أواسط شهر مارس ويعرف هذا العيد في هذه المنطقة

---

* ظهر الفلكلور في أوروبا في منتصف القرن 19م ليدل على الدراسات التاريخية التي تتصل بعادات الشعوب وتقاليدهم وطقوسهم وخرافاتهم وأساطيرهم ومعتقداتهم وفنونهم وما يجري على ألسنتهم من أغان أو أمثال أو شتائم أو ميراث أو أهازيج. يدرس ذلك كله من خلال الآثار واهتمت أكثر بالمجتمعات المستعمرة والمتخلفة، أنظر: محمد محمد حسين، حصوننا مهددة من الداخل، الطبعة الرابعة، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، 1977، ص 47.

1 المرجع نفسه، ص 50.

2 Edmond Doutté, Magie & Religion dans l'Afrique du nord, typographie Adolphe Jourdan Imprimeur-Libraire-Editeur,9 , Place de la Régence, 9, Alger, 1909.pp.496, 500.

* الطكوكة هي رقصة يشارك فيها خاصة الفتيات في سن الزواج وتقام ليلا، أنظر: L Gognalons, Fête Principales des sédentaires d'Ouargla (Rouagha). In : (R.A). Vol N°53 année 1909 (O.P.U) 1, Place Centrale de Ben-Aknoun (Alger) 1986.pp.88-89

"ببونان" ويؤكد الشاوية أن هذا الاسم الذي استعمل منذ القدم ليس مشتقا من الفرنسية، لكن هذا التقليد اختفى.

ويتساءل دوتي عن مصدر هذه الاحتفالات التي تنتشر في المغرب العربي بل وحتى في أنحاء العالم والتي يدينها "المسلمون الملتزمون" أو ما أطلق عليهم ذات الكاتب بـ "المسلمون الأرثودوكسيون" ، ويجيبنا أن الإثنوغرافيا المقارنة هي وحدها التي يمكنها أن تجيب عن ذلك.[1]

وقد لاحظ هذا المؤلف أن الكثير من الطقوس التي فقدت شكلها الأصلي لدى المجتمع الجزائري استطاعت البقاء لكنها متسترة لا يمكن رصدها إلا بوجود دراسات دقيقة متأنية إثنوغرافية واجتماعية.[2]

ويتفق دوتي مع ماسكاري حول عيد يناير "بو يني" ويؤكد أن أصله لاتيني يرجع لا محالة للاحتلال الروماني السابق للمنطقة، غير أن هذا لا يعني أن أصله روماني، لأن ممارسات هذا العيد عامة، أما شاوية الأوراس فيسمون هذا العيد بـ "بو يني" أي عيد الأوتاد لأنه في هذا اليوم يتم تغيير الأوتاد [*]التي تعلق فيها الأواني المنزلية الموجودة في جدران المنزل، وهذا ما ذهب إليه أيضا المقدم دولارتيق De lartigue في كتابه Monographie de l'Aurès مونغرافية الأوراس، والذي رأى أنه من الخطأ أن نظن أن هذا العيد هو من مخلفات المسيحية.[3]

1 Doutté, Magie, Op.cit. pp.500, 505,511.

2 منديب، المرجع السابق، ص 31.

[*] إن العديد من الفرنسيين يرون أن أصول الكثير من التسميات ترجع إلى اللاتينية حيث يرى آريب أن الأوراسيين تخلو عن استعمال التقسيم الشهري القمري و قد تبنوا التقسيم الشهري الميلادي لأنه مبسط و يسهل علاقاتهم الإدارية، المدنية و التجارية، و أشهر هذه الرزنامة مشتقة من اللاتينية. و فيما يخص تبديل الأوتاد في جدران المنزل فالأرجح انه تغيير الحجارة التي تستعمل كموقد لطهي الطعام، أنظر: Arripe: Essai sur le Folklore, Op. cit. p.460 وأنظر : بن ضيف الله، المرجع السابق، ص ص. 299-300.

3 Delartigue, Monographie, Op. cit. p.203.

نجد في عمل دوتي " Magie et religion" كما معتبرا من الأحداث المقتطفة والمصنفة بدقة، وتبدو هذه الدراسة كتفسير فلسفي لها والتي سوف تنال اهتمام مؤرخي الديانات لاحقا، لأنها تخص أيضا الحياة الاجتماعية للعالم الإسلامي وخلص دوتي إلى أن السحرة والكهنة والمجوس لعبوا أدوارا مهمة في فترات سابقة بالمغرب.[1]

ويذكر إسماعيل العربي أ ن عمل أيدمون دوتي يتسم بالأصالة والتنوع معا فقد طبق نظريات الإثنوغرافيين وعلماء الاجتماع المحدثين، وأقام عليها أبحاثه في المغرب[2]، ولقد درس دوتي الحركة المرابطية التي تقدم عن الإسلام الصورة الأكثر تشخيصا وعنفا وانحرافا ويرجعه إلى الإسلام الصوفي الذي حمل بذور التخلف كعبادة الأولياء الصالحين وخلفائهم.

لقد تعددت الدراسات حول الأنثروبولوجيا الدينية في مطلع القرن العشرين والتي تتناول أبحاثا تتمحور حول الممارسات السحرية والطقوس الوثنية وأشكال الشعوذة التي كانت سائدة في الجزائر آنذاك والتي أساءت إلى الشريعة الإسلامية كثيرا [*]، فكان كتاب دوتي عبارة عن مقارنة أنثروبولوجية حديثة بين مختلف الثقافات، وصورة لإدانة ممارسات وتقاليد تنتمي للعهود القديمة والقرون الوسطى[3]، ويبدو أن لتأثير المرابطين والطرقيين دخل في كثرة الدجل والشعوذة وانحطاط الدين، فقد استغلوا تأثيرهم السحري على الجزائريين وتفشي الجهل فيهم الذي استمر فترة طويلة حتى

1 P.L.M, Algérie, Magie et religion du nord Africain, In : Revue du Monde Musulman Vol°VII, Janvier, Février, 1909, Ernest Leroux, Editeur, 28, Rue, Bonaparte (Vie) p.123.

2 العربي، الدراسات العربية، المرجع السابق. ص 43.

* كان الباحثون الفرنسيون في نفس الفترة يكتشفون ويحصون بشيء من التفضيل الممارسات السحرية لدى أهل الريف و يشددون على "عبادة الأولياء"،وآثار الممارسات التي سميت بالجاهلية، فقد ترتب عن ذلك أن القراء المعاصرين يميلون بالأحرى إلى الاعتقاد بأن الإسلام المغاربي لم يكن سوى وثنية اكتست بكساء القرآن بشكل سيء نقلا عن هامش كتاب لوكا، وآخرون، المرجع السابق، ص 68.

3 المرجع نفسه، ص 29.

مطلع القرن العشرين الميلادي في الجزائر إلى حين ظهور جمعية العلماء المسلمين التي حاربت هذه المظاهر.[1]

لكن حتى الفرنسيون أنفسهم رأوا أن الإسلام الأول– أين لا يوجد وسيط بين الخالق والمخلوق– هو الإسلام البدائي، ثم تغير عندما أدخل التصوف في الطرق الدينية الإسلامية "الشيخ" أو " الخليفة" الذي يمثل الله وعند ممات الأول يخلفه في بعض الأحيان أحد مساعديه المقربين [2]، ومهما يكن فقد اعترضت طريق الاحتلال الاستيطاني الفرنسي في الجزائر قوتان دينيتان؛ المرابطون والطرقية في القرن التاسع عشر والعلماء المصلحون في القرن العشرين [3]، هذا وعرفت منطقة الأوراس الانتشار الواسع للدين الإسلامي والحضور المكثف لرجال الدين في الثقافة الشعبية وفي تاريخ هذه المنطقة، بالرغم من أن هذا المجتمع الجبلي ذو سمعة قديمة في الخارج مفادها أنه مجتمع لا أخلاقي محب للحرب.

تنوعت الدراسات الأنثروبولوجية التي درست المجتمع في الشرق الجزائري وهي في الحقيقة حسب ما رأينا علم استعماري اختص فيه مجموعة من الباحثين الفرنسيين في الجزائر، ومن خلال دراسة وتحليل مختلف العناوين يمكن أن نخلص إلى أهم مجالات البحث التي اهتم بها الباحثون الفرنسيون آنذاك إضافة إلى تشخيص المشاكل التي تناولوها في تلك الفترة، وتجدر الإشارة إلى أن بعض الدراسات ضمت فروعا للمعرفة تحتل في بعض الأحيان مكانة خاصة طغت على معرفة المجتمع الجزائري، بعد توسع النظام المدني في الجزائر حين أصبح الجزائريون في علاقة مباشرة مع السلطة الكولونيالية على شكل الدولة القانونية والمدنية.

---

[1] شارل-أندري جوليان، إفريقيا الشمالية تسير(القوميات الإسلامية و السيادة الفرنسية)ترجمة المنجي سليم-الطيب المهيدي الصادق المقدم-فتحي زهير-الحبيب الشطي مراجعة فريد السوداني،الدار التونسية للنشر،1976 تونس.ص125.

[2] BEL Alfred L'Islam mystique. (R.A). Vol N°68année 1927 (O.P.U) 1, Place Centrale de Ben-Aknoun (Alger) 1986.p.350.

[3] Colonna, Savants, Op. cit. p.159

ومن جهة أخرى يمكن القول أن أغلب الدراسات التي عرفتها منطقة الشرق الجزائري ضمت مزيجا من المجالات كعلم الاجتماع والاقتصاد، أو الأنثربولوجيا أو التاريخ.[1]

1 François Leimdorfer, Objet de la sociologie coloniale (L'exemple Algérien) In : Revue Tiers-monde, Année1982 Volume 23 Numéro 90, Avril Juin 1982 (P.U.F) France, pp.280, 282.

المبحث الثالث: المرأة الجزائرية في الكتابات الأنثربولوجية الفرنسية:

لقد كانت البحوث التي خصت مشكل المرأة متكررة جدا خلال الفترة الممتدة مابين 1900و1940 لأنه كان ينظر للمرأة على أنها عامل تخلف المجتمع أو تطوره، وحسب وجهة نظر الدكتور أبو القاسم سعد الله فإن هذا الاهتمام كان انطلاقا من قناعات فرنسية دينية أو عرقية [1]، متحيزة كما أن الدراسات التي تخصصت في الصناعات التقليدية هي الأخرى أيضا كانت ضمن اهتمامات علماء الاجتماع خلال فترة مابين الحربين [2]، وقد صادف ظهور الكتابات التي اختصت بالمرأة الأهلية التي ألفتها الكاتبات الفرنسيات في الجزائر وفي المتربول بداية ظهور الحركة النسوية في فرنسا[3] فجاءت هذه الكتابات مهتمة بوصف "المجتمعات النسوية الأهلية" والأعمال المنوطة بالمرأة فكان وصفها بصفتها شخصا فاعلا أو مادة بحث، وغالبا ما كان ينظر إلى عالم المرأة كما أسلفنا سابقا على أنه وسط يقوم بكبح تطور المجتمع المسلم.[4]

ظهرت مجموعة من الكتابات النسوية من منطلق محاولة الإسهام في الشؤون السياسية التي بقيت إلى وقت قريب حكرا على الرجل ومن فكرة مفادها أن هؤلاء الكاتبات أحسسن بمسؤولية اتجاه المرأة المسلمة الأهلية (البائسة والتائهة) –التي لا تستطيع المطالبة بحقوقها– ومحاولة لمساعدتها للانتقال من مرحلة بدائية تقليدية إلى التحضر، فجاءت تلك الأعمال حسبهن قريبة من الحقائق التي يعيشها المجتمع المسلم.

ومن خلال ما ذكرناه سابقا أمكن للمرأة الفرنسية التي كانت تعيش في الجزائر أن تجلب مساهمتها لمعرفة أدق وأشمل للمرأة المسلمة فساهمت أكثر في توجهات

1 سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج7، ص 181.

2 Leimdorfer. Op.cit, p.286-287.

3 Yahiaoui, Société musulmane, Op.cit. p.1072.

4 Ibid. p.27 -52.

السياسة الكولونيالية، وربما كان هذا الوصف الواقعي التي أظهرته تلك الكتابات للمجتمعات النسوية شكلا غير مباشر للتعبير عن مطالب هؤلاء الكاتبات أنفسهن.

ومن خلال السياق السوسيوتاريخي يمكن معرفة هذا الاهتمام المفاجئ للمرأة في فترة مابين الحربين، والواقع أنه في نهاية الحرب العالمية الأولى بدأت الجرائد على مختلف مشاربها تطالب بأن يوسع التعليم ليشمل ذكور وإناث المجتمع المسلم الجزائري فجاءت تلك الكتابات كدعم سياسي إيديولوجي لهذه المطالب واتفقت على إدماج المرأة المسلمة في هذا التطور الاجتماعي. و تحقيقا لهذه الغاية سيماط اللثام عن جميع المشاكل التي واجهت المرأة المسلمة في وسطها الاجتماعي من خلال هذه الدراسات المختلفة؛ كتعدد الزوجات، الزواج المبكر، وحالات الفقر التي تفضي إلى البغاء والإذلال، عدم القدرة على اختيار الزوج والخضوع للعادات المتشددة.[1]

ومن بين تلك الدراسات التي اهتمت بالمرأة نجد أطروحة ماتيا قودري Mathea Gaudry * "المرأة الشاوية للأوراس La femme Chouia de l'Aurès" التي نشرتها سنة 1929، ويبدو أن اختيار المرأة كعنصر اجتماعي بعيدا عن الاحتكاك بالمجتمع الغربي له ما يفسره فقودري أرادت أن تسجل بهذا العمل بعدا اجتماعيا يقرب هذه الدراسة الاجتماعية من الإثنولوجية الكلاسيكية [2]، حيث تم اختيار المرأة للدراسة "لأنها تملصت وكانت بعيدة عن التأثيرات الخارجية "[3]، فحاولت تقديم المرأة الأوراسية في الوسط الذي كانت تعيش فيه، باعتباره حضارة بدائية من الجوانب الاقتصادية والاجتماعية، محاولة تحديد المكانة التي تلعبها المرأة الشاوية مقارنة مع الرجل في ممارسة وظائفها، والمتتبع لهذه الدراسة الاجتماعية يلاحظ الاهتمام بالمرأة الأوراسية منذ ولادتها إلى مماتها [4]، فتظهر على أنها تلك المرأة التي لا تضع

1 Yahiaoui, Société musulmane, Op.cit.pp.60, 64-65-66.

* هي ماتيا قودري دكتورة في الحقوق، محامية في محكمة الاستئناف بالجزائر العاصمة، أنظر: Ibid. p.459.

2 Leimdorfer, Objet de la sociologie, Op. cit. p.291.

3 Gaudry, Op.cit.p.15.

4 Ibid. pp.15-16.

الحجاب وتتمتع بحرية كبيرة جعلتها تختلف اختلافا كبيرا مع غيرها من نساء المدن وهذا ما تولد عنه فضول الأوربيين و أثار خيالهم.[1]

وفيما يخص الكتاب فقد بوبته إلى جزأين؛ الأول تناولت فيه ظروف المرأة المادية الاجتماعية والقضائية، أما الجزء الثاني فتطرقت فيه لنشاطات المرأة الجانب الاقتصادي، ثم المرأة و الديانة.[2]

عن ظروف تطور المرأة [3]، كتبت ماتيا قودري أولا عن مختلف أنواع السكن في منطقة الأوراس بداية من الدشرة التي رأت أنها أكثر التجمعات انتشارا في هذه المنطقة، وانتقلت إلى وصف المنزل الذي تقضي فيه المرأة الأوراسية معظم أوقاتها والذي يتشكل غالبا عند العائلات الفقيرة من غرفة واحدة تستعمل لجميع الأغراض بما فيها المطبخ، وترى أن الشاوية في فترة الترحال يستقرون في منازل آخرى قد يكون قوربي، أو خيمة، أو في ما يسمى" أفري" وهو شبه مغارة تحفر في الصخر غالبا ما تكون في منطقة مرتفعة يصعب الوصول إليها، ونجد هذه المغارات في عدة مناطق كمنطقة بني فرح، بني معافة، منطقة الوادي الأبيض، على أن بعضها واسع، يمكن إيواء حتى قطعان من الماشية بها.

وإلى جانب آخر تناول هذا الجزء لباس وزي المرأة الأوراسية، حيث رأت قودري أنه يتألف من عدة قطع: كالتاجبيبت أو الجبة، واللحاف والمقضع وهو قميص من القطن يلبس تحت الجبة، واستنتجت هذه الكاتبة أن هذا الزي لا يكتمل إلا بالحلي التي تصنع خاصة من الفضة المصهورة من القطع النقدية.

---

[1] Yahiaoui, Société musulmane, Op. cit. p.459 .

[2] Gaudry, Op.cit. pp 295-300.

3 يذكر إسماعيل حامد في أحد المقالات التي نشرت في المجلة العالم الإسلامي أن للأوروبيين خلفية سلبية عن المرأة الجزائرية وبخاصة فيما تعلق بالزواج فهي صفقة تجارية يبيع الأب ابنته وهذا يدل على جهل الفرنسيين بالتشريع الإسلامي، فهل كانت دراسة قودري محاولة لإثبات أن المرأة البربرية متحررة أكثر من غيرها؟، أنظر: Ismaël Hamet, Les musulmans de l'Afrique du nord In : Revue du monde musulman, Ernest Leroux Editeur, Paris, Juin 1913, p 282.

وأشارت هذه المؤلفة إلى الوشم الذي اعتبرته جزء مهما من زينة المرأة الشاوية رغم إقرارها أن له قدرات طبية وسحرية تفيد الحماية وتشبه رسومات هذه الأوشام الحلي الفضي التي تتزين به النسوة.[1]

أما الجزء الثاني فتضمن كما ذكرنا سابقا الحياة الاقتصادية للمرأة التي كانت على عاتقها مسؤولية كبيرة، فهي مدبرة المنزل، إذ تقوم يوميا بجلب الماء وحلب الأبقار أو العنزات، ومخض الحليب، تنظيف المنزل، طحن الحبوب، الخبَز وتحضير الطعام، وتقوم بالشيء نفسه في المساء، هذا بالإضافة إلى أعمال أخرى فردية وجماعية، كالأعمال الصناعية التي هي على عاتق المرأة كليا أو جزئيا، فهي تقوم بغزل الصوف، صناعة الفخار، تحضير الجلود، تجفيف الفواكه والخضار، *بناء المنزل، وفي بعض المناطق الأخرى، تصنع الزيت والقطران كما تمتهن صناعة الحلفاء.[2]

وتؤكد بعض التقارير المحفوظة في الأرشيف الفرنسي أن المرأة تلعب أدوارا مهمة في المجتمعات البربرية فهي تشارك وتساهم في أعمال الحقل وكل الطقوس الخاصة بالزراعة وتقوم بأعمال أخرى كصناعة الفخار وغزل الصوف كما أنها تقوم بالنسج.[3]

ومن جهة أخرى تشير هذه الدراسة إلى ارتباط النساء الأوراسيات وانتسابهن إلى الطرق الصوفية المنتشرة في المنطقة، فتشارك هؤلاء النسوة حسب قودري في مختلف الطقوس التي تخص الحج"المزارات" لبعض الأضرحة ومرافقة الرجال لزيارة الأولياء الصالحين والدراويش، على أن عدد المرابطات قليل في ناحية الأوراس، وأغلب من كان لهن هذا اللقب، هن من العائلات المرابطية، مثل ما كان موجودا في قرية

---

1 Gaudry, Op.cit. pp.33, 35, 40, 46,58,59 .

* لقد كان سكان الأوراس خاصة النساء منهم يقومون بتجفيف الخضار و الفواكه و حتى اللحم؛ لأنه ليس بإمكان إلا العائلات الغنية و الميسورة استهلاك اللحم الطازج على مدار السنة. أما العائلات الفقيرة فهي تكتفي بعنزة أو عنزتين خلال سنة كاملة. فهي أذن تقوم بتجفيف لحومها، كما أن استهلاك اللحوم يختلف من دوار إلى آخر وعن طريقة التجفيف فينزع العظم من اللحم و يقطع إلى شرائط ويوضع بعد ذلك في الملح ليترك لمدة يوم واحد ثم يترك ليجف في الشمس، أنظ ر:
Statistique, Alimentation des, Indigènes, (A.W.C), Commune, Mixte de L'Aurès, N°13/25

2 Gaudry, Op.cit.pp.135, 165.

3 ANOM 6SAS/51

غسيرة، حين كانت تعيش مرابطة ورعة تدعى تركية [1]، ودعمت قودري مجالات هذه الدراسة بمجموعة من الرسومات التوضيحية بالإضافة إلى الصور الفوتوغرافية.

جاءت هذه الدراسة كمحاولة لتمثيل المرأة الأوراسية في الوسط الذي تعيش فيه لكن مواد هذه الدراسة اقتطفت في خضم تحقيق أجري بداية من سنة 1923 بالإجراءات الشائعة آنذاك كالاستجواب والاستعلام، كما دخلت مؤلفتها في احتكاك مباشر مع النساء ومما سهل ذلك الاحتكاك هو كون ماتيا قودري امرأة محامية فكانت النتائج ذات قيمة؛ وبقدر الظروف المادية، الاجتماعية والقضائية ومشاركتها في الحياة الاقتصادية والدينية، نجد أن المرأة الأوراسية كما يظهرها التاريخ تلعب دورا مهما في هذا المجتمع البربري والذي حسب هذه المؤلفة "لم يمسه الإسلام إلا قليلا" فالتقاليد والعادات منحتها استقلالية واسعة، ليس فقط كامرأة متزوجة تمارس سلطة ذات وزن في الحياة المنزلية والعائلية لكن أيضا "كامرأة حرة" أو ما أطلقت عليه قودري بـ" العزرية"، أو المرابطة، وتمتعت المرأة في الأوراس بالاعتبار الذي أدى أحيانا إلى جذب كل المجتمع الفرنسي حولها.

تمتعت المرأة الأوراسية بسلسلة من الوظائف في الإنتاج، لم يكن مسموحا للرجل بأن يتدخل في اختصاصها، مثل صناعة الفخار والحياكة، واستطاعت أن تجعل الحقوق التي جاء بها الإسلام في الحياة الزوجية المشتركة لصالحها، مثل حقها في الميراث الذي أقره الإسلام، رغم أنها لا ترث عينا بل ترث نقدا.[2]

لكن بالرغم مما قدمته هذه الدراسة الدقيقة الخاصة بالمرأة الأوراسية من أشياء جديدة، إلا أن أندري باسيه صنف قودري كإثنوغرافية أكثر من إثنولوجية*، فجاءت

1 Gaudry, Op.cit.pp. 221-220,224.

2 J.Tramond,La femme Chaouia de L'Aurès, études de sociologie berbère,par Mathéa Gaudry, In : La Quinzaine Critique, des livres et des revues, N° 25 Décembre 1929 Vol.1, pp.175-176.

* ينبغي التفريق بين الاثنولوجيا والتي هي دراسة علمية و نظامية للمجتمعات ككل(المظاهر اللغوية، السياسة، الاقتصادية، الدينية، الأعراف، و التاريخ الخاص و هي مرادفة للأنثربولوجيا الاجتماعية والاثنوغرافيا كدراسة وصفية للمجموعات الإنسانية الإثنية، أو كعلم يدرس المجموعات الإثنية.

أطروحتها بمثابة "سوسيولوجية بربرية"، استعمل فيها المنهج الوصفي[1] المحض غنية بالأحداث الموصوفة والملاحظة بدقة، وحسب ما كتبه أندري باسيه" André Basset " في جريدة العلماء Le journal des Savants* : فقد" جاءت هذه الدراسة بخطة سهلة نوعا ما... ويبقى هذا العمل سطحيا".[2]

والحقيقة أن قودري اعتمدت أساسا على طريقة الاستجوابات[3] " Questionnaire" وهي طريقة التحقيق الجماعي التي استعملت في تحرير الكثير من أطروحات الدكتوراه، لكن كما ذكرنا فيما سبق يبقى هذا العمل وصفيا فقد حاولت قودري أن تصف كل ما رأته، دون أن تكلف نفسها عناء العودة إلى النظريات التي تفسر بعض العادات والممارسات[4] وعندما انتقلت إلى الميدان، نجدها تعتمد بشكل كبير على العائلات المرتبطة بالإدارة **، وحسب أطروحتها فإن الحالة الخاصة بالمرأة في الأوراس ليس لها معنى وأهمية، إلا إذا درسناها داخل نظام المجتمع بين مختلف فئات الأعمار، والجنسين.[5]

وعلى عكس المظاهر التاريخية فإن شعب الأوراس بالنسبة لقودري، يوحي بذلك المجتمع الذي حافظ على وحدته التي استفاد منها، وأرجعت سبب ذلك إلى الفردانية فبقي هذا المجتمع الذي يعيش بمقربة من الطبيعة منعزلا على نفسه، معتبرا كل

---

1 René Maunier, Recherches Collectives dans l'ethnologie et le folklore ,In :Revue de Synthèse tome XI, n°1 Février 1936. Imprimerie d'ouvriers sourds-muets, 31 villa D'Élisia, Paris XIVe. p.18.

* تعد مجلة العلماء *Le journal des Savants* من أهم المجلات المتخصصة في نشر الدراسات المتعلقة بإحياء التراث الإغريقي اليوناني والروماني وهي المجلة التي كانت تضاهي في أهميتها، المجلة الأسيوية مصادر التي تصدرها مؤسسة الجمعية الأسيوية، ،أنظر: معريش، المرجع السابق، ص6.

2 André Basset, Mathéa Gaudry La femme Chaouia de L'Aurès, In : Le journal des Savants, Année 1932 ،Langers ،Imprimerie Champenoise ،p.283.

3 Colonna, Savants, Op. cit. p.98.

4 Maunier, Op. cit. p.176.

** يعترف لويس رين أن المجتمع الفرنسي بقيا دائما بعيد عن المجتمع الجزائري، فكان الفرنسيون يجهلون نساء الأهالي، أمهاتهم، بناتهم، وجزم أن القليل من الأوربيين والأوربيات الذين استطاعوا أن يلجوا حرم النساء الأهالي، وهؤلاء أنفسهم كانوا من موظفي الإدارة أو أطباء استطاعوا ذلك في ظروف خاصة من الكياسة أو الواجب المهني، و هذا ما لم يسمح بوجود دراسات واسعة.أنظر:
L.Rinn, La femme Berbère, In : Bulletin de la société de Géographie d'Alger et De l'Afrique du Nord, 9ème Année1905, Imprimeur- Gérant, S. Léon. p.462.

5 Colonna, Savants, Op. cit. pp.91, 98.

تغيير شيئا غريبا مشبوها فلم يتقبله بسهولة، وكان من جهة أخرى محبا لعاداته وقوانينه، وجماعته، ويعيش غارقا في الماضي لكنها رأت أن سكان الأوراس لهم ماض من العادات والتقاليد دون تاريخ، فهي بذلك تنفي وجود ذاكرة جماعية لهم إلا ما تبقى من عواطف أجدادهم المسيطرة عليهم، وربما هو السبب الرئيس للمقام الذي تمتعت به المرأة.[1]

وبالنسبة لقودري فإن المرأة الأوراسية قد كانت بعيدة عن الإسلام قريبة من المرأة الأوربية[2] أمكن الوصول إليها بسهولة، ومنه جاء اقتراحها الموجه للحكومة الفرنسية والذي تطالب فيه بمنح هذه المرأة "بعضا من التعلم" وتعليمها الفرنسية، الخياطة وإدارة المنزل، فتستطيع بذلك أن تؤثر بإيجابية أكثر على كل من يحيط بها خاصة الأبناء[3]، وبخلاف تبني الجهوية في الدراسات الاجتماعية فإن نظام العيش الخاص بالجزائريين حسبها خضع لتغيرات يعود الأصل فيها لتأثيرات الاستعمار [4]، وعلى النقيض من هذا حاولت هذه الكاتبة أن تقارب المرأة الأوراسية بالمرأة الريفية الفرنسية عندما نراها تؤكد على الحرية الكبيرة التي تمتعت بها هذه الأخيرة أكثر من المرأة العربية والمزابية، وكيف لا إذا ما علما أن قودري تأثرت برواية ماقالي بواسنار "رواية الكاهنة".[5]

وقد أحدث مؤلف قودري صدى كبيرا في الصحف الاستعمارية الفرنسية فقد منحتها لجنة الشمال الإفريقي الجائزة الأدبية الخاص بالأكاديمية الفرنسية سنة 1930 قدرها 1000 فرنك فرنسي[6]، أما جريدة "صدى الجزائر L'Echo d'Alger " فقد كتبت : : "استزادت الإثنوغرافيا الجزائرية بمؤلف مهم عشية احتفال المستعمرة بمئوية الاستعمار الفرنسي الذي يحسب ضمن الإسهامات الثمينة التي أوصت بها السلطات الرسمية"[7] وربما هذا ما يفسر فوزها بالجائزة الأدبية.

---

1 Gaudry, Op. cit. p.269.
2 Yahiaoui, Société musulmane, Loc. cit. p.459.
3 Gaudry, Op. cit. p.268.
4 Leimdorfer, Objet de la sociologie, Op. cit. p.292
5 Yahiaoui, Société musulmane, Op. cit. p.645.
6 L'Effort algérien, 05 juillet 1930.
7 L'Echo d'Alger, 01 Juin 1929.

وإذا تمعنا أغلب الدراسات الاجتماعية التي خصت الجزائر فيما بين الحربين يظهر لنا أن المرأة هي مرآة المجتمع الأهلي والنظرة الموجهة نحوها هي نظرة استعمارية، وقد عرفت ظروفها الاجتماعية ووضعها القانوني اهتمام الدراسات الاجتماعية التي كانت دائما تركز على ذلك الاختلاف الإثني بين نساء الجزائر فجاءت العديد من الأعمال تخص مثلا المرأة القبائلية، أو المرأة الشاوية، أو المزابية محاولة بذلك نفي وحدة المجتمع الجزائري.[1]

نستنتج مما سبق أن الدراسات الجامعية الانثروبولوجية التي خصت المجتمع الجزائري في الفترة الاستعمارية لم تعرف الاستقلالية فقد بقيت موالية للإدارة الفرنسية بشكل غير مباشر وارتبطت بشكل أو بآخر بالعوامل والمجالات الأخرى، ونلمس فيها أيضا وجود الإثنية العنصرية أين تظهر الحضارة الغربية وخاصة الفرنسية هي المسيطرة في أغلب الأطروحات عن الجزائر، وخاصة عندما تتناول العلاقة بين المجتمع الفرنسي والمجتمع المسلم، أو بين الاستعمار والجزائريين.[2]

كما نستنتج أن المجتمع البربري الأوراسي مثل بالنسبة للفرنسيين المجتمع الأقرب إلى الحضارة الفرنسية لأنه مجتمع بدائي بقي بعيدا عن الإسلام ولم يعرفه بشكل عميق، أما المرأة فهي بعيدة كل البعد عن المرأة العربية ثقافيا، اجتماعيا ودينيا وهذا ما يمكن استغلاله لخدمة مصالحهم الاستعمارية.

تضع السيدة فاني كولونا ملاحظة نراها مهمة تخص توجه الدراسات الأنثروبولوجية الفرنسية الخاصة بالجزائر، إذ أنه ما بين سنتي 1920و1930 كان هناك اهتمام ينصب على الثقافات التقليدية الجزائرية في حضن المؤسسة ا لتعليمية، فما وظيفة هذه الأنثربولوجيا الجديدة؟ بالرغم من توفر جميع الظروف المناسبة لوجود معرفة موضوعية "وجود جامعة، ونظام مدرسي مستقل مبدئيا اتجاه السلطة العسكرية والسياسية"، وهل يمكننا أن نلمس وجود علاقة سياسية وطيدة، بين الحركة الفلكلورية في فرنسا وموقف السلطة الاستعمارية اتجاه الثقافات التقليدية في الجزائر؟ خاصة إذا علمنا أن لجنة الموسوعة الفرنسية" Comité de l’encyclopédie française

[1] Yahiaoui, Société musulmane, Op. cit. p.638.

2 Leimdorfer, Objet de la sociologie, Op. cit. pp.281-282.

" قد كلفت السيد André Basset بمسؤولية جمع المادة الإثنوغرافية في الجزائر.[1]

نعلم أن المصلحين الديمقراطيين للجمهورية الثالثة فكروا في مشكل الإدماج الثقافي للجزائر بالتماثل مع الضواحي الفرنسية كتعريف ثقافي ولغوي قوي، تؤكده بعض التقارير الفرنسية التي كانت تتداول في مجلس الشيوخ الفرنسي عند كومبس وفي "غرفة بيردو Chambre de Burdeau * " ففي نفس السياق قال بيردو في أحد تقاريره : "مشكل الجزائر صعب، لكنهفي النهاية مختلف إلى حد بعيد عن ما هو موجود في أريافنا؟ لقد استطعنا بواسطة المدرسة أن نحل مشكل أريافنا، فوجب أن نحل بنفس الطريقة مشكل الجزائر".

وفيما يخص الوضعية الاستعمارية الخاصة بالجزائر، يمكننا أن نقول دون تحفظ على الأقل في فصلنا هذا أن المؤسسات والتقنيات التي تبدو في الظاهر محايدة مثل المدرسة أو الطب ارتبطت بالسلطة الاستعمارية وخدمتها ، فهي مؤسسات حاول المستعمر من خلالها أن يجد له تبريرات أخلاقية وإنسانية في القرن العشرين .[2] وإذا تتبعنا المؤلفات التي أنتجها الجامعيون إلى غاية سنة 1920 نجد أن المدرسة تعرف دائما الثقافات التقليدية بمصطلحات سلبية كـ "رتابة"،"روتين"،"أحكام مسبقة"، أي أنها ليست ذات قيمة، بل وهي من الطبيعة وليست ثقافة، ولم يكن هذا النوع من الآراء استثناء بل كقاعدة سائدة في ذلك الوسط بالرغم من أنه كان ليبراليا.[3]

ومن جهة أخرى فإن صورة المجتمع التقليدي التي نشرها المجتمع المستعمِر تبدو متغيرة حسب المراحل الاستعمارية، كما أن الثقافة التقليدية والثقافة الغربية يمكن

---

[1] Colonna, Savants, Op. cit. p. 245.

[*] A. Burdeau أوغيست بيردو ولد سنة 1851 بمدينة ليون الفرنسية، كان نائبا في مجلس الشيوخ الفرنسي(رئيس غرفة النواب)، ومن بين النواب الذين كلفوا بمتابعة ما يخص الجزائر في الجانب التعليمي، كتب تقريرا عن المشاكل التي قال عنها: " المعقدة التي تثيرها مؤسستنا الاستعمارية، ومشكلة وجود تعايش وتجاور بين عرقين منفصلين يعيشان جنبا إلى جنب" ، واقترح مجموعة من أعضاء مجلس الشيوخ ونواب الجزائر أمام الرئيس الفرنسي آنذاك أن يعين بيردو في منصب حاكم عام الجزائر، أنظر: Auguste Burdeau, Auguste Burdeau, A, Storck, Imprimeur-éditeur,1895, pp 02, 39.

2 Colonna, Savants, Op. cit. p.246 .

3 Ibid, p.2 48.

اعتبارهما كإيديولوجيتين متنافستين تناضل من أجل غزو الميدان الجزائري وبالتالي هي هيمنة ثقافية من جهة، ومقاومة ثقافية من جهة أخرى، ولقد خلصت الأنثروبولوجيا الاستعمارية، والأنثروبولوجية الثقافية إلى الإقرار بأن المجتمعات التقليدية هي جامدة من خلال استخدامها تحليلا زمنيا، ناسية أن فرضية التزامن هي الجمود نفسه، وربما استطاع التحليل التاريخي لهذه المجتمعات إثبات تطور يمتد في الزمن، لكن ثمة فرضية كانت تمنع ذلك، إنها الفرضية القائلة بأن المجتمع الجزائري لم يكن له تاريخ ولم يكن للجزائر وجود سياسي ظاهر ومستقل وبالتالي فتاريخها لم يكتب[1] وبهذا فالعمل بفرضيات التحليل التاريخي غير مجدي.[2]

وإذا كان الباحثون الفرنسيون في الأنثربولوجيا قد ساهموا بنظرياتهم في تدعيم النظام الاستعماري في الجزائر بدراسات وأبحاث تؤكد عدم تجانس هذا المجتمع وهو استمرار لكتابات المؤرخين العسكريين، فإلى أية إيديولوجية سينحوا الأنثروبولجيون الاختصاصيون؟ وهل نلمس تغيرا في دراساتهم وأبحاثهم ؟ هذا ما سنحاول تناوله في فصولنا اللاحقة.

---

[1] E. F. Gautier, Considérations sur l'histoire du Maghreb. (R.A). Vol N°68 année 1927 (O.P.U) 1, Place Centrale de Ben-Aknoun (Alger) 1986..p.48

2 عدي الهواري، الاستعمار الفرنسي في الجزائر سياسة التفكيك الاقتصادي الاجتماعي1830- 1960 ترجمة جوزيف عبد الله، ط 1، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م لبنان-بيروت ص.ب 14/5636، ص 13.

الفصل الخامس

الأنثربولوجيا بين العلم والسياسة: "جرمان تيون"

1 المبحث الأول: كتابات جرمان تيون Germaine Tillion الأنثربولوجية والمجتمع في الشرق الجزائري.

2 المبحث الثاني: جرمان تيون والثورة التحريرية الجزائرية "الأنثربولوجيا والسياسة".

3 المبحث الثالث: المجتمع الجزائري في كتاب جرمان تيون "الجزائر سنة 1957" L'Algérie en 1957".

سنحاول في هذا الفصل تحليل كتابات بعض الفرنسيين الجامعيين الذين تخصصوا في الأنثروبولوجيا واخترنا جرمان تيون وكتاباتها أنموذجا لأنها تكتسي طابعا خاصا، فهي كاتبة مخضرمة بين فترتين مهمتين في تاريخ الجزائر الفترة الاستعمارية، المرحلة الأولى قبل اندلاع الثورة ثم بعدها.

المبحث الأول: الكتابات الانثربولوجية لجرمان تيون Germaine Tillion والمجتمع في الشرق الجزائري:

ولنعرض أولا حياة "جرمان تيون" بشيء من التفصيل، ولدت جرمان تيون في 30 ماي 1907[1] في مدينة ألآقر Allègre في منطقة اللوار العليا من عائلة برجوازية ديمقراطية وكان أبوها قاضيا، بدأت دراستها الأولى في مسقط رأسها وأكملتها في كلارمون فيرون Clermont-Ferrand في ثانوية بنظام داخلي وتحصلت على البكالوريا في باريس حين استقر أبويها في هذه المدينة سنة 1922.

نشأت تيون في عائلة كاثوليكية أثرت فيها بالإضافة إلى فكر أبيها الجمهوري الذي عزز شخصيتها وقراراتها إزاء الكثير من القضايا خاصة الاجتياح الألماني لفرنسا والقضية الجزائرية.

وباشرت دراساتها العليا بدء من مدرسة اللوفر مابين سنتي 1925–1926 فدرست الفرعونيات، تاريخ الفن وما قبل التاريخ هذا الأخير الذي وجهها إلى دراسة الإثنولوجيا، وفي الوقت نفسه تابعت دروسا في الأدب الكلتي "السلتي" بالمدرسة التطبيقية للدراسات العليا بجامعة السربون.

في الحقيقة أن هذا المشوار الدراسي الكبير أدى إلى اكتساب خبرات هي مهمة كثيرا في علوم أخرى فكانت الإثنولوجيا من بين هذه العلوم فتوجهت لدراسة هذا العلم والذي كان في مرحلة التأسي س كما ذكرنا آنفا. [2] وقد صنفها قاموس "الإثنولوجيين والأنثربولوجيين" على أنها تلميذة مارسيل موس وخريجة معهد الإثنولوجيا الفرنسي في مرحلة ما قبل الحرب العالمية الثانية 1939.[3]

1 Wood Nancy, Germaine Tillion, Une femme-mémoire, D'une Algérie a l'autre, Traduit de l'anglais par Marie-Pierre Corrin, Editions Autrement, 2004. p, 5.

2 Sacriste Fabien, Germaine Tillion, Jaque Berque, Jean Servier, Des ethnologues dans la guerre d'indépendance, algérienne l'Harmattan, Paris, 2011, pp 38-39.

3 Gaillard, Op.cit, p, 6.

والواقع أن تيون لم تكن طالبة موس فقط بل كانت أيضا تلميذة الأستاذ بول ريفي "Paul Rivet"[1] والذي كان مختصا في أنثروبولوجيا الثقافة المادية واللغوية وهذين الأستاذين السابقين الذين أثرا فيها يعدان من خبراء ما أطلق عليه آنذاك "الشعوب البدائية".[2]

لقد ساهمت عوامل متعددة في نشأة وتطور الأنثربولوجيا في مطلع القرن العشرين ومنها الجمعيات التي كانت تضم نخبا ساهمت بشكل كبير في انتشار الصحف والمجلات التي اهتمت بل طالبت بالاهتمام أكثر بالعلوم الإنسانية والإنسان في المتروبول، وعلى هذا الأساس تم إنشاء معهد الإثنولوجيا سنة 1925 من طرف مارسيل موس وبول ريفي ولوسيان ليفي بروهل " Lucien lévy-Bruhl "[3] والذي وصفه هذا الأخير في خطاب ألقاه يوم الافتتاح أنه: " وسيلة استعمار "[4] ويبدو أنه

---

[1] بول ريفي Paul Rivet ولد في منطقة الأردان في كنف أسرة متواضعة، انخرط في المدرسة العسكرية في مدينة ليون الذي تخرج منها سنة 1897 واشتهر كأنثروبولوجي مختص بلغات أمريكا الأصلية وعاداتها " Américanistes" حيث تنقل إلى الإكوادور في مهمة دامت خمس سنوات، وترأس "لجنة يقظة المثقفين المناهضين للفاشية " في مارس 1934 ومن بين المجلات التي أسسها نجد مجلة: "أعراق وعنصرية" "Races et Racisme" كان من بين المناهضين لحكومة فيشي فكان من بين خلية المقاومة لمتحف الإنسان، ونفي سنة 1941 إلى كولومبيا التي أسس في عاصمتها بوغوتا المعهد الإثنولوجي الوطني وبعودته إلى فرنسا دخل النضال السياسي من بابه الواسع، وبصفته برلماني ساند بعض القضايا كاستقلال الهند الصينية ووقف ضد الاضطهاد في مدغشقر واختلفت المصادر حول موقفه من الجزائر المستعمرة فالبعض يرى أنها تميزت بالضبابية، وقد كان متأثرا بجاك سوستيل حيث أمضى مع هذا الأخير نداء إنقاذ وبعث فكرة الجزائر الفرنسية وكلفه غي مولي ليرافع ويدافع عن مصلحة الدولة الفرنسية بشأن القضية الجزائرية ولدى دول أمريكا اللاتينية، توفي سنة 1958.أنظر: Christine Laurière, « Paul Rivet (1876-1958), Le savant et le politique », Nuevo Mundo Mundos Nuevos, consulté le 02 décembre 2015. URL : http://nuevomundo.revues.org/3365 وأيضا : Gaillard,Op.cit, pp 101-102

[2] Todorov Tzvetan, Le siècle de Germaine Tillion, Editions du seuil 2007, p 40.: وأنظر كذلك

Racine Nicole, « Paul Rivet, Vichy et la France libre 1940-1944. », Histoire@Politique 1/2007 (n° 1), p. 8-8

[3] لوسيان ليفي بروهل. ولد سنة 1857 درس في المدرسة النورمالية العليا بفرنسا الفلسفة، تبنى الفكر الاشتراكي وكان من بين أعضاء هيئة التحرير لصحيفة الإنسانية L'Humanité، أصبح أستاذ كرسي سنة 1904 في مقياس تاريخ الفلسفة المعاصرة في جامعة السوربون، له كتابات إثنولوجية منها "الوظائف العقلية عند المجتمعات السفلى " سنة 1910. توفي سنة 1939. أنظر: Gaillard, Op.cit, p, 94-95.

[4] Ibid. p 95.

من بين الأهداف الأولى لتأسيسه هو المساهمة في تطوير وتعميم الدراسات التي تخص الشعوب التي استعمرتها فرنسا [1]، وهنا تتبادر إلى أذهاننا تساؤلات عن إنشاء مؤسسات أخرى تشكلت في نفس الوقت تقريبا ولها الهدف نفسه، فقد كان ترميم متحف تروكاديرو "Trocadéro" للإثنوغرافيا في الثلاثينيات الخطوة التالية في هذا المجال وكان ذلك تحت إشراف ب. ريفي "P.Rivet" ما بين سنتي 1928 و1937 والذي تم افتتاحه سنة 1938 كمؤسسة علمية ومتحف للأنثربولوجيا وضم إليه مخبرا لتاريخ الطبيعة[2] ومن المفارقات أن ينتسب ب.ريفي كعضو إلى "الرابطة أو العصبة المناهضة للاستعمار والإمبريالية "[3] والتي تأسست سنة 1927 في بروكسيل [4]وفي نفس الوقت لم يشكك في شرعية الاستعمار الفرنسي الذي أنشئ على مبادئ عنصرية، وبحسب "بول ريفي " أنه يمكن لمتحف الإنسان أن ي حسن السيطرة الاستعماريةِ والدفاع عن الديمقراطية في الوقت الذي بدأت تظهر فيه الأنظم ة الشمولية في بعض البلدان الأجنبية"، ومنه فإن هذه المؤسسة حملت مبادئ متناقضة: عالمية، استعمارية، وضد العنصرية، بل الأدهى من ذلك أن "متحف الإنسان" ذاته كان يلقى دعما ماليا من المستعمرات.[5]

وليس ذكر تاريخ هذه المؤسسات الفرنسية يعني الإشادة بها لكن لفهم الظروف والتطورات التي عرفتها الإثنولوجيا الفرنسية ولمعرفة توجه أهم روادها ومن كان بعدهم من طلبة، ولا نجد اختلافا لجرمان تيون عنهم البتة، لكن الشيء الجديد في تطور هذه الركائز الخاصة بالإثنولوجيا أنها اعتبرت مغايرة للتيار الذي أقرته الأنثربولوجيا الفيزيقية والتي صنفت تطور الشعوب بناء على الاختلافات الجسدية.[6]

---

1 Sacriste, Op, cit, p. 39.

2 Alice Conklin, Le paradoxe coloniale du musée de l'homme 1878-1945, in: Le musée de l'Homme, Histoire d'un musée laboratoire, p 23.

[3] من أهم المؤتمرات التي عرفها العالم بعد الحرب العالمية الأولى واعتبر حدثا سياسيا مهما عقد في بروكسيل العاصمة البلجيكية في 10-15 فيفري 1927 ضم العديد من الدول المستعمِرة وممثلي الدول المستعمَرة التي تمثل القارات الخمس وشارك حزب نجم شمال إفريقيا في هذا المؤتمر ممثلا من طرف السيد مصالي الحاج والشاذلي خير الله، أنظر: محمد قنانش، الحركة الاستقلالية في الجزائر بين الحربين 1919-1939، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1982، ص ص 41-43.

4 Gaillard, Op.cit, pp, 101,102.

5 Conklin, Op.cit, p, 25

6 Ibid, p, 25.

ومهما يكن فإن معهد الإثنولوجيا الفرنسي كان يكون الطلبة للبحث الإثنوغرافي ويقوم متحف الإنسان بعد ذلك بعرض الأغراض المجلوبة وأرشفة الوثائق وهذا من خلال المهام التي أوكلت لهؤلاء.

ولا يمكن التطرق إلى العوامل المؤثرة على جرمان تيون وتوجهاتها إلا بالرجوع إلى الأنثربولوجيا الفرنسية قبل الحرب العالمية الثانية ففي هذه الفترة ظهر ما أطلق عليه بالإثنولوجيا المهنية التي اتجهت نحو الملاحظة الميدانية، ولم يبقى هدفها مقتصرا على تأكيد الحضارة والثقافة الغربية على حساب الثقافات الأخرى بل توجهت نحو فهم وإعطاء قيمة للمظاهر النفسية الاجتماعية وحتى التاريخية لمختلف المجتمعات والثقافات، ويبدو من هذا نظريا أن الأنثربولوجيا الفرنسية خاصة والأوربية عامة قد تغيرت حسب ما تذكر المصادر بعد أن تخلصت من بعض الشوائب، لكن هل عرفت هذه الأنثربولوجيا والتي خصت الجزائر الحالة نفسها؟[1]

لقد اهتمت الدول الأوروبية بتدريس علوم الإنسان في الجامعات فيما بقيت فرنسا متأخرة في هذا المجال والتي لم تعرفه إلا في العشرينيات من القرن العشرين على الرغم من أن الظروف الاقتصادية والسياسية المتمثلة في تأثيرات الحرب العالمية الأولى لم تكن مناسبة لظهور هيئات مدعمة للأنثربولوجيا كالمعاهد والمتاحف والتي تتطلب أموالا معتبرة، فإن فرنسا على عكس هذه الدول تمكنت من فتح معهد للإثنولوجيا وترميم متحف التروكاديرو، هذا الأخير الذي ضخت له أموالا كبيرة لإعادة تهيئة غرفه وصالة العرض وأماكن حفظ المعروضات.

ويفسر هذا النجاح في اتفاق الكثير من هؤلاء المختصين على أن "الإمبراطورية الفرنسية الاستعمارية" جديرة أن تستحق مثل هذه الهيئات التي تبين عظمتها متناسين أن نجاح هذه المؤسسات لم يكن إلا على حساب شقاء الشعوب المستعمَرة [2] التي

---

1 Conklin, Op. cit, p 26.

[2] لقد ناقشت النيابات المالية في الجزائر قضية الدعم المادي لمعهد الإثنولوجيا الخاص بجامعة باريس ومعهد الدراسات الكولونيالية بتخصيص قروض لهذه المؤسسات الاستعمارية، رغم تخوف بعض النواب الفرنسيين من عدم إدراج الجزائر في المؤلفات التي تصدر عن هذا المعهد ، وبعد المداولات تم إقراضه بـ 25000 فرنك سنة 1927 ونفس القيمة سنة 1928 ولم تكن الجزائر المستعمرة الوحيدة التي تدعمه ماديا بل حتى المغرب وتونس، والهند الصينية وبلغت قيمة المساعدة المادية سنة 1937 : 7500 فرنك، أنظر : GGA, Délégations financiers Algeriennes, administrative Victor Heintz, Alger, 1927, pp 1005-1007 وأنظر أيضا : Op.cit, Mai-Juin 1937, p 1102.

نهبت وأفرغت ثقافاتها من محتواها.

بل وذهب البعض منهم إلى اعتبار "متحف الإنسان" بفرنسا سفير هذه الشعوب المستعمَرة، لكن في المقابل لم يفكر هؤلاء ولو بتشجيع مستعمراتها لإنشاء متاحف ومعاهد أنثربولوجية في بلدانها.[1]

ومما ذكرناه سابقا نكون قد حاولنا أن نقف على الظروف التي أحاطت بـ ج.تيون والتي تميزت بظهور هيئات انضمت إليها والتي ساهمت في تعليمها وتكوينها وتوجيهها في الثلاثينيات من القرن العشرين، فقد تابعت دروس مارسيل موس "M.Mauss" في المدرسة التطبيقية للدراسات العليا "EPHE" كما ذكرنا آنفا وتخرجت بعد ذلك من معهد الإثنولوجيا سنة 1932.[2]

ثم انخرطت تيون سنة 1933 في متحف التروكاديرو وكانت من بين المتطوعين في ترميمه، كما تلقت دروسا إثنولوجية ضمن هذه المؤسسة الشيء الذي فتح لها آفاقا وهيئها للدراسات الأنثربولوجية الميدانية وتذكر المصادر أنها استطاعت أن تستوعب أكثر المجتمعات غير الأوربية من خلال المعارف التي حصلت عليها وتمكنت من احتواء وترجمة الحقائق الاجتماعية، كما كانت متأثرة جدا بمعلمها م.موس الذي جنح إلى دراسة المجتمعات التي حافظت على وجودها الاجتماعي "العتيق"[3] وقد نفهم من هذا أن البحث لن يكون دقيقا إلا من خلال العيش في ومع هذه المجتمعات "البدائية" كي تكون الدراسة على قدر كبير من الموضوعية، ويستنتج من ذلك أن عمل الباحث الأنثروبولوجي لا يقتصر بالنسبة لمرسيل موس وأتباعه على الملاحظة وحدها.[4]

ومن أهم مناهج الدراسة التي كان يلح عليها م.موس على طلابه هو اختيار الدراسات الدقيقة أو المونوغرافية، زيادة على حرصه على جمع ما يمكن جمعه من

---

[1] Conklin, Op. cit, pp, 25-27.

[2] Sacriste, Op. cit, pp, 40-41.

3 Sacriste, Op. cit, p, 41

4 Marcel Mauss, Manuel d'ethnographie, Un document produit en version numérique par Jean-Marie Tremblay, 2002, p 09.

أغراض وأدوات لتعمير المتاحف، كما ركز أخيرا على عامل اللغة والتي تجنى بها المعرفة والمعطيات بشكل صحيح.[1]

وعملا بتوصيات معلمها سجلت نفسها في دورة لتعلم اللغة البربرية في "المدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية" "Ecole nationale des langues orientales vivantes" ثم تابعت دروسا كان يلقيها لويس ماسينيون "Louis Massignon*" والذي أصبح مشرفها الثاني، الذي بدأ يؤطرها بداية من سنة 1934، هذا المستشرق الذي كلفه الجنرال ليوتي ليقوم بتحقيقات تخص القبائل الشلح في المنطقة الباريسية واستخدمت دراسته في إعادة هيكلة دواوير هذه القبائل في المغرب الأقصى.[2]

1 Sacriste, Op. cit, p 22.

* هو لويس ماسينيون مستشرق فرنسي ولد سنة 1883 في ضاحية نوجان على نهر المارن Nogent-sur-marne أحد ضواحي باريس، اعتبره البعض من أعظم المستشرقين، عرف بدراساته في التصوف الإسلامي، واهتم بالآثار الإسلامية، وبتاريخ النظم الاجتماعية في الإسلام التحق"بالمدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية" حيث درس اللغة العربية، وبعد حصوله على الباكالوريا سنة 1900 آداب وفلسفة وباكلوريا رياضيات سنة 1901 انتقل في رحلة إلى الجزائر في السنة نفسها ثم عاد إلى فرنسا ثم سافر إلى مراكش سنة 1904 وشارك في المؤتمر الدولي للمستشرقين والذي عقد بالجزائر سنة 1905 ، ومن أهم مجالات اهتمامه هو التصوف الشيعي واهتم بالحلاج بشكل كبير، كما ساهم في كتابة مادة دائرة المعارف الإسلامية، وتولى التحرير في مجلة العالم الإسلامي " *Revue du* Monde musulman " توفي سنة 1962 أنظر: عبد الرحمان بدوي، موسوعة المستشرقين، طبعة جديدة ومنقحة، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، الطبعة الثالثة، 1993، ص ص، 529-530، 533-534.

2 Jean lacouture, le témoignage est un combat, une biographie de Germaine Tillion, Edition du Seuil, 27, rue Jacob, Paris VI, 2000, p32.

مهمة جرمان تيون الأنثربولوجية في الأوراس سنة 1934:

كلفت جرمان تيون بالقيام بمجموعة من التحقيقات بدء من سنة 1934 في جنوب الأوراس لإنجاز أطروحة حول التنظيمات الاجتماعية للسكان البربر [1]، وكانت هذه المهمة مثل الكثير من غيرها مدعمة من طرف "المعهد الدولي للغات والحضارات الإفريقية" "International Society of Africain Languages and Cultures" مقره بلندن والذي كان يتلقى جزء من إعاناته من طرف "منظمة روكفلير" "Rockefeller Fondation"وبإيعاز أحد المدراء الفرنسيين المساعدين في تسيير هذه المنظمة وهو"هنري لبوري [2] "Henri Labouret"[3] تم اقتراح برنامج أبحاث يخص المستعمرات الفرنسية آنذاك وكانت منطقة الأوراس من ضمن تلك المناطق المقترحة للقيام بأبحاث اجتماعية وأنثربولوجية وتكون تحت إشراف معهد الإثنولوجيا الفرنسي، ويتلخص الهدف المعلن لهذه المهمة في " تقديم مساعدة فعالة لوسائل الاستعمار؛ ومعرفة العادات، المعتقدات، قوانين وتقنيات حصول الأهالي على الملكيات"الإرث"...ولاستغلال عقلاني للمقدرات الطبيعية"[4]، ووقع الاختيار على السيدة "تريز ريفيار "[5] Thérèse Rivière* والسيدة سيمون لهنري L'henry

1 Sacriste, Op. cit, p17.
2 Wood, Op. cit, p, 26.
3 هنري لابوري عسكري و اداري فرنسي ولد بتاريخ 27 ماي 1878 في مدينة لاون، ادى خدماته العسكرية في غرب افريقيا فتعلم العديد من الغات و اللهجات المحلية الخاصة بالمنطقة، توفي في 04جوان 1959 أنظر : Deschamps Hubert. Nécrologie. Henri Labouret. In: Journal de la Société des Africanistes, 1959, tome 29, fascicule 2, pp. 291-292.
4 Fanny Colonna, Aurès/Algérie, 1935-1936 Photographies Thérèse Rivière, Elle a passé tant d'heures, Éditions de la Maison des sciences de l'homme, Paris,1987 Annexe N°2, p.195.
* هي تيريز ريفيارولدت سنة 1901، سليلة أحد العائلات الفرنسية الشريفة، أخذت دروسا في متحف اللوفر بفرنسا، ثم عرجت على المدرسة التطبيقية للدراسات العليا ودرست بعدها في معهد الإثنولوجيا فنالت ديبلومها سنة 1931 بعد أن تابعت دروسا في ما قبل التاريخ، الأنثربولوجيا الفيزيائية والإثنولوجيا والجغرافيا كما تابعت دروس مارسيل موس، بالإضافة إلى ما سبق فقد تابعت تكوينا خاضا في التمريض، وكانت تقوم ببعض الأعمال في متحف الإنسان كمساعدة تقنية ثم كعون مساعد فاستطاعت أن تصنف الصور الفوتوغرافيق والمجموعات، وبوحي من بول ريفي توجهت للدراسات العربية البربرية سنة 1933 وهي نفس السنة التي شاركت فيها في إنجاز معرض خاص بالصحراء، توفيت سنة 1970، أنظر: -Michèle Coquet, Un destin contrarier, La mission Rivière Tillion, dans L'Aurès (1935-1936), Les Carnets de Bérose, 2014, pp, 7-8.
5 Wood, Op. cit, pp, 26-27.

Simone[1] التي تنازلت عن المهمة فكانت من نصيب ج.تيون والتي كان قد اقترحها مارسيل موس لذلك على الرغم من أنها كانت متحمسة لحقل بحث أبعد وغير تابع للمستعمرات الفرنسية.

وكان البرنامج الأولي لهذه المهمة مقسما منذ البداية إذ اهتمت تيريز ريفيار بكل ما يخص الأنثربولوجيا الفيزيائية والتقنيات المادية المستعملة في منطقة الأوراس، أما تيون فاهتمت بالجغرافيا البشرية، المعتقدات، والتاريخ والتقنيات المستعملة عند النساء في مختلف المجالات وأخيرا " بحثت في تأثيرات الاستعمار على وضعية المرأة".[2]

وقبل أن نستعرض حيثيات هذه المهمة في الأوراس خليق بنا أن نتساءل لماذا تم اختيار هذه المنطقة دون غيرها؟ إن الإجابة على ذلك هي كون المنطقة لم تدرس بعد على الأقل من منظور اجتماعي علمي، أو ربما حاولت هذه المهمة أن تبحث وتقف على طبيعة العلاقة الكائنة بين مجتمع الأوراس وبين مختلف المناطق الشمالية والمتروبول، ومن جهة أخرى قد يكون اختيار الأوراس لقلة التكلفة بما أنها منطقة قريبة جغرافيا من فرنسا وتابعة لها أي مستعمرة.[3]

قد تكون كل هذه العوامل المتضافرة سببا في اختيار منطقة الأوراس، لكن لماذا تم الإلحاح على استجوابات معينة دون غيرها؟ فقد أوصت هذه المهمة بطرح أسئلة محددة على سكان المنطقة فكان من بينها مثلا: كيف كان تأثير الأوربيين على السكان الأصليين فيما يخص الملكية العقارية والنمو الاقتصادي في ظل الاستعمار؟ وما هي تأثيرات توظيف اليد العاملة الجزائرية من طرف الإدارة الاستعمارية أو الكولون؟ أو في مصانع المتربول، وما هو تأثير المجالس الحكومية الاستعمارية وتأثير الخدمة الوطنية؟ إضافة إلى قضية تمدرس البنات والبنين.

وتجدر الإشارة إلى أن ج.تيون هي التي تكفلت بهذه الاستجوابات محاولة دون شك تحليل العلاقة القائمة بين سكان الأوراس والدولة الاستعمارية وهذا طبعا يندرج ضمن أهداف المعهد الدولي للغات والحضارات الإفريقية، ومن خلال تلك المعلومات

1 Coquet, Op. cit, p, 10.
2 Ibid, p, 10.
3 Wood, Op. cit, p, 28.

أيضا يمكن تطوير العلاقات الاجتماعية والاقتصادية بشكل منتظم بين الأوراس وفرنسا.[1]

وبناء على رأي الكثير من الكتاب فإن الفكر الاستعماري قد وصل إلى ذروته في هذه المرحلة حيث حصل توافق بين جميع اتجاها ت المجتمع الفرنسي في المتربول وفي الجزائر، أين أصبح المعمرون السلطة الحقيقية في البلاد، ومن بين مظاهر تصاعد الفكر الاستعماري احتفال مئوية الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1930[2] الذي كان بمثابة إهانة كبيرة بالنسبة للجزائريين فقد كان احتفالا بالقضاء على الدولة الجزائرية التي كانت مصدر قلق للدول الأوربية خلال قرون مضت، وإذا كان الفرنسيون قد احتفلوا بتواجدهم في الجزائر الذي دام قرنا من الزمن فإن هذا الاحتفال قد زاد الحركة الوطنية الجزائرية عزما فكان من نتائجه إنشاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931.[3]

وقامت فرنسا في المتربول باستعراض استعماري آخر سنة1931 حاولت من خلاله التأكيد على أن فرنسا ومستعمراتها وحدة لا يمكن أن تتجزأ، على الرغم من ظهور الكثير من الحركات الاستقلالية الوطنية كنجم شمال إفريقيا سنة 1926 وكذا الحركات المعادية للاستعمار، وادعت فرنسا من جهة أخرى "أحقية الاستغلال" مبررة ذلك بواجب خلق التحضر.[4]

ومن خلال الاتجاه السابق والتيار الاجتماعي الذي كان يمثله المثقفون تبنت فرنسا سياسية سمتها "سياسة أهلية" كانت ترجو منها تخفيف الجو المشحون الذي خلقه الاستعمار ولم تكن هذه السياسة مناقضة له – الاستعمار– بل داعمة له إلى حد كبير، فقد أدرك هؤلاء المختصون أمثال ب.ريفي و م.موس هذا التصور

1 Coquet, Op, cit, p, 11.
2 Sacriste, Op, cit, p 42.
3 سعد الله، أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية 1860-1900، ج1، دار الغرب الإسلامي ، ط1، 2000.ص ص، 305-307.
4 Sacriste, Op, cit, p 42.

الاستعماري الجديد فكانت الأنثربولوجيا وسيلة يمكنها أن تسهل توجيه السياسة الاستعمارية في اتجاه تكون سلبياته أقل ضررا على الفرنسيين والجزائريين.[1]

وإن كنا لا نملك الأدلة الكافية على أن مهمة تيون لا تخرج عن هذا الإطار الاستعماري فإن السيدة فاني كولونا Fanny Colonna التي كانت من البحاثة الذين أقاموا دراسات على منطقة الأوراس خاصة في الجانب الاجتماعي أقرت أن وراء هذه المهمة نوايا أخرى مبيتة، فقد كان في تلك الفترة تنافس فرنسي بريطاني يشجع الأنثربولوجيا الخاصة بكل بلد، ومنه تشجيع وبعث المتاحف بالأغراض التي يتم جمعها من دول المستعمرات.[2]

وتتفق جميع المصادر على أن انطلاق مهمة جرمان تيون رفقة تيريز رفيار كانت من المتربول في ديسمبر سنة 1934 وحين وصولهما إلى الجزائر العاصمة اتصلتا بالسيدة ماتيا قودري Mathéa Gaudry والتي كانت قد أصدرت كتابا إثنوغرافيا حول المرأة الشاوية الأوراسية سنة 1929 "La femme Chaouia de l'Aurès" –وقد رأينا ذلك في فصل سابق– لإمدادهما بمعلومات عن المنطقة وسكانها، ففي إحدى الرسائل التي وجهتها ت. رفيار لمعلمها كتبت أن السيدة م. قودري استقبلتهما أحسن استقبال، لكن في المقابل حاولت صرف نظرهما عن المهمة مبررة ذلك بأنها عالجت في كتابها النقاط الأساسية لبحثهما هذا في منطقة الأوراس، ومن جهة أخرى أكدت رفيار في هذه الرسالة لبول ريفي أنهما لن تصرفا مهمتهما وبحثهما لموضوع آخر غير ذلك المسطر.

وبات من الواضح أن هناك خطوة أخرى هامة في مهمة هاتين المرأتين وهو الاتصال برؤساء المكاتب العربية الخاصة بالمنطقة لمعرفتهم الجيدة لسكان الأوراس، ومن جهة أخرى يمثل الضباط العسكريون السلطة الاستعمارية الفرنسية التي يمكن أن توفر لهما الحماية خلال رحلتهما، وعلى صعيد آخر يدل هذا على وجود هوة بين الجزائريين والأوربيين بسبب السياسة الاستعمارية المستبدة، فلماذا لا يجد الجزائريون في المقابل الحماية من بطش المعمرين الأوربيين؟

1 Sacriste, Op. cit, p, 43.
2 Wood, Op. cit, p, 28

إن مرور تيون ورفيار على ضباط المكاتب العربية من شأنه أن يجبر ويخضع السكان إن كان هناك استعصاء في جمع المعلومات منهم، وقد اعترفت م.قودري قبل ذلك أنها لم تستطع أن تجمع الكثير من المعطيات من السكان إلا بعد تدخل ومساعد هؤلاء الضباط العسكريين.[1]

لقد اتصلت تيون بـ فانسان موسكاتلي "Vincent Muscatelli" وهو المتصرف الإداري الرئيسي للأوراس والذي كان مكتبه يقع في مدينة آريس [2] التي كانت تضم آنذاك ما يربو عن 57623 نسمة، ثم انتقلتا بعد ذلك إلى السفوح الجنوبية لجبال الأوراس على ظهور البغال حاملين معهما معدات ثقيلة الوزن للتسجيل والتصوير وغيرها ووصلتا في نهاية شهر أفريل سنة 1935 إلى دوار تاجموت الذي يقع في جبال أحمر خدو ويمثل هذا الجبل نهاية سلسلة الأوراس من الجهة الغربية الجنوبية وكانت قرية تاجموت إحدى أفقر وأبعد قرى الأوراس، الأمر الذي أدى إلى اختيارها كمنطقة لمهمة تيون وريفيار.[3]

وتذكر جرمان تيون أن هذه القرية قد تم تصنيفها كدوار وهي لا تضم إلا سكان "المنطقة الأصليين" إذ قدر عدد سكانها بحوالي 779 نسمة يكونون 92 عائلة تنقسم إلى قبيلتين رئيسيتين؛ بني ملكم وأولاد عبد الرحمان اللتين أجبرتهما الإدارة الاستعمارية الفرنسية على أن تعيشا في النطاق الإداري نفسه بالرغم من العداء الذي كان بين هاتين القبيلتين، وقد ساندت تيون هذا التقسيم الذي يبدو من تبعات القرار المشيخي، مفسرة ذلك أن الصراع القائم بين أولاد عبد الرحمان وأولاد ملكم هو أقل بكثير من عدائهم اتجاه أولاد أيوب المتاخمين لهم من الجهة الغربية.[4]

ومكثت تيون بمعية ريفيار في البداية عند قبيلة بني ملكم ثم بعد ذلك عند قبيلة آيت عبد الرحمان وهي أطول فترة خلال سنة 1936 وباشرتا مهمتهما معا ثم انفرادا

---

1 Wood, Op. cit, p, 30.

2 تذكر تيون في أحد المقابلات التلفيزيونية على قناة Histoire، الفرنسية أنها لم ترغب في البقاء في مدينة آريس لأنها كانت على اتصال بالحضارة الفرنسية وكانت تريد أن تتوجه إلى المناطق الأكثر بربرية أنظر: Les Images oubliées de Germaine Tillion, https://www.youtube.com/watch?v=hnopGBNGW6o, Consulté le 21/02/2015

3 Wood, Op. cit, p, 31.

4 Germaine tillion, Il était une fois l'ethnographie, pp95.101.

وقد زارت كلاهما مختلف قبائل الشاوية في منطقة الأوراس، ثم غادرت رفيار أولاد عبد الرحمان في أواخر شهر أوت متجهة صوب أولاد نواصر في قرية أمنتان التي تقع في سفوح جبال أحمر خدو الشمالية على ضفاف وادي عبدي، بينما اتجهت جرمان تيون نحو الوادي الأبيض أين تستقر قبائل أولاد داود أو"التوابة".[1]

اتبعت جرمان تيون توصيات مارسيل موس في التحقيقات التي أجرتها حول التنظيمات الاجتماعية والسياسية بالإضافة إلى التنقلات التي يقوم بها سكان المنطقة خلال الصيف والشتاء، وإذا كانت ريفيير قد حاولت دراسة الجانب الثقافي لسكان المنطقة فقد انصبت تيون لدراسة الأنساب والمعتقدات والمجال الاقتصادي والاجتماعي للسكان، وعلى الرغم من حضورهما عديد المرات في الاحتفالات نفسها إلا أن كل واحدة حاولت أن تدرسها من خلال زاوية معينة ومغايرة للأخرى، فقد حضرتا مثلا احتفالات الزفاف والختان ودونت كلتاهما ملاحظاتها الخاصة.[2]

وورد في تقارير لهما أن قبيلتا أولاد عبد الرحمان وأولاد ملكم هي من القبائل "نصف الرحل" حيث يزرع هؤلاء في الصيف المناطق الشمالية من الجبال أما في الشتاء فيزرعون المناطق الصحراوية المسقية وفي باقي السنة يعيش هؤلاء في ما أطلق عليه "القوربي" والتي كانت متاخمة للقلاع التي كانت تستخدم حينئذ لتخزين الحبوب.[3]

وقد كان التنقل في الكثير من المناطق الصعبة يتم بواسطة البغال وهذا لحمل المعدات التي تخص التسجيل الصوتي والفوتوغرافي لإتمام البحوث التي كلفتا بالقيام بها[4]، ويبدو أن هذه المعدات ستساعد تيون في دراستها والتي كانت ستقسم إلى ثلاثة أجزاء، يضم الأول تعريفا عاما لقبائل الشاوية والتركيبة العائلية والاجتماعية والدينية لها، أما الجزء الثاني فهو دراسة دقيقة لقبيلة أولاد عبد الرحمان ودراسة شجرة نسبها وتاريخ القبيلة خلال قرنين من الزمن، ثم أخيرا تتبع التنظيمات العائلية

1 Coquet, Op. cit, p, 11
2 Wood, Op. cit, p, 32.
3 Ibid, p132.
4 Coquet, Op. cit, p, 12.

من زواج وطلاق وغيرها، ويرجى من هذه الدراسة الوصول إلى التأثيرات الغربية (الأوروبية) على سكان الأوراس وهجرة سكانها.[1]

وفي إحدى الوثائق المحفوظة في الأرشيف الفرنسي فيما وراء البحار يوجد تقرير بعثت به إلى الحاكم العام جاك سوستيل بتاريخ فيفري 1955 بينت فيه أنها خصصت في عملها الذي حجزت عليه الشرطة الألمانية خلال الغزو النازي على فرنسا جزء يخص الألقاب والأسماء الشاوية، وفيما يخص القرابة ذكرت في تقريرها هذا أن الشاوية هم أقرب للكلتيين البدائيين منهم إلى العائلات الرومانية وحاولت ج.تيون أن تدرس التنظيمات القبلية والعائلية أو ما يطلق عليه بالشاوية (هارفيقث) والتي تعني المجموعة أو ما يطلق عليه في مناطق أخرى بـ(الرفقة) وهي المجموعة ذات القرابة العائلية التي تنحدر من نفس الأجداد الأقربين.[2]

ومهما يكن فإن الأعمال والدراسات التي قامت بها تيون يمكن أن نضمها إلى الإثنولوجيا الكولونيالية والتي أرادت دراسة المجتمعات المستعمرة في ظروف حرجة تعيش فيها وهي الاستعمار رغم أن ميدان الدراسة كان يراد أن يكون بعيدا عن التأثيرات الاستعمارية من إدارة أو معمرين [3]، لكننا نجد أن هذه الباحثة قد قربت ما هو بعيد حين أقرت أن سكان الأوراس والقبائل المدروسة هي أقرب بشكل كبير من الكلتيين البدائيين، في حين أبعدت ما هو قريب من تأثيرات أخرى عربية وإسلامية وأهملت جانبا آخر من التأثيرات التي عرفتها المنطقة خلال الثلاثينيات من القرن العشرين وهي تأثيرات الحركة الإصلاحية بقيادة جمعية العلماء المسلمين والتي كان نشاطها فعالا في محاربة البدع خاصة في الشرق الجزائري.[4]

1 Sacriste, Op.cit, p, 47.
2 ANOM 11/CAB/62. Arreté relative a la composition du cabinet civil.
3 Sacriste, Op. cit, p, 47.
4 Wood, Op. cit, p, 47.

وبناء على ما أورده المؤرخ شارل روبير آجرون فإن منطقة الأوراس التي كانت تحت رحمة المرابطين إلى فترات متأخرة عرفت انتشارا للحركة الإصلاحية بشكل سريع وواسع وصل صداها إلى أعماق هذه المنطقة الجبلية.[1]

ولعلها أبرز الملاحظات التي تستوقفنا في مهمة تيون وريفيار إلى الأوراس أين تم إهمال التحولات المتطلعة والمتأججة التي عرفها المجتمع الأوراسي في تلك الفترة والتي لا يمكن لأي باحث مهما كان أن يتغافل عنها، فرغم وصف هذا المجتمع بأنه بدائي في كتابات وتصريحات هاتين السيدتين إلا أن جمعية العلماء المسلمين كانت قد بدأت في إصلاح وتغيير حياة الجزائريين عموما والمنطقة بشكل خاص وعملت على تقوية عقيدتهم ومحاربة البدع والأباطيل التي انتشرت بشكل لافت عند قبائل الأوراس، إذ كان رجالات الإصلاح يجولون في المنطقة يعظون السكان ويقنعونهم بالتوقف عن التبرك بالأضرحة وإقامة الحج إلى بعض المناطق التي يراها سكان المنطقة على أنها مقدسة، بالإضافة إلى أن الجمعية كانت تنهى عن إقامة أفراح الزواج والختان التي يصاحبها رقص النسوة مع الموسيقى علنا، وبهذا فقد انضمت نصف الزوايا الموجودة في الأوراس تقريبا إلى الحركة الإصلاحية [2] ومن جانب آخر فقد عملت الجمعية على بعث وزرع الوعي السياسي والذي يبدو أنه قد رافق العمل الإصلاحي.[3]

والأغرب من ذلك أن سنة 1937 كانت حافلة بحراك وطني خاصة في الجنوب القسنطيني، وهذا ما أقرته التقارير الموجودة بالأرشيف الفرنسي التي تثبت أن الجزائر عرفت نشاطا مكثفا لجمعية العلماء المسلمين نعته الفرنسيون "بالاضطرابات" وصنفته السلطات الفرنسية ضمن ما يخل بالنظام العام[4]، في حين عبر بعض الفرنسيين عن عدم فهمهم واستيعابهم "تناقض الإنسان البربري" أو ما أطلق عليه "روح البربري

1 Charles-Robert Ageron, Histoire de l'Algérie contemporaine, Tome 2 De l'insurrection de 1871 au déclanchement de la guerre de libération (1954), Presses universitaires de France, 1979.p341.

2 Ageron, Histoire de l'Algérie , Op, cit, p 341.

3 Wood, Op. cit, p, 37.

4 ANOM, 10H90, Une nouvelle phase de l'histoire turbulente de l'Aurès: Le conservatisme berbère aux prises avec le réformisme des ouléma algérien, p 1.

المتناقض والمتقلب" وذلك عند تأسيس أول شعبة لجمعية العلماء المسلمين بقلب الأوراس في حيدوس بمنطقة أولاد عبدي في أوت 1936، والتي كان أغلب مؤسسيها ينحدرون من عائلات مرابطية أوراسية، وتذكر ذات التقارير أن هذا التأسيس قد أفلت من أعين الإدارة الاستعمارية الفرنسية كون الفكرة قد تخمرت بعيدا عن المنطقة حين كان مؤسسوا الشعبة يتلقون دروسا على يد الشيخ ابن باديس في جامع سيدي لخضر بقسنطينة.[1]

والواقع أن الانطلاقة الأولى للجمعية كانت بداية من تأسيس" الشعبة الدروسية" أو "لجنة الدروس" سنة 1936 ثم تطور الأمر في السنة التي تليها من خلال إلقاء الخطب في المساجد وحتى المحاضرات في الأماكن العامة، وكان أهمها تلك التي ألقاها بلقاسم الدردور المدعو بـ "عمر" في ضواحي مدينة آريس بتاريخ 31 مارس 1937 والتي كان لها صدى كبير ليس عند السكان فحسب بل تعداها إلى السلطات الاستعمارية الفرنسية حين اتهمت فيها نساء منطقة الوادي الأبيض بالفجور والميوعة الأمر الذي لم تستسغه الجماعة التي أخبرت ضابط البلدية المختلطة بأنها ستقف أمام هذه الخطب التي تمس أعراضهم.

ومهما يكن فإن خطب عمر دردور لم تخلو من ذكر اللاعدالة والظلم الذي كان يعيشه سكان الأوراس أمام تسلط ممثلي الإدارة الاستعمارية، وتذكر هذه التقارير أنه قد تم استعمال عبارات تحمل الكثير من الدلالات الوطنية مثل "الحق" و"الاستقلال" التي وصل صداها إلى أغلب قرى الأوراس المعزولة.

وكان للمناشير التي وزعتها شعبة جمعية العلماء المسلمين في المنطقة نتائج يبدو أنها كانت متقدة ومحملة بروح وطنية خالصة، حين بدأت أصوات تنادي بالامتناع عن دفع الضرائب وتعالت أصوات أخرى تندد بظلم "القياد". وبتاريخ 7 أوت 1937

1 ANOM, 10H90, Op. cit, pp 7, 8.

دعت إحدى العائلات المرابطية وهي "بن عباس" مدعمة من أعضاء الحزب الشيوعي للثورة ضد قائد المنطقة.

ومما ذكرنا آنفا يتبين لنا أن ما عرفته المنطقة من أحداث يثبت دون شك تحول ذلك النجاح الإصلاحي والديني إلى نجاح من نوع آخر هو في الحقيقة سياسي عندما تحدى الجزائريون الإدارة الفرنسية بالامتناع عن دفع الضرائب، وحين أظهر هؤلاء تذمرهم من أعوانها وكادت هذه الأعمال أن تشعل اضطرابات وصفتها السلطات الفرنسية بـ"الخطيرة" لولا قيامها باعتقال قادة الجمعية في الأوراس ومن بينهم عمر دردوري وزجت بهم في السجن بتاريخ 19 أكتوبر 1937.[1]

فيما تذكر جريدة البصائر الصادرة بتاريخ 03 ديسمبر 1937 أن جهود الجمعية لم تكن بالأمر الهين خاصة بالأوراس فقد لقي زعماء الإصلاح الذين يمثلون شعبتها قمعا وزجرا لا مثيل له، لكن ذلك لم يثنيهم ولم يثبط عزمهم في متابعة نشاطهم الإصلاحي واستطاعوا بذلك تأسيس "ستة أو سبعة" نوادي وأسست جمعيات كانت مكلفة بجمع الأموال لبناء المساجد والمدارس الحرة، وقد تم فتح مدرسة بحيدوس كانت تضم أكثر من تسعين متمدرسا من الذكور والإناث، كما عقدت شعبة الأوراس جمعيات رسمية وجولات كانت تنشر من خلالها الفكر الإصلاحي حيث صرحت الجريدة نفسها: "لقد اشتعل الأوراس بثورة دينية واجتماعية لم يشهدها تاريخه من قبل".[2]

ولم يكن ما يحدث في الشرق الجزائري عملا معزولا في ظل التحولات الداخلية الإقليمية والدولية التي عرفتها الجزائر.

نتائج نشاط جمعية العلماء المسلمين بمنطقة الأوراس:

يمكن أن ندرج تحول زوايا الطرق الصوفية بالمنطقة إلى نهج العلماء المصلحين ضمن أهم النتائج، فمن أصل الزوايا الثمانية والتي كانت موجودة على مستوى البلدية المختلطة آريس تبنت أربع منها أفكار الجمعية وهي زاوية حيدوس والزاوية

1 ANOM, 3R272. Note a l'attention du gouverneur général

2 البصائر، العدد 89، السنة الثانية، 1937/12/03، سير الإصلاح بجبال أوراس ص7.

الحمراء والتي كانت تابعة للطريقة الرحمانية، وزاوية منعة القادرية، وزاوية مدرونة– حيدوس الدردورية.[1]

لكن من جهة أخرى وفي بعض وثائق أرشيف ما وراء البحار نجد تقزيما لنتائج الحركة الإصلاحية في منطقة الأوراس في جانبها الديني، الأمر الذي أدى إلى تحولها إلى النشاط السياسي [2] وهذا ما يفسر إرسال السلطات الفرنسية فرقا من "القوم" كانت تجوب المنطقة خاصة في وادي عبدي لإقرار الأمن في ظروف سادها الفقر والحرمان، وكان رد فعل السكان رشقها بالحجارة تعبيرا عن سخطهم على الإدارة الفرنسية التي لم تطلق سراح بلقاسم دردوري إلا في مطلع سنة 1938.[3] وتفسر تقارير أخرى أن السلطات الفرنسية في باريس قد وافقت على استقدام فرق من "القوم" لإنشاء مركز عسكري متقدم بقيادة النقيب أرمنياك Armagnac بهدف تقوية فرقة الدرك في مدينة آريس، وكان على سكان المنطقة – رغم حالتهم المزرية– تموين هذه الفرق واستضافتهم مقابل خدماتهم كمليشيات متطوعة توفر الأمن لهم.[4] ويؤكد Lucien Ferré * الذي تقلد منصب المتصرف الإداري لبلدية آريس خلفا لموسكاتيلي أن استقدام هذه الفرق إلى هذه المنطقة هو الشرارة التي أشعلت نار هذه الاضطرابات، وكان حل هذه الفرق عشية اندلاع الحرب العالمية الثانية، واستغلت ثكناتهم لتدريب المجندين الجزائريين في الحرب العالمية الثانية.[5]

واعتبارا من سنة 1938 تم تضييق الخناق على الكثير من النوادي الإصلاحية وحضر العديد منها، لكنها واصلت نشاطها تحت غطاء جمعيات قدماء المحاربين واعتقدت السلطات الاستعمارية الفرنسية بذلك أنها استطاعت تهدئة الأوضاع ولذلك

---

1 ANOM, 10H90, Op. cit, p14.
2 ANOM, 3R272. Op. Cit.
3 Ageron, Histoire de l'Algérie, Op. cit, p 341.
4 Wood, Op.cit, pp, 49.50.

* لوسيان فيري تقلد منصب متصرف بلدية آريس خلفا لسابقه موسكاتلي *Muscatelli* ، واعتنق الإسلام، وفي الكتاب الذي أصدره سنة 1957 يذكر أنه استدعى النقيب ارمنياك وأمره أن يقوم ببناء المقرات الأساسية لاستقرار رجال " القوم" وأوصاه أن لا يعتمد هؤلاء على سكان المنطقة في عيشهم، كما يعود له الفضل في فلول هذه الفرق غداة اندلاع الحرب العالمية الثانية، أنظر: Wood, Op, cit, p,50.

5 Ibid, p50.

لم تفكر أن تعلن حالة الطوارئ وأن تقوم بتحذير السياح وحتى الأنثروبولوجيون الذين كانوا في مهمات في المنطقة.

ومهما يكن فإن الإصلاح كان قد ملك قلوب وأرواح الجزائريين وسكان الأوراس بشكل خاص بالرغم من نفي الفرنسيين لذلك في كتاباتهم، وتكشف بعض التقارير التي كانت قد أرسلتها جرمان تيون سنة 1935 أن تأثير جمعية العلماء بالمنطقة كان بالغا خاصة عند أولئك الذين لقوا تعليما فرنسيا، وأضحى السكان يبغضون أولئك المرابطين الذين كانوا مدعومين من الإدارة الاستعمارية الفرنسية ضد العلماء.[1]

لكن إذا ما تتبعنا كتابات جرمان تيون التي لم تصدرها إلا مؤخرا أي بعد مرور سنوات من استقلال الجزائر لوجدنا أنها تذكر أنه خلال مهماتها الأولى في الأوراس لم تسمع قط تداول سكان هذه المنطقة اسم الأمير خالد، بينما تردد عندهم اسم الشيخ ابن باديس والشيخ الطيب العقبي كثيرا، ويبدو أن هذه التصريحات تدل على توجه جديد قد حل على إيديولوجية الكثير من الفرنسيين خاصة بعد استقلال الجزائر فإن كان ولاؤهم لفرنسا الاستعمارية جليا خلال الفترة الاستعمارية للجزائر فإن توجههم بعد استقلالها تغير كثيرا.

ومهما يكن فإن السيدة فاني كولونا– والتي كانت مختصة في التطورات السياسية والدينية التي عرفها الشرق الجزائري وبخاصة منطقة الأوراس– تؤكد أن هذا التحاشي الذي قامت به تيون يرجع أصلا إلى ما أسمته "بأزمة المعرفة الإثنولوجية" حيث كانت هذه المهمة موجهة من طرف مشرفي السيدتين لتقصي مظاهر دون غيرها ودون محاولة لمعرفة التأثيرات المتعدية، وتتساءل السيدة كولونا لماذا لا نجد في بحوث جرمان تيون اهتماما بالتنظيمات الاجتماعية ولا نجد أيضا معرفة عن كيفية تأسس مجموع القرى وقبائل المنطقة تاريخيا؟[2]

لا جرم أن العدول عن ذكر هذه التحولات يحمل معه الكثير من التساؤلات والتفسيرات ربما أهمها وجود كما يحلو للكثير أن يطلق عليه "الأطروحة البربرية".

1 Wood, Op. cit, p, 47.
2 Colonna, Op. cit, p157.

هذه الأطروحة التي استخدمتها فرنسا منذ البدايات الأولى لاحتلال الجزائر فعّلتها أكثر في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، مستعملة الكثير من الوسائل أهمها محاولة إنشاء محاكم مدنية تطبق الأعراف البربرية القديمة حيث اجتهد الفرنسيون في البحث عنها وحاولوا إعادة إحيائها وتطبيقها لأنها كانت غير مسطورة بدل القوانين التي كانت مستوحاة من الشريعة الإسلامية وهذا سيفضي لاحقا إلى منع تعليم القرآن واللغة العربية من خلال تأكيد البربرية عند العناصر البربرية.[1]

بانتهاء مهمة جرمان تيون في نهاية شهر ماي 1940 عادت إلى باريس وصرحت بشكل غير متوقع في محاضرة ألقتها أن الجزائريين يعيشون في وضعية مزرية وصرحت في لقاء آخر أنها تنبأت بوجود علامات لبداية الثورة حينما أكدت اتساع الهوة بين المجتمع الجزائري والمجتمع الأوروبي، وتذكر بعض المصادر أنها قابلت شخصيات تعد من الانتلجنسيا الجزائرية آنذاك كالصالح بن جلول والدكتور سعدان هذا الأخير الذي صرح لها ما يعانيه الجزائريون والنخب بشكل خاص من حرمان وعنصرية، وصرحت على صعيد آخر ما تعانيه المدرسة العربية الإسلامية من تهميش فقد كانت حسبها تلعب دورا ثانويا بعد المدرسة الفرنسية.[2]

ونتساءل لماذا لم تفضي إذن هذه المهمة إلى عمل أكاديمي على الأقل يمكن الاعتماد عليه في تفسير وفهم بعض المظاهر التي سادت المنطقة في تلك الفترة؟ وإذا كانت جرمان تيون قد فقدت مذكراتها التي كتبتها خلال مهمتها عن الأوراس بعد اعتقالها أثناء الحرب العالمية الثانية، فماذا عن تيريز ريفيار؟ لماذا لم تخلص لإنهاء أطروحتها؟

وترى السيدة فاني كولونا وكتفسير لعدم وجود منتوج أكاديمي لهذه المهمة أن المسائل التي تخص الجزائر والمغرب والإسلام في تلك الفترة فقدت بريقها إذا ما قارناها مع بداية الاحتلال، ومن جهة أخرى كانت ريفيار ضمن التيار السوسيولوجي السائد آنذاك [3] وهو التيار الدوركايمي الذي تأثر بانغماس السوسيولوجية الفرنسية

1 احمد بن نعمان، فرنسا والأطروحة البربرية، الخلفيات، الأهداف، الوسائل، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، أكتوبر 2011، ص 85.

2 Lacouture, Op. cit. pp, 56-59.

3 Colonna, Op. cit, p138.

الاستعمارية في السياسة [1] والذي أبدى نظرة ضيقة اتجاه العالم العربي والإسلام [2] والأمر سيان بالنسبة لاهتمامات جرمان تيون في هذه المهمة، فحين نتتبع مجلة "السنة السوسيولوجية" Année Sociologique" والتي كان قد أسسها إميل دوركايم فإننا لا نجد تقريبا موضوعات تناولت الإسلام، وهي بصمة من بصمات المشروع الاستعماري في الجزائر والذي لم ينتهي حتى بعد الاستقلال، وهو النفي القاطع للعرب والإسلام عند الفرنسيين والذي يحسب على الفكر الموضوعي بداية من نهاية القرن التاسع عشر عند دوركايم وموس وغيرهم.[3]

وإذا ما تتبعنا الكثير من التحليلات التي قدمتها تيون نجد أنها وقفت موقف المتعجب من مجتمع وصفته أنه بقي "جامدا"، هذا المصطلح الذي يطلقه علماء الاجتماع تعبيرا منهم عن المجتمعات التي لم تعرف أي تطور وبقيت بعيدة عن الحضارة، فلقد كانت تأمل أن تتأثر منطقة الأوراس بالمواصفات الفرنسية وحضاراتها والتأثيرات الاستعمارية إلا أنها راحت تتأثر وبشكل غير متوقع بالقوى التي سمتها "بالقوى الخفية" أو كما حددتها بمصطلح " الإسلام الجديد" وعندما تشير إلى الاضطرابات التي عرفتها منطقة الأوراس [4] فإنها تفسر ذلك بمطالب الجزائريين في الإدماج الذي يتلاءم ويتناسب مع المجتمع الفرنسي، لكنها تتناسى مطالب هؤلاء الدينية والسياسية.[5]

ويؤكد المؤرخ عبد الحميد زوزو أن تبلور الحركة الاصطلاحية في المنطقة كانت له آثار قد سبقت وجود جمعية العلماء المسلمين وبشكل واسع، إذ كان الشيخ الطيب

---

1 إدموند بورك، فرنسا وسوسيولوجيا الإسلام الكلاسيكية 1798-1962، ترجمة يونس الوكيلي، التفاهم ، مجلة فصلية فكرية إسلامية، العدد الثاني والثلاثون لسنة 1432هـ / 2011، دون ترقيم الصفحة.

2 Colonna, Loc,cit, p138.

3 Colonna, Op.cit, pp 138-139.

4 من خلال الكثير من التقارير الخاصة بالسلطة الاستعمارية يبدو أن الجنوب القسنطيني ومنطقة الأوراس على وجه خاص كانت تضم في الثلاثينيات خلايا للحزب الشيوعي في منعة وفي مدينة باتنة وانتشر في المنطقة مما أطلق عليهم صعاليك الشرف والمجندين المتمردين الأمر الذي أدى إلى نشوب تلك الاضطرابات، ومما يثير الشك انه لا جرمان تيون ولا تيريز ريفيار قد أشارت لذلك على الرغم من الصدى الكبير لهذه الاضطرابات، أنظر: فاني كولونا، ، آيات الصمود، الثوابت والمتغيرات الدينية في الجزائر المعاصرة ترجمة : لطيف فرج، دار العالم الثالث ص21.

5 Wood, Op.cit, pp, 47-49.

العقبي يقدم دروسا بالزاوية الحمراء بالقرب من آريس ما بين سنتي 1922 إلى سنة 1929 وكان من بين الذين حضروا دروسه مقدم هذه الزاوية صالحي الحاج المكي والذي أصبح من بين أهم دعاة الإصلاح في الأوراس.[1]

ويمكننا أن نؤكد حسب ما أطلعنا عليه من وثائق أنه كان لحركة الإصلاح صدى كبير لا مناص منه وخاصة في الجنوب القسنطيني ولكن تجاهله الكثير ممن زاروا أو كتبوا عن هذه المنطقة، وكانت جرمان تيون من بين هؤلاء إذ كان من بين مجالات مهمتها معرفة التأثيرات الخارجية التي تمس القبيلة[2]، لكننا لا نجد أثرا لذلك؟ وربما يفسر ذلك حسب ما أدرجناه سابقا بتوجه هذه الأنثربولوجيا إلى إيديولوجيا معينة.

لقد بات من الواضح أن الكثير من الإسهامات التي فعّلت الأنثربولوجيا الفرنسية في تلك الفترة يتلخص فيما تحصله هذه المهمات من نتائج ملموسة على الصعيد الاستعماري، ورغم ادعاء الكثير أن الأنثربولوجيا تخلصت من شوائبها إلا أننا نجد العكس من ذلك حين نجد هذا العلم يتورط بشكل كبير وربما وبشكل مباشر في تسهيل الاستعمار.

ولقد تكونت جرمان تيون وقامت بأبحاثها الخاصة في الثلاثينيات عند نشأة المؤسسات التي خدمت الأنثروبولوجيا في الوقت الذي مازالت تعتبر فيه أن المجتمعات المستعمَرة جامدة في تقاليد متوارثة، وصنفت المجتمعات البشرية في محور زمني وفق معيار التطور واعتبرت مجتمعات الدول الغربية نفسها بذلك أكثر تطورا.

وفي ملخص سيرة جرمان تيون الموجود في أرشيف ما وراء البحار "بآكس آن بروفانس Aix en Provence" لا نجد أثرا أو عملا أو مذكرة لمهمتها في الأوراس أي إلى غاية سنة 1940 وهي السنة التي أتمت فيها آخر المهمات في المنطقة.[3]

1 عبد الحميد زوزو، المرجع السابق ج2، ص 956.

2 ANOM, 11/CAB/62, Op.cit .

3 ANOM 11/CAB/62, Op. cit.

ورغم عدم وجود أثر لمهمة تيون إلا أن أغلب الكتابات التي أنتجها الأطباء أو الإداريون وحتى التحقيقات التي قامت بها النسوة الأنثروبولوجيات تمت بين سنة 1920 و1940 وأهم ما جاء فيها هو وصف المرأة الأهلية "المستعمرة" من عدة جوانب كالممارسات الدينية، والحياة اليومية والوضعية القانونية ونوعية التعليم المخصص لها.[1]

كما لا نجد أثرا لما كانت ستفضي إليه مهمة تيون في الأوراس، فهاهي شهادة مشرفيها تؤكد وجود أعمال لها لكنها لم ترى النور، إذ يذكر مارسيل موس قائلا: " لقد رأيت بالتفاصيل العمل الهائل للآنسة تيون حول شاوية الأوراس ويحق لي القول أنها أحسن من طبقت مناهج التحقيق الشامل فيما يخص المجتمعات المنظمة. فالآنسة تيون خلال الأربع سنوات التي أمضتها مع هؤلاء تعرفت عليهم، والنتيجة عظيمة وصف فردي واجتماعي تاريخي وإحصائي وأخلاقي وجغرافي وسلالي–علم الأنساب– جعل كل شيء أكيد وأصبح له تفسير..."

أما شهادة البروفيسور لويس ماسينيون فقد تضمنت تفاصيل أكثر دقة عن أطروحتها التي لم تنجز حيث يذكر في شهادته قائلا: " يضم المجلد التكميلي الأول دراسة تحليلية لكل القبائل الشاوية التي تقع في الجنوب الشرقي من قسنطينة مع كل العشائر وطرقهم الصوفية مزودا بثلاث خرائط.

أما في الأطروحة الرئيسية في المجلد الثاني والثالث فتقدم تيون دراسة شاملة وجامعة لقبيلة آيث عبد الرحمان شاوية الأوراس والمنحنى الشخصي لحياة 700 فرد من هذه القبيلة " التعليم، الأسفار، العقود، الأحلاف، الثأر، الأمراض، الميزانية والطرق الصوفية والوضعية الاجتماعية"، كما قدمت نسب كل العائلات خلال قرنين من الزمن ... وخلصت في المجلد الثالث لدراسات تنظيمية حول الأشخاص والهوية التقليدية، القرابة الأبوية، وصلة الرحم، آلية التحالفات(الهارفيقث)، العادات والصفوف والهجرة...).[2]

1 Lallemand Suzanne. Atelier "Histoire et ethnologie". In: Bulletin de l'Association française des anthropologues, n°14, Décembre 1983. XIe congrès international des sciences anthropologiques et ethnologiques. p. 62.
2 ANOM, 11/CAB/62.Op. cit.

وإذا كانت هذه الشهادات إثباتا لوجود عمل في الميدان إلا أننا لا نجد إنتاجا قد دون أو طبع يمكن الرجوع إليه لأي دراسة في مجال معين، أو بمعنى وجود عمل علمي وهذا بصرف النظر عن مدى موضوعيته.

المبحث الثاني: جرمان تيون والثورة التحريرية" الأنثربولوجيا والسياسة":

بعد مغادرة جرمان تيون الجزائر بتاريخ 9 جوان 1940 نحو فرنسا أي قبل 05 أيام من الاجتياح الألماني للأراضي الفرنسية[1] انضمت تيون مبكرا للمقاومة الفرنسية للنازية أين أصبحت عضوا نشطا في الخلية التابعة "لمتحف الإنسان"، وبتاريخ 13 أوت 1942 تعرضت للاعتقال لمدة سنتين في مخيمات "رافانسبروك Ravensbrück " بألمانيا، وكانت الوحيدة من بين الناجين ضمن أعضاء هذه الخلية المعتقلين [2] وعند إطلاق سراحها توقفت بشكل مؤقت عن الدراسات الإثنوغرافية وتحولت لدراسة نظام المعتقلات، يؤكد ذلك أحد التقارير الموجود في أرشيف ما وراء البحار بآكس، فبسبب الاعتقال تحولت تيون للكتابة عن المقاومة والمعتقلات وتحصلت على عدة نياشين منها وسام جوقة الشرف، صليب الحرير وميدالية المقاومة. وبطلب منها ومن الكثير الذين كانوا ممولين من المركز الوطني للبحث العلمي (C.N.R.S) في تخصص السوسيولوجيا الأفريقية تم تحويلهم مؤقتا لتخصص التاريخ الحديث للمضي في تحقيقات منتظمة حول الترحيل القسري الشيء الذي أفضى إلى تأسيس "اللجنة التاريخية للترحيل القسري" "La commission سنة 1951.[3]

وبناءا على طلب من الحكومة اليسارية آنذاك ستعود جرمان تيون بعد 15 سنة إلى الجزائر وبالضبط إلى الأوراس المنطقة التي عرفتها جيدا، كانت مهمتها هذه المرة تتلخص حسب الكثير من المصادر في جس نبض المنطقة، والتأكد من عدم تورط السكان المدنيين في الثورة، والوقوف على أسباب الثورة الحقيقية.[4]

وكان انطلاق الثورة الجزائرية مهما بالنسبة لجرمان تيون لأنها بدأت في منطقة كانت قد زارتها وعرفتها جيدا بل وتأثرت بها إلى حد كبير.[5]

---

1 Wood, Op.cit, p 52.
2 Courriere, Op. cit, p 46-47
3 ANOM, 11/CAB/62.Op. cit.
4 Wood, Op. cit, p 21.
5 Germaine Tillion, L'Afrique bascule vers L'avenir, L'Algérie en 1957 et autres textes, Les Edition de Minuit, 1960, p, 7. وأنظر كذلك Lacouture, Op.cit. p .233.

وحسب ما تذكره جرمان تيون في كتابها "إفريقيا تتأرجح نحو المستقبل" "L'Afrique bascule vers l'avenir" فإن الكثير من الصحف التي كانت تصدر بفرنسا قد صرحت دون تأكيد بأن جبال الأوراس ستتعرض لقصف بقنابل النبالم الشيء الذي أثر فيها، وفي اليوم نفسه أي بتاريخ 24 نوفمبر سنة 1954 تلقت تلغرافا [1] من أستاذها لويس ماسينيون * يطلب منها مرافقته للقاء وزير الداخلية الفرنسي آنذاك وهو فرنسوا ميتيران "François Mitterrand"[2] كونها مختصة بالمنطقة لمناقشة "الأزمة التي حلت بالأوراس" الثورة في الأوراس وذلك بتاريخ 25 نوفمبر 1954 وتمت الموافقة على إرسالها إلى الجزائر في مهمة جديدة [3]، فكان إلحاح "لويس ماسنيون Louis Massignon" عاملا مهما لعودتها إلى الجزائر سنة 1954 عند اندلاع الثورة، وهذا لإجراء مهمة لصالح وزارة الداخلية الفرنسية قصد مراقبة سكان الأوراس [4]، وبمعنى آخر مراقبة التجمعات السكانية التي استحدثها الجيش الفرنسي في تلك المنطقة للرد على جيش التحرير الوطني [5]، أما التوصية التي بعثت من طرف ل.ماسينون إلى العقيد شون P.Schoen الذي كان يشتغل بمصلحة العلاقات الشمال إفريقية في الحكومة العامة الجزائرية فقد تمحورت مهمة ج.تيون في "أنسنة ظروف إجلاء سكان منطقة الأوراس وتحسين ظروف عيشهم".[6]

---

1 لقد جاء في هذا التلغراف: " يجب أن تلتحقي بالجزائر سأطلب بمهمة لك حيث يجب أن يكون شخص هناك لنكون متأكدين أنه لن يتعرض السكان المدنيون لأي أذى" أنظر: Tillion,Op.Cit, p, 234.

* والذي كان قد أسس بمعية شارل أندري جوليان جمعية "فرنسا المغرب" التي تأسست من أجل الحفاظ على الصداقة بين شعوب ضفتي البحر المتوسط.

2 Tillion,Op.Cit , pp, 7-8

3 Wood, Op.Cit, p 154.

4 تذكر المصادر أن تيون ولما كانت في فرنسا بلغها اندلاع الثورة وكانت البداية من الأوراس وبلغها أيضا سياسة القمع و التعذيب التي مارسها الفرنسيون على سكان المنطقة والتي كانت قد تكونت علاقة بينها وبين المجتمع الشاوي، وأهم ملاحظة قد شدت انتباه هذه الباحثة آنذاك هو حالة الفقر التي يعيشها هؤلاء السكان ، عملت على مقابلة فرنسوا ميتران الذي كان حينئذ وزير داخلية منديس فرانس لتحتج ضد السياسة الفرنسية الوحشية في الجزائر خلال الثورة، وكان هو الذي اقترح عليها التنقل إلى الأوراس لمدة ثلاثة أشهر فكانت زيارتها الثانية للمنطقة حيث لاحظت التقهقر الاجتماعي والاقتصادي الذي أصاب المنطقة منذ الأربع عشرة سنة الأخيرة ووقفت على حالة الفقر والبؤس الذي يعيش هؤلاء الجزائريون، أنظر: Courriere, Op. cit, p47.

5 Wood, Op.cit, p, 154.

6 ANOM 93/4292, Lettre signé : L. Massignon.

وتذكر بعض المصادر أن انتقالها إلى الجزائر هذه المرة حركه واجبها كعالمة أنثربولوجية اتجاه سكان منطقة احتكت بهم وتعرفت على بساطة عيشهم [1]، لكن إذا تتبعنا كتاباتها يمكن أن نصنف تجربتها الأولى عند زيارتها الجزائر ضمن المجال الأنثربولوجيي في حين أن زيارتها الثانية سنة 1955 ستتعدى ذلك إلى الجانب الاجتماعي والسياسي[2]، وعلى هذا الأساس فكرت في خلق نظام مختلف ومستعجل يكون مناسبا وظروف الجزائر في تلك الفترة.[3]

وتجدر الإشارة إلى أنه سيتم استقبال ج.تيون كمبعوثة من طرف المركز الوطني للبحث العلمي C.N.R.S وكملاحظة من طرف السلطات الفرنسية الاستعمارية المختصة لمدينة الجزائر وقسنطينة هاتين الهيئتين اللتين لم تمول مهمتها هذه بل اكتفت تيون بوسائلها المحدودة.

وعند انتقالها إلى الجزائر كان عليها في البداية أن تلتقي بثلاث شخصيات [4] الشخصية الأولى هو الكولونيل "شوان "Schoen" الذي كان مختصا سياسيا عن المجتمع الجزائري، أما الشخصية الثانية فهو البروفيسور جون سال "Jean Scells" وأخيرا المستشرق إيميل درمنغهام "Emile Dermenghem" *الذي كان من مناصري جمعية "فرنسا المغرب".[5]

---

1 Wood, Op. cit, p,154 .

2 Pierre Vidal-Naquet,"La Justice et la patrie. Une française au secours de l'Algérie"(numéro spécial intitulé "les vies de Germaine Tillion" février 2000. p141.

3 Tillion, Op. cit, p 9.

4 Lacouture, Op. cit. p235.

* إميل درمنغهام، ولد بباريس سنة 1892 وتوفي سنة 1971 بعد حصوله على شهادة في التوثيق وإتمامه للخدمة الوطنية عين كملحق صحفي في ديوان وزارة الشؤون الخارجية، انتقل إلى المغرب في 1925 لتغطية حرب الريف فتأثر بالحضارة الإسلامية التي اكتشفها في مدينة فاس فكان ينقل صدى المشاكل الاجتماعية والسياسية المغربية وأيضا الثقافة التقليدية، تم تحويله إلى الجزائر أين اكتسب رصيدا إسلاميا مهما بعد اطلاعه على محتوى كتب مكتبة الحكومة العامة الجزائرية قام بتحقيقات ميدانية حول الفلكلور المحلي واصدر كتابا عنونه "طقوس مقدسي الإسلام المغاربي " أنظر:
François Pouillon, Dictionnaire des Orientalistes de langue française, Editions Karthala, 2008.p 289.

5 Lacouture, Op, cit. p235.

وعند وصولها إلى الجزائر علمت تيون ما يقوم به الفرنسيون في حق الجزائريين من تعذيب وقهر وقمع، كما بلغها أيضا نبأ المجازر التي ارتكبت في الثامن ماي سنة 1945 والتي خلفت أكثر من 45000 شهيد حين تم إطلاق النار على الجماهير الشعبية الجزائرية السلمية والتي رفعت الراية الوطنية وشعارات كتب عليها شعار" من أجل تحرير الشعوب"، هذه الأحداث التي كان لها صدى كبيرا في كل الجزائر وليس فقط في الشرق الجزائري، ولم تشارك الجهات الرسمية فقط في قمعها بل شارك الكولون بشكل كبير بعد تكوينهم لمليشيات من أجل ذلك [1]، وقد شاع آنذاك بين هؤلاء المعمرين استخدام الأسماء التحقيرية فجاءت عبارات منها "اصطياد العرب" "هيا نذهب لنصطاد" "اصطياد الجرذان" "أو اصطياد البيكو [2]" وغيرها من المصطلحات التي تظهر ذلك الحقد الدفين لدى الفرنسيين وتناقلتها الصحف حتى في الخارج [3] ويبدو أن تيون في تلك الأثناء قد كانت في السويد تخضع لفترة نقاهة لذلك لم تطلع على هول هذه الأحداث إلا بمجيئها مرة ثانية إلى الجزائر.

ولعل ما يشد انتباهنا هو ما أخبرها به شيوخ من الأوراس حيث روي لها كيف أن أحد العساكر الفرنسيين يعذب الجزائريين " لأتفه الأسباب عندما يشك فيهم"، وفي مدينة جمورة اشتهر آخر "بقيامه بأفعال شريرة قذرة يندى لها الجبين"، وذكر هؤلاء الشيوخ لها أيضا "كيف عذب أحد أفراد قبيلة أولاد زيان بالحديد الساخن دون سبب إلا لتواجد بعض خراطيش الصيد" في مسكنه البائس " القوربي".[4]

وما يثبت سوء حالة الجزائريين ما أوردته تيون نفسها حين سألت أحد الأطباء عن أهم الأمراض التي تنتشر عند الجزائريين فأجابها بكل بساطة: " أنه مرض الجوع" وقد لاحظت تقهقر المستوى المعيشي للسكان الجزائريين أكثر مما وقفت عليه خلال زياراتها الأولى للجزائر.[5]

---

1 Redouane Ainad tabet, 8 Mai 45 Le genocide, p71.

[2] كلمة بيكو أو بيك من أشهر الألفاظ الرائج استعمالها عند الفرنسيين في بداية القرن العشرين والتي يقصد بها العرب أو أرابيكو كمعنى تحقيري للأهالي انتشرت في الصحافة والأدب الشعبي وحتى المعاجم والأبحاث اللغوية ، أنظر أبو القاسم سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ج 4، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية 2005، ص 61.

3 Mahfoud Kaddache, Le 8 Mai 1945, Editions ANEP, 2012, pp 37-45.

4 Courriere, Op. cit, p 48.

5 Lacouture, Op. cit, p 238.

وبعودتها إلى مدينة الجزائر عرجت للقاء صديقها القديم والذي أصبح حاكما عاما وأخبرته بتقريرها عن الأوراس الذي يتلخص في الحالة البائسة والفقر الذي يعيشه سكان الأوراس حتى في المناطق التي يخلو فيها المعمرون الفرنسيون.

ولا غرابة أن يقترح جاك سوستيل بصفته إثنولوجي * على زميلة له في نفس الاختصاص أن تساعده كموظفة بعد أن أقر حاجته إلى عالمة إثنولوجية تطبق إصلاحاته بشكل فعال بدء من الأوراس وهي المنطقة التي تعرفها تيون جيدا كما أسلفنا الذكر [1]. إذ طلب منها دراسة إمكانية تطبيق تنظيمات مماثلة لتلك التي تم استحداثها في المكسيك كمهمات ثقافية لكن ونظرا للظروف الملحة والمستعجلة الخاصة بالجزائر في تلك الفترة اقترحت تيون على سوستيل [2] بعد انضمامها إلى مكتب الحكومة العامة مشروعها الخاص بالمراكز الاجتماعية والتي تمثل حسبها إصلاحات جذرية للمجتمع من منظور أنثروبولوجي، وكونت بالإضافة إلى فانسان مونتاي Vincent Monteil"وجاك جويليي Jacques Juillet " ما كان يشاع آنذاك في الجزائر العاصمة "الجناح الأيسر" لحكومة جاك سوستيل.[3]

وقد خولت لها عضويتها في لجنة التحقيقات حول نظام المعتقلات في فرنسا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية أن تعود إلى الجزائر سنة 1957 لمراقبة ظروف الاعتقال في السجون الاستعمارية في الوقت الذي كانت فيه الثورة على أشدها في مدينة الجزائر –أو ما يعرف بـ" معركة الجزائر" في مؤلفات بعض الفرنسيين– فقد قابلت زعماء جبهة التحرير الوطني لمدينة الجزائر وفاوضتهم لوقف العمليات الثورية في المدينة وأصبحت مذاك تكافح ضد مختلف أنواع التعذيب رغم كونها من المساندين للجنرال ديغول سياسيا وفكريا.[4]

* كانت قد التقت مع جاك سوستيل الحاكم العام للجزائر لاحقا والتي كانت قد تعرفت عليه سنة 1934 حين كانا يدرسا معا في معهد الإثنولوجيا بباريس.

1 Courriere, Op, cit, p 49.
2 Tillion, Op,cit, p 9.
3 Courriere, Op, cit,p 49.
4 Sacriste, Op, cit, pp, 17-18.

ولعل موقفها من الثورة الذي سماه البعض آنذاك "بالموقف الليبرالي" بقي متأرجحا فلم يكن مساندا لا لليساريين الفرنسيين ولا لليمينيين، بل يمثل موقفا خاصا كأحد الحلول لما كان يطلق عليه الفرنسيون آنذاك بـ "المشكلة الجزائرية".[1]

1 Wood, Op.cit, p153.

أ- مصالح المراكز الاجتماعية" Services des Centres Sociaux" :

لا يمكن التكلم عن المراكز الاجتماعية بمعزل عن الظروف السياسية التي كانت تعيشها الجزائر ودون الرجوع إلى الوسط الذي ظهرت فيه، ففي الوقت الذي كانت المطالب السياسية للجزائريين قد أجمعت على مطلب واحد وهو الاستقلال، كان السياق الاقتصادي والاجتماعي المادة الأساسية لإنشاء مصلحة المراكز الاجتماعية.[1]

والحق أن ما كان يعيشه الجزائريون من ظروف مزرية: بطالة وفقر وحرمان قد مس أكثر من سبعة ملايين من أصل ثمانية ملايين منهم في المدن أو في الريف الأمر الذي أدى أيضا إلى حركة هجرة كبيرة إلى المتربول وقدرت الإحصاءات آنذاك أن مدينة الجزائر وضواحيها تضم ما يقارب حوالي 80000 إلى 100000 بيت من الصفيح، وفي المقابل نجد حوالي مليون نسمة من الأوربيين الذين استحوذوا على الأراضي الخصبة التي تحيط بالمدن يعيشون في رفاهية من كبار التجار وملاك الأراضي والعقارات ويساهمون بـ 80% من الاقتصاد العصري ويعيش هؤلاء في أكبر التجمعات الحضرية بينما يعيش أكثر من 80 % من الجزائريين في الريف يمارسون نشاطا اقتصاديا أقل ما يقال عنه أنه تقليدي أو عتيق.

ولم تكن محاولة الإدارة الاستعمارية الفرنسية في استمالة الأوساط الشعبية الجزائرية من خلال بعض الإصلاحات بالشيء الجديد، لكنها باءت بالفشل، لكن سلطة الاحتلال الفرنسي عولت هذه المرة على الجانب الاقتصادي والثقافي مع سياسة الإدماج الاجتماعي، لكن تبين فيما بعد أنها أصبحت غير مجدية خاصة في هذه الفترة عندما استقر مطلب الجزائريين على الاستقلال.

والواقع أن بعض الفرنسيين اعترفوا بمحاولة السلطات الاستعمارية لتغطية المشاكل التي كان يعيشها الجزائريون بمجموعة من الإصلاحات من خلال إتباع استراتجيات ومن ضمنها المساعدات الاجتماعية والتي سبقتها أعمال قامت بها فروع الكشافة الإسلامية وبعض الطلبة المنضوين تحت لواء اتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين التي تأسست سنة 1955، والتي حاولت المكاتب الإدارية الخاصة " S.A.S" استمالة

1 Forget Nelly, les services des centres sociaux en Algérie. SLND, p1.

أعضائها مجبرة هؤلاء على الانضمام إلى صفوفها خدمة لسياستها خاصة عند الأوساط الشعبية في المدن، أين كانت الأفكار الوطنية حسب الإدارة الاستعمارية الفرنسية أكثر تعصبا.[1]

ويرجع تأسيس المراكز الاجتماعية إلى تاريخ تقلد جاك سوستيل منصب الحاكم العام بالجزائر في 25 جانفي 1955، ففي أول خطاب ألقاه أمام مجلس النواب الجزائريين أشار أنه ينوي إنشاء "مهمات ثقافية" في الجزائر بغرض ضمان ترقية الجماعات المحلية، وتم تكليف جرمان تيون بوضع الأسس الأولى لهذه الهياكل الجديدة من خلال دراسة كل النقائص التي لزمت الإصلاحات السابقة في الجزائر.

وبتاريخ 27 أكتوبر 1955 أمضى سوستيل الحاكم العام الجديد قرار تأسيس مصلحة المراكز الاجتماعية على الشكل التالي: " تم إنشاء مصلحة المراكز الاجتماعية ضمن الإدارة العامة للتربية الوطنية في الجزائر، تهدف إلى تنشيط المراكز الاجتماعية في المدن والأرياف".[2]

وقبل بداية نشاط هذه المصالح في الميدان تم تخصيص أيام دراسية في مقر المركز التربوي الرياض– الذي يقع في الجزائر العاصمة– أين اجتمع ما بين الأول من ديسمبر والعاشر منه سنة 1955 الإطارات المستقبليون للمراكز الاجتماعية مع أحد المختصين في التربية القاعدية السيد أندري ليتاج A. Lestage.[3]

وتذكر السيدة نيلي فورجي Nelly Forget التي كانت تشتغل كمرشدة في إحدى المراكز أنه بتأسيس المصالح الاجتماعية الخاصة سنة 1955 أصبحت المساعدات الموجهة للجزائريين مستمرة بوسائل أكثر فاعلية، فتم تعميمها في كل أنحاء الجزائر [4]

1 عمار هلال، نشاط الطلبة الجزائريين، إبان الحرب التحرير، 1954، دار هومة للطباعة النشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، 2009، ص40.

2 George Garillon, De la Loraine a l'Algérie, Une aventure sociale et humaine au tournant des années soixante: Les centres sociaux educatifs, Editions la Bartavelle, 2008, p 13.

3 Isabelle Raymonde Deblé, Une exception éducative: Les Centres sociaux en Algérie (1955-1959) In : Revue Esprit, Editions du Seuil, Octobre 2004, p, 159.

4 Forget, les services, Op.cit, p, 38.

وكانت الإدارة الفرنسية تعلق أملا على أن يتقبلها الجزائريون خاصة أنها ركزت على مجال التعليم وتعميميه على كل أطفال الجزائر.[1]

ومثلت هذه المصالح بالنسبة لتيون وسيلة لتنمية الجزائر حيث عملت على خلق مؤسسات في إطار التربية الوطنية لضمان هذه التنمية بشكل فعال، لكن تم اغتيال أغلب منشطي هذه المصالح من الفرنسيين والجزائريين من طرف منظمة الجيش السري الفرنسي (OAS).[2]

حاولت تيون عبر هذه المراكز خلق جو يمكن فيه أن يتعايش المثقفون المتنورون من الكولون الفرنسيين والمتفرنسين الجزائريين على وجه خاص، لكن ما جاءت به لم يتقبله أغلب الفرنسيين الذين كانوا يرون أنفسهم أنهم أفضل من "الأهالي" ناهيك عن جبهة التحرير الوطني التي كان مطلبها لا نقاش فيه ألا وهو الاستقلال، وكان أعضاء منظمة الجيش السري (OAS) أهم المعارضين المتشددين لهذا التعايش الذي بدأ في الظهور من خلال شبكة المصالح الاجتماعية، وكان مبررا كافيا لدى هذه المنظمة لإعدام أهم مرشدي هذه المصالح كماكس مارشون Max Marchand ومولود فرعون.

وتتقاطع المراكز الاجتماعية والفصائل الإدارية المتخصصة Sections administratives spécialisées التي تختصر غالبا بـ (S.A.S) في أنها تقدم خدمات في التعليم وتقدم مساعدات اجتماعية واقتصادية، وفي هذا الصدد يجب الإشارة إلى أن الفرق بين هاتين المؤسستين هو أن الأولى كانت تابعة لوزارة التعليم وتقدم تقاريرها إلى باريس لأن التربية الوطنية لم تكن تحت سلطة الحكومة العامة بالجزائر، أما الهيئة الثانية أي (SAS)* فقد كانت تابعة لوزارة الدفاع الفرنسية.[1]

---

1 Tillion, Op.cit, p, 11.

2 Vidal-Naquet, Op.cit.p,143.

* وتجدر الإشارة إلى أن المصالح الإدارية الخاصة التي تأسست بتاريخ 27 أكتوبر 1955 كانت من بين أهم أركان سياسة التهدئة وإعادة بسط السيطرة الفرنسية على الجزائر والجزائريين أين بدأت السيطرة الاستعمارية تنفلت أمام قوة الثورة التحريرية، إذ حاولت السلطات الاستعمارية الفرنسية من خلال هذا التنظيم التأقلم مع الوضع والواقع الذي فرضته الأحداث آنذاك، ولعل الأهم من ذلك هو الشخص الذي جسد هذه الفصائل على أرض الواقع ونشير هنا إلى جاك سوستيل هذا الحاكم العام الإثنولوجي الذي عين بتاريخ 26 جانفي 1955 كحاكم عام للجزائر من طرف منديس فرانس والذي وسع من أهميتها منذ أن باشر أعماله في مكتب الحكومة، أنظر: *Grégor Mathias, Les sections administratives spécialisées en Algérie, entre idéal et réalité(1955-1962),* =

لم تكن المراكز الاجتماعية مدرسة ولا مستوصفا ولا ورشات للمبتدئين لكنها هياكل جديدة أنشئت لأهداف محددة ودقيقة، وقد وصفها بعض الفرنسيين آنذاك بـ" المغامرة" في تلك الظروف الحرجة التي مرت بها الجزائر، ومهما يكن من أمر فقد كانت تيون تدرك جيدا ما للتعليم من أهمية لإيجاد حلول سريعة وآنية لما أطلقت عليه بـ"التشرد" "Clochardisation" الذي عرفته الجزائر بشكل رهيب خلال السنوات الأخيرة من التواجد الاستعماري الفرنسي في الجزائر، فكان التعليم عاملا مهما في تجسيد هذه الإصلاحات على أرض الواقع.[2]

ووقع الاختيار على "شارل آغاس Charles Aguesse"[3] ليترأس مصلحة المراكز الاجتماعية لامتلاكه شهادة التأهيل وكان مفتشا رئيسيا لحركات الشباب والتربية الشعبية منذ سنة 1945، ثم أوكلت مهام هذه المصالح إلى مرشدين ومدربين مارسوا نشاطهم بنوع من الإنسانية للتعامل مع الجزائريين المحرومين بشكل مباشر فجاب هؤلاء المرشدون مدن وأرياف المقاطعات الثلاث عارضين أفلاما وكتبا ومقدمين عروضا ومقاطع مسرحية وتسجيلات بغرض لم شمل الجماعات المسلمة والأوروبية[4]، لكن مادامت هذه العروض لا تخرج عن نطاق الايدولوجيا الاستعمارية فإن هدفها واضح إذ كانت وسائل للسيطرة على أفكار الجزائريين ووسائل للدعاية والتضليل، وللوقوف على أهداف هذه المراكز سنعود إلى ما جاء في الجريدة الرسمية الفرنسية التي كانت تصدر حينئذ.[5]

---

*A*chevé et imprimer sur les presses ENEG, Réghaia, Algérie, 2013, pp, 15,25- = 26

1 Deblé, Op. Cit, p, 157.

2 Ibid, pp, 157-158.

3 شارل آغاس ولد سنة 1903 في نانت بفرنسا عين كرئيس لهذه المصالح بمرسوم والذي صدر بتاريخ 27 أكتوبر نظم العديد من العروض الفنية ومكتبات متنقلة في القرى المعزولة قدم حصصا على الأثير باللغة العربية واللهجة القبائلية أنظر: Serge Jouin, Marcel Lesne, Louis Rigaud, Jacques Simon, Historique des centres sociaux d'Algerie , L'Ecole en Algérie: 1830-1962 De la Régence aux Centres sociaux éducatifs, Edition, Pubsud, 2001, p,78, 86.

4 Deblé, Op. cit, p, 158.

5 أنظر الملحق رقم (04).

ب- أهداف المراكز الاجتماعية في الجزائر:

لقد تم استحداث هذه المراكز الاجتماعية من طرف تيون العالمة الأنثربولوجية والتي كانت تعرف جيدا المستوى المعيشي للمجتمع الجزائري، ومن أهم أهداف هذه المراكز هي أن تمنح لمجموعات سكانية محددة جغرافيا في الجزائر كل وسائل التطور لترتقي اقتصاديا وبالتالي يجب العمل في أربع مجالات مختلفة ضمن أربع مصالح وهي:

- مصلحة التعليم الابتدائي هدفها الإشراف على ضمان تعليم كل الأطفال الجزائريين سواء أكانوا ذكورا أو إناثا والذين لم يجدوا مقاعد في المدارس الابتدائية، إذ وقفت تيون على الفروق الشاسعة والمتناقضة بين تمدرس الفرنسيين والجزائريين[1]، ووقفت على التباين بين الحواضر والأرياف في نسب التمدرس ووجدت أنها مرتفعة في المدن الكبرى والبلديات كاملة الصلاحيات أين قدرت ج. تيون في مدينة الجزائر مثلا أنه من أصل 03 أطفال 02 منهم فقط كان يزاول الدراسة غير أن هذه النسب تتضاءل كثيرا في الأحواز حيث قدرت النسبة بحوالي واحد 01 من أصل ثمانية أطفال يزاول الدراسة والأدهى والأمر من ذلك أن نسبة تمدرس الأطفال الجزائريين في البلديات المختلطة قد يصل إلى أدنى المستويات فمن أصل حوالي 50 أو حتى 70 طفلا نجد أن طفلا واحدا له الحظ لكسب عيشه.[2]
- مصلحة خاصة بالتربية القاعدية تكون مخصصة للرجال والنساء الجزائريين.
- مصلحة اقتصادية تهدف إلى الرفع من الموارد الفردية لكل العائلات، وتضم هذه المصلحة تعليما تقنيا ومصلحة اجتماعية مهمتها الأساسية هي تسهيل الشغل للجزائريين.
- مصلحة الرعاية الطبية والتي تكون مرتبطة مع مؤسسة إنقاذ كتعاضدية تضمن مجانية العلاج والدواء لأعضائها، حيث قدرت قيمة الاشتراك سنويا

[1] أشارت تيون إلى أنه في ضواحي مدينة الجزائر لا يوجد سوى 14 طفلا متمدرسا من أصل 29، بينما تنزل النسبة في مجموع مدن المقاطعة الصغيرة إلى أدنى مستوياتها، فيبلغ مجموع الذين يرتادون المدارس 14384 طفل من أصل أكثر من 40000، أنظر: غرانميزون، المرجع السابق، ص 245.

2 Tillion, Op. cit, p, 165.

بـ400 فرنك فرنسي لكل فرد ويمكن أن تخفض هذه القيمة إلى 100 فرنك فرنسي ويكون الباقي على نفقة البلديات أو من الحكومة، ويمكن للمركز الاجتماعي أن يضع تحت تصرف هذه التعاضدية مقره الذي يستخدمه لعلاج بعض الأمراض كالتراخوما* والسل والملاريا وبعض الأمراض التناسلية.[1]

وبمعنى آخر فإن هذه المصالح ستقدم تربية قاعدية للذكور والإناث الذين لم يحظوا ولا يحظون بالتعليم، إذ توضع تحت تصرف السكان إطارات مختصة في مختلف تقنيات التربية وخاصة الزراعية، وتوضع تحت تصرفهم أيضا مصلحة للمساعدات الطبية والاجتماعية متعددة الخدمات وبشكل عام فإن هذه المصلحة تشجع وتنسق وتدعم كل المحاولات التي يمكنها أن تضمن التقدم الاقتصادي والاجتماعي والثقافي للجزائريين.

لقد حاولت هذه المراكز أن تلعب على وتر حساس وهو الجانب الاجتماعي عندما استهدفت الظروف المتردية التي يعيشها الجزائريون من مجاعة وحرمان خاصة في أحياء الصفيح والأرياف، وكما ذكرنا فإن هذه المصالح ركزت على جهود الحركات الشبانية خاصة أولئك المنخرطين في "جمعية الشبيبة الجزائرية من أجل العمل الاجتماعي" أين كان هؤلاء يقدمون دروسا للكبار وفحوصا طبية في الأحياء البائسة.

وفي الظروف التي كانت تعيشها الجزائر من إرهاصات الثورة التحريرية حاولت السلطات الاستعمارية استدراك ما فاتها وتعويض النقائص في ظل تزايد تعداد السكان والذي رافقه تفشي للأمية بشكل كبير جراء تقويض التعليم العربي الإسلامي واختلال التوزيع السكاني حين ارتفعت الهجرة الداخلية نحو المدن الكبرى والهجرة اتجاه المتروبول.[2]

ويمكن القول أن هذه المراكز حسب ج.تيون لا يمكن أن تكون فعالة إلا من خلال التعاون الميداني لكل النشاطات التي تهدف إلى تحسين حالة السكان في تلك الرقعة الجغرافية التي يتواجد فيها المركز الاجتماعي، ولا يمكن بمكان أن تنجح إلا

* التراخوما Trachome، أو الرمد الحبيبي هو مرض يصيب المجموعات السكانية ذات الظروف المتردية بسبب جرثومة شلاميديا Chlamydia أنظر: Larousse, Op. cit, p 1067.

1 Tillion, Op.cit, p, 166.

2 Garillon, Op.cit, pp, 13-14, 16.

بتكاتف الجهود لمجموعة من المختصين الذين يمكنهم القيام بمجموعة من الأعمال المختلفة، ومن جهة أخرى يجب على هؤلاء المرشدين أن يكونوا ذوي اطلاع كبير على الأوساط التي يتعاملون معها وهذا طبعا ليكون مردود هذه النتائج كبيرا وإيجابيا.[1]

وفي الوقت نفسه ومن منظور ج.تيون أيضا فإنه لا يمكن أن تنجح هذه الإصلاحات في مجال التعليم مثلا إلا عندما تتماشى مع أعداد السكان وهي إذن محاولة لإدخال أكبر عدد من الجزائريين في ذلك النظام التعليمي الفرنسي وإيديولوجيته الاستعمارية.

وفيما يخص المستوى المعيشي فإن تطوير الصحة إذا لم ترافقه ترقية ثقافية واقتصادية سوف يسبب اختلالا بين زيادة تعداد السكان من جهة وتناقص في الموارد من جهة أخرى، الشيء الذي يؤثر سلبا على السكان ويبقيهم دائما تحت عتبة الفاقة والفقر.

ولقد كان تعيين عدد المرشدين يتم حسب عدد السكان وفق القاعدة سبعة مرشدين لكل 6000 نسمة وثمانية مرشدين لكل 7000 نسمة وهكذا دواليك.

وتجدر الإشارة إلى أن مصلحة المراكز الاجتماعية قد ركزت على أحياء الصفيح حين تم استبدال الدروس التي تقدم في التربية الزراعية بدروس ما قبل مهنية [2] وبذلك حظي مكتب التعاون من أجل الشغل بأهمية كبيرة.

---

[1] Tillion, Op.cit, p, 167.

[2] يبدو أن تيون تغافلت عن العنصرية التي يتلقاها الجزائريون في مجال الشغل، رغم أن القانون الذي أصدره نابليون الثالث في 14 جويلية 1865 قد أباح للجزائريين نظريا تولي الوظائف الإدارية في جهاز الدولة، إلا أن قرار 27 مارس 1919 ، وكذلك قرار ديسمبر 1922 قد خصصا عددا من الوظائف الإدارية أطلق عليها اسم "وظائف السلطة" لا يمكن للجزائريين أن يتولوها، هذه الوظائف هي : كاتب عام بإدارة الحاكم العام"الولاية العامة" مستشار حكومة، نائب مستشار حكومة، مدير بالولاية العامة، عامل عمالة"محافظ"، كاتب بإدارة العمالة"المحافظة"، نائب عامل عمالة، مستشار بالعمالة، مراقب، مدير بلدية، مدير ثان بلدية ممتزجة، رئيس أول بدائرة استئناف، رئيس غرفة عالية، مستشار بالدائرة العدلية، مدعى عمومي، نائب حق عام، نائب مدعي أو نائب وكيل حق عام، رئيس محكمة ابتدائية، نائب رئيس محكمة ابتدائية، قاضي بحث، حاكم نائب، قاضي صلح، نائب قاضي صلح، مدير جامعة علمية، مراقب علمي، محافظ ومراقب مياه وغابات، قابض ضرائب عام، قابض خاص بالخزانة الجزائرية، مدير أو مراقب الجمارك، مدير أو مراقب بإدارة البريد، رئيس قسم الشرطة، مراقب شرطة السكك الحديدية والموانئ . أنظر : رابح تركي عمامرة – الشيخ عبد الحميد بن باديس – رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر- منشورات المؤسسة الوطنية للاتصال ، النشر والإشهار. الطبعة (5) 2001م ، ص 113.

وقد تم تزويد المراكز الاجتماعية بوسائل متنوعة تمكنها من تقديم التعليم بنصف الدوام للأطفال الذين بلغ سنهم ما بين الثمانية وعشر سنوات في الأقاليم التي تتواجد فيها هذه المراكز، أما عن نوع التعليم المقدم فيتلخص في أبجديات القراءة والكتابة والحساب بهدف إدماج هؤلاء الأطفال مستقبلا في عالم الشغل، لكن الشيء المريب في هذا التعليم أنه يركز على تلقين ألف كلمة باللغة الفرنسية على الأقل.

ومن هذا المنطلق يمكن لهؤلاء الأطفال الالتحاق مستقبلا بالمدارس الابتدائية حيث توضع لهم برامج خاصة حسب قدراتهم للحصول على شهادة دراسية، وبالتالي فإن هذه المراكز الاجتماعية ستقضي على المشكلة المنتشرة في الريف والتي تتمحور أساسا في عدم قبول المدارس للأطفال الذين تجاوزوا سن السادسة فهذه المدارس إذن تضمن تعليما ابتدائيا شبه كامل لبعض الأطفال المحظوظين فقط، لكن ثمة أسئلة ملحة تتبادر إلى أذهاننا وخاصة ما تعلق بالفائدة المرجوة من تعليم الجزائريين إذا كانوا لا يحصلون في النهاية على مناصب عليا في الإدارة؟

حسب ما ورد في كتاب تيون "إفريقيا تتأرجح نحو المستقبل" فإن الهدف الرئيس من هذا التعليم فيما يبدو هو خلق نخب مفرنسة وتطوير الجماهير في الوقت نفسه وفي هذا الصدد لا يمكن الوصول إلى هذا الهدف المذكور آنفا إلا بذلك الارتباط الوثيق الموجود بين المراكز الاجتماعية والمدارس الابتدائية.[1]

ونخلص إلى أن تيون فكرت في بديل لإنجاح الإستراتيجية التعليمية الاستعمارية في الجزائر من خلال المراكز الاجتماعية؛ فحين كان الجزائريون يتنقلون في السابق إلى المؤسسات التعليمية والصحية في المدن والتجمعات السكنية في الريف، إن أتيحت لهم الفرصة في ذلك، فإن إستراتجية هذه المراكز على العكس من ذلك حاولت أن تكون هي من تتنقل إلى الوسط الذي يعيش فيه السكان الجزائريون قصد التقرب منهم وتحبيب التعليم الفرنسي في أنفسهم ولإذابة الجليد بين الجزائريين والفرنسيين.[2]

1 Tillion, Op.cit, pp, 167-171.
2 Garillon, Op.cit, p, 16.

ولقد أولت جرمان تيون بصفتها عالمة أنثربولوجية اهتماما بالغا بالمراكز الاجتماعية في الجزائر وحسب الكثير من المصادر فإنها استثمرت جهودها للكفاح ضد ما أطلقت عليه "بالتشرد"[1]، غير أنه يتضح لنا عندما نحلل خلفيات هذه المراكز أنها جاءت لتهدئة الجزائريين وتعزيز العمل"السيكولوجي" النفسي فتم تخصيص ميزانيات لها أكبر من ذي قبل [2] لتطويق الثورة وعزلها عن الشعب الجزائري والذي ربما أحست السلطات الفرنسية في وقت متأخر أنه يوجد الكثير من "المبعدين" عن الرقي الاقتصادي والاجتماعي والثقافي المزعوم. [3]

مما لا ريب فيه أن الأنثربولوجيين ومنهم ج. تيون قد اكتشفوا كيفية تطوير الوسائل للاهتمام بالسكان الجزائريين "المهمشين" في نظرهم [4]، ففي تقريرها الأول الذي قدمته للحاكم العام سوستيل أشارت إلى وجوب تطبيق سياسة اقتصادية واجتماعية عادلة مدعمة بذلك بتقرير ماسبيسيول Rapport de Maspétiol[5]والذي أقر أن أكثر من مليون جزائري عاطلون عن العمل وأن 02 مليون منهم على عتبة الفقر وأن ثلاثة أرباع الجزائريين أميون.

1 Christian Bromberger, Tzvetan Todorov, Germaine tillion, une ethnologue dans le siècle, Actes sud, 2002, France, p 45.

2 عندما خلق جاك سوستيل التنظيم الجديد : المصالح الإدارية المختصة *SAS* حاول الاهتمام باللغة العربية إذ أصبحت إجبارية في المدارس الإسلامية، كما ضاعف من عددها، وقام بإصلاحات تخص المجال الزراعي والصناعي فخصصت الحومة الفرنسية آنذاك مبلغا قدر بـخمسة مليار فرنك فرنسي موجه للأشغال العمومية في المشاريع ذات الأولوية القصوى وكان سوستيل يهدف بذلك إلى وقف "جبهة الفقر" وأيضا خلق درع واق ي لسكان الأرياف لتحول دون التقائهم بالثوار أنظر: Alistair Horne, Histoire de la guerre d'Algérie, Editions Albin Michel, Paris, 1987.pp, 112-113.

3 Andrée Dore-Audibert, Des français d'Algérie dans la guerre de libération, Editions Karthala, Paris, 1995.pp 60-61.

4 Dore-Audibert, Op. cit, p, 61.

5 رولان مابيسيول Roland Maspétiol أول من ترأس الجمعية الفرنسية للاقتصاد الريفي ولد سنة 1905 وتوفي سنة 1994، مستشار دولة ومشرع واقتصادي، اهتم بالمشاكل الكولونيالية خاصة التي تهم الجزائر ترأس فرقة دراسة لمحاولة تحسين العلاقة المالية بين الجزائر والمتربول، أنظر:
Boussard Isabel. Roland Maspétiol, une figure marquante de l'Economie Rurale. In: Économie rurale. N°223, 1994. Pp.3,5.

ومن جهة أخرى وجب أن نذكر أن ج.تيون ولإنجاح هذا المشروع استعملت فرنسيين وجزائريين على غير العادة، فاتصلت بالكثير من الشخصيات الرسمية والفاعلة في مجال التعليم والعمل الجمعوي والخيري فالتقت بصالح ولد عودية في سبتمر 1955 وعرضت عليه مشروع المراكز الاجتماعية بما أنه كان معلما في إحدى مدارس حي Clos-salembier "المدنية حاليا" الذي التحق بأولى الفرق التي سيرت هذه المراكز المتواجدة بحي لارودوت la Redoute " المرادية حاليا " والذي كان بالقرب من حي الصفيح محيي الدين أين يتجمع عدد كبير من السكان الجزائريين ويعيشون أوضاعا مزرية [1]، كما طلبت ج.تيون من جهة أخرى من السيدة إيما سيرا Emma Serra[2] وضع أسس المراكز الاجتماعية مع المحافظة على مسعى التعاون مع جمعية العمال الاجتماعيين لحي حسين داي.

وحسب أمرية التأسيس فإن السلطات الاستعمارية قد فكرت في خلق مراكز اجتماعية في كل المدن الكبرى والأرياف، وأحصت التقارير وجود ما يربو عن 11 مركزا اجتماعيا في أحياء الصفيح لمدينة الجزائر سنة 1957 ثم ارتفع عددها عشية الاستقلال إلى 120 مركزا.[3]

ويبدو أن السلطات الاستعمارية الفرنسية قد سبقت العمل العسكري كخيار على الجانب الاجتماعي والتربوي، بدليل أنها أنشأت الفصائل الإدارية الخاصة الاجتماعية قبل مصلحة المراكز الاجتماعية بشهر واحد أي بتاريخ 26 سبتمبر 1955 حين أمضى ج.سوستيل القرار الذي يقضي بتأسيس هذه الفصائل والمتمثلة في SAS في الأرياف والفصائل الإدارية الحضرية في المدن SAU.

---

1 Jean-Philippe Ould Aoudia, Les Centres sociaux et la guerre d'Algérie, L'éngagement a travers la vie de Germaine Tillion, sous la direction d'Armelle Mabon et Gwendal Simon, Colloque parrainé par Simone Paris de Bollardiere et Stéphane Hessel, Editions Riveneuve, Paris, 2013, p49.

2 إيما سيرا سانشاز نائب رئيس الجمعية الوطنية للعاملات الاجتماعية وكانت عضوة في المراكز الاجتماعية في مدينة الجزائر استثمرت جهودها لخدمة سكان حي الصفيح حسين داي، بعد رفضها التعاون مع الشرطة الفرنسية تلقت أمرا بالطرد من الجزائر سنة 1957. أنظر: رشيد خطاب، الخاوة والرفاق، قاموس بيوغرافي للجزائريين ذوي الأصل الأوروبي واليهودي والحرب التحريرية الجزائرية (1954-1962) ترجمة محمد رضا بوخالفة، نسرين لولي، دار خطاب الجزائر 2012، ص ص 156-157.

3 Dore-Audibert, Op. cit, pp, 61-62.

ومهما يكن فإن المراكز الاجتماعية قد ركزت كثيرا على التعليم وكيف لا والأرقام المخيفة التي قدمتها الإدارة الاستعمارية في جويلية 1955 في مجال التعليم تثبت ضآلة أعداد الأطفال المتعلمين الجزائريين والتي قدرت بـ 15.4 % منها 4.5 % من الإناث عشية اندلاع الثورة، وكانت ج.تيون تأمل القضاء على هذا التقهقر من خلال حلول مستعجلة بعد أكثر من قرن من الاحتلال ، إذ سترتقدم هذه الهيئات خدمة تطابق التقاليد الكبرى للتربية الوطنية الفرنسية كاحترام الآراء وشرف الأشخاص[1] فهل تتلخص أهداف المراكز الاجتماعية الرئيسية في عزل الثورة عن الجماهير الشعبية الجزائرية؟

على الرغم من وضعية الجزائر البائسة بشهادة الجميع وحتى الفرنسيين أنفسهم إلا أن الكثير من التقارير الفرنسية تشير إلى أن المراكز الاجتماعية قد أجابت عن حاجة الجزائريين الملحة لتحسين أوضاعهم لكنها جاءت متأخرة أي عند اندلاع الثورة أين أصبحت هذه المطالب كذر للرماد في الأعين فهي لا تعني شيئا أمام مطلب الاستقلال[2]، رغم إيمان الكثير من مرشدي هذه المراكز بنتائجها الايجابية التي لن تكون آنية في نظرهم، وتذكر السيدة نيلي فورجي Nelly Forget –وهي إحدى المرشدات اللواتي كلفتها ج.تيون بتحرير مقال يخص المراكز الاجتماعية سنة 1992– أّنها حاورت إحدى المرشدات الجزائريات وهي شفيقة مسلم والتي كانت مقتنعة بالخيار الاستقلالي، أقرت بعدم وجود أية ضغوط من جبهة التحرير الوطني لترك عملها ضمن هذه المراكز لأن من يشتغل بمصلحة المراكز الاجتماعية لا يستثمر جهوده إلا لمحاربة بؤس أغلب الجزائريين.[3]

ولكي تصبح المراكز الاجتماعية أكثر فاعلية تم إصدار مرسوم 26 مارس 1956 الذي يقضي بإجبار المصالح العامة على توظيف الجزائريين والفرنسيين فيها ومن هذا المنطلق وبعيدا عن التفسيرات الضيقة يستدل بعض الفرنسيين على الانسجام الذي ميز بين الموظفين الجزائريين والفرنسيين، فيذكر هؤلاء على سبيل

1 Ould Aoudia, Op. cit, p, 50.
2 Jouin, et al, Op. cit. P, 76.
3 Michel Cornaton, Nelly Forget, François Marquis, La Guerre d'Algérie, Ethnologues de l'ombre et de la lumière , L'Harmattan, 2015, pp, 36-73.

المثال أن أحد الجزائريين العاملين بالمركز الاجتماعي الذي كان متواجدا بحي سيدي سالم بعنابة صرح قائلا : " لم يكن هناك إحساس بوجود أوامر سياسية، وكان الاختلاط بين الفرنسيين والجزائريين أمرا طبيعيا في هذا المركز الذي يضم ممرضة من مدينة غرونوبل الفرنسية وهي السيدة سيمون وأخرى من المرتنيك وجزائريان واثنين من الأقدام السوداء في القسم التقني وجزائريان يقومان بالتدريس ويتكفل هؤلاء بزهاء 150 شخصا". [1] ومن الوسائل الأخرى التي أدت إلى إنجاح هذه المراكز حسب بعض الفرنسيين هي استخدام متعاونين من المتروبول كعمال اجتماعيين وبيداغوجيين، أو طلبة متطوعين يتم التعاقد معهم لمدة شهر أو شهرين مقابل أجرة. [2]

ركزت جرمان تيون على تعليم الجزائريين وكانت ترى من وجهة نظر أنثربولوجية أنه وحده تضافر الجهود المنسق والمكثف يمكن من تحسين أوضاعهم المعيشية ويمكنهم من مواجهة متطلبات الحضارة التي جاءت إلى بلادهم، وتخلص إلى أن هذه الحالة لم تكن خاصة بالجزائر فحسب، بل إن كل المجتمعات البدائية أو العتيقة Archaïque التي واجهت تغلغل العالم المتحضر قد عرفت الحالة نفسها ونتج عن هذه العلاقة فقر مدقع [3]، لكن هذا التصور يبقى تصورا إيديولوجيا لأن تيون تتغافل عن الأسباب الاستعمارية في هذا التقهقر الذي هو نتيجة حتمية لاستغلال المستعمِر للمستعمَر.

وإذا ما رجعنا إلى توزيع هذه المراكز إقليميا خلال الفترة الاستعمارية فإننا نجد أن هدف هذه المشاريع لا يعدو أن يكون تطويقا للثورة وإعادة تأطير الأقاليم في الجزائر كرد من السلطات الاستعمارية الفرنسية. [4]

وتشهد على ذلك جريدة المجاهد حيث بينت أن هناك عدة محاولات استعمارية لكسب الشعب واستمالته وذلك لفصله عن جيش التحرير وأهمها:

1 Dore-Audibert, Op. cit, p 62.
2 Deblé, Op. cit, p, 160.
3 Wood, Op.cit, pp, 175-176.
4 Sacriste, Op.cit, p, 58.

تشغيل الشباب في المدن في مراكز التكوين المهني التي يجند فيها الشبان بالقوة بهدف خلق جنود أو قومية أو لخلق القوة الثالثة وقطع موارد التجنيد عن جيش التحرير الوطني.[1]

ج- صدى المراكز الاجتماعية في الجزائر 1957-1962 :

بصدور قرار 30 جويلية 1957 أصبح مدراء المراكز الاجتماعية تحت إشراف عميد أكاديمية الجزائر ومن هذا المنطلق وجب على هذه المراكز تكثيف جهودها على التعليم أكثر من المجالات الأخرى، فأصبح يطلق عليها اسم المراكز الاجتماعية التربوية، فهل لهذا التحول تأثير على هذه الهيئات لتصبح مكانا للتأطير الإيديولوجي؟[2]

تعرضت المراكز الاجتماعية لاعتداءات متكررة في السنوات 1957 و 1959 و1960 وسنة 1962، وتذكر بعض المصادر أن هذه المراكز دفعت ثمن تحدياتها للواقع الذي كانت تعيشه الجزائر خلال الثورة التحريرية وابتداء من سنة 1956 لقي معلمو هذه المصالح تعنيفا من مظليي الفرقة العاشرة وعرف 15 عضوا ممن ينتسبون لسلك التربية الوطنية من رجال ونساء فرنسيين وجزائريين توقيفات عشوائية وحجز وتعذيب بالكهرباء، ويبدو أن محاولة إقامة نظام يراقب كل حيثيات ما يحدث خلال الثورة نتجت عنه عمليات قمعية ضد الجزائريين الأبرياء صغارا وكبارا ولم تسلم مصالح المراكز الاجتماعية أيضا من هذا التنكيل، إذ تحصي بعض التقارير أن 13 % من موظفي هذه المراكز قد تعرضوا لهذا التعسف المشين من طرف أفراد

[1] المجاهد: سير المعركة في الشمال القسنطيني العدد 65/ 04 أفريل 1960.

2 Forget, les services, Op.cit, p, 43.

الجيش الذين كانوا تحت إمرة [1] الجنرال "ماسو Massu"[*] والذي كان يتخذ فيلا سيزيني[**] مقرا له للتعذيب.

وبالعودة إلى الكثير من الوثائق نجد تأكيد عضوية جرمان تيون في الوفد التابع "للجنة الدولية لمحاربة الأنظمة الإعتقالية" حيث خول لها هذا الانتساب التحقيق في الكثير من الاغتيالات التي تعرض لها الجزائريون، ومن الأعمال الشنيعة التي حققت فيها جرمان تيون وكان لها صدى كبير في تلك الفترة حول ما لاقته هذه المراكز الاجتماعية من قمع ما تعرض له الشاب محي الدين الذي كان سنه لا يتجاوز الستة عشر سنة والذي قتل غيلة لا لشيء إلا لأن أخته "شفيقة مسلم" نددت بما تعرضت له من تعذيب من طرف المظليين لأنها كانت منضوية تحت المراكز الاجتماعية. [2]

وتذكر تيون في كتابها "معركة حرب وسلم Combats de guerre et de paix" أن أول اعتقال مس أحد أعضاء هذه المراكز عرفته أحد السويسريات المساندة للثورة الجزائرية رغم أن نشاطها المساند كان يتم خارج هذه المراكز، والحقيقة أنه وباشتداد الثورة التحريرية وانتقالها إلى المدن خاصة الجزائر العاصمة أصبح كل الجزائريين مشبوهين، وتعدى الأمر إلى كل من يوظفهم أو يحتك بهم. [3]

ومن المشاكل التي تعرضت لها المراكز الاجتماعية مقتل العديد من المرشدين كمقتل أحد الجزائريين سنة 1957 الذي كان تابعا لمركز حي محيي الدين باسطا في تصفية حسابات بين الحركة الوطنية الجزائرية (M.N.A) وجبهة التحرير الوطني

---

1 Ould Aoudia, Op.cit. P, 50-51.

[*] ماسو جاك Général Jacque Massu قائد الفرقة العاشرة للمظليين تقلد في 1 ديسمبر 1956 قيادة الوحدات الثلاث للجيش الفرنسي في الجزائر اشتهر بقمعه الوحشي للثورة متهم بارتكاب جرائم حرب ضد الإنسانية ، انتخب على رأس لجنة الخلاص الوطني والتي لقي دعما منها لتوسيع عمليات القمع النفسي أنظر: شرفي المرجع السابق، ص ص 304-305. وأنظر أيضا: Jacques Valette, La Guerre d'Algérie du général Salan, les presses de Corlet imprimeur SA, Octobre, 2008, France, pp, 08,76.

[**] فيلا سوزيني Villa susini بناية تقع في أعالي الجزائر العاصمة أصبحت تمثل مكانا للتعذيب قتل فيه العديد من الجزائريين المجاهدين أنظر: شرفي المرجع السابق، 269.

2 Ould Aoudia, Op.cit, p 52.

3 Germaine Tillion, Combats de guerre et de paix, Editions du Seuil, Paris, 2007.p 258.

وفي آوت سنة 1958 تم اغتيال السيد Gérard Wohlart الذي كان يشغل منصب مدير مساعد للمركز الاجتماعي ببوقرة Rovigo بالبليدة.[1]

بعد مغادرة جاك سوستيل الحكومة العامة بالجزائر سمحت الإدارة الاستعمارية الفرنسية ببقاء جزء من المراكز الاجتماعية خاصة بعد 7 جانفي 1957 عندما منحت الحكومة الفرنسية كامل الصلاحيات للجيش والشرطة في مدينة الجزائر والتي كانت منزعجة ومستاءة من نجاح هذه المصالح المشبوهة بدعم جبهة التحرير خاصة لما احتجت على سياسية القمع والتعذيب التي مارستها السلطة الفرنسية، ففي نشرية سرية أصدرها الجنرال ماسو بتاريخ 10 مارس 1957، أعلن نيته في حل المراكز الاجتماعية من أجل "إعطاء إنذار لبعض الأوساط الأوربية التي جعلت من عملها الخيري ترجمة مسيئة للوطنية".

أما تقارير الشرطة فكانت واضحة في هذا الصدد، " أين تتواجد هذه المراكز يوجد صنف من "التقدميين اللائكين" أو "الطوائف النشطة" التي تجسد التواطؤ القائم بين جبهة التحرير الوطني وبعض الأوربيين الجزائريين".[2]

ونتيجة لهذا تضاعفت الاعتقالات لتبلغ عشرين اعتقالا نهاية شهر ماي وبداية شهر جوان سنة 1959، أرجعها البعض إلى تغلغل أعضاء من جبهة التحرير الوطني في هذه المراكز.[3] وفي هذا الشأن كتبت جريدة صدى الجزائر L'Echo d'Alger الصادرة بتاريخ 10 جويلية 1959 : "استطاعت السلطات الفرنسية القضاء على خلية تابعة لجبهة التحرير الوطني مسيرة من المتربول هذه الخلية التي ضاعفت نشاطها في المراكز الاجتماعية لناحية الجزائر" وأضافت "أنه تم توقيف 802 شخص وحجز أسلحة وتم اكتشاف ورشة لصناعة القنابل"[4] واتهم أفراد هذه المراكز بتحويل الأدوية لصالح جبهة التحرير الوطني، والحقيقة أن عدد المعتقلين لم يتجاوز حتى الثلاثين شخصا ولم يكن هناك حجز للأسلحة ولا ورشة لصناعة

1 Deblé, Op.cit, p 162.
2 Dore-Audibert, Op. cit, pp, 65-66.
3 Deblé, Op.cit, p, 162.
4 Ould Aoudia, Op. cit, p, 53.

القنابل.[1] وفندت ذلك جريدة لوموند Le Monde الصادرة بتاريخ 28 جويلية 1959 إذ كتبت : " ثلاثة مسلمين متهمين بتحويل الأدوية لصالح جبهة التحرير الوطني أدينوا من طرف قاضي التحقيق بتهمة المساس بالأمن الداخلي القومي وتكوين عصابة أشرار ويتعلق الأمر بالأشخاص الآتية أسماؤهم: السرهام بلقاسم بن محمد أربعة وأربعين عاما بائع خضر في مدينة تيبازة كان يزود الثوار بالأدوية، الألبسة العسكرية والقرطاسية وينقلها بواسطة شاحنته، أما الثاني فيدعى آيت مصباح، طالب يبلغ اثنان وعشرين سنة عون اتصال، والصغير ثلاثة وعشرون عاما يشتغل كمرشد في المركز الاجتماعي لمدينة بوقرة وهو وسيط لنقل الأدوية وعون اتصال بين أعضاء المنظمة" [2]، وفي اليوم الموالي بتاريخ 29 جويلية 1959 وبنفس العنوان السابق أردفت لوموند كاتبة : "وجود شخص رابع المدعو قرين أحمد يشتغل حلوانيا لعب دورا أقل أهمية في عملية التحويل المزعومة لذلك وضع تحت السراح المشروط".[3]

لكن في العدد الذي صدر بتاريخ 30 جويلية 1959 من الجريدة نفسها ارتفع عدد الموقوفين إلى ستة تم سجن أربعة منهم وأطلاق سراح اثنين، وبناء على ما جاء في "جريدة الجزائر Le Journal d'Alger " فإنه من أصل خمسة وعشرين متورطا في قضية تحويل الأدوية إلى جبهة التحرير الوطني التي تسميها بعض اليوميات "بقضية المراكز الاجتماعية" فإن ثمانية فقط ينتمون إلى هذه المصلحة سجن خمسة منهم والباقي تم إطلاق سراحهم.[4]

وكان من تداعيات هذه القضية إقالة شارل آغاس Ch.Aguesse من منصبه في اليوم الموالي وأجبر على مغادرة الجزائر نحو فرنسا لكنه رد على صحيفة " Sud-Ouest جنوب غرب" الصادرة بتاريخ 28 جويلية 1959 التي كتبت عن اختراق

1 Ould Aoudia, Op. cit, p, 53.
2 Le Monde, 28/07/1959, Les détournements de medicaments au profit du FLN.
3 Le Monde, 29/07/1959. Les détournements de medicaments au profit du FLN,
4 Le Monde, 30/07/1959.L'affaire de détournements de médicaments au profit du F.L.N.

جبهة التحرير الوطني للمراكز الاجتماعية قائلا: إن توظيف الأعضاء يخضع لقوانين الوظيفة العمومية ويخضع المترشحون لتحقيق إداري" وأن عدد الموقوفين يمثل 1 % من الموظفين المسلمين وقد تم تضخيم قضية المراكز الاجتماعية لأسباب مجهولة".[1]

وتؤكد ج. تيون أن الأسباب التي عجلت بإقالة شارل آغاس هي رفضه أن تتحول المراكز الاجتماعية إلى وسيلة للدعاية في يد الشرطة والجيش الفرنسي الشيء الذي اكسبه عداء السلطات الفرنسية[2]، ومؤكدة كذلك أن السلطات الفرنسية هي التي شكلت خلية من العملاء شبيهة بجبهة التحرير الوطني وسهلت انضمامها إلى المراكز الاجتماعية بهدف اختراق جبهة التحرير الوطني.[3]

وليس بعيدا عن هذا السياق تشير بعض الشهادات أن بعضا ممن كانوا ينتمون إلى المصالح الإدارية الخاصة تم تحويلهم إلى المراكز الاجتماعية وكانت مهمتهم تتلخص في تنظيم الأطفال في كل الأحياء الفقيرة إناثا وذكورا، خاصة أولئك الذين لا يملكون هياكل مدرسية أو عائلية وكانت تسطر لهم مخيمات صيفية باتجاه المتروبول أو تنظم لهم نشاطات في عين المكان.[4]

وتدل هذه المغالطات على العمل النفسي الذي أوكل إلى ذلك الجهاز الذي أطلق عليه "المكتب الخامس 5éme Bureau"[*] التابع للجيش الفرنسي والذي كان يمارس حربا نفسية من خلال الكثير من الوسائل ومنها الصحافة، رغم أن القضاء الفرنسي برأ المعتقلين التابعين لهذه المراكز إلا أن الكثير من أفراد الجيش الفرنسي لم يستسغ

1 Deblé, Op. cit, p, 163.
2 Tillion, Combats, Op.cit, p, 264.
3 Ibid. pp, 259-260.
4 Dore-Audibert, Op. cit, pp,63-64.

[*] هو المكتب الذي تأسس في1 مارس 1955 خلفا للمكتب الجهوي للنشاط النفسي، ويرجع مقترح هذا التأسيس إلى النقيب غي كانيو "Guy Caniot" والذي كان تابعا لمصلحة الحرب النفسية في الهند الصينية والذي أشار إلى ضرورة اتباع نشاط نفسي في أقرب الآجال بالجزائر، أنظر: Marie-Catherine et Paul Villatoux, Le 5éme Bureau en Algérie, in Militaires et guérilla dans la guerre d'Algérie, Act du colloque de Montpellier des 5et 6 mai 2000, Editions Complexe, 2001, p 400.

هذه الأحكام وكان البعض منهم يصرح علنا: " إن المراكز الاجتماعية عموما إرهابية".[1]

وجراء هذه التصريحات نددت تيون في جريدة الديمقراطية الصادرة بتاريخ 12 جويلية 1960 قائلة:" عملية تثير الغرابة ويظهر أنها لم تكن تستهدف جبهة التحرير الوطني فحسب بل استهدفت حتى مصالح التربية الوطنية الوفية لتقاليد الديمقراطية الفرنسية والتي رفضت أن تشارك وضع الجزائريين تحت الحرية المشروطة".[2]

وبالنسبة لأفراد المنظمة السرية ومن بينهم "إيف قودار Yves Godard" الذي كان يتقلد منصب مدير أمن مدينة الجزائر في تلك الفترة والذي أصبح من أخطر مسؤولي منظمة الجيش السري OAS " بين سنتي 1961-1962 فإن جبهة التحرير الوطني والمراكز الاجتماعية تمثل في نظره شيئا واحدا ففي كتاب صدر له سنة 1971 صنف المراكز الاجتماعية كثالث هيئة عليا تابعة لجبهة التحرير بعد لجنة التنسيق والتنفيذ.[3]

ولعل مشاركة الكثير من "المسيحيين الليبراليين" في المراكز الاجتماعية بدعوى خدمة المسيحية هو الذي أدى إلى احتقان الغضب لدى الأقدام السوداء على هذه المصالح وعلى الكثير من الأساقفة كالأب " جون سكوتو *Jean Scotto"[4] الذي أقر أنه يجب أن تساهم الكنيسة بطريقتها الخاصة من أجل استقلال الجزائر فهو الذي صرح قائلا : " أقولها بصوت عال: أكره OAS ليس لأنها قتلت الجزائريين فحسب بل لأنها قتلت قلب قومي الأقدام السوداء" القوم الذين أنتمي إليهم".[5]

---

1 Ould Aoudia, Op.cit, p, 53.

2 Ould Aoudia, Op.cit, pp, 53-54.

3 Ibid, p, 52.

* جون سكوتو *Jean Scotto* 1913-1993 ولد بالجزائر العاصمة من عائلة ايطالية الأصل تعلم تعلما مسيحيا وتم تعيينه كاهنا سنة 1939 انضم إلى الجيش الفرنسي وشارك في إنزال الحلفاء في منطقة بروفانس بالجنوب الفرنسي سنة 1944 وبفضل علاقاته مع بعض المسيحيين الملتزمين من أجل القضية الجزائرية اتصل ببعض قادة الثورة، وفي بداية الثورة قام بإخفاء صالح لوانشي وسبب موقفة الاستقلالي للجزائر مشاكل مع السلطات العسكرية الفرنسية ومع الأقدام السوداء ومنظمة الجيش السري A.O.S، أنظر: خطاب، المرجع السابق، ص 154.

4 Dore-Audibert, Op.cit, pp, 63-64.

5 Pierre-Louis Fort,Christiane Chaulet-Achour, La France et l'Algérie en 1962, De l'histoire aux représentations textuelle d'une fin de guerre, Editions Karthala, 2014, p, 191.

وإلى جانب ما قامت به منظمة الجيش السري من أعمال تخص الحرب النفسية فإنها ضاعفت من عملية مضايقة ومهاجمة المراكز الاجتماعية والتربوية، وقد حاول الضباط السامون التابعون للقسمة العاشرة للمظليين الذين شكلوا أعمدة منظمة الجيش السري تشويه وزعزعة استقرار هذه المراكز، فاستغل العقيد "جون قارد Jean Garde"* التابع للمكتب الخامس الأحداث المعروفة بحادثة "الحواجز" أو"المتاريس" [1] ليصرح أمام المحكمة العليا بالجزائر قائلا:" كان هناك مناورة من طرف المراكز الاجتماعية التربوية المليئة بعملاء هم أعضاء من جبهة التحرير الوطني... إن اختراق جبهة التحرير جاء من مراكز الاعتقال أين يوجد رجال اعتبروا خطرين". [2]

واعتبارا لمختلف هذه التصريحات التي أدلى بها ضباط الجيش الفرنسي سواء أكانوا تابعين لمنظمة الجيش السري أو غيرهم، فإن الكثير من الفرنسيين التابعين للمراكز الاجتماعية الذين تعاونوا مع جبهة التحرير الوطني والذين كانوا مقتنعين بعدالة القضية عذبوا ومن بين هؤلاء نذكر: آني ستينر Annie Steiner التي ولدت بالجزائر سنة 1928 من أصول ايطالية أنظمت إلى المراكز الاجتماعية منذ البداية أي سنة 1955، اعتقلت لمدة خمس سنوات وتم إطلاق سراحها سنة 1961[3] وأيضا هيلين راتيل قوترون Hélène Ratel-Gautron التي ولدت بالجزائر ابنة أحد الضباط الفرنسيين وبحكم صداقتها مع الكثير من الجزائريين الذين أصبحوا أعضاء في الحزب الشيوعي الجزائري وجبهة التحرير الوطني وضعت بيتها لإيوائهم وعقد اجتماعاتهم، ثم قبلت أن تكون عون اتصال لجبهة التحرير قبل أن تصبح هيلين مساعدة تنفيذية في المراكز الاجتماعية، تم توقيفها بتاريخ 21 فيفري 1957

* جون قارد عقيد، Jean Garde ولد سنة 1914، من أعضاء منظمة الجيش السري أنشأ فرعا لهذه المنظمة بمنطقة الونشريس أنظر: شرفي المرجع السابق، ص ص، 272-273

1 محاكمة المتاريس Le procès des Barricades وهي حواجز أقامها غلاة الجزائر الفرنسية في مدينة الجزائر ضد السلطة امتدت شرارتها من المتروبول بتواطئ من الجيش وبتاريخ 24 جانفي 1960 حاولت 15 سرية من الدرك إعادة النظام فتم إطلاق النار عليها من طرف بعض القناصة وأدى إلى مقتل 14 دركي أنظر: شرفي، المرجع نفسه، ص ص 309-310.

2 Ould aoudia, Op.cit. pp, 54-55.

3 Dore-Audibert, Op.cit, p, 67.

من طرف المظليين التابعين للفوج الأول وعلى الرغم من كون أبيها ضابطا إلا أنها لم تسلم من التعذيب في فيلا سيزيني. [1]

وبالإضافة إلى هؤلاء يمكن إضافة السيدة نيلي فورجي Nelly Forget التي جاءت إلى الجزائر ولم يتجاوز سنها 20 سنة كمبعوثة من طرف مصلحة الخدمة المدنية الدولية SCI وانضمت للمراكز الاجتماعية كمساعدة اجتماعية، وكانت من بين الذين عملوا على تقوية هذه المصالح خاصة في جانب تعليم البنات، تم توقيفها في 5 مارس 1957 من طرف الكتيبة الأولى للمظليين الأجانب وتم تعذيبها أيضا في فيلا سيزيني. [2]

ونشير أيضا إلى المؤرخ محفوظ قداش والذي كان أستاذا في الثانوية والذي تم توظيفه في مركز تكوين التربية القاعدية، نظرا لمؤهلاته ودرايته وخبرته في الحركات الشبانية والذي كان له أيضا اهتمام واسع بالتعليم القاعدي وخلال مقابلة التوظيف أمام عميد أكاديمية الجزائر لم يخفي م.قداش قناعته الوطنية لكنه تعهد أمام هذا الأخير أن لا يمزج بين السياسة ووظيفته. [3]

يتضح من خلال ما ذكرناه سابقا وجود علاقة بين أعضاء المراكز الاجتماعية وجبهة التحرير الوطني، ويعد هذا الطرح صحيحا إلى حد بعيد ولكن ثمة اختلاف كبير بين الأهداف المتوقعة والنتائج وبمعنى آخر فإن هذه المصالح وضعت لأغراض محددة ولكن نتائجها جاءت عكسية لكل توقعات السلطة الاستعمارية ويكفي أن نشير إلى ما أدلى به جون قارد أمام العدالة فهو تصريح علني فحواه: "إن لم تدن العدالة أعضاء المراكز الاجتماعية المتواطئين مع جبهة التحرير الوطني فلا ذنب لمناصري ومدافعي الجزائر الفرنسية الغلاة".

ففي هذا التصريح إقرار بضرورة إعادة هذه المصالح إلى خدمة الأهداف التي وضعت من أجلها، أي تطويق الثورة أو ربما توقيفها بشكل نهائي بخاصة عندما أبدى الكثير من أعضائها عدم قبول تعاونهم مع السلطات الفرنسية، فقد أكد الجنرال ماسو أيضا عندما صرح قائلا:" كانت المراكز الاجتماعية موبوءة رغم أنها قامت

1 خطاب، المرجع السابق، ص 129.

2 Dore-Audibert, Op. cit, p, 70.

3 Jouin, et al, Op. cit. P, 155.

بأعمال... وحاولت ما باستطاعتي لتنقيتها دون تكسيرها لكن لم أجد مساعدة من الأكاديمية من طرف شارل آغاس...".

والحقيقة أن منظمة الجيش السري قد عملت على الانتقام من المراكز الاجتماعية لأنها كانت تقدم خدمات للجزائريين على الرغم من أن مسؤولي هذه الأخيرة قد صرحوا علنا أن هذه الهيئات محايدة لا تتدخل في السياسة ككل هيئات التعليم، وقد صرح عميد أكاديمية الجزائر آنذاك قائلا:" هناك بعض الضباط المرتبطين بالمكتب النفسي للجيش مستاؤون من عدم التحكم في المراكز الاجتماعية ومراقبتها " [1]، لكن كان الأمر مقضيا في هذا الصدد فقد صرح العقيد جون قارد قائلا من مكتبه:" لا شخص يجهل أن المراكز الاجتماعية قد أصبحت حثالة"، وتكون هذه التصريحات بمثابة رخصة لارتكاب جرائم ستعرفها الجزائر وهذه المصالح [2]. وكانت حادثة اغتيال مرشدي المراكز الاجتماعية الست أهمها.

د- حادثة اغتيال ستة مرشدين بالمركز الاجتماعي بحي الأبيار :

اعتبر هذا الحادث أهم النكسات التي عرفتها هذه المراكز الاجتماعية التي كانت محل انتقاد من المعمرين وهجوم من العسكريين لأنها حسب تعبير العقيد لاقارد "وسيلة هامة للاتصال مع السكان" [3] وبذلك أمست مسألة تصفية المراكز الاجتماعية قضية وقت فقط، فالأوضاع الحرجة التي عرفتها المتربول وتخبطها في الأزمات بسبب نجاح جبهة التحرير الوطني في الجزائر وفي الخارج على الصعيد العسكري والدبلوماسي كان عاملا ساهم في تفاقم الأعمال الإرهابية لغلاة الجزائر الفرنسية [4] كآخر الحلول وأقصاها.

وأرادت منظمة الجيش السري من خلال هذه الأعمال الدنيئة أن تؤكد للجميع أنها تتحكم في مقاليد السلطة في الجزائر، فتخمرت عند الكثير من العسكريين فكرة الرد

---

1 Jouin, et al, Op.cit. P, 111.

2 Ould Aoudia, Op.cit. p 55.

3 Le Monde: 13/12/1960. "Le colonel Gardes parle de l'encadrement des centres sociaux en Algérie."

4 محمد العربي الزبيري، تاريخ الجزائر المعاصر، (1954-1962) دراسة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ج2، 1999. ص، 147.

على ما أطلق عليه "الإرهاب" الذي مارسه الجزائريون على الأوربيين بإرهاب آخر وكان دعم الأقدام السوداء لهذه المنظمة محاولة منهم للبقاء في الجزائر بأية وسيلة والضغط على السلطة في فرنسا لتغيير سياستها وتغيير موقفها إزاء التفاوض مع الجزائريين.[1]

فمصطلح بقاء الجزائر فرنسية هو مبهم خاصة أن المنظمة الخاصة والكثير من المعمرين يريدون بقاء الجزائر مستعمرة فذة فلا هي جزائر جزائرية تطبق فيها القوانين العربية الإسلامية ولا هي جزائر فرنسية تطبق فيها القرارات السياسية سارية المفعول في المتروبول، وبالتالي فإن بقاء الجزائريين مصنفين في درجة ثانية بعد المعمرين أمر محتوم.[2]

نصت الأمرية رقم 29 المؤرخة بتاريخ 25 فيفري 1962 والتي تحمل عبارة "سري للغاية" التي أصدرها الجنرال راوول سالان Raoul Salan* والذي كان يتقلد منصب القائد الأعلى لمنظمة الجيش السري على : "وجوب مهاجمة الشخصيات المثقفة المسلمة...كلما أصبح الواحد منهم محل شبهة، أي متعاطف مع جبهة التحرير الوطني وجب قتله"[3]. ونكاد نتأكد حسب هذا التصريح أن السلطات العسكرية الفرنسية أرادت أن تحطم كل هيئة تنافس أو تقوض مصالح الفرنسيين في الجزائر من خلال استهداف شخصيات فاعلة في الجزائر لعرقلة مفاوضات إيفيان التي كانت على أشدها في تلك الفترة.

ففي صبيحة الخامس عشر من مارس 1962 تمت مهاجمة المركز الاجتماعي المتواجد ببن عكنون التابع لحي الأبيار أين كان يجتمع ستة مسؤولين

1 Jean Philipe Ould Aoudia, L'assassinat de Château Royale Alger: 15 Mars 1962, Editions, Tirésias, Michel Reynaud, Paris, 1992. p 90.

2 Ould Aoudia, L'assassinat, Op. cit, pp 90-91.

* راوول سالان ولد سنة 1899 جنرال فرنسي كان قائد الجيش الفرنسي الأعلى في الجزائر ما بين سنة 1956 إلى ديسمبر 1958 ومن مؤسسي المنظمة العسكرية السرية وتستر على جميع الجرائم التي كان يقوم بها الجيش الفرنسي توفي سنة 1984، أنظر شرفي، ص ص، 190-191.

3 Ould Aoudia, Les Centres, Op.cit. p56.

عن المراكز الاجتماعية التربوية وهم: مولود فرعون [**] وعلي حموتان، كانا يشتغلان كمديرين مساعدين، وصالح ولد عودية وروبير أيمار يشتغلان كمفتشين للمراكز الاجتماعية، ماكس مارشون الذي كان رئيس مركز اجتماعي ومدير أكاديمية الجزائر سابقا، ومارسيل باسيه مدير مركز تكوين [1]، أين توقفت سيارتان ونزل منهما أفراد مسلحون من الكومندوس التابعين لمنظمة الجيش السري وقاموا باقتحام هذا المركز وأخرجوا هؤلاء المجتمعين إلى فنائه وتم إطلاق النار عليهم بدأ من الأرجل ثم الجسد

وتدل التقارير أنه تم التحضير لهذه العملية بدقة فقبل إطلاق النار أخرج أحد الضباط المشاركين في هذه العملية قائمة تحتوي على أسماء المغتالين الستة وكان أحدهم غائبا لتعذر وصوله في الوقت المحدد لهذا الاجتماع.[2]

وتجدر الإشارة إلى أن السلطات الاستعمارية الفرنسية تكتمت على هذه القضية وحاول بعض المؤرخين إيجاد مبررات مقنعة لها، وحسب ما جاء في بعض التقارير فقد اقترح على مولود فرعون وعلي حموتان أن يديرا مصلحة تكوين الشباب الجزائري SFJA التي كانت تابعة للجيش الفرنسي والمراكز الاجتماعية التربوية معا لكنهما رفضا ذلك، كما تؤكد هذه التقارير محاولة السلطة الفرنسية وضع مصلحة المراكز الاجتماعية تحت سلطة الجيش منذ نشأتها الأولى لكنها لاقت رفضا من طرف جميع أعضائها بدء من جرمان تيون بحجة أن تبعيتها للجيش سيوصد باب الانضمام أمام الإطارات الجزائرية.[3]

[**] مولود فرعون كاتب جزائري ولد سنة 1913 بمنطقة تيزي هيبل بتيزي وزو واسمه الحقيقي هو آيت شعبان لكن تم تغييره إلى لقب فرعون من طرف ضباط الشؤون الأهلية بعد ثورة 1871 من عائلة فلاحية فقيرة، درس الابتدائي في تيزي وزو ثم التحق بالمدرسة النورمالية ببوزريعة لتكوين الأساتذة وكان سنه يناهز 19 سنة وعند تخرجه منها مارس مهنة التعليم في منطقته وأصبح بعد مشوار في التدريس مديرا لمدرسة الناظور بحي المدنية بالجزائر العاصمة، وانضم إلى مصلحة المراكز الاجتماعية سنة 1960 وأصبح مفتشا فيها مكلفا بالتربية الزراعية في المصلحة المركزية، تم اغتياله بتاريخ 15مارس 1962 من طرف منظمة الجيش السري، له العديد من الروايات أهمها: " ابن الفقير" وهي ترجمة ذاتية له ورواية "الدروب الوعرة" "الأرض والدم" ...إلخ، أنظر: مولود فرعون، ابن الفقير، ترجمة نسرين شكري، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، الطبعة الأولى، 2014، ص ص 9-10. أنظر أيضا شرفي المرجع السابق، ص ص، 260-261.

1 Sylvie Thénault, Mouloud Feraoun, Un écrivain dans la guerre d'Algérie, In: Vingtième Siècle, revue d'histoire, n°63, juillet septembre 1999. p 71.

2 Lacouture, Op. cit. pp 256-257.

3 Ould Aoudia, L'assassinat, Op. cit, pp 95-96.

وعلقت جرمان تيون على الاغتيال في "جريدة العالم Le monde" قائلة: " أنه الغباء، الغباء الوحشي الذي قتله عمدا ببرودة ...هذا الرجل الذي لم يسبق أن آذى شخصا وهو الذي كرس حياته من أجل الصالح العام، كان واحدا من أعظم الكتاب في الجزائر، اغتيل ... ليس من قبيل الصدفة، وليس عن طريق الخطأ، لأنه دعي باسمه... فبين مولود فرعون الذي ولد في القبائل الكبرى وماكس مارشون دكتور في الأدب والذي تبنته مدينة وهران ومارسيل باسيه الذي جاء من البادي كاليه وروبير إيمار من منطقة دروم، والكاثوليكي المتدين صالح ولد عودية، والمسلم علي حموتان شغف مشترك: هو إنقاذ أطفال الجزائر لأن هذا هو هدفهم والهدف من المراكز الاجتماعية : السماح لبلد بأكمله وبفضل شبابه بتدارك التأخر التقني الذي يطلق عليه اسم " التخلف " أو بلغة أبسط تعني: الحياة".[1]

لقد استنكرت ج.تيون والكثير من الفرنسيين هذا العمل الإجرامي وتأسف الكثير لمقتل مولود فرعون وزملائه أثناء تأدية واجبهم وهو التعليم فخصصت وزارة التعليم يوم 19 مارس 1962 في كل المدارس دقيقة صمت وتأبينية لهؤلاء القتلى.[2]

ورغم الصدى الكبير لهذا الحادث في صحافة الجزائر وفرنسا والذي تناقلته معظم وسائل الإعلام إلا أنه لم تتم معاقبة الجناة وبدل ذلك قامت السلطات الفرنسية في المتروبول ببناء مقامات تخلد أعمالهم.[3]

وصرحت ج.تيون بتاريخ 3 أكتوبر 2003 قائلة: " من كل الأشياء التي قمت بها في حياتي والتي تشد إلى قلبي كثيرا هو إنشاء المراكز الاجتماعية في الجزائر... كانت تعمل من أجل الخير الذي لم يكن يعارض أي شيء، خير خلاق لا هدام".[4]

ويتبين لنا أن ج.تيون عولت كثيرا على المراكز الاجتماعية لإيجاد مخرج مناسب وفق تصورها الأنثروبولوجي للثورة أو ما تسميه "بالمشكل الجزائري" من خلال خلق

---

1 Le Monde: 19/03/1962. "La bêtise qui froidement assassine"

2 Ibid.

3 Ould Aoudia, Les Centres, Op. cit, p, 57.

4 Nelly Forget, L'engagement de Germaine Tillion dans le service des centres sociaux en Algérie, L'éngagement a travers la vie de Germaine Tillion, sous la direction d'Armelle Mabon et Gwendal Simon, Colloque parrainé par Simone Paris de Bollardiere et Stéphane Hessel, Editions Riveneuve, Paris, 2013, p 37.

أرضية جديدة يتعايش فيها الجزائريون والأوربيون في وفاق دون عنف، وقد كان إنشاء هذه المراكز وسيلة سمحت لتيون أن تنتقل من الجانب النظري إلى الجانب الميداني من الإثنوغرافيا إلى الأنثربولوجيا والعمل في الميدان.[1]

والحقيقة أن تيون قد مثلت بالإضافة إلى فانسون مونتاي ما أطلق عليه بالجناح الليبرالي لديوان سوستيل أو حسب تعبير الكاتب اليستر هورن Alistair Horne "بالوعي الليبرالي"[2] أو "الواجهة الإنسانية" لجاك سوستيل ومثلت مصلحة المراكز الاجتماعية في سياقها الإصلاحي محاولة لخنق المسائل السياسية من خلال العمل الاجتماعي.[3]

ومهما يكن من أمر فإن هذه الاغتيالا ت التي قامت بها منظمة الجيش السري خرجت عن إطار الحرب النفسية التي تم العمل بها منذ بداية الثورة وكان المجال التربوي والتعليمي مستهدفا بهذه الحرب إلى حد بعيد .[4]

1 Sacriste, Op. cit, p 65.

2 Horne Alistair, Histoire de la guerre d'Algérie, Editions Albin Michel, Paris, 1987, 114.

3 Sacriste, Op.cit, pp, 63-64.

4 SHAT GR 1H 2409.(Message d’action psychologique),(La lute contre le terrorisme a Alger et dans les grands centres urbains),(instruction proviso ire sur lemplois de l’arme psychologique)…

المبحث الثالث: المجتمع الجزائري في كتاب جرمان تيون "الجزائر سنة 1957" L'Algérie en 1957":

عشية مغادرة جاك سوستيل الحكومة العامة بالجزائر بتاريخ 02 فيفري 1956 وتثبيت الحاكم الجديد روبير لاكوست * قامت تيون بمهمة لمدة ثلاثة أشهر في الصحراء بمنطقة التوارق لدراسة إمكانية وجود صلات أنثروبولوجية بين التوارق وقبائل الشاوية، ثم انتقلت إلى باريس في ماي 1956 بعد أن تركت تسيير المراكز الاجتماعية في يد شارل آغاس وفريقه [1]، لتصدر كتابا أحدث ضجة في الوسط الفرنسي.

أ -دواعي تأليف وإصدار كتاب "الجزائر في سنة 1957":

تتلخص أسباب إصدار تيون لكتاب الجزائر في سنة 1957" في إصرار زملائها المنتسبين "للجمعية الوطنية للمبعدين ومعتقلي المقاومة" « Associations des déportes et internées de la résistance » إذ حاولت أن تقدم تقريرا مفصلا عن الأوضاع في الجزائر ليتم نشر أول نسخة على شكل مقال في نشرية هذه الجمعية الموسومة بـ "أصوات ووجوه" " Voix et visages" ثم تم إصداره على شكل كتاب سرا في دار نشر "مينوي" "Edition Minuit" في جانفي 1957 ويقع الكتاب في 120 صفحة [2] وكان مبرمجا أن يصدر بداية من أكتوبر 1956 تحت عنوان " الجزائر سنة 1956" لكن تأخر طباعته إلى اليوم الأول من سنة 1957 ولهذا السبب تم تغيير عنوانه إلى " الجزائر سنة 1957" Algérie en1957" " لكن المطالع لهذا الكتاب لا يجد أنه يتناسب مع أحداث سنة 1956 ولا حتى سنة 1957 وتمت طباعة 1500 عدد في البداية على حساب المؤلفة، وبيع بسعر مرتفع لكن رغم ذلك لقي انتشارا واسعا حتى نفذت الأعداد وتمت إعادة نشره مرات أخرى. [3]

---

* روبير لاكوست Robert Lacoste, رجل سياسي فرنسي ولد في منطقة الدردوني، عين سنة 1956 كحاكم عام ووزير مقيم في الجزائر من طرف غي مولي وكان من مدافعي بقاء الجزائر فرنسية، واشتهرت فترة حكمه بقمع الثورة واستعماله المقصلة كعقوبة للإعدام، أنظر: شرفي، المرجع السابق، ص 288.

1 Lacouture, Op.cit, p 261. وأنظر أيضا sacrist, Op.cit, p 65.

2 Wood, Op. cit, p 181.

3 Tillion, Op. cit, p 14. .1 وأنظر هامش رقم

وأرادت تيون أن تشرح للكثير من الفرنسيين ما يحدث في الجزائر وأن تقدم إجابات مقنعة عن أسباب اندلاع الثورة وأسباب استمرارها، وأن تجيب عن تساؤل مهم بالنسبة لفرنسيي المتروبول الذي مفاده: لماذا تستمر السلطات الفرنسية في عملية التجنيد؟ مادامت الثورة الجزائرية حسب وسائل الإعلام الفرنسية لا تعدو أنت تكون عصابة من قطاع الطرق والمتمردين والخارجين عن القانون.[1]

وترى هذه المؤلفة أن كتابها عبارة عن دراسة "لتطوير الجزائر" أين تعرضت لآلية انهيار البلدان المتخلفة [2] وأقرت تيون في بداية كتابها أن البعض ممن كان يتابع أوضاع الجزائر تضارب الأخبار عنها بسبب ما تناقلته الصحافة التي كانت متناقضة كثيرا أو مغلوطة ومن هذا المنطلق رأت تيون أن من واجبها التدخل لشرح الكثير من الأشياء المبهمة والمتعلقة بالجزائر، خاصة أن أراء الفرنسيين قد انقسمت في المتروبول بين تطبيق العدالة الاجتماعية والسياسية وبين عاطفتهم الوطنية التي أحسوا أنها مهددة.[3]

ومن مظاهر نجاح كتاب هذه الأنثربولوجية أنه ترجم للغة الانجليزية حين لفت انتباه أحد الناشرين الأمريكيين وصدر بعنوان " Algérie the realities" وتم تقديم هذا الكتاب بقلم الأديب ألبير كاموس Camus Albert".[4]

-دراسة محتوى وتحليل الكتاب:

لقد أوردت هذه الكاتبة الأنثربولوجية في بداية الكتاب وجود تناقضات في الصحافة في التعريف بالأحداث التي تعرفها الجزائر، التي أطلقت عليها اسم "المأساة" والتي ترى أنها كأي أزمة لها حلول وقد تكون غير سريعة ويسيرة لكنها في النهاية "قابلة للحل"[5] وتنبه أن مصير الجزائر بعد استقلالها مرتبط بفرنسا لأن

1 Lacouture, Op. cit, p 261.
2 Alice Gadoffre-Staath , Le rendez-vous de Saint-Mandé, In : Revue Esprit, Editions du Seuil, Février, 2000. P 139.
3 Wood, Op. cit, p 181.
4 Lacouture, Op. cit, p 258.
5 جرمان تيليون، الجزائر سنة 1957، ترجمة العيد دوان، تنسيق وإشراف، أ.د محمد الأمين بلغيث، دار التنوير الجزائر، 2013، ص 7.

الثوار والوطنين الجزائريين سيصطدمون بضرورة التعاون مع فرنسا مهما كان نوع هذا المخرج المستقبلي بعد الثورة.[1]

ولعل ما يشد القارئ في هذا الكتاب أن تيون لا تقدم وصفا للأحداث الدامية في الجزائر إلا أنها تؤيد اندلاع "الثورة" التي أطلقت عليها مصطلح "المواجهة"، وحاولت أن تكشف عن الأسباب الاجتماعية والاقتصادية الجذرية التي أدت إلى اندلاعها وأصبحت ثورة عارمة.[2]

وخلال شرحها لهذه الأسباب رأت أنه من واجب كل الفرنسيين الاعتراف بواجباتهم أمام الجزائريين، ليس فقط لأنهم شاركوا في سفك الدماء لكن لأنهم جزء من مسؤولية اندلاع الثورة، ومن تلك الأسباب الرئيسية التي تذكرها أن فرنسا تخلت وأبعدت الجزائريين الذين أجبروا على المشاركة في حروبها، والذين وقفوا إلى جانبها في أحلك أيامها وأصعبها.[3]

وفي مدخل الكتاب "الجزائر سنة 1957" وصفت ج. تيون المقدرات التي تحتويها الجزائر لكنها تقر أنه رغم كبر مساحة الجزائر، إلا أنها فقيرة ومرد ذلك حسب ذات الكاتبة هو وجود اختلال بين النمو السكاني والموارد الزراعية مشيرة من جانب آخر إلى أنه من بين 9 مليون نسمة من سكان الجزائر نجد الأغلبية منهم من الجزائريين أي حوالي 8 مليون نسمة، أما الباقي أي 1 مليون نسمة فهم المعمرون أو "الكولون" هذه الفئة التي تضم قلة بلغ عددها 12000 تستحوذ على أخصب الأراضي الزراعية[4]، وإذا ما رجعنا إلى الإحصاء الذي قامت به السلطات الاستعمارية سنة 1954 فإن سكان الجزائر قد بلغ حوالي 9528670 ساكن منها 8486244 نسمة من الجزائريين و 1024426 نسمة من المعمرين وقدرت مساحة الأراضي الزراعية بحوالي 1007600 هكتار منها 239000 موجودة في الصحراء، ومن أصل مجموع مساحة الأراضي يوجد منها فقط 7400000 مستغلة 27 % منها يمتلكها الأوربيون و73% يمتلكها الجزائريون، فإن هذه الأرقام والإحصاءات لا تقدم لنا سوى نظرة

1 Wood, Op, cit, p 181.
2 Lacouture, Op, cit, p 261.
3 Wood, Op, cit, p 181.
4 Ibid, p 182.

خاطئة عن المشكل الذي أشارت إليه تيون والمتمثل في المشكلة الزراعية وتبعاتها خاصة إذا لم نأخذ في الحسبان التوزيع الجغرافي لهذه الأراضي المستغلة بسبب تأثير المناخ والطريقة التي تزرع بها أي تقليدية أو متطورة.[1]

وتحاول هذه الأنثربولوجية في العنصر الأول من كتابها تحليل ما أطلقت عليه "المأساة الجزائرية" [2] أين تعيش جماعتين–الجزائرية والأوربية– في أرض واحدة لكنهما غير متكافئتين ومتساويتين إذ يعامل الجزائريون كمواطنين من درجة ثانية [3] وتمثل هاتين الجماعتين حسب نظر تيون شيئا واحدا فهم "جزائريون" مفسرة ذلك بأن التعايش والاحتكاك الذي كان بينهما لمدة طويلة، رغم سلبيات وايجابيات ذلك، إلا أنه ولد مجتمعا له مميزات وخصائص موحدة هي أوضاع خاصة بالجزائر، وهذا بصرف النظر عن اختلاف الدين وتؤكد هذه المؤلفة مخاطبة الفرنسيين في المتربول "أن الانتماء الديني له وزن في تطور الفرد" ومن هذا المنطلق فلا وجود لعامل التفرقة بين المسلمين الجزائريين والأوروبيين المسيحيين وتذكر "أن للمثقف المسلم موقفا دينيا مطابقا لموقف أي مسيحي من أميي بني جلدته ".[4]

ومن النقاط التي تبرزها تيون في كتابها قضية التعصب الديني الذي كثيرا ما ينسب للإسلام والتي نجدها تدافع عنه مقدمة مثالا تفند فيه هذه الادعاءات، حينما تذكر أن المسيحية كانت متعصبة "ولا تحسد في هذا المجال" فكثيرا ما كانت في قرون خلت متعصبة لآرائها بل وقامت بحروب دامية خاصة لما فسدت الكنيسة الكاثوليكية ونادى بعض المصلحين بوجوب القيام بإصلاحات دون الخروج عن الكاثوليكية لكنهم اتهموا بالهرطقة والردة وكذلك محاولات الإصلاح على يد مارتن لوثر وجون كالفن وغيرهم، هذا الإصلاح الذي نتج عنه انتشار المذهب البروتستنتي بعد حروب اتسمت بالتعصب الشديد، وتخلص ج. تيون إذن إلى أن التعصب الديني

1 René Gallissot, Les Accords d'Évian, en conjoncture et en longue durée, Casbah Éditions, Alger, 1997.pp 51-52.

2 أنظر تيليون المرجع السابق، ص 11. وأيضا النسخة الفرنسية Tillion, l'Afrique, Op. cit, p 31.

3 Michel Kelle, 5 Figures de l'émancipation Algérienne, Éditions, Karthala et Publisud, 2013. p 29.

4 Tillion, l'Afrique, Op. cit, p 35.

هو وليد سوء فهم الشعوب لأديانهم أو بمعنى آخر التعصب رهين بثقافة الشعوب الدينية وليس لصيقا بالدين بذاته.[1]

ومن النقاط الهامة التي تبرزها المؤلفة في كتابها أنها قارنت بين الجزائر التي زارتها في الثلاثينيات وجزائر الخمسينيات، مسلطة الضوء على سكان منطقة الأوراس التي زارتها في مهمة أنثربولوجية وأثارت عاطفتها واستهوتها كما ذكرنا في مبحث سابق وهي المنطقة التي اندلعت الثورة منها أيضا في 1 نوفمبر 1954، وقد وقفت على فقر سكان الأوراس في زيارتها الأولى والذين أصبحوا أكثر فقر وبؤسا في الزيارة الثانية في سنوات الخمسينيات، ونتساءل كيف فسرت في كتابها هذا التقهقر؟[2]

حاولت هذه الكاتبة أن تفسر أسباب تقهقر المجتمع الجزائري في العنصر الثاني من كتابها والذي عنونته: بوسط المعبر [3]؛ وشرحت فيه كيف استطاع سكان منطقة الأوراس بالرغم من فقرهم المدقع أن يقاوموا شدة الفاقة والمسغبة ونوهت بالدور الذي لعبه تركيب الأنساب" النظام القبلي وميزة التكافل" في الحفاظ على التضامن المتبادل بين مختلف سكان وقبائل المنطقة لكن عندما عادت تيون في مهمتها الثانية عشية اندلاع الثورة التحريرية لاحظت حدوث اختلال لذلك التوازن الذي كان قائما مما أدى إلى تدهور المجتمع وتسبب في حالة الافتقار السريعة[4]، وهنا أدرجت تيون مصطلحا جديدا في كتابها أطلقت عليه " التشرد "Clochardisation " كان حسب إجماع الكثير من النقاد عامل نجاح هذا الكتاب بشكل واسع لدى الفرنسيين.[5]

وكان من نتائج التشرد هذه التي مست سكان الأوراس أن أدت بهم إلى الخروج عن الأوضاع الطبيعية لحياتهم الاجتماعية إلى هذه الحالة "البائسة" ليس فقط في الجزائر بل حتى في المتروبول [6] وتقصد تيون هنا الهجرة التي عرفتها المنطقة إلى فرنسا وكانت متأخرة إذا ما قارناها بهجرة المناطق الأخرى من الجزائر وهذا اعتمادا على

1 Wood, Op. cit, p 183.
2 Sacriste, Op. cit, p 66.
3 تيليون، المرجع السابق، ص 19.
4 Wood, Op. cit, p 184.
5 Lacouture, Op. cit, p 261.
6 Wood, Op. cit, p 184.

الدراسات التي قام بها بعض المتخصصين أمثال Robert Montagne * والذين أثبتوا أن المناطق الأقل مواردا هي الأكثر تصديرا للهجرة نحو فرنسا، ويضاف إليه سبب آخر نراه مهما خاصة في حالة منطقة الأوراس هو مدى خضوع سكانها للقوانين الفرنسية.[1]

وترفض تيون أن تبرر هذه الوضعية التي آلت إليها منطقة الأوراس والجزائر بتلك الأفكار والمزاعم التي كانت انتشرت عند الكثير من الفرنسيين، والتي مفادها استكانة الجزائريين وحبهم للخمول والكسل وضعف قدراتهم الإنتاجية، بل وتحميلهم مسؤولية حدوث المجاعات، ولئن كانت تيون قد أبعدت هذا الجانب الذي نراه واهيا فما بال آثار وانعكاسات الاستعمار؟

من الواضح أن هذه المؤلفة لا تخرج عما ذهب إليه سابقوها من الفرنسيين الذين برروا الاستعمار "كمهمة حضارية"، هذه المؤلفة التي لا شبهة في أنها تريد إبعاد سلبيات الاستعمار مقدمة لنا أمثلة عن آثار ونتائج ذلك، وبالنسبة لها فإن بصمة الحضارة الفرنسية ولو كانت باهتة في الكثير من المناطق المعزولة كالأوراس إلا أن نتائجها ايجابية، فقد ساهم الفرنسيون في تخليص السكان من أمراض كثيرة كالتيفوس والتيفوئيد والملاريا وأمراض سابقة أخرى كالكوليرا والطاعون.

---

* تعتبر نتائج الكثير من الدراسات الاجتماعية الاستعمارية الفرنسية مطية لفهم المجتمع المغربي وسهلت استعماره؛ فقد استفاد الفرنسيون من تجربتهم الاستعمارية في الجزائر في بسط سيطرتهم بعد فهم آليات اشتغال المؤسسات التقليدية، وتطويعها لتتحول إلى مؤسسات في خدمة سلطة الاحتلال. وكان روبير مونتاني Robert Montagne ، أحد رواد السوسيولوجيا الاستعمارية في المغرب، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، حيث أنجز أول دراسة سوسيولوجية عن ظاهرة الهجرة القروية، وكان الهدف منها في الأساس محاولة فهم الطبقة الاجتماعية الجديدة التي أنتجها التصنيع والتحديث الاستعماريان "البروليتاريا"، وذلك لهدف أيديولوجي واضح هو: البحث عن كيفية تحويل هذه القوة الاجتماعية الجديدة إلى حليف للمستعمر في مواجهة التطلعات التحررية التي بدأت تظهر في الأوساط الحضرية الجديدة وفي الأوساط المدينية التقليدية على حد سواء ، لذلك ليس غريبا أن تعتمد عليه تيون في إيجاد حلول ترضي الإدارة الاستعمارية في الجزائر، أنظر: عبد الرحمان المالكي، السوسيولوجيا الكولونيالية أمام ظاهرة الهجرة القروية في المغرب، عمران، العدد 5/17، 2016، ص 91.

1 عبد الحميد زوزو، الدور السياسي للهجرة الجزائرية الى فرنسا فيما بين الحربين(نجم شمال إفريقي ا وحزب الشعب 1914-1939) ديوان المطبوعات الجامعية بن عكنون 2007. ص 24. وللتقصي أكثر في هجرة منطقة الأوراس إلى المتروبول أنظر أيضا:

Robert Montagne, Etude sociologique
de la migration des travailleurs musulmans d'Algérie en métropole (L'émigration dans les arrondissements de Constantine et d'Ain-Beida), cahier n8, 1957.

ويمكننا أن نستشف أ مثلة كثيرة في سياق تبريرها للتواجد الاستعماري الفرنسي ومدحه فتذكر على سبيل المثال لا الحصر؛ تمكن السلطات الاستعمارية الفرنسية من القضاء– من خلال توزيعها الغذاء– على عدد معتبر من المجاعات التي ضربت مناطق مختلفة، وجراء تواجد قوات المستعمر في مناطق أخرى قد ساهم أيضا في منع اندلاع حروب قبلية طاحنة.[1]

وفيما نعتقد فإن ج. تيون أرجعت جذور التقهقر وحللت أسباب "المأساة" التي ذكرتها إلى ما أطلقت عليه بـ"صدمة الحضارات" «Le choc des civilisations »[*] فقد كان المجتمع في منطقة الأوراس يعيش في "بدائية Archaïcité" وعند اصطدامه بالحضارة الفرنسية تشكل صدع أو هوة والأمر سيان بالنسبة لكل المجتمع الجزائري فحين يلتقي مجتمع تقليدي بحضارة صناعية سيكون مصيره الانحطاط والتقهقر ووصفت تيون هذه المجتمعات بـ "غير المتوازنة".[2]

وتذهب تيون إلى أبعد من ذلك حين تعترف بأن ما قام به الفرنسيون من ممارسات سلبية خلال احتلالهم الجزائر وخلال تطبيق سياستهم الاستعمارية قد جاء عرضا دون قصد منهم، وبالتالي فإن نتائج القوانين الاستعمارية عموما قد انجر عنها اختلال ومساوئ لم يتوقعها الفرنسيون أنفسهم وتذكر في كتابها قائلة :" فالتواجد الفرنسي" كان خفيا في كل مكان ولكنه حاضر في كل مكان أيضا، يوزع الخير والشر بملء يديه"[3]. فيكون للمستعمر بذلك دور غير مباشر في حالة اللاتوازن التي عرفتها المجتمعات الجزائرية بما أنها تقليدية، فحينما قامت السلطات الاستعمارية بحملات طبية وصحية ووقائية غير مدروسة في المناطق الريفية للقضاء على الأوبئة المنتشرة فيها تكون بذلك قد قلصت من نسبة الوفيات لكن دون أن تعمل على تنظيم الولادات مما أدى إلى زيادة طبيعية مرتفعة ونمو ديموغرافي كثيف [4] أثر على

---

1 Wood, Op. cit, p 184.

* يذهب الكثير من الغربيين على اعتبار أن المجتمعات المغربية الما قبل كولونيالية هي مجتمعات عتيقة أو بدائية Archaique ويتعدى الأمر إلى الجانب الاقتصادي والمتمثل في وسائل إنتاجها أنظر : لوسيت فالنسي، المغرب العربي قبل سقوط مدينة الجزائر 1790-1830، ترجمة إلياس مرقص، الطبعة الأولى، دار الحقيقة للطباعة والنشر، بيروت، 1980.ص 153.

2 Sacriste, Op. cit, p 66.

3 تيليون، المرجع السابق، ص 22.

4 Sacriste, Op. cit, p 66.

الجانب الاقتصادي خاصة حين بدأ هؤلاء يتوسعون في تربية المواشي وهو الأمر الذي انجر عنه استغلال مفرط لأراضي الرعي والغابات وانتهى بتحول سكان الريف إلى الزراعة في مساحة ذات تربة فقيرة أو تم إنهاكها، وهو الشيء الذي نتج عنه نقص فادح أو انعدام في مداخيلهم [1]، ويؤكد عدي الهواري أن المجتمع الجزائري كان متوازنا بين الإنتاج والاستهلاك إذ استطاع السكان أن يؤمنوا حاجاتهم الغذائية لكن حدثت قطيعة في هذا التوازن من خلال وجود عجز في تأمين الحاجات الأساسية للعيش جراء ما خلقه الاستعمار من "مستعمِر ونقيضه المستعمَر" فلا وجود للاستعمار إلا بوجود هذين الطرفين فيشابه وجودهما علاقة العبد بسيده. [2]

ونحن نعتقد أن الكاتبة في سياق التفصيل والشرح لما سبق تدعم آراءها بنظرية "توماس روبير مالتوس Thomas Robert Malthus"* والتي يمكن تلخيصها في أن عدد السكان في الدول "المتخلفة عن الركب" يتزايد بمتتالية هندسية لا تتناسب مع نمو الموارد التي تتزايد بمتتالية حسابية وتسقط تيون هذه النظرية على المجتمع الجزائري[3]، وندرك هنا طبيعة إدراج عنوان وسط المعبر في كتابها والذي يفهم منه أن الفرنسيين لم يرافقوا الجزائريين في سياستهم الاستعمارية إلى نقطة الوصول أو بمعنى آخر لم يمدوهم بوسائل تمكنهم من العبور سالمين وتستدل تيون بأحد سكان منطقة القبائل الذي صرح لها قائلا: " لقد أوصلتمونا إلى منتصف المعبر وتركتمونا هناك" وبذلك تعتقد أن 2 مليون جزائري فقط من أصل 8 مليون قد استطاع تجاوز هذا المعبر وأصبح هؤلاء كأولئك الذين يعيشون بفرنسا ثقافيا واجتماعيا أما الأغلبية المتبقية فقد فقدت تدريجيا المكتسبات المادية والقيم الروحية لمجتمعها القديم". [4]

---

1 Wood, Op. cit, p.185

2 عدي الهواري، الاستعمار الفرنسي في الجزائر، سياسة التفكيك الاقتصادي الاجتماعي 1830-1960، ترجمة جوزيف عبدالله، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1983. ص ص، 73-74.

* توماس روبير مالتوس، ولد سنة 1766 هو اقتصادي بريطاني كتب مقالا عن مبدأ السكان ويرى أن النمو الديموغرافي خطر على عيش العالم وينادي باتباع وسائل الكبح الديموغرافي، أنظر: Larousse, Op.cit, p1539. وأنظر أيضا: رمزي زكي، المشكلة السكانية وخرافة المالتوسية الجديدة، عالم المعرفة، 1984، ص26.

3 تيليون، المرجع السابق، ص 29.

4 Tillion, l'Afrique, Op. cit, pp 39-40.

ويتضح بذلك أن أكثر من نصف الجزائريين قد فقدوا وسائل العيش القديمة– النمط التقليدي–لكن دون أن يتحصلوا، حسب تيون، على معارف ولا خبرات تمكنهم من أن يصبحوا مثل "الأوروبيين المتحضرين"، ولتأكد هذه الكاتبة أن الاحتكاك وحده لا يفيد في تجاوز ما أطلقت عليه "المعبر"، تشير بأن الكثير من سكان منطقة الأوراس الذين هاجروا إلى المتروبول وعادوا إلى منطقتهم اكتسبوا تجارب وأفكار هي بعيدة عن المستوى الفكري لأفراد قبيلتهم، لكنهم لم يحصلوا على فرصة التعليم والتكوين التقني ولا على المال ليكونوا مثل الأوربيين في الجزائر.[1]

وهنا تظهر لنا مرة أخرى مسألة "التشرد" التي عرفتها هذه الأنثربولوجية قائلة: "إنها الانتقال من الوضعية الريفية أو الطبيعية إلى الحالة الحضارية دون درع واق وأقصد بالدرع الواقي تعليم ابتدائي متفتح نحو الشغل . وفي سنة 1955 كنت أحلم أن أقدم درعا لكل الأطفال من بنات وذكور". ويتضح من ذلك أن اتساع الفاقة بشكل كبير عند الجزائريين سيكون له آثار وخيمة تتعدى إلى تحطيم النظام الاستعماري الفرنسي في الجزائر، وبذلك وجب على السلطات الفرنسية التعجيل في إيجاد حلول جذرية معممة في كل مناطق الجزائر.[2]

ومن تداعيات وأعراض "الصدمة الحضارية" في الجزائر بالنسبة "لتيون" أيضا والتي اتخذت عدة مظاهر، هو تطبيق السلطات الاستعمارية لقوانين تفرض الملكية الفردية للأرض من خلال ترسانة من المراسيم والقوانين كمرسوم 1863، الذي خلق الدوار وحدد أراضي العرش، وقانون وارنييه Warnier الصادر في 26 جويلية 1873 الذي أقام الملكية الفردية، وعلى اعتبار أن هذين المرسومين من أهم ركائز استعمار الأرض وتفكيك القبيلة بالنسبة لفرنسا في الجزائر [3] فقد كان لهما تأثير خطير على تركيبة المجتمع الجزائري، أدى إلى تحطيم دعائمه الاجتماعية والاقتصادية خاصة

1 Wood, Op. cit, p 183.

2 Lacouture, Op. cit, p 262.

3 أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، 1860-1900. الجزء الأول، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000، ص ص 34، 436-437.

في الريف، ومن جهة أخرى أصبح المعمر هو السيد في ظل ترسانة القوانين التي أصدرتها السلطات الاستعمارية خلال السبعينيات من القرن التاسع عشر.[1]

ومن خلال قراءة العديد من فقرات هذا الكتاب نجد أن ج.تيون لا تعيب الاستعمار وسلبياته وتقدم لنا أمثلة مدعمة لأفكارها، أبرزها حين تتساءل كيف يؤثر الاستعمار الفرنسي سلبا على الأوراس وهي المنطقة التي لم تعرف التواجد الأوربي؟ بل تذهب إلى أبعد من ذلك حين تقر أن ايجابيات الاستعمار هي التي أدت –وبشكل غير مقصود– إلى تحطيم البنى الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع الجزائري ضاربة لنا مثالا عن استعمال العملة بدل المقايضة والذي كانت له نتائج وخيمة [2] حيث يضطر الفلاح لبيع محصوله فور حصاده بأثمان بخسة لسداد ما عليه من ديون، ولكنه بعد مدة يصبح مضطرا لشراء المنتوج نفسه ولكن هذه المرة بأسعار مضاعفة. [3] ومن هذا المنطلق حسب تيون فإن النمط الاقتصادي الجديد الذي عرفته الكثير من مناطق الجزائر خاصة الريفية أدى إلى إغراقها في غياهب يستحيل الخروج منها بعد اندثار الكثير من التقنيات والتقاليد والفنون التي كانت تعتمد عليها المجتمعات كوسائل للعيش.

ويستنتج أن سلبيات الاستعمار بالنسبة للكثير من الفرنسيين وحتى الأوربيين من هذا المنظور لا تعدو أن تكون سوء مرافقة المستعمِر للمستعمَر، حيث لم يستطع الفرنسيون بقوانينهم التي سلطت على الجزائريين حماية المجتمعات الفقيرة الأمية التي وقعت ضحية لهم جراء هذه الحالة الاستعمارية. [4]

إن هذا الافتقار السريع الذي عرفه المجتمع الريفي في ربوع الجزائر المستعمرة رغم أنه لم يكن وليد فترة الخمسينيات من القرن العشرين، إلا أن ما أشارت إليه ج.تيون في كتابها "الجزائر سنة 1957" أجمعت عليه الكثير من المصادر والمراجع

1 Sacriste, Op. cit, p 67.

2 Tillion, l'Afrique, Op.cit, p 46.

3 تيليون، المرجع السابق، ص ص 23-24 .

4 Tillion, l'Afrique, Op.cit, pp 48-49.

واتفقت على أنه ما بين سنتي 1954–1955 م عرفت الجزائر نزوحا وهجرة داخلية وخارجية كبيرة نحو المدن ونحو فرنسا من أجل إيجاد عمل أو مصدر رزق.[1]

والواقع أننا نلمس تغافل وتناسي ج.تيون عن الاعتراف بأن ما مر به المجتمع الجزائري خلال الحقبة الاستعمارية من تقهقر وظلم بالمقارنة مع المعمرين هو نتيجة مباشرة للاستعمار الفرنسي الذي كان يجسد أبشع أنواع الاحتلال الاستيطاني ويكفي أن نشير إلى أن فرنسا قدمت تمييزا متناقضا مفضوحا لما أطلق عليه بالمهمة الحضارية، ليس فقط في الجزائر لكن حتى لأولئك الجزائريين الذين هاجروا إلى المتروبول حينما وجدوا معاملة سيئة ووجدوا هوة بينهم وبين هذا النظام "الكولونيالي" المجحف.[2]

وبالتالي فالمشكل الذي تطرحه تيون لا يتمثل فقط في صدام الحضارات بل هو ضرورة عمل الفرنسيين على تهيئة الجزائريين المستعمرين وتسليحهم ليتأقلم هؤلاء مع الظروف الاستعمارية التي ألمت بهم، ومن هنا فقد كان الجانب العملي لهذا التنظير هو كما ذكرنا خلق المراكز الاجتماعية فيما بعد.[3]

ويمكن القول أن لكتاب "الجزائر سنة 1957" بعدا سياسيا ذلك أن ج.تيون أرادت حث السلطات الاستعمارية على التدخل لحل الأوضاع الحرجة التي عرفتها الجزائر وكي تكون الحلول ناجعة وجب أن يكون هناك تحول واستقرار ديموغرافي للمجتمع الجزائري، دون أن تشير إلى ما خلفه الاستعمار الفرنسي من مساوئ في أرض الجزائر.

وحسب ما ذكرناه سابقا فإن الاستقرار الديموغرافي لن يكون إلا برفع المستوى المعيشي وتنويع الموارد من خلال التعليم، وإذا كان لهذه الحالة المتردية أسبابها فإن ج.تيون تؤكد أنه من واجب فرنسا تحمل جزء من تبعات ما قامت به في الجزائر لأنها " لم تقدم إلا القدر القليل أو غير الكافي" أو بمعنى آخر فإن الفرنسيين

1 Wood, Op. cit, p 186.
2 Sacriste, Op. cit, p 67.
3 Wood, Op. cit, p.186

باحتلالهم الجزائر حطموا النظام الاجتماعي والاقتصادي الذي كان سائدا لكنهم في المقابل لم يتمكنوا من خلق بديل آخر مناسب.

ولتجاوز هذه الأوضاع المتدنية في الجزائر تركز تيون على ثلاثة جوانب تراها مهمة وهي تطوير الصناعة والزراعة والتعليم ويجب أن تكون هذه الإصلاحات شاملة يرافقها إصلاح النظام الاستعماري بما يتناسب والحالة الخاصة للجزائر.[1]

ونلمس في هذا الكتاب معارضتها للثورة التحريرية التي كان هدفها الاستقلال التام عن فرنسا فهي لا تتصور الجزائر مستقلة عنها، تطلب المساعدة من دول صناعية أخرى وتريد ج.تيون أن تبين من خلال هذه الكراسة أن العلاقة الاقتصادية بين فرنسا والجزائر هي علاقة وطيدة، ضاربة لذلك مثال هجرة الكثير من الجزائريين إلى المتروبول لسد حاجيات أسرهم في الجزائر ومن هذا المنطلق فإن استقلال الجزائر سينعكس سلبا عليهم.

ولا ننكر انتقال أكثر من 400000 عامل جزائري إلى فرنسا للعمل في المصانع الباريسية بحثا عن مستقبل واعد وأسهل من ذلك الموجود في الجزائر، إلا أن تبعات هذه الهجرة لم تكن محمودة العاقبة لأنهم انتقلوا إلى وسط معاد لهم ولدينهم وهويتهم وهذا دليل على عدم انتكاسهم أمام عراقيل القوانين الاستعمارية الفرنسية.[2]

إن ج.تيون تختصر وتختزل ما يعانيه الجزائريون من قهر وحرمان وظلم القوانين الاستعمارية في جميع المجالات وتركز على مداخيل الهجرة التي نراها لا تنقذهم من تسلط الفرنسيين وعدوانهم، بالإضافة إلى أن هجرة الجزائريين لم تكن نحو جنة الخلد فأغلب من هاجر قد كان مكرها بعد نزع ملكيته وتشريد أفراد عائلته، وحتى هجرة الطلبة كانت جراء التمييز والازدراء الذي لقوه في مقاعد الجامعات في الجزائر أضف إلى ذلك أن هؤلاء المهاجرين كانوا يقومون بأعمال قاسية لا يشتغل بها الأوربيون وذلك مقابل أجور بخسة في الغالب، كما أن القليل الذي يكسبونه يقتصدون منه فيعيش هؤلاء حياة تقتير خانقة على حساب صحتهم ومتعتهم

1 Sacriste, Op.cit, p 68.
2 Kelle, Op.cit, p 31.

ويضاف إلى ذلك أن الكثير منهم يعيش في "غيتوهات"، وأن مرارة المنفى تزيد في حالة حزنهم لا لشيء إلا لإنقاذ ذويهم الذين يكادون يموتون جوعا.[1]

ولابد أن نشير إلى أن إبعاد هذه الأنثربولوجية للمطالب الاستقلالية للجزائريين وتشكيكها في ايجابياتها، وبخاصة على المدى الطويل لن يتغير خلال كل الفترة الاستعمارية للجزائر، فبقاء الاقتصاد الجزائري مرتبطا بفرنسا هو الذي يضمن بقاءه قائما أي باستمرار الاستعمار، وتخلص تيون إلى أن هذه الإصلاحات الليبرالية لن تكون ناجحة إلا بإدماج السكان الجزائريين في بوتقة الجمهورية الفرنسية.[2]

وعلى الرغم من وجود العديد من الدراسات التي تناولت الأزمة الاجتماعية والاقتصادية في الجزائر خلال السنوات الأولى للثورة، إلا أن الكثير من الفرنسيين خاصة في المتروبول يعتبرون كتاب تيون أكثرها تأثيرا في الرأي العام الفرنسي ومرد ذلك حسب هؤلاء هو الخبرة التي اكتسبتها في الميدان [3] أما البعض الآخر فيعزوا نجاح هذا الكتاب لدى الطبقات المثقفة إلى ما يحمله من غموض وتناقضات الأمر الذي استغله الحزب الكولونيالي الفرنسي ليشيع أفكارا مفادها أن مصير الجزائر دون فرنسا محكوم عليه بالبؤس والشقاء.[4]

والملاحظ كذلك أن كتابها لا يقدم تمثيلا اجتماعيا شاملا وعاما لكل الجزائر لكنها حاولت من خلاله أن تلامس مشكلة العلاقات الاجتماعية بين الجزائريين والمعمرين كوضعية استعمارية خاصة وتركز على ممارسات الحياة اليومية للإنسان الأوروبي مع الفرد الجزائري فعندما يستخدم مصطلحي "الأهالي" و"المعمرون" فهما بالنسبة لها مصطلحينّ فيهما شيء من الاحتقار للأول كما للثاني والأجدر أن يطلق عليهما بدل تلك الأسماء التحقيرية اسم "الجزائريين".[5]

وأهم ما تبطنه ج.تيون في كتابها هذا أنها تتغاضى عن تجريم السياسة الاستعمارية الفرنسية كسبب وعامل مهم وراء الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية

1 Wood, Op.cit, p 187.
2 Sacriste, Op.cit, p 69
3 Wood Op. cit, p 187.
4 Sacriste, Op. cit, p 69.
5 Tillion, l'Afrique, Op. cit, pp 31-32.

المتأزمة التي كان يعيشها الجزائريون، بل وتتغاضى حتى عن توسع الثورة ونجاحها بشكل سريع، وعند قراءتنا لمضمون كتابها نجد تغييب النظرة الناقدة للتاريخ الاستعماري المخزي لفرنسا في الجزائر.[1]

ويشدنا أيضا أسلوبها المباشر دون مناقشة ما تطرحه من معطيات وأفكار حتى أنها لم تتبع أسلوب خطابة ولا منهجية محددة لكنها حاولت شرح بعض الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية وإيجاد حلول لها، ومن المغالطات التي توردها تيون هي إقرارها بوجود قرابة بين الجزائريين والفرنسيين.[2]

وتجدر الإشارة إلى أن ج.تيون قد تعرضت لسيل من الانتقادات حين أشار بعض الذين كانوا يكتبون في "المجلة الاشتراكية Revue Socialiste" أن لها تفكيرا ماركسيا يشبه إلى حد بعيد "غي مولي Guy Mollet"[3] الشيء الذي أدى إلى وصف الكثير من الجرائد الفرنسية للمصالح الاجتماعية التي أسستها "بالشيوعية".[4]

وتؤكد بعض الكتابات خاصة تلك المناهضة للاستعمار أن موقف تيون من خلال كتابها "الجزائر سنة 1957" "يكتسي الكثير من الازدراء العنصري الذي يبدو أنها لم تلحظه ولم تنتبه إليه عند تحريره *"[5]، وبات من الواضح أن محتوى الكتاب يراد به إخفاء أهم شيء في تلك المرحلة من تاريخ الجزائر وهو ذلك التطلع الاستقلالي الذي فرضه الواقع العسكري والسياسي.[6]

---

1 Sacriste, Op. cit, p 70.

2 Tillion, l'Afrique, Op. cit, pp 34-35.

3 Vidal-Naquet, Op. cit, p 142.

4 شرفي، المرجع السابق، 321.

* من أهم الانتقادات نجد ما كتبه جان ماري دو ميناخ Jean-Marie Dominach في مجلة " اسبري Esprit" أو "الروح" والذي كان كاتب تحريرها ثم رئيسها مابين سنتي 1957 و1976 وقد تم إيقاف المجلة لعدة مرات بسبب موقفها المندد لممارسات الجيش الفرنسي في الجزائر، أنظر: رشيد خطاب، أصدقاء الخاوة، الدعم العالمي لثورة التحرير الوطنية الجزائرية، قاموس بيوغرافي، ترجمة مصطفى ماضي، دار خطاب للطباعة والنشر، بودواو، الجزائر 2013، ص 198 .

5 Vidal-Naquet, Op. cit, p 142.

6 Lacouture, Op.cit, p 264.

ولا يختلف اثنان على أن أغلب الفرنسيين خاصة في المتروبول لم يتقبلوا ويدركوا طبيعة وحقيقة الأحداث الواقعة في الجزائر وأن الثورة التحريرية ستغير ذلك النظام السياسي الاستعماري بإحلال الاستقلال.[1]

هذا الانتقاد وجهه لها أيضا جون عمروش[2] في مقال له معنون بـ" Algeria Fara da se" أو الجزائر ستصنع نفسها" نشره في مجلة "الشهادة المسيحية" "Témoignages Chrétiens" الذي يلومها على إهمال تأثير الاستعمار على تفكيك النسيج الاقتصادي والاجتماعي الجزائري [3] ولم يخف أن كتاب تيون سبب له ارتباكا وغضبا وقلقا بما أنه أراد أن يكون حسب تعبير البعض "المتحدث باسم الوطنية المكافحة" من المتروبول وهو الذي كان قد تنصر.[4]

ومن الواضح أن تيون أرادت من خلال كتابها إثبات أنها وهبت نفسها لخدمة الجزائريين بإخلاص وظنت أنه يخول لها التكلم باسمهم فتصبح لسان حالهم، لكن ثمة سؤال ملح يطرح نفسه في هذا الصدد هو هل كانت مؤهلة فعلا للتكلم باسم الجزائريين؟

أيا كان الأمر فإن تيون مواطنة فرنسية لم تحس بمرارة ما عاشه الجزائريون إلا لفترة وجيزة ولم تع أن التضحية بالنفس والنفيس ليست من أجل تحسين الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية كما يزعم الكثير من الفرنسيين، ومن جانب آخر فهي تبعد تماما تجريم الفرنسيين وفي المقابل تشير إلى مسؤوليتهم في إخراج الجزائريين من الحالة البائسة التي يعيشون فيها فهي التي صرحت " نحن مسؤولون لا مذنبون".[5]

Rouiba- Colette et Francis Jeanson, L'Algérie hors la lois, Editions ANEP, 1 Alger 2006.p 157.

2 جون الموهوب عمروش Jean Amrouche ولد سنة 1906 توفي سنة 1962 من منطقة القبائل مسيحي عاش في تونس ما بين سنتي 1910 إلى 1924 و مابين سنتي 1929 إلى 1942 اشتغل كأستاذ بعد أن درس الآداب في المدرسة العليا في سان كلود ثم اشتغل في الإذاعة الفرنسية التي أقيل منها بسبب مواقفه المؤيدة للثورة لكنه تعرض لنقد لاذع من طرف مولود فرعون الذي لقبه بـ " ابن وطني قبائلي مزور" أنظر: هامش رقم 45 في مرجع Kelle, Op. cit, p32.

3 Kelle, Op.cit, p 32.

4 Lacouture, Op. cit., p 264.

5 Sacriste, Op. cit, p 70.

وفيما يخص الوصف التاريخي الذي تطرحه هذه الأنثربولوجية فهو غير دقيق خاصة عندما تصف المجتمع الجزائري بكونه بدائيا أو عتيقا متناسية أن الكثير من المناطق في الدول الأوربية وحتى في فرنسا في تلك الأثناء قد كانت معزولة عن كل حضارة إذ تعيش هي أيضا في بدائية، وتسند نظريتها هذه بأن عيش البربر في الجبال والعرب في البادية والصحراء هو الذي أدى إلى تأخر مستوى عيشهم[1] الشيء الذي سمح للفرنسيين بإطلاق تسميات تدل على وجود نبذ في أوسع معانيه عانت منه كل الشعوب المضطهدة، كتسمية البيكو، والراتون، والبونيول كمضامين احتقارية.[2]

ويبدو أن ج.تيون قد تأثرت كثيرا بمهمتها الأولى كأول تجربة أنثربولوجية ميدانية عاشتها في الجزائر حين درست الممارسات الثقافية للمجتمع الجزائري المسلم، لكننا نراها تؤكد لقراء كتابها أن هذه المهمة التي مارستها في منطقة لم تكن محل مغامرة الأوروبيين كثيرا وبقيت منطقة مغلقة عن الاحتكاك بالفرنسيين ورغم ذلك فإن ثقافتها التي صمدت منذ القدم تحمل علامات تأثر قديمة وحديثة بثقافات أخرى خاصة الأوروبية منها.[3]

حاولت جرمان تيون الاحتكاك بجميع الطبقات الاجتماعية في الجزائر وكان كتابها الجزائر سنة 1957 الأول فيما يخص الثورة التحريرية على الرغم من أنها لا تتناول في محتوى الكتاب ما يحدث خلال الثورة، لكنها تكلمت عن اختلال البنية الاقتصادية والاجتماعية التي كانت تسود الجزائر والتي أدت إلى تخلفها وحاولت اقتراح حلول لها، وحسب تيون فإن ما يهدد الجزائر لا يعدو أن يكون مشكل "التشرد" "Clochardisation" الذي يعاني منه الجزائريون كما ذكرنا سابقا وبالتالي تكون هنا قد ضربت عرض الحائط بتلك الفكرة القائلة بأن غزو الجزائر قد أدى إلى استعمار رسمي، واسند بقوانين منذ بداية الاحتلال أخطرها القرار المشيخي الذي بموجبه تمت مصادرة أراضي الجزائريين وأعطيت للكولون والأدهى من ذلك أن تيون لم تقدم ربطا

1 Tillion, l'Afrique, Op. cit, pp 31,50.

2 أبو القاسم سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، دار الغرب الإسلامي، ج 4، الطبعة الثانية، 2005، ص ص 47-48.

3 Wood, Op. cit, p 183.

تاريخيا للأحداث في إطار عام واقتصرت على تقديم حالات لها أساسيات سوسيولوجية ولم تقدم إطارا سياسيا لوضعية الجزائر وأمام هذا اللبس لم تجد بدا إلا باصطناع مصطلح التشرد كمفهوم جديد لحالة ركود المجتمع الجزائري وتخلفه جراء اختلال في النمو الديموغرافي والاقتصادي.[1]

استطاعت هذه الكاتبة من خلال هذا الكتاب أن تعرف الكثير من الفرنسيين في المتروبول بازدواجية النمط الاقتصادي وخاصة الزراعة، فبينت وجود قطاع عصري تستحوذ عليه أقلية فرنسية، وقطاع بدائي ينتشر عند السواد الأعظم من الجزائريين.

ونتساءل كيف أن تيون لم تستطع تغليب الجانب الموضوعي في كتابها فلا يخفى على أحد أن الجزائر المستعمرة قد عرفت اللاعدالة في القوانين السياسية بين الأقلية الأوروبية والأغلبية الجزائرية، لكنها في المقابل راحت تفكر في وسائل عمل تمكن من بقاء تعايش هاتين الفئتين في أرض واحدة وهي الجزائر، وتخلص إلى استحالة استغناء الجزائر عن الفرنسيين الذين فرضوا نظاما إداريا وأثروا فيها بشكل كبير بنمطهم الاجتماعي والثقافي.[2]

وعلى الرغم من نجاح الكتاب إلا أنه يكتنفه الكثير من الغموض وتذكر تيون أن الحزب الكولونيالي قد استعمل الكتاب لينشر إشاعة مفادها أن الجزائر لن تستمر دون فرنسا وأن الحلول التي اقترحتها تشبه كثيرا مشروع قسنطينة الذي جاء به شارل ديغول سنة 1958، ومن ثمة فإن الجزائريين مجبرون على قبول استمرار العيش مع الفرنسيين حسب هذا الاعتقاد أو بمعنى آخر" فرنسا أو المجاعة".[3]

ومن الواضح جهل جرمان تيون للأبعاد التاريخية والسياسية للجزائر، حين تذكر أن أهداف جبهة التحرير الوطني ليست استقلال الجزائر فحسب بل تكوين اتحاد شمال إفريقي مكون من تونس والمغرب مشترك مع الجزائر تكون له الحرية في اختيار استقلاله ويمكن لهذا الاتحاد أن يتحالف مع فرنسا.[4]

1 تيليون، المرجع السابق، ص ص 29-31.

2 Kelle, Op. cit, p 31.

3 Vidal-Naquet, Op. cit, p 141.

4 تيليون، المرجع السابق، ص ص، 66-69.

ونستشعر شيئا من "الشوفينية Chauvinisme"* في كتاب "الجزائر سنة 1957"، خاصة حينما ترى هذه الكاتبة أن مصير الجزائر وفرنسا هو مصير واحد [1] وحسب تيون فإنه يمكن لفرنسا الاستغناء عن العمال الجزائريين في المتروبول، لكن لا يمكن للجزائر الاستغناء عن الأموال التي يبعث بها هؤلاء لذويهم، وترى من جهة أخرى أن رحيل الفرنسيين من الجزائر سيحطم كل البنى الاقتصادية للجزائر وينتج عنه بقاء الجزائريين يتخبطون في مشاكل لا حصر لها بعد أن تأقلموا بامتعاض مع الآليات الأوربية والتي لا يمكنهم الاستغناء عنها.[2]

ومن هذا المنطلق حسب تيون فإنه لا يمكن الفصل بين جزائر الجزائريين وجزائر الفرنسيين[3] متناسية أن مطلب الجزائريين هو استرجاع سيادتهم وسيادة أنفسهم، وأن بقاء الفرنسيين في الجزائر –على الأقل في تلك الظروف– سينجم عنه إحساس الجزائريين بعدم استقلالهم، وأن ما أسسته فرنسا من سياسة خلال أكثر من قرن من الزمن في الجزائر قد انهار خلال فترة وجيزة على الرغم من أن هذه الأنظمة الاستعمارية قد تم وضعها بعد خبرة المعايشة –التي مهما كانت نوعيتها– لخدمة أقلية أوربية.[4]

وبات من الواضح إذن أن تيون لم تفهم جيدا الجزائريين أو أساءت فهم مطلبهم فالثورة التي قام بها هؤلاء اندلعت من ذلك الإصرار لاسترجاع وطنهم ووطنيتهم وأرضهم التي ينتمون إليها [5] فكان من الطبيعي أن نلمس عدولا أو رفضا منها لإدانة الممارسات الفرنسية في الجزائر، ونجدها عكس ذلك تدافع عن السيادة الفرنسية ولا

---

* الشوفينية، نسبة لجندي فرنسي اسمه شفان " Chavin" والذي شارك حملات نابليون وكان متحمسا ومتقدا لسياسة الغزو الفرنسي، وهي الاعتقاد المغالي في الوطنية، وتعبر عن غياب رزانة العقل والاستحكام في التحزب لمجموعة ينتمي إليها الشخص والتفاني في التحيز لها؛ وخاصّة عندما يقترن الاعتقاد أو التحزب بالحط من شأن جماعات نظيرة والتحامل عليها، وتفيد معنى التعصب الأعمى أنظر: ناظم عبد الواحد الجاسور ، موسوعة علم السياسة، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع عمان الأردن، الطبعة الأولى –الإصدار الثاني، 1420هـ - 2009، ص 230.

1 Vidal-Naquet, Op. cit, pp, 142-143.

2 تيليون، المرجع السابق، ص64.

3 Germaine tillion, les Ennemis complémentaires, les Editions de Minuit, 1960.p.21.

4 Tillion, les Ennemis, Op. cit, p15

5 Wood, Op. cit, p 195.

تشير إلى ما يقوم به المحتل، ويمكن القول أنها محاولة لإعادة ترتيب بيت فرنسا في الجزائر من خلال عملية الإدماج لاحتواء طموح الشعوب المستعمرة، وعلى كل فإن البعض يصنفون ما جاء في كتابها كمزيج بين التحليل الاجتماعي والإنساني الذي حاولت فيه مناقشة الكيفية التي أصبح فيها صراع الحضارات آلية للعنف، في فترة كان ينبغي على فرنسا تحضير الجزائريين لتقبل ما جاءت به فرنسا حضاريا.[1]

وإذا كانت مواقفها تتسم بالضبابية في كتاب "الجزائر سنة 1957" فإن تلك المواقف ستتغير جذريا في النسخة المنقحة والمزيدة ببعض النصوص والتي أصدرتها لهذا الكتاب سنة 1960 الموسوم بـ "إفريقيا تتأرجح نحو المستقبل" L'Afrique bascule vers l'avenir" أين كان الكثير من الفرنسيين مقتنعين بحقيقة واحدة وهي بقاء الجزائر فرنسية وذهبت تيون إلى هذا المنحى، لكن بداية من الستينيات بدأ يظهر أن ما كان يؤمن به هؤلاء لا يعدو أن يكون مجرد سراب.

بعد تعيين تيون مديرة للدراسات التطبيقية للدراسات العليا (EPHE) ستصدر مقالا معنونا بـ" في الأوراس مأساة الحضارات العتيقة" " Dans l'Aurès le drame des civilisations archaïques" نشرته في مجلة الحوليات، اقتصاديا ت مجتمعات، وحضارات" "Annales. Économies, Sociétés, Civilisations" ومن خلاله أرادت توضيح الكثير من الأفكار التي طرحتها في كتابها "الجزائر سنة 1957" مؤكدة أن ظروف عيش سكان منطقة الأوراس المادية خلال فترة الأربعينيات من القرن العشرين الميلادي هي شبيهة بشكل كبير بتلك التي كانت في ما قبل التاريخ، ورأت هذه الكاتبة أن أغلب قبائل الأوراس تعيش في نسق اقتصادي مغلق شبه كامل ولا تلجأ خارج حيز القبيلة إلا عند الضرورة القصوى.*

1 Le Sueur, James D, Uncivil War : Intellectuals and Identity Politics During the Decolonization of Algeria, Second édition, University of Nebraska Presse, 2005, pp 165-166.

* يمكن أن نتساءل عمَّ إذا كان اهتمامها بسكان الأوراس من قبيل الأطروحة البربرية أو كما يصفها "آجرون" بالوهم أو الأسطورة البربرية؟ وهل كان هذا الاعتناء الذي توليه تيون للأعراف والتقاليد والعادات والفلكلور واللهجات يدخل في إطار تفتيت وحدة الشعب الجزائري بتشجيع النزعات الإقليمية والميول الجهوية الرافضة للإنتماء الحضاري؟، أنظر: ناصر الدين سعيدوني، نظرة التاريخ في البعد التاريخي للثورة الجزائرية أي المشروع الحضاري للثورة الجزائرية، معالم بارزة في ثورة نوفمبر=

ومن ناحية سياسية تضيف هذه المؤلفة أن سكان هذه المنطقة لا يعون وجودهم إلا عندما يكونون في مواجهة قبائل أخرى عدوة لها وغالبا ما يكون لها حليف يضمن توازنها، وهي بذلك تخلص إلى ما ذهب إليه غيرها من الفرنسيين الذين أقروا وجود صراعات دائمة بين مختلف قبائل الجزائر والتي عملت السلطات الفرنسية على إفشاء السلم بينها.[1]

ولئن كان ما ذكرته آنفا لا يحتمل التأويل في أن "الاستعمار نعمة" فإنها من جهة أخرى تؤكد أن مشكل المجتمع الأوراسي الذي تسقطه على كل المجتمع الجزائري خاصة في الريف يكمن في الاستغلال المفرط للمقدرات من أشجار الغابات والأشجار المثمرة وعدم الاهتمام بالجانب الزراعي كالسابق، فقد تم إهمال ترميم الأسوار الداعمة الصغيرة للأراضي في المناطق الجبلية التي يطلق عليها زراعة المدرجات، وتم إهمال استعمال الأسمدة والدورات في زراعة المحاصيل الذي بدوره يؤدي إلى عدم إفقار التربة وقابل هذا التردي والتقهقر ارتفاع عدد السكان بشكل ملحوظ.

والأهم من ذلك أن هذه الأنثربولوجية قد لاحظت توجه سكان منطقة الأوراس نحو الاستقرار بعدما كان هؤلاء يرتحلون في الشتاء والصيف، الأمر الذي رحبت به السلطات الاستعمارية الفرنسية لأن ذلك يضمن لها سهولة التحكم في هذه القبائل وتحصيل الضرائب منها، ومهما يكن فإننا نلاحظ استعمال هذه الكاتبة لمصطلحات بعيدة عن السياق التاريخي الذي عرفته الجزائر في تلك الفترة كأن تكتب" السلطات العمومية" "Pouvoirs publics" بدل السلطات الاستعمارية متناسية الإجحاف وعدم المساواة بين الجزائريين والفرنسيين في الحقوق والواجبات.[2]

ولاحظت تيون في الموضوع نفسه أن الارتحال الذي تقوم به القبائل عملية نسبية لا يمكن تعميمها، فحين تتبع كل العائلة قطيع ماشيتها للانتجاع خلال فصول السنة

= 1954م في الملتقى الأول بباتنة سنة 1989م، جمعية أول نوفمبر، مطبعة عمار قرفي باتنة، الجزائر 1992، ص 160-161.

1 Germaine Tillion, Dans l'Aurès le drame des civilizations archaïques, In : Annales. Économies, Sociétés, Civilisations, 12e année, N° 3, Juillet-Septembre, Armand Colin, 1957, p 393.

2 Tillion, Dans l'Aurès, Op. cit, p 394.

تصبح بشكل آلي من البدو الرحل، لكن إذا ناب عنها الرعاة في تلك العملية تصبح هذه القبائل مستقرة، ولكن هذه الكاتبة الأنثربولوجية لم تشر إلى وجود نمط عيش يطلق عليه بنصف البدو عند قبائل الأوراس، والأكثر من ذلك تحاشت التكلم عن الاضطرابات التي حدثت في الحياة الاجتماعية لهؤلاء في ظل الاستعمار الفرنسي وكيف تحولت معظم القبائل إلى حياة بائسة واستبدلت مساكنها من الخيمة التي لم تستطع تجديدها بسبب الحاجة إلى القوربي.[1]

وتقدم هذه المؤلفة ملاحظات نراها مهمة عندما كتبت عن التركيبة الاجتماعية التي كانت سائدة في الجزائر وخاصة في منطقة الأوراس، وهي القبيلة التي تستمد قوتها من عنصر القرابة والذي يمثل أيضا مصدر فخر لها، ورغم ذلك إلا أنها لم تستطع مقاومة تفكيك الملكية الجماعية للأرض، ولئن كانت سلطات الاحتلال تريد بذلك تسهيل انتقالها للمعمرين الأوربيين إلا أن تيون تتغافل عن ذكر ذلك مكتفية بالإشارة إلى القوانين الفرنسية التي أدت إلى خلق "الدوار" والقرى في أعماق الجزائر، وهذا نتيجة ما أطلقت عليه تيون بـ"الاتصال بالحضارة الأوربية" فتستعمل مفاهيم لا يمكن أن نصفها إلا بالمضللة، وهذا ليس بغريب عن فرنسية مازالت تؤمن بنعماء الاستعمار على الشعوب المستعمرة [2]، ومن الحقيقة أن نقول أنه بقدر تقدم العالم الأوروبي في البناء الحضاري بقدر ما صاحب ذلك شعور بأن الجانب المادي لهذه الحضارة لا يمكن أن يكون إلا ضمن هيمنة المتقدم الأقوى على الضعيف المتخلف فتنقلب مفاهيم مثل السلب، الهيمنة، الاحتلال إيديولوجيا إلى إرادة في نقل الحضارة والثقافة إلى هذه الشعوب المستعمَرة.[3]

وعندما تتكلم تيون عن الأنفة والشرف تستدل على ما يطلق عليه عند قبائل الشاوية في منطقة الأوراس بـ "أخنفوف" أو الأنف دلالة على العزة والحَمِيّة فإنها تحاول جاهدة إيجاد علاقة تربط الجزائريين بالأوروبيين من خلال تقديم أمثلة تثبت

1 عدي، المرجع السابق، 98-99.

2 Tillion, Dans l'Aurès, Op. cit, p 395.

3 وقيدي، المرجع السابق، ص ص 132-143.

ذلك مثل ما يعرفه المسرح الاسبان ي في استعمال "الأنف" مرادفا للشرف أو عند بعض الكتاب المسرحيين الدراماتيكيين الفرنسيين.[1]

وتفترض تيون أن التنظيمات الاجتماعية العتيقة التي بقيت بعيدة عن المسؤولية المباشرة للفرنسيين تعرف نموا ديموغرافيا كبيرا يكون السبب في تحطيم دعائمها المادية، وقد كان تحويل الملكية الجماعية لأراضي القبائل إلى فردية أول الأسباب في هذا التحطيم، وعلى الرغم من إقرار هذه الأنثربولوجية بخطورة القوانين التي أصدرتها سلطة الاحتلال الفرنسي في الجزائر، إلا أننا نستشعر عدم إدانتها لهذه القوانين مثلما رأينا ذلك في كتابها "الجزائر في سنة 1957" بل تلوم عدم مرافقة الفرنسيين لتطبيقها بشكل سليم ونتيجة لذلك فقد أدت أولا إلى خلق"برزخ" بين الجزائريين والأوربيين في الجزائر وأدت ثانيا إلى فقدان السكان الجزائريين لمؤسساتهم التقليدية التي توارثوها عن أجدادهم والتي كانت تحميهم.[2]

تنبه جرمان تيون إذن إلى أن المجتمع الريفي الجزائري قد عرف تحولات هي سلبية في الواقع كانت الحضارة الفرنسية سببا فيها لكن دون قصد وتتساءل:" ما هو الشر الذي قمنا به "نحن الفرنسيون؟" –هذا التساؤل الذي نراه يطرح الكثير من الغبش– فتجيب أن الكثير من المزايا التي جاء بها المستعمر الفرنسي حسنت من الأوضاع المعيشية للجزائريين، فارتفعت نسبة الخصوبة وزاد عدد السكان مما أدى إلى هجرة كبيرة داخلية وخارجية نحو المتروبول، وبدأ نمط جديد في التعاملات بتحويل أموال المغتربين وظهور سلع جديدة، وقد أدى هذا التحول إلى إفلاس تسعة أعشار سكان الأرياف في منطقة الأوراس بل وفي كل الجزائر، ومما ساهم في هذا التقهقر السريع هو عيش أغلب سكان المناطق الريفية في مجال اقتصادي مغلق لكن الأمر تطور إلى أن أصبح للفلاح متطلبات تحتاج إلى أموال أكبر من تلك التي يمكنه الحصول عليها [3]، ويمكن القول أن التغيرات التي تبدو في ظاهرها للكثير علامات تطور اقتصادي واجتماعي لكنها عكس ذلك تماما، حيث استفاد منها القليل

1 أنظر هامش رقم 2 من: Tillion, Dans l'Aurès, Op. cit, p 396.

2 Tillion, Dans l'Aurès, Op. cit, p 397.

3 Ibid. pp 397-398.

على حساب الكثير، وإذا وقفنا على التغيرات الجذرية التي جاءت جراء السياسة الاستعمارية فإن هذه الكاتبة لم تشر ولو من بعيد إلى المحتشدات والمعتقلات والمناطق المحرمة وانعكاساتها السلبية على الريف في الشرق الجزائري.[1]

هكذا إذن نستنتج أن هذه الأنثربولوجية ركزت دراستها على المجتمعات التي "أطلق عليها" الأوربيون "البدائية" أو "المجتمعات القبلية" العتيقة التي لم تتمكن من حفظ توازنها في المجال الاقتصادي والاجتماعي إلا ببذل مجهود كبير في التسيير، لأنه كان لزاما عليهم العيش خلال كل أشهر السنة بإمكانات محدودة، وكانت تلك الوضعية تستمر في بعض الأحيان لسنوات معدودات.[2]

وعن نتائج ذلك الاختلال اضطر الكثير من سكان الأرياف إلى التنقل بعيدا بحثا عن العمل، والبعض منهم كان يجمع الحلفاء أو يصنع الفحم بعيدا عن أعين السلطات الاستعمارية الفرنسية بسبب قانون الغابات الذي يمنع استغلال أخشاب الغابات إلا بترخيص من سلطات الاحتلال، وقد يجبر الكثير على بيع آخر ما يملكونه من ماعز أو دواب ويلجؤون أخيرا إلى الاقتراض * بنسب فائدة كبيرة مقابل رهن جزء من أراضيهم.

وتجدر الإشارة إلى أن ج.تيون تحاول مناقشة الحلول لإخراج المجتمع الريفي من ذلك التقهقر الاقتصادي والاجتماعي، متسائلة عن الدور الذي يجب أن تلعبه المدرسة فتوصي بأن تحرص السلطات الفرنسية على تعميمه بشكل واسع، والذي لن يكون كافيا إذا لم يتم الاهتمام بتعليم الإناث.[3]

وتعترف تيون أنه من المجحف "عدم إدانة الاستغلال والاختلاس الذي تعرضت له المجتمعات التقليدية عند "اتصالها" بنمط مغاير للتطور" لكن من غير المعقول

---

1 Pierre Bourdieu Abdelmalek Sayad, Le Déracinement, La crise de l'agriculture traditionnelle en Algérie, Les Editions de Minuit, 1964. p 11.

2 Tillion, Dans l'Aurès, Op. Cit, p 399.

* قد يبدو للبعض أن مسألة الاقتراض من المؤسسات المالية الاستعمارية أمر سهل، لكن الكثير من هذه المؤسسات مثل" المؤسسة الأهلية للادخار" "Sociétés Indigènes de prévoyance" التي تأسست بموجب قانون سنة 1893 لتنوب عن المخازن التقليدية لكنها تحولت بشكل سريع إلى مؤسسات بنكية لا تقرض إلا الفلاحين الميسورين، أنظر: Abdelghani Megherbi, La Paysannerie algérienne face a la colonisation, Pour comprendre l'impératif historique de la Révolution agraire. Presses de l'E.N.A.P, 1973, Alger. P 86.

3 Tillion, Dans l'Aurès, Op. cit, p 400.

بالنسبة لها أيضا أن تبقى متقوقعة تعيش بعيدة عن التحضر، وهي تشير هنا إلى أنه من المجدي أن تتغلغل هذه الحضارة بشكل تدرجي عند هذه "المجتمعات المغلقة" للوصول إلى ما أطلق عليه بـ" التبلور الاجتماعي" حين يصبح "الوعي الاجتماعي" حاضرا في جميع مجالات الحياة الاجتماعية، ومن ثمة الوصول إلى مرحلة التشبع الاقتصادي والديني كما عرفته المجتمعات الأوربية.[1]

لكن ثمة الكثير من الأشياء التي تغاضت عنها هذه الباحثة خاصة أن المجتمع الوحيد الذي كانت تعترف به السلطات الفرنسية في الجزائر هو المجتمع المكون أساسا من المعمرين، أما الجزائريون فلم يكن لهم الحق في الحصول على خاصية أو ميزة "الإنسان الاجتماعي".[2]

ولم تتوقف هذه العنصرية عند هذا الحد لأن الهدف من هذه السياسة أساسا هو منع الجزائريين من الوصول إلى العدالة الاجتماعية بل تركهم يعيشون في فقر واستغلال جهدهم في العمل بأجور زهيدة، بل إن الأكثر من ذلك هو أن هذا الإرهاق الاقتصادي يعمل على إضعافهم سياسيا وبالتالي فإن سياسة الإدماج التي عولت عليها الإدارة الاستعمارية لم تنجح.[3]

سنرى لاحقا كيف أصبح للكتابات الأنثربولوجية بعد سياسي، انطلاقا من نظرة تيون لهذا العلم الذي تعدى الملاحظة السلبية، إذ وجب على الأنثربولوجيين – كما قامت هي– أن يكافحوا لصالح الشعوب المستضعفة ومنه تصبح هذه الكتابات فعالة ومحايدة، لكن هل أدانت هذه الكتابات الاستعمار الفرنسي في الجزائر؟[4]

إذا كنا لا نجد ما يشير إلى نزعة ج.تيون الإيديولوجية ولا نجد إدانتها للاستعمار في كتابتها المنشورة بشكل جلي، فإننا نجد إذا رجعنا إلى بعض الوثائق الموجودة في أرشيف ما وراء البحار بآكس أون بروفانس توصيات ومقترحات لها من شأنها أن

1 Tillion, Dans l'Aurès, Op. cit, pp, 401-402.
2 Megherbi, Op. cit, p 94.
3 Ahmed Henni, La colonization agraire et le sous-développement en Algérie, ENAG Editions, Alger, 2009. pp 109-110.
4 Badra moutassem-Mimouni, In memoriam : Germaine Tillion (1907-2008) De l'ethnologie du sauvage a L'anthropologie, In : Insaniyat, Revue Algérienne d'anthropologie et de sciences sociales. 13e Année 44-45 Avril-Septembre, CRASC, 2009. P 12.

تقضي على الثورة وتسترجع منطقة الأوراس، إذ تقترح أن يتم الاستيلا ء على كل القلاع الموجودة في هذه المنطقة والقريبة من مصادر المياه والتي تستعمل في تخزين حبوب القبائل وبالتالي فالسيطرة عليها تعني قطع الإمداد عن الثوار. [1]

وفي تقرير آخر بعثت به للحكومة العامة نجدها توصي أيضا بتوزيع الحبوب من طرف ضباط الشؤون الأهلية لعمال الورشات بأثمان مخفضة كمنح عائلية بهدف إعادة إحكام السيطرة على البلاد، وتدخل هذه المقترحات ضمن ما أطلقت عليه تيون "المراقبة الاقتصادية" قصد القضاء على المجاعة من جهة ومن جهة أخرى ضمان عدم إثارة الشكوك حول عمل هؤلاء الضباط والمساعدين الإداريين. [2]

ولتضفي عدالة اجتماعية على الكثير من المسائل كمسألة العقارات الزراعية التي سلبت من أصحابها، تقترح هذه الأنثربولوجية في تقرير آخر يخص قدماء المحاربين الذين يتلقون منح التقاعد– يبلغ عددهم حسب ذات التقرير في منطقة قسنطينة حوالي 10200 محاربا– إذ يخير هؤلاء بين مواصلة تلقي معاشاتهم بشكل طبيعي أو اقتطاع جزء منها وتلقي أراض زراعية بدلها تصبح ملكا في يد جماعة القبائل التي ينتمون إليها وتقوم هذه الأخيرة بحرث هذه الأراضي وبذرها ويوزع مردودها على أرامل وأيتام هذه القبائل. [3]

ومن بين المناطق والأراضي التي اقترحتها تيون والتي يمكن أن تطبق فيها هذه المقترحات؛ هي الأراضي التي استحوذت عليها الشركة الجنيفية بمرسوم إمبراطوري والذي منحها 20000 هكتار [4]"والأراضي التي تمتلكها الشركة الجزائرية La Compagnie Algérienne" والتي لا تقل عن 43233 هكتار موزعة على منطقة

1 ANOM 3R/286. Dossier Mademoiselle Tillion.
2. Ibid.
3. Ibid.
4 يمنح المرسوم الإمبراطوري الذي صدر في 26 أفريل 1853 20000 هكتار من أجود الأراضي في منطقة سطيف لمستثمرين سويسريين –الدكتور بول ايليزي لولان Paul Elisée Lullin والكونت فرنسوا أوغسطين سوتي دي بوروغار François Auguste Sautter de Beauregard بشرط أن تتكفل شركتهما الجنيفية هذه ببناء عشر قرى استيطانية مكونة من 50 موقدا في أجل أقصاه عشر سنوات أنظر: ANOM 3L / 1 "Projet de Decret"

عين عبيد، زيغوت يوسف، واد زناتي، وعين مخلوف التي كان يطلق عليها رنيي Renier خلال الفترة الاستعمارية.[1]

أ -موقف جرمان تيون من التعذيب في الجزائر خلال الثورة التحريرية:

إن مواقف الفرنسيين اتجاه الثورة الجزائرية قد بدت واضحة عند الأغلبية الساحقة منهم فقد كان هؤلاء معارضين لها وداعمين للسلطات الفرنسية لقمع كل من تسول له نفسه الخروج عن طاعة فرنسا، لكن ثمة ثلة من الفرنسيين خاصة المثقفون منهم عارضوا السياسة القمعية المستعملة لتصفية الثورة، ومن الطبيعي أن نجد أيضا من كان يساند القضية الجزائرية، فماذا عن موقف بعض الأنثربولوجيين من الجرائم والتعذيب الذي لحق بالجزائريين؟ يهمنا هنا معرفة موقف ج.تيون من التعذيب والقمع المسلط على الجزائريين.

لا يمكننا معرفة موقف ج.تيون بشكل جلي من سياسة القمع والتعذيب التي طبقت على الجزائريين كحل متطرف للقضاء على الثورة إلا بمعرفة الظروف التي كانت تحيط بمواقفها التي تخص الجزائر.

ففي مستهل سنة 1957 قرر قادة جبهة التحرير الوطني تكثيف العمليات في مدينة الجزائر والقيام بإضراب الثمانية أيام لإظهار قوة الثورة وإظهار دعم الشعب الجزائري لجبهة التحرير وارتباطه بها، هذا الإضراب التاريخي الذي كان نجاحه مقترنا بشكل كبير بعملية الدعاية التي سبقته بواسطة المناشير وعبر إذاعة "صوت الجزائر الحرة المكافحة" خلال تلك الفترة [2] وقد صادف هذا الإضراب الذي بدأ بتاريخ 28 جانفي 1957 انعقاد الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة.[3]

ومنذ الفاتح من جانفي سنة 1957 وفي السنة نفسها منح الوزير المقيم "روبير لاكوست Robert Lacoste" صلاحيات بوليسية واسعة للجيش الفرنسي في الجزائر واتبع إستراتيجية تقضي بتوظيف القوى المادية والبشرية لخنق الثورة ولإحلال ما

1 ANOM 3R/286. Op.cit

2 يحيى بوعزيز، ثورات الجزائر قي القرنين التاسع عشر والعشرين، دار البصائر للنشر والتوزيع، طبعة خاصة، 2009، ص 177.

3 Wood, Op, cit, p 201.

سمي بـ"النظام" في مدينة الجزائر [1]، وقد لعب المستوطنون دورا حاسما في توجيه مصير فرنسا في الجزائر يحركه دفاعهم عن مصالحهم وامتيازاتهم، الأمر الذي أدى إلى إطلاق السلطات الاستعمارية العنان لاستعمال ممارسات إجرامية يساعدها هؤلاء من خلال تسليحهم في المدن والأرياف [2]. وتجسيدا لهذه السياسة الدراكونية عمد جيش الاحتلال الفرنسي بأوامر من الجنرال ماسو إلى توسيع العمليات الإرهابية في كل ربوع الجزائر وفي المدن الكبرى مستغلا الإضراب ومحاولة إبطاله فنتج عنه عمليات قتل وحشية وتعذيب واعتقالات عشوائية استهدفت الأبرياء.[3]

وقد كان لهذه العمليات صدى كبير فإن ج.تيون بالإضافة إلى ما ذكر من أسباب سابقة ستكون لها علاقة بالثورة التحريرية كأنثربولوجية عانت من ويلات المعتقل والتعذيب على يد الألمان خلال الحرب العالمية الثانية.

وقد تكون قضية اغتيال علي شكال–* الذي يمثل أحد شخصيات "ممثلي الجزائر المسلمين" التي اختارها جاك سوستيل لإيجاد حل ثالث تحت الوصاية الفرنسية، هذه العملية التي نفذها محمد بن صادوق **أحد أعضاء المنظمة الخاصة بفرنسا–. [4] نقطة تحول بالنسبة لتيون عند حضورها لجلسات محاكمة محمد بن صادوق وكانت بادرة القطيعة بينها وبين السياسة الرسمية الفرنسية وبينها وبين زميلها الأنثربولوجي جاك

---

1 Wood, Op. cit, p 201.

2 جمال قنان، قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، طبع المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار وحدة الطباعة بالرويبة، 1994، ص ص 272-274.

3 بوعزيز، المرجع السابق، ص 210.

* علي شكال ولد بتاريخ 23 سبتمر 1896 بمعسكر من أسرة مرابطية وبعد مزاولته الدراسة الثانوية بوهران ثم الجزائر تحصل على شهادة الليسانس في الحقوق، انضم إلى نقابة المحامين بمسقط رأسه ليصبح رئيس لها، انتخب عضوا في المجالس النيابية تحت راية الوفاق الفرنسي الإسلامي، تقلد عدة مناصب في الإدارة الفرنسية كمستشار قانوني، ولم يتوان في التعبير عن ثقته العمياء حول مصير الجزائريين تحت الراية الفرنسية، وهو الذي عبر مخاطبا الجزائريين والفرنسيين في الجزائر قائلا: " مصالحكم مرتبطة بمصالح إخوانكم الفرنسيين مثل قدر الجزائر الفرنسية مرتبط بفرنسا وطننا الوحيد" أنظر: Le Monde, 28.05.1957 LA Carrière de M. Ali Chekkal

** محمد بن صادوق ولد بمدينة عنابة سنة 1931، وقد لعب اختلاطه بالأوربيين في الحي الذي كان يقطن فيه في إيقاظ وعيه الوطن، انظم إلى الكشافة والتكوين المهني، استدعي سنة 1951 لتأدية الخدمة الوطنية، ثم انتقل الى فرنسا سنة 1955 الى منطقة الألزاس ثم إلى باريس ليصبح عضوا في المنظمة الخاصة بفرنسا أنظر: دحو جربال، المنظمة الخاصة لفيدرالية فرنسا لجبهة التحرير الوطني، تاريخ الكفاح المسلح لجبهة التحرير الوطني في فرنسا (1956-1962)، ترجمة سناء بوزيدة، منشورات الشهاب، 2013، ص ص180-181.

4 جربال، المرجع السابق، ص 77.

سوستيل وذلك بتقديمها لوثائق تثبت وجوب إعادة النظر في السياسة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر.

والحقيقة أن هذه المحاكمة قد خلفت صدى كبيرا لدى الطبقة المثقفة الفرنسية في المتروبول وليس فقط لدى تيون فقد صرح جون بول سارتر * Jean Paul Sartre والذي كان حاضرا هو أيضا في هذه المحاكمة قائلا: " هناك فرق بين من يقتل الأبرياء والاغتيال السياسي"، أما سيمون دي بوفوار ** Simone de Beauvoir فصرحت:" مازال بعض الرجال الفرنسيين قادرين أمام جزائري أن يحكموا وفق ما تمليه ضمائرهم".[1]

* سارتر جون بول، فيلسوف وجودي فرنسي ولد سنة 1905 كان من بين المدافعين عن استقلال الجزائر وقع سنة 1955 افتتاحية مجلة الأزمنة الحديثة معنونا "الجزائر ليست فرنسا" وله كتاب شهير يعبر عن موقفه الصريح المساند للثورة وهو كتاب عارنا في الجزائر" توفي سنة 1980، أنظر: شرفي المرجع السابق، ص ص، 188-189.

** دي بوفوار سيمون ولدت سنة 1908 بباريس اسمها الكامل Simone-Lucie-Ernestine-Marie Bertrand de Beauvoir هي كاتبة ومفكرة وفيلسوفة وجودية فرنسية وناشطة سياسية ونسوية ارتبطت مع جون بول سارتر لفترة زاولت التعليم في طور الثانوي، وكانت من بين النسوة التي شاركن في تحرير صحيفة الأزمنة الحديثة كانت من بين الكتاب الأوائل المؤيدين للثورة الجزائرية وكانت عضوة ضمن الجمعيات اليسارية التي طالبت بجلاء القوات الفرنسية من الجزائر فكانت محل تهديد ومتابعة من طرف المنظمة الفرنسية L'O.S توفيت سنة 1986، أنظر: شرفي، المرجع السابق، ص ص201-203.

1 Lacouture, Op.cit.pp 271-272

ب-عضوية تيون في اللجنة الدولية ضد القمع ونظام المعتقلات CICRC:

رغم مغادرة ج. تيون أرض الجزائر نحو فرنسا إلا أنها بقيت متتبعة لكل ما يحدث في الجزائر، ويذكر الكاتب "جون لاكوتير Jean Lacouture" أنها كانت على اتصال شبه دائم مع مولود فرعون الذي كان يزودها بآخر المستجدات في الجزائر في ظروف كانت قد اشتدت فيها الثورة بالأحداث التي عرفتها الجزائر العاصمة أو ما أطلق عليه "حرب الجزائر La Guerre d'Alger"[1]، إذ انتشرت الأعمال الإجرامية للجيش الفرنسي على يد المظليين. وقد خولت عضوية تيون في " ADIR الجمعية الوطنية لقدماء المعتقلين والمبعدين من المقاومة Association des Déportées et Internées de la Résistance " أن تطلب من رئيس اللجنة الدولية ضد القمع ونظام المعتقلات أن يفتح تحقيقا حول ما يحدث في الجزائر من انتهاكات والظروف التي تجري فيها عمليات الاعتقال والسجن من طرف قوات الأمن الفرنسية في الجزائر [2]، وكانت هذه الأنثربولوجية من بين الأعضاء المشاركين في هذا التحقيق ويتلخص عملها في صياغة تقريره.

وبعد أن منح غي مولي الترخيص في 25 أفريل 1957 لهذه اللجنة حلت بالجزائر بتاريخ 18 جوان 1957 وباشرت بزيارة المعتقلات والسجون واستغرق عملها 17 يوما[3]، وفي غضون هذه الأيام زارت هذه اللجنة زهاء تسعة معتقلات عبور، وتسعة سجون وسبع إقامات جبرية أنشأها الحاكم العام جاك سوستيل منذ سنة 1955.[4]

ورصدت هذه اللجنة في تقريرها أنه كلما كثفت جبهة التحرير أعمالها قابلتها السلطات الاستعمارية الفرنسية باعتقالات عشوائية تعرض فيها الموقوفون لمختلف أنواع التعذيب والسجن خارج الأطر القانونية لذلك.[5]

وعند زيارة تيون للسجون وجدتها مليئة بالجزائريين وكان من بين المسجونين أصدقاء لها تعرضوا لأشد أنواع التعذيب، التي أطلقت عليها تسمية "الممارسات

1 Lacouture, Op.cit, p 272.
2 Sacriste, Op.cit, p 74.
3 Tillion, Les Ennemies, Op.cit, p 37.
4 Wood, Op.cit, p 205.
5 Ibid, p 206.

النازية".[1] ومما زاد الأمر خطورة أن هذه الاعتقالات والاختطافات كانت تتم دون السماح للموقوفين في الدفاع عن أنفسهم أمام المحاكم، ويبدو أن هذه الأعمال قد أثرت كثيرا على هذه الأنثربولوجية فطالبت السلطات الفرنسية العليا بالتدخل السريع لإيقاف هذه الممارسات.[2]

وفي المقابل أقرت سلطات الاحتلال الفرنسي القيام بهذه الأعمال وحاولت تبريرها بأنه كان عليها استنطاق الموقوفين وجمع المعلومات بشكل سريع للحد مما أطلقت عليه ذات السلطات "بالعمليات الإرهابية" وإنقاذ أرواح الأبرياء، وما كانت تقوم به إذن مختلف قوات الأمن الفرنسية نظرت إليه سلطة الاحتلال على أنه كان يتم في "ظروف استثنائية". [3]

وحسب بعض المصادر فإن ج.تيون كثفت من مساعيها لإيقاف أحكام الإعدام التي كانت السلطات الفرنسية تنفذها في حق الجزائريين، وطالبت أن تتم تسمية ما يحدث بالجزائر "بالحرب" وليس بعمليات إرهابية يقوم بها "الفلاقة" كما طالبت أن نفرق أمام العدالة المسؤولين المتهمين الذين يقومون بجرائم باسم فرنسا، ونددت بما أطلقت عليه "جبن الساسة الفرنسيين" لأنهم لم يتعاملوا بشجاعة مع "المشكل الجزائري" ونددت أيضا بتقاعس المثقفين الفرنسيين.[4]

ومن جهتنا فإننا لا ننكر كون ما كانت تقتنع به ج.تيون خلال السنوات الأولى من اندلاع الثورة الجزائرية هو وليد ظروف خاصة ألمت بها وأثرت في رؤيتها للأحداث، فهي التي ظلت إلى وقت قريب تظن أن الجيش الفرنسي بترسانته وتعداده يمكنه إخماد الثورة، لكن بعد الظروف التي عاشتها الجزائر بدأت تيون تؤمن كالكثير من الفرنسيين أن الثورة ماضية لتحقيق أهدافها ولا شيء يمكنه إيقافها وأن قضية الجزائريين قضية عادلة.[5]

1 Lacouture, Op. cit, p 273.
2 Sacriste, Op.cit, pp 76-77.
3 Wood, Op, cit, pp 206-207.
4 Kelle, Op.cit, p 41.
5 Tillion, Les Ennemies, Op.cit, p 38.

ويبدو أن تيون استشعرت جور السياسة الفرنسية في الجزائر، لكنها بقيت مترددة في اتخاذ مواقف واضحة وصريحة مما يحدث في الجزائر، رغم أنها اقترحت في وقت سابق على الحاكم العام جاك سوستيل فتح حوار مع قادة جبهة التحرير الوطني لكنه رفض وصرح: " أنه لن يفتح أبدا حوارا سياسيا مع أولئك الذين يريدون وضع حد لفكرة الجزائر الفرنسية"، ويكون هذا التصريح هو السبب الذي عجل بتقديم تيون استقالتها من مكتب هذا الحاكم الذي طلب منها أن تتكلف بالمراكز الاجتماعية لأنها أكثر إنسانية من السياسة.[1]

ولا ننكر بذلك وجود دوافع إنسانية وراء التغير الهام في مواقف تيون إزاء ما تقوم به فرنسا من أعمال إجرامية في الجزائر [2]، وتكون الأحداث التي مرت بها تيون سببا في إدراك ما كان يعانيه الجزائريون، وأصبحت فيما يبدو أكثر وعيا بأسباب الثورة الجزائرية التي لا تتلخص في مشاكل اجتماعية فقط، وليس من العسير أن نلحظ مدى تأثرها بأحكام الإعدام حين ناشدت السلطات العليا في المتروبول لإيقافها واتصلت بأندري بولوش الذي كان مقاوما للاحتلال النازي وتم اعتقاله من طرف الألمان مثلها وكانت تتساءل قائلة : "إذا كان من واجبنا مقاومة الألمان من أجل فرنسا في السابق، فما هو ذنب الجزائريين في مقاومة فرنسا من أجل أرضهم؟[3]

الواقع أن التعذيب والتنكيل والممارسات الشنعاء التي قام بها الجيش الفرنسي في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية كان له دور بالغ في إحياء ضمائر الكثير من الفرنسيين خاصة الصحفيين والمثقفين منهم، إذ عبرت تيون بشكل صريح في كتابها "Les Ennemis Complémentaires" "الأعداء المتكاملون" أن ما أحس به بعض المحاربين الفرنسيين القدماء ضد النازية قد لمسوا الشيء نفسه عند الجزائريين حين كتبت : " وبالنسبة للفرنسيين الذين يحبون وطنهم في الحالة التي يحسون بذلك التضامن الذي يربطهم بأبناء بلدهم، فإنهم يعتبرون أنفسهم كمسوؤلين عن الجرائم التي قام بها غيرهم ويريدون بلهفة إصلاحها (التكفير عنها)...وإذا كان

1 Tillion, Combats, Op. cit, p 254.
2 Sacriste, Op.cit, pp 81-82,85-87.
3 Tillion, Les Ennemies, Op. cit, p 151.

هذا لا يكفي فإن صدف التاريخ أرادت أن يكون البعض من الذين شهدوا الآلام ومعاناة الشعوب الأخرى... أن يعرفوا بشكل مباشر منذ عشرين سنة هذه المحن نفسها".[1]

ومن جانب آخر كان الكثير من الفرنسيين يظنون أن القوة العسكرية لفرنسا كفيلة بإخماد الثورة التحريرية لكن من خلال كتابات تيون في الستينيات من القرن العشرين نجد أنها بدأت تؤمن أن الثورة ماضية لا يمكن لأحد إيقافها وأصبحت هذه الأنثربولوجية بذلك تعتقد أن القمع الذي مارسه الفرنسيون وخاصة "جاك ماسو" هو الذي حطم أمل تعايش الفرنسيين مع الجزائريين وأدى إلى تضامن أكبر لهؤلاء مع جبهة التحرير.[2]

اعتبرت نهاية سنة 1957 بداية نضال ج.تيون ضد العنف و"الحرب" ولهذا ستحاول هذه الأنثروبولوجية إعادة كتابة الأحداث التي مرت بها الجزائر خلال الثورة التحريرية بوضعها في سياق تاريخي مع إبداء مواقف مغايرة لتلك التي تبنتها في بداية الثورة وكان من نتائج ذلك كما ذكرنا سابقا إصدارها لكتاب أعداء متكاملون "Ennemies complémentaire" والذي تظهر فيه ميلها لاستقلال الجزائر وفي المقابل تظهر فيه أيضا التزامها بالسياسة *الديغولية.[3]

نتيجة لهذه الخلفية تؤكد بعض المصادر أن ج.تيون من بين الشخصيات الست بالإضافة إلى لويس ماسينيون التي أمضت على الوثيقة التي رفعت إلى قصر الإليزيه l'Élysée والتي طالبت فيها بحث الحكومة لإعادة ديغول إلى الحكم لأنه الشخص الوحيد حسبهم الذي يمكنه إنقاذ فرنسا.[4]

---

[1] Tillion, Les Ennemies, Op. cit, p152.

2 Sacriste, Op.cit, p 89.

* للاستطراد فيما يخص السياسة الديغولية يمكن الرجوع إلى: بديدة، المرجع السابق وهي رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر تغطي الفكر والحركة الديغولية من سنة 1940 إلى 1945 وللبحث عن الديغولية إبان الثورة الجزائرية يمكن الرجوع إلى: Horne, Op. cit.

3 Sacriste, Op.cit, p 92.

4 Le Monde : 19/05/1958. “Un article de Germaine Tillion dans " Preuves " " Nous avons chacun - nos adversaires et nous -la moitié du remède qui peut sauver ce peuple algérien ".

وإذا ما تمعنا في ثنايا هذا الكتاب لاحظنا أن إصدار تيون لكتاب "أعداء متكاملون" كان ردا على الانتقادات التي تلقتها حينما نشرت كتابها "الجزائر سنة 1957" محللة فيه ظاهرة الاستعمار في إطار عام ومن زاوية أنثربولوجية.

ورأت أن ظاهرة الاستعمار حتمية على الشعوب المتخلفة لأن العصرنة التي بدأت في الدول الغربية في نهاية القرن 18م تلتها مرحلة تصنيع كان من نتائجها حركة استعمارية مارستها الدول المتقدمة.

وانطلاقا مما سبق ذكره فإن تيون تفترض أن المرحلة التاريخية التي مرت بها الجزائر– وتقصد هنا الثورة التحريرية– خلال الخمسينيات قد أفضت إلى تقويض العلاقة بين المستعمِر والمستعمَر، وتعتقد أن احتكاك الدول المستعمرة بالتطور الحضاري خلق لديها وعيا يتمثل في ضرورة القيام بالكفاح من أجل التحرر، ووجب على فرنسا وغيرها من الدول الاستعمارية تقبل هذا التطور التاريخي.[1]

وإذا كنا نلمس اهتمام ج.تيون الزائد بصورة فرنسا في العالم بسبب الممارسات المشينة التي قام بها الجيش الفرنسي – باسم "الوطن الأم" "فرنسا"– في الجزائر خلال الثورة التحريرية فإننا نجدها تناضل من أجل إصلاح هذه الصورة، وتقترح كأول مرحلة من أجل ذلك حل ما أطلقت عليه "المشكلة الجزائرية الفرنسية" والذي يتطلب "إعادة العدالة" والاعتراف بحق الجزائريين في الاستقلال.[2]

لقد كان التاريخ الاستعماري الذي عرفته الجزائر بالنسبة لجرمان تيون في بدايته غزوا باستعمال الحرب، ثم استقرار للغرباء "وهم الكولون" بالقوة العسكرية وتمت تهيئة الجزائر لهم على حساب السكان الجزائريين بترسانة من القوانين الظالمة التي أدت إلى صدمة كبيرة استمرت طوال الفترة الاستعمارية.

وعندما تحلل هذه الكاتبة ظاهرة الاحتلال الاستيطاني فإنها ترى أن الأقلية الأوروبية التي قامت أساسا باحتلال ريفي تطور شيئا فشيئا ليصبح احتلالا حضريا بالمدن* وأدى إلى ميلاد طبقة اجتماعية ذات رأي عام واضح وفريد من نوعه يتميز

1 Sacriste, Op. cit, pp 99,100.

2 Ibid. p 100.

* بعد أن كان الكولون اللوبي المسيطر في مقاليد الحكم في القرن 19 أصبح للأقدام السوداء دور بارز في الحواضر خلال الثورة التحريرية، أنظر : سعد الله، أبحاث، المرجع السابق، ص 50.

بروح عدائية ضد الجزائريين، مما دفعها إلى تنظيم نفسها كقوة * مؤثرة وفاعلة في الحياة السياسية الفرنسية.[2]

ولا ننكر أن السياسة الفرنسية الاستعمارية قد تطورت بمرور الوقت لتحكم قبضتها في نهاية القرن التاسع عشر والعشرين الميلاديين على الجزائر والجزائريين، ويمكن أن نطلق عليها قمة الامبريالية الفرنسية في الجزائر لكن العداء الفرنسي للجزائر قد كان منذ بداية الاحتلال بل أسبق من ذلك بكثير، غير أن وجود المعمرين هو الذي عززه بشكل رهيب، ويمكن أن نؤكد أن تلك الطبقة الاجتماعية الفرنسية هي التي هيكلت المجتمع الاستعماري في الجزائر خلال الستينيات من القرن 20 م فكان مجتمعا مغلقا على نفسه أبعد الجزائري لأنه في نظره رعية من درجة ثانية.

ولئن كان الفرنسيون أقلية إلا أنهم مارسوا قمعا كبيرا على الأغلبية الجزائرية، وفي الوقت نفسه كانت تقدم أمثلة عن التحضر أبوابه موصدة على الجزائريين، ويمثل قانون الأهالي خير دليل على ذلك، ويكفي أن نستعير ما قال عنه الدكتور أبو القاسم سعد الله : " يظل الأنديجينا نموذجا فريدا في إساءة السلطة وفي سوء المعاملة بين البشر، وفي العنصرية. ومع ذلك يعلن الفرنسيون أنهم حملة حضارة وأصحاب رسالة تمدينية ويلعنون الجزائريين على تعصبهم وتخلفهم لأنهم لم يسارعوا لاحتضان تلك الحضارة واعتناق هذه الرسالة".[1]

وقد اعترفت تيون أن هذا الاضطهاد الذي عرفه الجزائريون امتد إلى كل المجالات ففي مجال الشغل احتكرت الأقلية الأوربية المناصب الإدارية، وفيما يخص المدرسة فقد كانت هي أيضا رمزا واضحا وفاضحا لهذا الظلم "اللاعدل" الاجتماعي.[2]

ولا يمكن أن نتصور عدم إدراك المستوطنين الأوربيين للظروف السيئة التي كان يعيشها الجزائريون، بل إن هؤلاء الفرنسيين كانوا يأبون الاعتراف بها لأن ذلك يمس

* الحقيقة أن ج. تيون تساءلت سنة 1960 قائلة :" إذا كان هدفنا الشرعي للحرب هو حقن دماء الناس والحفاظ على مصالح مجموعة سكانية كبيرة -المستوطنين- التي لها حقوق لدى فرنسا" فكان مستقبل هؤلاء مهما بالنسبة لها أنظر: Horne, Op. cit, 540-541.

2 Sacriste, Op. cit, p101.

1 سعد الله، الحركة، ج1، المرجع السابق، ص ص 448-449.

2 Sacriste, Op. cit, p 101.

بمصالحهم وامتيازاتهم ووجودهم، ولأن حياتهم الميسورة تلك كانت على حساب تعاسة سكان البلد الأصليين.[1]

وفي خاتمة هذا الكتاب لمحت تيون إلى "نهاية الأزمة"، وذلك أن فهم الثورة التحريرية وتسلسل الأحداث التي عرفتها الجزائر كان مهما بالنسبة لها للإحاطة بأحداث العنف التي مرت بها الجزائر، واقتنعت في نفس الوقت أن كل الحلول العسكرية في الجزائر ستكون فاشلة والحل الوحيد هو "هدنة مدنية"*.

وخلاصة القراءة التاريخية لكتابها هذا هو الإشارة للاستفتاء الذي قام به شارل ديغول "لتقرير المصير" [2] كأسلوب للمراوغة بتاريخ 8 جانفي 1961 ومحاولة لاستشارة الفرنسيين والجزائريين في ضرب عصفورين بحجر واحد، والمتمثل في كسب تأييد فرنسيي المتروبول مستقبلا من جهة، ومن أجل إبقاء الجزائر ضمن الإمبراطورية الفرنسية من جهة أخرى، وكانت النتيجة حسب ما أورده "فرحات عباس" في كتابه "تشريح حرب" " Autopsie d'une guerre " 15 مليون نعم مع تقرير المصير مقابل 1 مليون بـ "لا".[3]

يمكن القول بعد استقرائنا لكتابات الأنثربولوجية جرمان تيون أنها حاولت من خلال كتابتها الوقوف على المشاكل الاجتماعية والسياسية بدأ بعملها الميداني في منطقة الأوراس مركز انطلاق الثورة، محاولة تحليل أسبابها وموظفة خبرتها ومعارفها لإيجاد حلول لها كعالمة أنثربولوجية، ورغبة في القضاء على ما أطلقت عليه "التشرد"، الذي ظنت أنه مشكل تفشى في المجتمع الجزائري خاصة بين سكان الأوراس، ووجدنا أن لها نشاطا ضد سياسة القمع والتعذيب "العنف" الممارس على

1Yahiaoui-Merabet Messaouda, Société musulmane et Communautés Européennes dans l'Algérie du XXe siècle (Réalités, Idiologies, Mythes et Stéréotypes) ،Tome 2, Éditions Houma, 2009.

* يذكر أليستر هورن أن هناك انقسام قد مس المجتمع الفرنسي في المتروبول وشهدت الكتلة اليسارية الانقسام نفسه حين أنشق جون بول سارتر وسيمون دي بوفوار عن بعض زملائهم المقربين "كألبير كامو" الذي اقترح "هدنة مدنية" وذهبت تيون إلى نفس المنحى، أنظر: Horne, Op. cit , 243.

2 Sacriste, Op. cit, p103 .

3 Ferhat Abbas, Autopsie d'une guerre, l'Aurore, Imprimerie Mourad Hasnaoui, Algérie, 2011, p 291.

الجزائريين[1]، وفي نهاية مؤلفها "أعداء متكاملون" نجدها تبذل جهودا مضنية من أجل تقرير مصير الجزائر، لأن الثورة التحريرية بالنسبة لها فقدت في هذه الفترة كل مبررات استمرارها.

ويبدو كذلك أن أكثر القضايا التي أصبحت تقلقها في هذه المرحلة تعدت إلى مصير الجزائر الاقتصادي بعد استقلالها ومصير المعمرين والأقدام السوداء.[2]

والأهم من هذا أنها تخلص في كتاباتها إلى أن تناقض البنى الاجتماعية في الجزائر هو الذي كان سببا محوريا في اندلاع ما اصطلحت على تسميته "بالحرب في الجزائر" أي الثورة التحريرية ولا نراها تلوم أشخاصا بل تلوم المؤسسات القيادية الفرنسية.[3]

صورت لنا تيون مستقبلا أسودا للجزائر المستقلة حينما كتبت عن مصير المهاجرين الجزائريين، متناسية أن هؤلاء هاجروا وطنهم مكرهين وأجبروا على أن يكونوا طبقة "تحت البلوريتارية" في المتروبول.[4]

وإذا تمعنا في كتابات جرمان تيون كأنثربولوجية فإننا نجد أنها انساقت وراء التيار الإيديولوجي الليبرالي لإيجاد حلول "تقدمية" لصالح الجزائر طوال الثورة التحريرية "1954-1962" وإذا قررت الجزائر مصيرها يجب أن يكون كشكل من أشكال الحكم الذاتي الذي من شأنه الحفاظ على الوجود الفرنسي، أما قضية المستوطنين الأوربيين في الجزائر فإن رحيلهم لن يضر الجزائريين أكثر من بقائهم، لأنهم مسؤولون تاريخيا بدرجة أولى عن الاستعمار الفرنسي في الجزائر وسياسته المستبدة.[5]

ومن بين الإسهامات التي تحسب لها في دعم الجزائريين نشير إلى أنه عندما تم تعيين " André Boulloche أندري بولوش" كوزير للتربية الوطنية الفرنسية استدعيت جرمان تيون بتاريخ 8 جانفي 1959 لتنصب بديوانه كمكلفة بالمهام التي

1 Sacriste, Op.cit, pp 107,108.
2 Wood, Op.cit, 226.
3 Sacriste, Op.cit, p 112.
4 Wood, Op.cit, 229.
5 Pierre Nora, Les français d'Algérie, Christian Bourgois éditeur, 2012, pp15-16.

تخص الشؤون الجزائرية فعملت خلال هذه الفترة على إنشاء برنامج منح لصالح الطلبة الجزائريين بفرنسا.[1]

ونود أن ننهي هذا الفصل بتأكيدنا على أن الكتابات الأنثربولوجية الخاصة بجرمان تيون هي ذات أبعاد سياسية، وكان لعملها في الميدان أثر بارز على أبحاثها التي ترجمت إلى كتابات جسدت فيها حلولا لإنقاذ المجتمع البربري الأوراسي وأسقطته على كل المجتمع الجزائري، ويمكننا القول أن هذه الباحثة وغيرها وجدوا ظروفا مهيأة ويدا مساعدة من طرف الإدارة الاستعمارية فلم تخلو كتاباتهم من النزعة الإيديولوجية.[2]

ويستنتج أيضا استخدام السلطة الاستعمارية الفرنسية للأنثربولوجيا كعلم له علاقة متينة ارتبطت بالاستعمار فكان توظيف الأنثربولوجيين على قدر واسع وكانت ج. تيون من بين هؤلاء خلال الثورة.

1 Sacriste, Op.cit, pp 97-98.

2 وقيدي، المرجع السابق، ص 194.

الفصل السادس

الكتابات الأنثربولوجية الفرنسية خلال الثورة التحريرية

"بيار بورديو Pierre Bourdieu"

1-المبحث الأول : المجتمع البربري عند بيار بورديو معرفة علمية أو معرفة من أجل الاستعمار.
2-المبحث الثاني: مجتمع الشرق الجزائري في كتاب بورديو "سوسيولوجية الجزائر Sociologie de l'Algérie".
3- المبحث الثالث: الإسلام عند بورديو في كتاب "سوسيولوجية الجزائر".
4-المبحث الرابع:مساهمة ب.بورديو في دراسة المجتمع الجزائري اجتماعيا وأنثربولوجيا.

يحلو للبعض من الدارسين الخوض في الأنثربولوجيا الفرنسية وتبيين علاقتها بالاستعمار دون الأخذ بنماذج توضح إن كانت هناك قرائن تثبت تورطها في خدمة الاستعمار، فاخترنا أنموذجا آخر خلال الثورة التحريرية الجزائرية لا يمكننا تجاوزه وهو "بيار بورديو Pierre Bourdieu " .

المبحث الأول : المجتمع البربري عند بيار بورديو معرفة علمية أو معرفة من أجل الاستعمار :

من السذاجة أن نعتقد بأن الأنثربولوجيا كعلم بقيت حبيسة المعاهد والجامعات لأنه تم توظيفها واستغلالها بشكل كبير من طرف سلطة الاحتلال الفرنسي في الجزائر، ومن بين الأنثربولوجيين الذين كان لهم دور ملموس في هذا الجانب نجد بيار بورديو "Pierre Bourdieu"* الذي أسس معارفه عند دراسة المجتمعات القبائلية التقليدي ة إذ تركزت معظم دراساته حول المناطق القبائلية وتعود ركائزها إلى تلك التحقيقات والزيارات التي قام بها في القرى القبائلية.[1]

وكان أول قدوم لبورديو إلى الجزائر يعود إلى النصف الثاني من خمسينيات القرن 20م

* ولد بيار بورديو Pierre Bourdieu في الأول من آوت سنة 1930 بمنطقة دانقان Dunguin في منطقة Pyrénée Atlantique البرانس الأطلسية بفرنسا وتوفي سنة 2002 تخرج من المدرسة النورمالية حيث نال شهادة التأهيل في تخصص الفلسفة واشتهر بمنهجة التحديثي في علم الاجتماع من خلال ما أطلق عليه " الثورة الرمزية" شغل مدير دراسات في المدرسة العليا للعلوم الاجتماعية واعتبر من مجددي علم الاجتماع ابتداء من سنة 1960 واعتبر من أكبر المفكرين في العالم المعاصر.أنظر: Journal de l’année, Editions 2003 du 1er Janvier au 31 décembre 2002,21 Rue du Montparnasse 75283 Cedex 06 Paris . pp 367,12.

1 Lahouari Addi, Sociologie et anthropologie chez Pierre Bourdieu, le paradigme anthropologique kabyle et ses conséquences théoriques, Editions el Maarifa, 2014. pp 9, 11.

ويؤكد "أندري نوشي André Nouschi"* أنه جاء إليها مكرها لتأدية واجب الخدمة العسكرية أثناء حكومة "لاكوست"، [1] نظرا لمعارضة بورديو للفكر الاستعماري الرسمي المتسلط الذي كان سائدا في تلك الفترة.

وجند بورديو في منطقة الشلف لكن بسبب رفضه الانصياع لأوامر قادته تعرض في الكثير من الأحيان لعقوبات عسكرية، وبتدخل أحد أقربائه تم تحويله إلى مصلحة التوثيق والإعلام التابعة للديوان العسكري للوزير المقيم روبير لاكوست التي بقي فيها حتى أنهى الجندية نهاية سنة 1957.[2]

لاحظ بورديو أن ما يعرفه الفرنسيون في المتروبول عن الجزائر هو مغاير تماما لما هو موجود في الواقع، خاصة بعدما سمحت له قراءاته أن يتعرف على المجتمع الجزائري وتاريخه ليخلص إلى نتيجة مفادها أن ما كتب عن الجزائر اجتماعيا وأنثربولوجيا هو ذو نزعة أيديولوجية استعمارية لا تخلو من تشويه الحقائق ولا تخلو من الذاتية، علاوة على ذلك أنها لا تستند إلى نظريات علمية جديدة، ومن هذا المنطلق أراد أن ينجز عملا علميا وموضوعيا وبوسائل حديثة اجتماعية وأنثربولوجية تتطابق مع الواقع الجزائري آنذاك، وبإصدار كتاب "سوسيولوجية الجزائر" يكون بورديو قد حاول الإسهام في التعريف بالجانب الاجتماعي الحقيقي للجزائر.[3]

---

* نوشي أندري Nouschi André أستاذ التاريخ من مواليد سنة 1926 بقسنطينة له أطروحة الموسومة بـ " تحقيق حول المستوى المعيشي لسكان الريف القسنطيني منذ بداية الاحتلال إلى غاية 1959" والتي كانت تحت إشراف شارل أندري جوليان والتي تم نشرها سنة 1961 من طرف ديوان المطبوعات الجامعية الفرنسية، أنظر: خطاب، المرجع السابق، ص 281. ويذكر نوشي عن نفسه أنه التقى بالعديد من الأنثربولوجيين الفرنسيين كجرمان تيون وبيار بورديو خلال الفترة التي كان ينهي فيها أبحاثه عندما كان ملحقا بالمركز الوطني للبحث العلمي (CNRS) ويشتغل في مصلحة أرشيف مكتبة الحكومة العامة التي كان محافظها "إميل دارمنغهام" أنظر: André Nouschi, Autour de la société de l'Algérie, In Awal Cahier d'études Berbères, Cahier d'études Berbères ,n° 27-28, Fondation Maison des sciences de l'homme, Paris, 2003, pp 29-30.

1 Ibid, p 30.

2 Sacriste, Op. cit, p 286.

3 Hafid Adnani et Tassadit Yacine, L'Autre Bourdieu**,** celui qui ne disait pas ce qu'il avait envie de cacher, in : Awal, Cahier d'études Berbères, n° 27-28, Fondation Maison des sciences de l'homme, Paris, p 232.

والحقيقة أن اهتمام بورديو بتأثير الاستعمار الفنرسي على المجتمع الجزائري يعود إلى السنوات الأولى من تواجده بالجزائر، وعن هذا التأثر يذكر أ.نوشي الاهتمام البالغ الذي أولاه ب.بورديو للنتائج التي خلص إليها في أن التنظيم الاجتماعي لسكان الريف القسنطيني بل والجزائر كلها قد تحطم لعدة أسباب كان أولها القرار المشيخي سنة 1863 وقانون وارنيي 1873 وقوانين المصادرة لسنة 1887 و 1897 وأخيرا بسبب الرأسمالية الليبرالية التي قضت على الفلاح في الريف القسنطيني.[1]

ويمكن القول أن اشتغال بورديو في مكتب مصلحة التوثيق قد أتاح له الفرصة في التردد على مكتبة الحكومة العامة والتعرف أكثر على تاريخ الجزائر ومجتمعها وسمح له أيضا بالتغلغل في الوسط الخاص بجامعة الجزائر الذي كان يسيطر عليه أساتذة من دعاة الفكر الاستعماري [2] ، وفي هذا الصدد يذكر ب.بورديو أن كل ما تعلق بشمال إفريقيا من دراسات في نهاية الخمسينيات وبداية الستينيات من القرن العشرين سيطرت عليه التقاليد الاستشراقية السلبية التي تميزت بوجود نظرة قاصرة متعالية لكل ما يمثل المجتمعات المستعمرة بما فيها الجزائر، وباتت العلوم الاجتماعية بهذا الشكل لا تدرس إلا المجتمعات الأوروبية والأمريكية، أما الأنثربولوجيا فقد ركزت على دراسة الشعوب التي توصف بأنها "بدائية".[3]

وقد باشر ب.بورديو أهم أبحاثه الميدانية التي أكملها في بداية الستينيا ت فاهتم بالجزائر من جانب مزدوج اجتماعي وأنثربولوج ي، هذه الأبحاث التي كانت تهدف إلى تحليل أثر الاحتلال الاستيطاني على المجتمع الجزائري، ودرس القرى القبائلية وكل ما تعلق بثقافتها وأعرافها كالزواج والشرف وغيرها من زاوية أنثربولوجية[4]، ووقف على أهمية العلاقات بين الأفراد والطبقات لفهم الكثير من الظواهر الاجتماعية.

1 Nouschi, Op.cit, p 31.
2 Sacriste, Op.cit, p 284.
3 Pierre Bourdieu, Entre Amis, In: Awal, Cahier d'études Berbères, n° 27-28, Fondation Maison des sciences de l'homme, Paris p 84.
4 Addi, Op.cit, p 16.

ولا شك أنه من الأشياء التي ساعدت ب.بورديو في أبحاثه ودراساته هي مقابلاته المتكررة لمجموعة من المثقفين الجامعيين الذين أثروا في توجه أعماله، وكانت النتائج التي توصل إليها أ.نوشي خلال البحوث التي قام بها بعد دراسته للكثير من الوثائق في أرشيف الحكومة العامة من بينها أن النظرية الكلاسيكية لايجابيات الاستعمار الفرنسي في الجزائر غير صحيحة ومنافية للواقع حين حطم الاستعمار الفرنسي المجتمع الجزائري وأدى إلى تفككه، وساهمت هذه المقابلات واللقاءات أيضا في فهم بورديو الكثير عن جذور الثورة التي تقوم بها جبهة التحرير والتي تبناها الشعب [1]، ويعترف بورديو أيضا أن لجاك بيرك أثرا في مواقفه، فكان دليلا ممتازا في مساره الاجتماعي والأنثربولوجي.[2]

ويتضح أن دوافع كتابته " لسوسيولوجية الجزائر" يتخلص أساسا في أن الكتابات الأنثربولوجية التي خصت الجزائر هي مؤلفات تجزئة عملت على عزل المظاهر الاجتماعية والدينية والسياسية، أو بتعبير آخر هي كتابات" تعبر عن إيديولوجية التفوق العرقي "Ethnocentrisme" فحاول إذن المساهمة في التعريف الموضوعي بالمجتمع الجزائري دون خلفية استعمارية.[3]

المبحث الثاني: مجتمع الشرق الجزائري في كتاب بورديو "سوسيولوجية الجزائرSociologie de l'Algérie" :

كما ذكرنا سابقا فقد استعان ب.بورديو بخبرة ومعارف أندري نوشي لفهم الكثير عن المجتمع الجزائر مما ساعده في إنجاز كتابه "سوسيولوجية الجزائر". [4]

استهل بورديو كتابه بمقدمة طرح فيها إشكالية صعوبة تحديد هوية المغرب العربي في ظل وجود تنوع ثقافي، منبها منذ البداية على أن من ينظر إلى هذا التنوع من زاوية واحدة أي على أنه اختلاف وتباين فهو يعبر عن عدم الفهم الصحيح للهوية الأصلية

1 Nouschi, Op.cit, p 31.
2 Bourdieu, Op.cit, p 85.
3 Sacriste, Op.cit, pp 287,288.
4 Nouschi, Op.cit, p 32.

للمجتمع في هذه المنطقة.*

وأراد أن يوضح في مدخل هذا الكتاب بأن هذه الدراسة جاءت تضم وصفا للبنى الاقتصادية والاجتماعية –التي وصفها بأنها– "الأصلية" بغرض فهم الكيفية التي تمت فيها عملية تحطيم المجتمع الجزائري من خلال السياسة الاستعمارية التي اتبعتها فرنسا في الجزائر.[1]

بالإضافة إلى هذا المدخل قسم ب.بورديو مؤلفه إلى ستة فصول على النحو التالي:

الفصل الأول: القبائليون.

الفصل الثاني: الشاوية.

الفصل الثالث: الميزابيون.

الفصل الرابع: الناطقون باللغة العربية .Les Arabophones

الفصل الخامس: رصيد مشترك Le Fonds commun

وأخيرا الفصل السادس: "الاغتراب" ** L'Aliénation[2]

ويبدو المجتمع الجزائري بهذا البناء والتقسيم شبيها بالكثير من الدراسات السابقة لكن الجديد الذي جاء به ب.بورديو هو أنه وضع ذلك التنوع الاجتماعي ضمن رصيد واحد عانى الاغتراب أو "الاستلاب" وضرب الهوية جراء الاستعمار الفرنسي.

---

* يعترف ب.بورديو في الكثير من الأحيان أن أغلب النقاشات التي تدور حول وحدة المجتمع الجزائري تستند على التشكيك المقصود والمتعمد وكان يظن أنه يجب تجاوز هذه المسألة، فخصوصيات الجزائر واضحة بالنسبة له، ولاحظ أن التنوع الثقافي الذي تعرفه يختلف حسب اختلاف المعايير التي تستعمل لتعريف بها بالإضافة إلى معيار المناخ والتضاريس ونمط العيش وغيرها أنظر: Pierre Bourdieu, **l'Unité de l'Algérie In : Le monde diplomatique**, Juillet 1961,p 6.

1 Pierre Bourdieu, **Sociologie de l'Algérie**, Presses Universitaire de France, 2e Edition,"Quadrige" Paris, 2012, p 7.

** من الصعب الوقوف على تحديد مفهوم واحد لمصطلح" الاغتراب" " Aliénation" فنجد اختلاف في تعريفه من هيجل إلى كارل ماركس وهو يعني : أن يفقد الإنسان ذاته ويصبح غريبا تحت تأثير قوى معادية، وأهم صور الاغتراب عند ماركس هو الاغتراب الاقتصادي أين تسود الرأسمالية وتستولي طبقة خاصة على وسائل الإنتاج، ومن جهة قانونية فإن الاغتراب يعني تحويل ملكية من شخص إلى آخر ويعني قديما في علم الاجتماع الانسلاخ أو الإحساس بالغربة أنظر: عبد اللطيف محمد خليفة، دراسات في سيكولوجية الاغتراب، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2003، ص ص، 24-25. وأنظر أيضا: إبراهيم مدكور ، المعجم الفلسفي، طبع بالهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية (1982-2000)، ص ص 16-17.

2 Bourdieu, Sociologie, Op.cit, pp 5-6.

ليس من اليسير حسب بورديو أن نميز بين مكونات المجتمع الجزائري، لكنه يشير إلى بعض الاختلافات والفوارق كحق المرأة في الميراث ومن ذلك التناقض بين القوانين العرفية البربرية والشريعة الإسلامية، لكن ما يشد انتباهنا هو إقراره بوجود نظام ترجيح بين القانونين الشيء الذي ما ينفك أن يقضي على كل اختلاف، وفسر المؤلف ذلك بوجود مجالات ثقافية بارزة لعبت البيئة دورا في الحفاظ عليها، خاصة في المناطق الجبلية كمنطقتي القبائل والأوراس.

ويؤكد بورديو أن المناطق الجبلية التي يتكلم سكانها البربرية حافظت على نمط عيش "متأصل" وثقافة "أصيلة" وهو بذلك يبتعد عن استخدام مصطلح "البدائية" الذي كان شائعا في الكتابات الأنثربولوجية الاستعمارية.[1]

تناول بورديو في فصله الأول " القبائليون" محللا الجانب الاقتصادي والاجتماعي وقد لاحظ اعتماد سكان القبائل في المناطق الجبلية على زراعة الأشجار المثمرة خاصة الزيتون والتين مع وجود بعض الزراعات المكملة من الحبوب كالقمح والشعير [2]، ولئن كان الطابع الجبلي هو الغالب على الأراضي في هذه المنطقة فإن قلة المردود هي أهم ميزة لهذه الزراعات، ولكن قابله اكتفاء محلي نظرا لإتباع نظام استهلاكي صارم يقتضي التعاون وتنسيق الجهود، وفسر بورديو هذا التناقض أنه جاء كنتيجة للتنظيم الاجتماعي المحكم الذي كان سائدا في منطقة القبائل القاسية حيث استطاع سكانها التغلب على نقص التقنية وضعف مردود الأرض.[3]

ويقدم لنا بورديو تحليلا أنثربولوجيا للتركيبة الاجتماعية * السائدة في المجتمع القبائلي الذي يرتكز أساسا على الأسرة التي أطلق عليها تسمية "وحدة اقتصادية للإنتاج

1 Bourdieu, Sociologie, Op.cit, pp 8-9.
2 Ibid, p 11.
3 Ibid, p12 .

* يبدو أن بيار بورديو قد تأثر ببعض التيارات كالماركسية وغيرها التي كانت منتشرة في تلك الفترة في أوروبا، وخاصة في مجال الأنثروبولوجيا التي بدأت تتأثر بالنظرية البنيوية بعد أن أصبحت شهيرة بظهور كتابات ليفي ستروس.

والاستهلاك" وذلك رغم أنه مجتمع قبلي[1]، وبذلك يلمح بورديو إلى مصطلح "التوازن" أي " توازن إنتاج يتسم بالميل إلى الضبط المستمر مع حاجيات المجتمع" فيمكن للمجتمعات المسماة "تقليدية" أن تحافظ على وجودها واستمرارها من خلال التنظيمات الاجتماعية التي تعين ممارسات الإنتاج والاستهلاك والتوزيع بين أفراد القبيلة، الأمر الذي أدى إلى وجود علاقات متينة ما بين الأفراد والجماعات[2] ويركز على خصوصية المجتمع القبائلي حول الظروف التي تعيشها المرأة خاصة ما تعلق بالميراث فهي لا ترث أرضا وفي بعض الأحيان لا ترث عينا ولا نقدا، ويفسر هذا الإجحاف في حقها كضرورة اقتصادية محضة[3] بمعنى منع تقسيم الملكية وانتقالها إلى خارج العائلة الضيقة.

إن المتصفح لكتاب بورديو يلاحظ تركيزه على القرابة والعلاقات الأسرية وعلى مختلف تنظيمات المجتمع الجزائري ويكون بذلك قد تأثر بشكل كبير بالنظريات البنيوية التي نشرها "كلود ليفي ستراوس" في كتابه " الأنثربولوجيا البنيوية" الذي طبع سنة 1958 والذي ضم تحليلا عن زواج الأباعد، والبنى الأساسية للمجتمعات والتحالف الاجتماعي.[4]

وعن القوانين العرفية السائدة في منطقة القبائل فقد عرفها بورديو كاتبا: "ما هي إلا العادات الخالصة لكل قرية، من خلال جرد كل الأخطاء الفردية التي يقوم بها الأفراد والتي يمكن أن تعكر صفو الحياة العامة" كالسرقة والعنف أو الاستنقاص من أعمال التضامن وما يقابلها من غرامات.[5]

وقد وقف هذا المؤلف على ظاهرة مهمة عرفتها منطقة القبائل وهي الهجرة نحو فرنسا والتي أصبحت تتم بوتيرة كبيرة في نهاية الخمسينيات من القرن العشرين أين كانت ظروف المنطقة الاقتصادية والاجتماعية دافعا لها، ويرجع بورديو أسباب هذه الهجرة إلى وجود تكافل اجتماعي اختصت به المنطقة، فحين يهاجر القبائلي منطقته تبقى

1 Bourdieu, Sociologie, Op.cit, p12 .

2 عدي ، المرجع السابق، ص ص 13-14.

3 Bourdieu, Sociologie, Op.cit, pp 14-15.

4 Sacriste, Op.cit, pp 288-289

5 Bourdieu, Sociologie, Op.cit, pp 25-24 .

عائلته تحت حماية أقربائه الذين ينوبون عنه وقت الحاجة، ويذهب إلى تأكيد تأثير هذا النمط الاجتماعي للتكافل حتى في فرنسا فنجد مهاجري منطقة القبائل يتضامنون مع بعضهم البعض مثل ما كانوا عليه في الجزائر.

أما فصله الثاني الموسوم بـ "الشاوية" فقد جاء على شاكلة الفصل الأول إذ سعى إلى تحليل الجانب الاقتصادي بمنطقة الأوراس، وأكد تأثيره المباشر على الجانب الاجتماعي، مشيرا إلى أن طبيعة التضاريس والظروف المناخية المتذبذبة للمنطقة أدت إلى ممارسة سكان الأوراس للزراعة وتربية المواشي فنتجت عن ذلك ظاهرة الترحال خلال فصلي الصيف والشتاء، أين يصبح الانتجاع عملية مهمة في حفظ التوازن الاقتصادي.[1]

وعلى هذا الأساس فإن الزراعة وتربية المواشي مثلت وسيلة من وسائل وجود السكان الشاوية، ومن سمات الزراعة التي كانت منتشرة في تلك الفترة هي أنها مازالت قبلية.[2] يمكن تقسيمها إلى نوعين، البستنة وزراعة الحقول.

تشكل البستنة أهم مصدر دخل لسكان الأوراس خاصة في الأجزاء الشمالية منه وتقع البساتين عامة في أراضي منحدرة، يتم شدها بحواجز من الصخر تشبه السور متدرجة الواحدة على الأخرى.

ونجد في هذه البساتين تقريبا كل أنواع الأشجار المثمرة؛ م ن الجوز إلى النخل، ومن أهم الأشجار التي تعود بالفائدة الكبيرة على مالكيها هي بالتأكيد أشجار المشمش، حيث يقوم الأهالي بتجفيف ثمارها وبيعها في كل الأسواق المجاورة تحت اسم"فرماس".[3]

ومن الملاحظات التي أوردها بورديو عن منطقة الأوراس أنها قد عاشت لفترة طويلة في اقتصاد مغلق بسبب طبيعة تضاريسها، لكن ذلك لم يمنع أن يعيش المجتمع الأوراسي اكتفاء ذاتيا.

لقد تحكمت الظروف الطبيعية في نشاط المجتمع بهذه المنطقة، الأمر الذي ترتب عنه

1 Bourdieu, Sociologie, Op.cit, p 29.
2 Nouschi, Enquetes, Op.cit, p.71.
3 De Lartigue, Op.cit, p.217

تكامل بين الرجل والمرأة في الأعمال الممارسة يوميا، وإذا كان الرجال يشتغلون في أغلب النشاطات التي لها علاقة بالزراعة فإن النساء يقمن بأعمال حرفية تؤمن النسوة من خلالها بعض الحاجيات المهمة خاصة من الأسواق الكبرى التي كانت تقام في فصل الصيف، وتتزامن مع بعض الطقوس والبدع المنتشرة في الأوراس كظاهرة الحج لجبل "بوس"، وتعتبر هذه العادات مناسبة مهمة للقيام بالمبادلات التي سيطرت عليها عملية المقايضة، والتي خصت المنتجات الزراعية بالدرجة الأولى.[1]

والحقيقة أن قساوة البيئة في منطقة الأوراس الجبلية كان لها انعكاس على طبيعة المعاملات الاجتماعية ونتيجة لذلك فإنه يتم ادخار وتخزين تلك المقتنيات لوقت الضرورة.

إضافة للأسواق الكبرى التي تقام في الأوراس خلال فصل الصيف يذكر بورديو نوعا آخر من التجارة وهي المتنقلة التي كان يمارسها رجال من منطقة القبائل، واعتبارا لهذا ولما ذكرناه سابقا عن الحركة التجارية، يخلص بورديو إلى أن اقتصاد المنطقة هو اقتصاد سد الضروريات إذ يتركز على الاستهلاك الذاتي الذي لا يراد منه الربح إلا نادرا.

وعن اللغة المستعملة في كتابه فلم يتعمق هذا الأنثربولوجي في ذكر خصائص اللهجة الشاوية والاختلافات التي تضمها، لكنه أكد على وجود بعض القبائل الشاوية في الجنوب الشرقي من جبال الأوراس تمتلك جميع الخصائص التي هي عند قبائل المنطقة لكن لغتهم عربية ويعتبرون أنفسهم عربا، ويذهب إلى الاعتقاد بأن اللغة الشاوية تضم علامات وتأثرا كبيرا باللغة العربية.[2]

وعلى كل الأحوال فإن بورديو ينبه على أن طابع المنطقة هو الذي حال دون اختلاط السكان الشاوية بالمجموعات "الإثنية الأخرى" وساعد هؤلاء أيضا في المحافظة على

1 Bourdieu, Sociologie, Op.cit, pp 29-30.

[2] يعتقد البعض أن هناك قبائل سكنت منطقة الأوراس ادعت أن أصولها عربية في الفترة التي كانت فيها الطرق الصوفية ذات شأن.

مؤسساتهم التقليدية.[1]

وعلى صعيد التنظيم العائلي عند الشاوية فيعتبر بورديو أن العائلة هي بمثابة وحدة اجتماعية واقتصادية ودينية، وتساهم المرأة في التوازن الاقتصادي بشكل فعال من خلال مختلف النشاطات اليومية التي تقوم بها.

وقد لاحظ بورديو أن للأجداد دورا مهما في العائلة الشاوية ولاحظ الشيء نفسه في منطقة القبائل فولاء الطاعة للجد أمر قارب التقديس، إذ كان مستشارا ومشرفا ومطاعا من طرف أبنائه وأحفاده الذين يعيشون تحت سقف واحد ومن طرف أولئك الذين يعيشون في المساكن المجاورة، هو الذي أعطى قوة ومتانة دون شك للعائلات الشاوية ضمن العرش والفرقة الواحدة ويمثل الشرف ضمن هذا التنظيم الاجتماعي "روح الجماعة".[2]

وإذا أمعنا النظر فيما كتبه بورديو عن العائلة نجد أن التنظيمات البربرية استهوته وليس بعيدا عن هذا الإطار تكلم عن مسألة الزواج الذي مثل حسبه أولوية بالنسبة لسكان الأوراس الشاوية، حتى أنه استشهد بأحد الأمثلة الشائعة عند سكان المنطقة "بالنسبة للبنت الزواج أو القبر" لذلك ليس غريبا أن نجد الزواج المبكر للفتيات ليس في هذه المنطقة فحسب بل حتى في منطقة القبائل وأشار إلى أن أغلب الزيجات تطبعها صلة القرابة.

وعن الإكراه الذي يمارس على الفتيات من أجل الزواج فقد قارن بين منطقة الأوراس والقبائل وخلص إلى أنه لا يمارس ضغط كبير على الفتيات الشاوية مثل الفتيات القبائليات إلا أنه يتم التعامل معهن بصرامة شديدة إزاء حالات الإخلال بالشرف، لذلك أشار بورديو إلى خصوصية تنشئة البنات منذ نعومة أظافرهن على يد أمهاتهن، فكان من نتائج ذلك أن يعيش الشاوية في بيئة محافظة.[3]

1 Bourdieu, Sociologie, Op.cit, p 30.
2 Ibid. p 31.
3 Ibid. p 32.

وركز بورديو أيضا على الظروف التي تعيشها المرأة التي وجد أنها تميزت بالقساوة والشدة، لما لها من مهام تقوم بها في منطقة تتميز بقساوة العيش وهذا ما يفسر حسبه رفض نساء المنطقة تعدد الزوجات وتفضليهن للطلاق.[1]

ومن المفارقات التي ذكرها بورديو في كتابه "سوسيولوجية الجزائر" تمتع المرأة الشاوية بالحرية الكبيرة رغم البيئة المحافظة فتكلم عن تحول بعض الأرامل والمطلقات إلى ما يطلق عليه بـ"العزرية"*، وكتب: تمارس "العزرية"[2] تأثيرا كبيرا فيمن حولها فلا تتم بعض الأعمال والاحتفالا ت والشعائر إلا برقصاتها وأغانيها، وارتبطت كما ذكرنا سابقا "بخصوبة الأرض".[3]

لم يكتف بورديو بوصف اللبنة الأولى لبناء المجتمع الأوراسي القبلي بل نجدة انتقل للتحدث عن الهياكل الاجتماعية الشاوية المشكلة للمجتمع واتفق مع ج.تيون في أن "الفرقة" أو "الهارفيقث" "Harfiqth" تمثل الوحدة الأكثر حيوية في قبائل المنطقة التي تتخذ اسم أحد الأجداد القدماء المهمين. ويجب على كل أفراد الفرقة الواحدة الدفاع عن الأراضي والممتلكات والدفاع خاصة عن الشرف الذي يمثل أقدس القيم بالنسبة للشاوية.[4]

أ- أهمية القلاع في منطقة الأوراس:

لا يمكننا فهم الخلفية الأنثربولوجية لبورديو إلا بالرجوع إلى ما كتبه عن القلاع في منطقة الأوراس فلم يكتفي بإعطائنا تعريفا لها بل فسر دورها الاقتصادي والاجتماعي.

---

1 Bourdieu, Sociologie, Op.cit, p 33.

*ويعرفها بورديو بقوله : "هي المرأة دون زوج تتصرف كالمومس وتحضى بالتقدير الكبير" أنظر: Ibid. p34.

[2] يشير بعض الكتاب أن أخلاق أولاد عبدي وهي من القبائل الأوراسية تتميز بالانحلال خاصة في منطقة منعة، انظر: Delartigue Monographie,Op.cit.pp.12, 200. أما المؤرخ آجرون فـيذكر أن الأوراس بالنسبة للطبقة المتعلمة من الفرنسيين هو موطن الكاهنة، أما الدعارة فقد أشيع عنها بأنها ممارسة من طقوس التخصيب، أنظر: الهامش Ageron, Les Algériens Musulmans, T II Op. cit.p.889.

3 Bourdieu, Sociologie, Op.cit, p 34.

4 Ibid. pp 35-36.

ففي مجتمع يعيش غالبا في اقتصاد مغلق بعيدا عن وجود السيولة النقدية يتحول تخزين المحاصيل من الحبوب والعسل واللحم المجفف إلى أكثر من ضرورة وتصبح أحيانا أهم من المال وتمثل المواد المخزنة في القلاع ضمانا للعيش، وعلى هذا الأساس فقد ضمت أغلب التجمعات السكنية قلاعا يتم فيها تخزين المحاصيل عند ارتحالهم ووصفها بورديو بأنها "مؤسسة اقتصادية للقبيلة ومركز للحياة الاجتماعية" فبواسطتها يتم التوفير الضروري لتقسيم المحاصيل وتتحول إذن إلى "مؤسسة تحفظ التوازن الاقتصادي للقبيلة"، وكانت الجماعة "مجلس الشيوخ" هي التي تعين من يقوم بحراسة القلعة من السرقة بالإضافة إلى صيانتها [1]، ويخطئ بورديو عندما عمم وجود القلعة في كل قرى الأوراس لأننا لا نجدها عند القبائل المستقرة خاصة تلك التي تستقر في الشمال.[2]

ورغم أن هذه القلاع تمثل مؤسسة اقتصادية مهمة للقبيلة في منطقة الأوراس، إلا أن بورديو قد أشار إلى استخدامها في وقت سابق كحصون ومراكز للمراقبة وقدم أمثلة عن بعض القلاع المنتشرة عند بعض القبائل الأوراسية كقبيلة التوابة والتي تمثل عندها خطا دفاعيا يحمي أراضيها من أولاد عبدي. [3] علاوة على هذا فإنه من الشائع أيضا في منطقة الوادي الأبيض أن يقبر أحد الأجداد داخل القلعة أو بالقرب منها، لتصبح هذه الأخيرة مزارا للقبيلة أين تقام ولائم جماعية واحتفالات الختان والزواج وتذبح الأضاحي فهي إذن بالنسبة لتصور بورديو مكان له وظيفة اجتماعية، دينية، اقتصادية ووجدانية.

مهما يكن فإننا نلمس تأييد بورديو للأنثربولوجية ج.تيون في أن قبائل الأوراس لا تعي نفسها إلا في حالة وجود أعداء"، ففي مؤلفه "سوسيولوجية الجزائر" يخلص إلى استنتاج نراه مهما هو تصوره مثل سابقيه كون قبائل الأوراس في صراعات متكررة استلزم على كل قبيلة البحث عن حليف لها ونتيجة لذلك تكونت الصفوف.[4]

يقر بورديو أن القرابة هي النمط الاجتماعي الذي تبنى عليه كل الوحدات الاجتماعية

1 Bourdieu, Sociologie, Op.cit, p 37.

2 عدي، المرجع السابق، ص 103.

3 Bourdieu, Sociologie, Op.cit, p 37.

4 Ibid, p 38.

في منطقة الأوراس بل ويتعدى هذا الشكل الاجتماعي القائم على القبيلة إلى مجالات أخرى كتنظيم الاحتفالات أو الانتجاع وتوزيع المساكن وحتى أماكن تواجد القبور والمقابر الخاصة بكل قبيلة، لكن خلص إلى اختلال هذا الانسجام الاجتماعي والتوازن الاقتصادي بسبب "القرار المشيخي" " Sénatus Consulte" الذي أصدرته السلطات الاستعمارية الفرنسية سنة 1863 من أجل إزالة كل العقبات التي تحول دون تقسيم الأرض إلى ملكيات فردية، وأدى إلى " قلب مجموع العلاقات الاجتماعية السائدة ومعاكسة المنطق الاجتماعي"[1]، وهذا من خلال خلق "الدوار" على بقايا القبائل المقسمة وإعادة لملمة الملكيات الفردية ضمن هذا التنظيم الإداري "الدوار" ويدخل في إزالة كل الحواجز التي تقف أمام عملية شراء وبيع الأراضي.

ولو أراد أحد منا أن يخمن التبعات السلبية لهذا القرار على منطقة الأوراس لوجد بشكل واضح أنه شكل ضربة قاسية لسكان هذه المنطقة، وللاستدلال استشهد بورديو بما كتبه أحد الضباط العسكريين [2] وهو "دولارتيق De Lartigue" في "مونغرافية الأوراس"" Monographie de l'Aurès" حيث كتب قائلا : أصبحت الملكيات القبلية متداخلة – نتيجة للقرار المشيخي– عند أولاد عبدي وأولاد داود، الأمر الذي مكننا من تقسيم هذه القبائل على دواوير إقليمية ".[3]

يمكن القول أن بورديو استعرض المجموعات المكونة للمجتمع الجزائري إن لم نقل "الإثنيات" في مؤلفه "سوسيولوجية الجزائر" وحلل التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية لكل منها، لكن الأهم من ذلك أنه تساءل كيف تكوَّن ذلك الانسجام الذي خلق إرثا ثقافيا مشتركا للمجتمع الجزائري، وهنا تكمن بالنسبة له حقيقة المجتمع الجزائري "تنوع لكن وحدة".[4]

1 عدي، المرجع السابق، ص 59.

2 Bourdieu, Sociologie, Op.cit, p 39.

3 Delartigue, LT.Colonel, Monographie de l'Aurès, Constantine, 1904.p 206.

4 H.P, Bourdieu Pierre, Sociologie de l'Algérie. In: Population, 20e année, n°1, Editions de L'E.N.E.D, 23 Avenue F.D. Roosevelt, Paris, 1965. p, 148.

لكن بهذا التقسيم الذي استحدثه بورديو في كتابه "سوسيولوجية الجزائر" ندرك أن تأكيد الكتابات الفرنسية على أن الشعوب التي تسكن شمال إفريقيا وخاصة الجزائر تتكون من مجموعات قبلية "كونفيدرالية Confédération"، أو مجموعات إثنية يجب أن تدرس كل واحدة منها على حدى وهذا ما قام به بورديو، كقبائل منطقة جرجرة، الشاوية والميزابية، والعرب، وتذكرنا هذه الكتابات بأطروحة إميل ماسكاري "تشكل المدن عند السكان المستقرين، قبائل جرجرة، شاوية الأوراس، وبني ميزاب"، ويبدو أن الأنثروبولوجيا الفرنسية لم تتحرر من المنهج الإثنوغرافي الكلاسيكي بمنظوره القائل أن ركيزة الحياة الاجتماعية هي وحدة الجنس[1]، فقد دأب هؤلاء الباحثون على التركيز والتضخيم في تلك الفوارق بين المجموعات السكانية التي ليست لها أنظمة اجتماعية واحدة في الجزائر.

وأراد بورديو في الفصل الخامس من كتابه أن يتدارك ذلك مستعرضا قضية الإرث المشترك، مؤكدا أنه لا يمكن أن نفرق بين البربرية والعروبة لأن التمازج الثقافي واللغوي كان عميقا منذ فترة طويلة، وحتى القوانين العرفية التي لطالما ميزت القبائل البربرية فيرى أن الكثير منها قد اضمحل ضمن الشريعة الإسلامية.

واستنتج هذا الأنثربولوجي أن قوة المجتمع الجزائري تكمن في وفائه لتقاليد الأسلاف التي سيطرت على الحياة الاجتماعية بالرغم من أن هذه التقاليد لم تورث كتابة بل تم تعلمها بطريقة شفوية على شكل قصص، وأساطير، وشعر وأغاني، ومن أهم النتائج التي توصل إليها بورديو أن فهم التنظيمات الاجتماعية في المجتمع الجزائري يقتضي بالضرورة معرفة العلاقة الخاصة التي تربط الجزائري بأرضه.[2]

---

[1] محمد العربي ولد خليفة، سوسيولجية الجزائر تأليف: ب. بورديو، مجلة الأصالة، العدد الثاني، مطبعة بن بولعيد، الجزائر، 1971.ص ص.154-155.

2 Bourdieu, Sociologie, Op.cit, p 93, 95-96,101.

المبحث الثالث: الإسلام عند بورديو في كتاب "سوسيولوجية الجزائر":

وعن الإسلام كتب بورديو قائلا: "أن أغلب الجزائريين لم يتمكنوا من الوصول إلى النصوص الشرعية – ويقصد هنا الأحاديث– ولا يعرفون رسالة النبي محمد ﷺ إلا من خلال التقاليد الشفوية التي شوهته وبالتالي فإن هؤلاء لا يملكون إلا فتات الشريعة الإسلامية التي غالبا ما تمت إعادة تفسيرها وخلطها بمعتقدات شعبية".[1]

ومقابل هذا لاحظ أن تعليم القرآن الذي كان منتشرا بشكل كبير قد تضاءل وتناقص معه التعليم الديني الذي كان يتم بطريقة تقليدية [2]، وفي نفس الوقت وضع مقابلة بين التدين في المدينة والريف.[3]

ولا شك أن بورديو قد استشعر الجهود التي قامت بها جمعية العلماء المسلمين خاصة في الحواضر الجزائرية لذلك أشار إلى أن الدين الإسلامي عند سكان المدينة شكل وعيا سمح لهم بالإحساس بأنهم ينتمون إلى دين عالمي –ويقصد ربما هنا تأثيرات النهضة العربية– وهو مناقض لما يعرفه سكان الريف عن الإسلام فهو مليء بالطقوس والشعائر والخرافات فكتب قائلا: "ديانة سكان الريف هي بعيدة عن روح وممارسات الدين الإسلامي الحقيقي ...ويرتبط الإسلام عند سكان الريف بشكل وثيق بالحقيقة الثقافية وله علاقة وطيدة بالهياكل الاجتماعية والنشاطات الاقتصادية...هذا الدين هو نتاج ذلك الرجل الاجتماعي".[4]

وإذا أمعنا في هذه الخلفية الفكرية يمكننا القول أن هذا المؤلف يفسر الظاهرة الدينية على ضوء النظرية الفلسفية الدوركايمية[5] التي تنقص من الجانب الديني وتركز على أثر

---

1 Bourdieu, Sociologie, Op.cit, p.113

[2] لم يشر بيير بورديو إلى السياسة الفرنسية التي كانت سببا رئيسيا في تراجع التعليم العربي الحر والتعليم التقليدي القائم على تعاليم القرآن الكريم، والتي استهدفت التضييق على معلمي المدارس القرآنية و محاربة رجال الدين.

3 Bourdieu, Sociologie, Op.cit, p 113.

4 Ibid. p 114.

[5] سأستعير شيئا من مقال محمد العربي ولد خليفة في تحليله لكتاب بورديو إذ كتب يقول: فإذا نستطيع القول بأن هذا الباحث لا زال في الغيبوبة الدوركايمية التي تفصل الظواهر الاجتماعية عن المجتمع وكأنها كائنات خرافية أن تبحث مجردة من صانعيها"، أنظر: ولد خليفة، المرجع السابق، ص 155.

الثقافة فلا نراه يشير إلى جهود الحركة الإصلاحية في محاربة الخرافات والأباطيل حتى في عمق الريف الجزائري، كما أن ما خلص إليه بورديو لا يمكننا أن نسقطه على الإسلام في الجزائر في جميع المراحل التاريخية التي مرت بها.[1]

وبهذا يمكن القول أن كتابه ضم وصفا لمختلف أنواع الثقافات المنتشرة في ربوع الجزائر ولذلك عبر "مارسيل أمري" عن هذا الكتاب قائلا: "أجد فصولا جيدة عن الثقافة القبائلية والثقافة الشاوية، والميزابية".[2]

يذهب بورديو في فصله الأخير من كتابه "سوسيولوجية الجزائر" إلى تحليل الآليات التي أدت إلى اختلال المجتمع الجزائري من خلال استعراض أهم القوانين الاستعمارية الفرنسية التي أدت إلى ذلك، معترفا أن المجتمع الجزائري ورغم هشاشة اقتصاده الذي يفتقر للتقنية استطاع المقاومة بفضل الروابط والتكافل الاجتماعي.

الحقيقة أن بورديو قدم بإيجاز تاريخي الأثر السلبي الذي خلفه الاستعمار الفرنسي والحضارة الأوروبية على الجزائر بإعطائنا شرحا أنثربولوجيا واجتماعيا لعملية "التحطيم وإعادة هيكلة" المجتمع الجزائري لأنه حسب بورديو لا يمكن تغيير النمط الاقتصادي السائد إلا بتحويل المجتمع الجزائري كليا.[3]

ولقد أدرك بورديو أن القوانين الاستعمارية الفرنسية الكبرى التي تم تطبيقها كالقرار المشيخي سنة 1863 ووارني أدت إلى تفكيك وتجزئة البنى الاقتصادية والاجتماعية الأساسية للجزائر، وكان من نتائج ذلك تحويل الملكيات الجماعية للقبيلة إلى ملكيات فردية تسهل للمعمرين عملية الاستيلاء على أجود الأراضي، مما أدى إلى ظهور ما أطلق عليه بورديو بـ "بروليتاريا ريفية" وهي طبقة مسلوبة الأرض بائسة خاصة عندما

1 Kamel Chachoua, Les montagnes et la montée des clercs dans l'Algérie coloniale. Viticulture, montagnes et réformisme (iṣlāḥ) aux xixe-xxe siècles , In: Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée, N° 135 , Presses Universitaires de Provence, Juillet, 2014, pp 131-150.

2 Marcel Émerit. Pierre Bourdieu Sociologie de l'Algérie, Collection "Que sais-je?" In: Annales. Économies, Sociétés, Civilisations,15e année, N. 2, 1960, p 402.

3 Bourdieu, Sociologie, Op.cit, p 119.

تحول الفلاح إلى أجير براتب بخس.[1]

ودون شك أيضا أن بورديو أراد شرح هذه المعادلة الاستعمارية خاصة بعد تشجيع الاستيطان الأوروبي في الجزائر وإحلال نظام اقتصادي رأسمالي ليبرالي [2] وأشار بورديو إلى تلك التغيرات مع إعطائه نبذة تاريخية عن زراعة الكروم والتي كانت أكبر مثال لوجود فوارق بين المجتمع الجزائري والمستوطنين الأوربيين من حيث توزيع السكان على الأراضي الخصبة، الهضاب، والصحراء فتكون المعادلة إذن ؛ تطور الزراعة الاستعمارية يقابله تقلص في الزراعة عند الجزائريين * ولا يكتمل شرح هذه المعادلة إلا بمعرفة أن الفلاح الجزائري الذي اغتصبت أرضه أصبح أجيرا عند الكولون براتب زهيد في تلك الأراضي التي خصصت لزراعة الكروم.[3]

وتبدو كتابات بورديو وكأنها تنهل من الفكر الماركسي حين تصف محللة الصراع الذي دار بين الأسلوب الإنتاجي الأصيل والرأس مالية الفرنسية الاستعمارية وانعكاساتها

---

1 Bourdieu, Sociologie, Op.cit, pp 120-121.

2 عميراوي حميدة، زاوية سليم، زغداوي محمد، آثار السياسة الاستعمارية الاستيطانية في المجتمع الجزائري، سلسلة المشاريع الوطنية للبحث، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر 2007، ص ص 32-34.

* الواقع أن الكثير من الفرنسيين الذين كتبوا عن الجانب الزراعي للجزائر خلال الفترة الاستعمارية أمثال: فيكتور ديمونتاس Victor Demontès يرون أن النمط الزراعي السائد عند الجزائريين هو نمط "موسع" لم يهتم الجزائري بترقيته وتطويره لأنه ميال لحياة الكسل تناسبه حياة البداوة، على عكس الزراعة الأوربية "المكثفة" التي تعود عليها الرجل الأوربي في بلاده الأم وهي حديثة تتناسب وطبيعة المناخ والسطح، ويكون لاختلاف العرق دور حسب هؤلاء في ذلك، وعن زراعة الكروم فهي الزراعة الفرنسية بامتياز حسب هذا المؤلف لأنه تم تعميمها على نطاق واسع من طرف المعمرين الفرنسيين كما تتناسب ومناخ المنطقة، وعن تأخر تكثيف زراعتها في الجزائر فيعود ذلك إلى تخوف السلطات الفرنسية في المتروبول من المنافسة وبسبب المرض الذي تسببه حشرة "الفيلوكسيرا phylloxera" الذي أصاب الكروم الفرنسية تم الاستنجاد بالمعمرين لتغطية عجز الإنتاج من خلال توزيع وتكثيف هذه الزراعة على حساب الحبوب فأوكلت الحكومة العامة في الجزائر بعض المختصين للقيام ببحوث من أجل ذلك سنة 1877، ووصلت الأراضي المزروعة من هذا المنتج إلى ما يربو عن 176921هكتار وبلغ بذلك إنتاج الخمور سنة 1907 إلى 6293896 هيكتولتر وارتفعت المساحة المزروعة من الكروم حتى بلغت سنة 1922 حوالي 221756 هـ وعلى الرغم من أن هذا المنتوج أخذ حيزا كبيرا من الأراضي الخصبة إلا أننا لا نجد إشارة عن تأثيرها الاقتصادي والاجتماعي على الجزائريين أنظر: Victor Demontès, l'Algérie Agricole, suivie de quelques renseignements sur les produits de la steppe et des forets, Librairie Larose, 11 Rue Victor Cousin, Paris, 1930,pp 68,194-196.

3 Bourdieu, Sociologie, Op.cit, pp 121-123.

على المجتمع خاصة في الشرق الجزائري.[1]

ويذهب بورديو إلى الاعتراف بأنه تكوَّن لدى أفراد المجتمع الكولونيالي بعد مضي أجيال من تواجدهم في الجزائر شعور بأنهم في بلادهم والأمر من ذلك أن أصبح الجزائري هو الغريب بالنسبة لهم، واشترك هؤلاء المعمرون في مسألة الدفاع عن مصالحهم وامتيازاتهم وأدى اختلاف المستوى المعيشي إلى تجاهل الجزائري حين تكونت تلك الصورة النمطية عن "العربي" أو "الأهلي".[2]

ويعبر بورديو عن الهوة التي أوجدها المعمرون بينهم وبين الجزائريين كاتبا: " يعيش السكان الأوربيون فيما بينهم ...ووجدوا في الصحافة المادحة لهم كل مبررات التجاهل واللامبالاة اتجاه مأساة وبؤس الجزائريين... وكلما ابتعد هؤلاء–أي المستوطنون– عن العرب ابتعدوا أيضا عن فرنسا"، ومن دون شك فإن المجتمع الجزائري المتكون من مجموعتين مختلفتين تعيش في علاقة "أعلى وأدنى" [3]، فأصبحت الأقلية الأوربية التي خلقت بيئة جديدة لها هي التي تتحكم في زمام الأمور الاقتصادية، السياسية والاجتماعية وحاولت بفضل الإيديولوجية العنصرية أن تغير الامتيازات إلى حقوق.[4]

وفي خاتمة مؤلفه يقدم لنا بورديو حوصلة عن نتائج السياسة الاستعمارية الفرنسية والثورة التحريرية على المجتمع الجزائري الذي أخضع إلى عملية نزع الثقافة والتي مست حتى المناطق التي كانت بعيدة نوعا ما عن الاستيطان الفرنسي.[5]

يمكن اعتبار كتاب "سوسيولوجية الجزائر" نقدا للسياسة الاستعمارية الفرنسية فقد كان بورديو يسعى من خلاله إلى الدفاع عن وجود ثقافة خاصة بالمجتمع الجزائري وهي ثقافة متنوعة تعيش انسجاما بين مكوناتها، واستطاعت أن تبقى متينة وقوية تأكيدا لوحدة المجتمع الجزائري رغم كل الانتقادات التي وجهت لهذا الكتاب عند صدوره، وهذا على

1 ، بيير بورديو، عبد المالك صياد، الاستئصال، ترجمة عبد الرحمان بوزيدة، الأصالة العدد الثالث، 1971 ص 47.

2 Bourdieu, Sociologie, Op.cit, p 127.
3 Ibid, pp 128-129.
4 Sacriste, Op.cit,p 297.
5 Bourdieu, Sociologie, Op.cit, p 135.

عكس الكثير من الكتابات الأنثروبولوجية الفرنسية الاستعمارية التي رأت وجود انفصال وانقسام للأمة الجزائرية وذلك رغم تعثره في تقسيم فصوله.[1]

ولكي نتمكن من فهم تركيز بورديو على الظاهرة الثقافية يحسن بنا أن نستعرض ولو بشكل وجيز هذا التوجه. يكون هذا الأنثربولوجي قد تأثر بشكل كبير بالأنثربولوجيا الثقافية التي انتشرت أكثر في الولايات المتحدة الأمريكية قبل الحرب العالمية الثانية على يد بعض المفكرين أمثال فرانتز بواس" *Frantz Boas" هذه المدرسة التي انتقدت الظاهرة الاستعمارية الأوربية وأقرت بوجود "نسبية ثقافية" أو بمعنى آخر " أن لكل مجتمع إنساني منظومة من القيم المبنية على خيارات ثقافية أصلية".

وتطبيقا لهذا التصور فإن للمجتمع الجزائري ثقافة خاصة –وحسب بورديو– يجب على الكتابات الأنثربولوجية أن تنصب لدراسة هذه القيم الثقافية، ونتيجة لذلك لا يحق لأي مجتمع آخر أن يضع نفسه موضع القاضي ليحكم على المجتمعات الأخرى بدعوى التفوق المادي والعسكري، وترفض هذه المدرسة أيضا كل الأحكام ذات " التفوق الإثني Ethnocentrisme" أو النزعة العرقية وخاصة إذا استخدمت في تبرير الاستعمار.[2]

لذلك اعتبرت الكثير من المصادر والمراجع أن بورديو قد كان من بين الفرنسيين الأوائل الذين جرموا الأنثربولوجيين الاستعماريين وكتاباتهم، مستعينا بتجربته التي خاضها بالجزائر وخولت له أن ينتقد ويتهم بعض الأنثربولوجيين كجرمان تيون التي اعتبرت أن أغلب مظاهر التفكك الاجتماعي في الجزائر هي نتيجة "للتثاقف

1 Sylvain Laurens: Enrique Martín-Criado, Les Deux Algéries de Pierre Bourdieu, In: Sociétés politiques comparées, n°13, mars 2009 pp 12,15.

* هو فرانتز بواس ولد بتاريخ 9 جويلية 1858 بمدينة مندن الألمانية من عائلة يهودية، درس بجامعة هايدلبرج الرياضيات ثم بجامعة بون وكييل، ليتحصل على شهادة الدكتوراه في الجغرافية الفيزيائية في سن 23 سنة، وبعد قيامه برحلة جغرافية إلى شمال كندا وإلى القطب الشمالي حيث التقى بقبائل الإسكيمو فكان ذلك منعرجا لتحوله إلى الأنثربولوجيا وأصبح أول مختص في دراسة الهنود الكندية، وتحصل بعد ذلك على الجنسية الأمريكية، وكان من بين الأوائل الذين نظروا للأنثربولوجيا الثقافية، أنظر : Gaillard Op.cit, pp 69-73.

2 Sacriste, Op.cit, p 289.

*"Acculturation"، متناسية الأثر التاريخي لعملية نزع الملكية وانعكاسات الاستعمار بشكل عام خاصة على الجانب الاجتماعي [1] ، وعبر"جيرار ليكرك" في كتابه "الأنثروبولوجيا والاستعمار" عن التثاقف قائلا: "أنه تحت هذا المعنى المجرد والعام يختبئ المعنى الحقيقي الذي ليس شيئا آخر سوى الاستعمار". [2] ويتخذ التثاقف في حالة الاستعمار العسكري والهيمنة شكلا خاصا حين تحطم ركائز المجتمع وتتفكك بناه ويصل بذلك إلى المرحلة التي يطلق عليها علماء الأنثربولوجيا وعلماء الاجتماع "نزع الثقافة Déculturation" أو "ضرب الهوية".[3]

هكذا إذن اعتقد بورديو أن الواقع الثقافي للمجتمع الجزائري خلال الفترة الاستعمارية هو الذي أعطى قوة موحدة واجهت فرنسا الاستعمارية خلال الثورة.[4]

يمكن أن نقول نظرا لمحتوى هذا الكتاب والمنهج المتبع في التحليل أنه كان على بورديو تغيير عنوانه من "سوسيولوجية الجزائر" إلى "أنثروبولوجية الجزائر"، ذلك أنه كتب عن القبائل والشاوية والميزابية والعرب دون نزعة إيديولوجية في الظاهر، أما من حيث الشكل فإن صدوره في المطبعة الجامعية الفرنسية " P.U.F" أعطاه صبغة علمية وأبعده عن الإصدارات الاستعمارية التي طبعت في الجزائر.[5]

وبهذا العمل يكون بورديو حسب الكثير من معاصريه قد خالف التيار الاستعماري الذي كان سائدا آنذاك مثله مثل "مارسيل إمري Marcel Emrit" ، ويؤكد نوشي أنه

* التثاقف مصطلح استعمله أنثربولوجيو أمريكا الشمالية بداية من أواخر القرن التاسع عشر، وتعني مجموع التغيرات التي تسببها التفاعلات أو الاتصالات المباشرة والمستمرة القائمة بين مجموعات أثنية مختلفة والتي تحدث إثر اجتياح أو استعمار أو هجرة سواء أكان ذلك عن طريق تأثير التبادل أو المواجهة ويعرف هذا المصطلح أيضا على أنه مجموع التغيرات التي تحدث في أنماط ثقافية أصلية عندما تدخل مجموعة من الأفراد من ثقافات مختلفة في اتصال مباشر ومستمر مع بعضها البعض مهما كانت الأسباب أنظر: جيل فيريول، معجم مصطلحات علم الاجتماع، ترجمة وتقديم أنسام محمد الأسعد، مراجعة وإشراف بسام بركة، الطبعة الأولى، دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر، بيروت لبنان، 2011، ص 29.

1 Kamel Chachoua, Pierre Bourdieu et l'Algérie : Le savant et la politique In : Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée, pp, 8-9.

2 لكليرك، المرجع السابق ص82.

3 Sacriste, Op. cit,p 293.

4 Ibid. p 298.

5 Chachoua, Pierre Bourdieu, Op.cit, p 8.

عند صدور "سوسيولوجية الجزائر" في "سلسلة ماذا أعرف" " Que sais je ? " قوبل بالسخرية ولم يتقبل ما جاء فيه من طرف الكثير من الجامعيين الذين كانوا يظنون أنهم يملكون رؤية واضحة عن المجتمع الجزائري ويعرفونه حق المعرفة، وكتب عنه نوشي قائلا :" يعد في الحقيقة هو أول تحليل منذ فترة طويلة لفهم المجتمع الجزائري من خلال حقائق خضعت للملاحظة مع الاختلاف العميق لمكوناته"، كما نجد في هذا الكتاب وصفا دقيقا لعواقب ما أطلق عليه " التمازج الثقافي" جراء تأثير الاستعمار الفرنسي والأوروبي، ومن هذا المنطلق فإنه يتضح للقارئ أن كتاب "سوسيولوجية الجزائر" قريب للأنثربولوجيا منه للتاريخ ونحن لا ننفي بذلك ما له من أهمية في كتابة تاريخ الجزائر الاجتماعي[1]، ونتيجة لذلك أكد ب.بورديو أهمية الأنثروبولوجيا في فهم المجتمعات حين صرح :" إن أي عالم اجتماع ليست له كفاءات في الأنثربولوجيا الاجتماعية ليس بعالم اجتماع جيد".[2]

وسعى بورديو من خلال مؤلفه "سوسيولوجية الجزائر" في طبعته الأولى لسنة 1958 أن يكون قد افتتح نهجا جديدا ومعتدلا في التزام علماء الاجتماع بالموضوعية بعيدا عن توجه السياسة العامة لفرنسا في الجزائر [3] وتأكيدا لهذا الموقف صرح أحدهم كون بورديو من بين الجامعيين المدافعين عن استقلالية الحقل الثقافي والاجتماعي [4]، خاصة أنه لم يكن منتسبا لأي توجه سياسي، الشيء الذي سمح له بمواجهة الأوضاع السياسية الحرجة للجزائر من خلال كتاباته[5]، لذلك اعتبر بورديو عند الكثيرين ممثلا لقطيعة بينه وبين أغلب المثقفين الفرنسيين في تلك الفترة، أين حارب النظام الاستعماري الفرنسي

1 Nouschi, Op.cit, p 33.

2Julian Pitt-Rivers, Pierre Bourdieu anthropologue, sociologue,et philosophe,In : Awal, n° 27-28, Fondation Maison des sciences de l'homme, Paris, 2003, p 48.

3 Nouschi, Op.cit, p 34.

4 Henri Maler, Quarante ans d'interventions"politique"La radicalité de Pierre Bourdieu, In: Awal, n° 27-28, Fondation Maison des sciences de l'homme, Paris, 2003, p38.

5 Isaac Chiva, Pierre Bourdieu : « Une ethnographie particulière » In: Awal , n° 27-28, Fondation Maison des sciences de l'homme, Paris, 2003, p 40.

والعنف الذي مارسه ضد الجزائريين.[1]

وعن المناهج المعتمدة في إنجاز الدراسة في هذا الكتاب يذكر ب.بورديو أنه استعمل وسائل العمل والنظريات المتاحة آنذاك التي تخص التقاليد والثقافة لكن بأسلوب نقدي ومن هنا نلمس التباين بين تأثير الوضعية الاستعمارية كعلاقة سيطرة والتأثير الثقافي ويتبين لنا من خلال ذلك محاولة بورديو التعريف بالمجتمع الجزائري الذي يجهله الكثير من الفرنسيين، سواء أكانوا مؤيدين لاستقلال الجزائر أو ضده حيث تتفق كتاباتهم ومعارفهم على شيء واحد هو سوء فهمهم للمجتمع الجزائري.[2]

وتجدر الإشارة إلى أن كتاب "سوسيولوجية الجزائر" الذي اعتبر كحوصلة لأعماله الأنثربولوجية نشر في ديوان المطبوعات الجامعية الفرنسية سنة 1958 لكنه نشر أيضا في الولايات المتحدة الأمريكية غير أن غلافه ضم "العلم الجزائري" حتى قبل استقلالها وأراد بذلك بورديو أن يثبت دعمه للقضية الجزائرية بشكل غير مباشر بعيدا عن فرنسا.[3]

فيكون كتاب بورديو "سوسيولوجية الجزائر" قد خالف الإيديولوجية الاستعمارية السائدة في الكتابات الفرنسية التي خصت الجزائر رغم أنه قسم المجتمع الجزائري إلى قبائل وشاوية وميزابية وناطقون باللغة العربية الذين يشكلون بالنسبة إليه مجتمعا خالصا للجزائر أمام الاستبداد –"الاغتراب"– الاستعماري.[4]

فقد كان النزوح الريفي مع بداية الثورة التحريرية كبيرا جراء نزوح الجزائريين المهجرين "المجتثين" المسلوبين من أراضيهم فبلغت أرقاما مهولة سنة 1955 لتبلغ أوجها سنة 1957 بعد توسع الثورة، وأصبحت المدن تستقطب أعدادا كبيرة من المطرودين من

1 Laurent Bazin. La sociologie des travailleurs algeriens de Pierre Bourdieu en regard d'une ethnologie du present. In : At-Tadwin. Revue annuelle pour les études de philosophie, sciences sociales et humaines, sciences de l'information et de la traduction, 2013.p 3.

2 Bourdieu, Op. cit, p 85.

3 Marie-France Garcia-Parpet, Des outsiders dans l'économie de marché Pierre Bourdieu et les travaux sur l'Algérie, in: Awal, Cahier d'études Berbères ,n° 27-28, Fondation Maison des sciences de l'homme, Paris, 2003, p 142.

4 Bazin. Op. cit, p 2.

الأرياف جراء تحطيم النمط الاجتماعي والفلاحي التقليدي وأدى إلى انتشار أحياء الصفيح حول المدن، كما أدى من جهة أخرى إلى هجرة الجزائريين لأسباب اقتصادية متمثلة أساسا في البحث عن العمل [1]، فلم تنحصر النتائج في تحويل الأراضي إلى المعمرين بل كان القصد من هذا التهجير ضرب الوحدات التقليدية كالقبيلة التي مثلت روح المقاومة وضرب الأرض التي كانت تمثل أساس تماسكها والتحامها الاقتصادي والاجتماعي، وأنجر عنه أن وجد سكان الريف الجزائري أنفسهم في بؤس شديد.[2]

فهل كان بورديو يريد أن يساهم في إعادة تأهيل المجتمع الاستعماري المتسلط الذي لم يكتفي فقط باستغلال الجزائر والجزائريين بل حطمهم ثقافيا أيضا؟

غير أن عبد المالك صياد* الذي شارك بورديو في أعماله يرى أن المشاريع التي جاء بها الجنرال شارل ديغول كمشروع قسنطينة ** لعبت دورا غير مباشر في بعث بعض الأبحاث الاجتماعية من خلال حملة التحقيقات الميدانية والإحصاءات التي خصت المجتمع الجزائري لتجسيد هذه المشاريع كمحاولة لوأد الثورة، فقد جيء ببعض الفرنسيين الشباب من المتروبول وتم تحويلهم إلى مصلحة الإحصاء العام التي يقع مقرها في تلك الفترة بمنطقة "باب عزون" بالجزائر العاصمة.[3]

---

1 الجيلالي صاري، محفوظ قداش، الجزائر في التاريخ، المقاومة السياسية 1900-1954 الطريق الإصلاحي والطريق الثوري ترجمة: عبد القادر بن حراث، ص ص 220،218،216،212.

2 بورديو، المرجع السابق، ص 49-50.

* ولد سنة 1933 وتوفي سنة 1998، من عائلة ميسورة الحال تخرج من المدرسة النورمالية ببوزريعة ، وقام بدراسات في علم النفس والفلسفة في الجامعة المركزية بالجزائر العاصمة، اختص في مجال الهجرة الجزائرية نحو فرنسا له عدة مؤلفات منها: « Le Déracinement » الاجتثاث" باشتراك مع بيار بورديو ، ومع ألآن جيلات : « L'immigration Algérienne en France » الهجرة الجزائرية في فرنسا" و "الهجرة أو مفارقات الغيرية « L'immigration ou les paradoxe de l'altérité » أنظر: L'émigration algérienne en France, Un cas exemplaire en hommage a Abdelmalek Sayad (1933-1998), Actes du colloque, sous la direction de Kamel Chachoua,CNRPH, Les presses de l'imprimerie Mauguin Blida Algérie,2012.

** وتجدر الإشارة أنه رغم وجود دراسات أو إحصاءات لتجسيد هذا المشروع على أرض الواقع إلا انه يسعى لتطوير المدن على حساب الريف الأمر الذي كان مقصودا "فمشروع قسنطينة لا يريد إصلاحا زراعيا حقيقيا لأن ذلك يتطلب تحقيق أهداف ثورية" حيث يصبح سكان الريف أصحاب القرار فجا ء لضرب مكمن قوتهم. أنظر: "مشروع قسنطينة وأهدافه الحقيقية" المجاهد عدد 94 25 أفريل 1961.

3 Claude Seibel, Travailler avec Pierre Bourdieu sur Travail et travailleurs en Algérie, in : Awal, l'imprimerie Corlet France, juillet 2005, p 91.

وباقتراح من السيد "جاك براي Jacques Breil" الذي كان يشغل آنذاك مدير مصلحة الإحصاءات في الجزائر تم تأسيس "جمعية البحث في التنمية الاقتصادية والاجتماعية" "ARDES" التي كانت تمول الدراسات والتحقيقات حول المجتمع الجزائري في تلك الفترة في أبعاده الاجتماعية، الأنثربولوجية أو الاقتصادية والتي كان مقرها في مصلحة الإحصاء نفسها، وعلى الرغم من أنها تتلقى تمويلا عموميا إلا أنها كانت تحظى باستقلالية كبيرة في اختيار مواضيع البحث والمناهج العلمية المستعملة.[1]

ليس هناك مجال للشك أن ذات الجمعية كانت تستعين بالجزائريين كوسطاء ومترجمين خلال تحقيقاتها الميدانية ونقصد خاصة عمال الفصائل الإدارية الخاصة "SAS". فكانت أولى الأعمال التي قامت بها هذه الجمعية هو انتقالها إلى منطقة القل بسكيكدة ومباشرة تحقيقاتها من خلال إجراء مقابلات مع الجزائريين وملء الاستبيانات " Les questionnaires"[2]، ويذكر أحد الجزائريين المشاركين في تحقيقات هذه الجمعية كمترجم أنه وجب الحصول على التراخيص اللازمة لبدأ العمل في الميدان ليس فقط من الإدارة الاستعمارية الفرنسية فحسب بل حتى من طرف جبهة التحرير الوطني.[3]

وعن الدراسات الاجتماعية التي قام بها ب.بورديو يرى "عدي الهواري "* أنها أنثربولوجية في محتواها ومنهجها [4]، لكنه أهمل المسألة السياسية وغيب نظرية الدولة والمسألة الدينية التي تمثلها الطرق الصوفية والزوايا التي كانت منتشرة بشكل كبير لدى المجتمع القبائلي [5] وقد لاحظنا ذلك أيضا في فصل سابق لدى ج.تيون، لكن التغافل

1 Seibel, Op.cit. pp 91-92.
2 Garcia-Parpet, Op.cit, p 140.
3 Salah Bouhadja, IL était un parmi les Dix autour de l'enquete sur les camps de regroupement dans le déracinement, entretien réaliser par Tassadit Yacine, In: Awal, Cahier d'études Berbères, n° 27-28, Fondation Maison des sciences de l'homme, Paris, 2003, p 288.
4 Addi, Sociologie Op.cit, pp 9, 13.
5 Ibid, p 13.

عن هذه الجوانب لدى ب.بورديو كان عن قصد ويرجع تجنبه لدراسة المظاهر التقليدية من الأثنولوجيا أي الدين والسحر وبعض الطقوس لأنها السلاح العنصري الذي لطالما استعملته الأنثربولوجيا الاستعمارية في تشويه كل ما تعلق بالجزائريين من عادات وتقاليد ودين وممارسات اجتماعية لتصنف ضمن ما يطلق عليه بالمجتمعات البدائية.[1]

وعلى الرغم من محاولته تجاوز الأنثربولوجيا الكولونيالية التي لم تستطع أن تدرس التغيرات السلبية التي عرفتها المجتمعات المستعمَرة من تأثرات إلا أنه وقع في فخ النزعة الفرنسية السائدة في تلك الفترة في الكتابة عن المجتمع الجزائري.

وإذا أمعنا النظر في كتاباته التي سيصدرها لاحقا ككتاب "عمل وعمال في الجزائر" "Travail et travailleurs en Algérie" فنجده يغيب تماما الجانب الديني كغيره من الكتاب والمستشرقين الفرنسيين الذين "رثوا" الإسلام المغاربي والذي كان عاملا هاما للمقاومة والثورة ومحركا ضد المستعمِر.[2]

واتخذ كنقطة بداية لأبحاثه الاجتماعية ظاهرة العمل المأجور للجزائريين في المناطق الحضرية والريفية التي كانت محل بحث كبير عندهم لإعانة عائلاتهم، بسبب انتشار البطالة وتقهقر المستوى المعيشي الذي مس الكثير من الجزائريين خلال الثورة التحريرية مما أدى إلى ظهور حالة جديدة أين تحتم على هؤلاء إما التدبر للحصول على قوتهم أو أدى إلى تنقل سكان الأرياف إلى المدن واستقرارهم في أحياء الصفيح أين تلقوا صدمة ثقافية واقتصادية لم يكونوا مهيئين لها.[3]

وفي الوقت الذي نشر فيه بورديو باكورة مؤلفاته حول الجزائر كانت البنيوية أو "البنائية" تسيطر على الميدان الأكاديمي وحتى الأنثربولوجي وغيرها من المجالات كالفلسفة، لذلك كان من بين الذين تأثروا بها في تحليل المجتمع الجزائري.[4]

1 Adnani et Yacine, Op.cit, p 233.
2 Blazin, Op.cit, p 4.
3 Addi, Sociologie, Op.cit, p 16.
4 Addi Lahouari, Pierre Bourdieu revisité, La notion de capital social, L'anthropologie du Maghreb, Les apports de Berque, Bourdieu, Geertz et

وفي الفترة الممتدة ما بين سنتي 1958 وبداية الستينيات قام ب.بورديو بمجموعة من الأبحاث الأنثربولوجية حول المجتمعات القبائلية وهي الفترة التي بدأت تتطور فيها الصراعات الإبستيمولوجية بين الماركسية والبنائية، والأنثربولوجيا الرمزية والفلكلورية [1] ويكون بورديو قد تأثر بالنظرية البنائية لليفي ستروس Lévi Strauss كما ذكرنا سابقا.[2]

ومن المعطيات التي سبق ذكرها يكون ب.بورديو قد تأثر بالنزعة الإنسانية حين ألهمته الكثير من المسائل الجزائرية الاجتماعية خلال الفترة الاستعمارية، فنراه يلوم فيها الاستعمار الفرنسي الذي سبب بؤس الملايين من الجزائريين [3]، لكن من المفارقات التي تستوقفنا أننا نجده من بين الذين أيدوا استقلال الجزائر من الأنثروبولوجيين لكن في الوقت نفسه لم يعتبره مطلبا ثوريا، ذلك أن الأوضاع الاقتصادية والثقافية لم تتح للمجتمع المستعمَر فرصة إدراك الوعي الثوري، وربما هذا تأكيد على مخالفته للتفسير الماركسي الذي يقر أن لشعوب العالم الثالث قدرات ثورية، والثورة بالنسبة له إذن مشروع سياسي تقوم به مجموعات واعية بقواها، فينفي بورديو بذلك وجود مشروع دولة في مستقبل الجزائر بعد الثورة[4]، ونتساءل عما إذا كان هذا المؤلف قد اطلع على بيان أول نوفمبر؟ لأنه لم يكن بيانا للثورة بل كان مشروع دولة بعد الاستقلال.

ونلاحظ من خلال التحليل الاجتماعي الذي قام به بورديو أن ما كان يحرك الجزائريين خلال الثورة هو محاولة التخلص السريع من الاستعمار الفرنسي دون الأخذ

Gellner,Actes du colloque organisé a l'IEP de Lyon21-23 septembre 2001 sous la direction de Lahouari Addi, Ibis Press, Paris 2003,p 145.

1 Richard Lauraire, Pierre Bourdieu et l'éthnologie rurale, In: Awal, Cahier d'études Berbères ,n° 27-28, Fondation Maison des sciences de l'homme, Paris, 2003, p75.

2 Adnani et Yacine, Op.cit, p 233.

3 Addi, Sociologie, Op.cit, p 15.

4 Lahouari,Addi,Les limites idéologiques du nationalism algérien, In: Awal, Cahier d'études Berbères ,n° 27-28, Fondation Maison des sciences de l'homme, Paris, 2003, p 133.

في الحسبان التحولات الجذرية التي ستمس الجزائر والتي تؤثر في الطبقات الفقيرة بشكل مباشر وكبير. ومن هذا المنظور فإن بورديو يحث على وجوب الرجوع إلى الدراسات الاجتماعية المختلفة لفهم الثورة التحريرية وانعكاساتها ويوصي بعدم الاكتفاء بالنصوص الرسمية لجبهة التحرير الوطني التي تخصها.[1]

لم يغادر ب.بورديو الجزائر بعد أحداث 13 ماي 1958* بل بقي ليكمل أبحاثه إلى غاية سنة 1961 التي أفضت إلى نشر كتابه "العمل والعمال في الجزائر وكانت قاعدة أبحاثه الإحصاءات التي شارك فيها سنوات الستينيات من القرن 20 م والتي أعطت صورة تقارب الواقع للمجتمع الجزائري خلال السنوات الأخيرة من الاستعمار الفرنسي في الجزائر، ونشرت هذه الدراسة سنة 1963 وهي تقريبا الفترة التي ظهر فيها كتابه الثاني الموسوم بـ" Le Déracinement"[2] أو "الاجتثاث" سنة 1964 بمشاركة عبد المالك صياد في التأليف– هذا الأخير الذي اختص في الهجرة الجزائرية نحو فرنسا– والذي حاولا فيه تقديم النتائج الاجتماعية التي طرأت على الجزائر بعد مضي 130 سنة من الاستعمار الفرنسي.[3]

وإذا عدنا إلى هذه الدراسة فإننا نقف أمام حقيقة أراد بورديو تأكيدها تكمن في أن المجتمعات التي بقيت محافظة على تقاليدها مقارنة مع المناطق الأخرى من الجزائر

---

1 Addi, Les limites, Op.cit, pp 136-138.

* تتمثل هذه الأحداث في تمرد ضباط الجيش الفرنسي السامون بتشجيع من بعض الدوائر الحكومية الفرنسية في المتروبول ومن بين قادة هذا التمرد نجد موريس شال، وراوول سالان وإدمون جوهو، وأندري زيللر وغيرهم الذين مكنهم ديغول من مناصب عليا في الجيش الفرنسي في الجزائر، ويكون هذا الأخير من بين المسؤولين على حدوث هذا التمرد، وفي المقابل لم تتحرك الحكومة الفرنسية لإيقافه أنظر: جريدة المجاهد، مسؤولية ديغول في استمرار التمرد 1961/05/08.

2 ترجم الفصل الأول من هذا الكتاب في مجلة الأصالة مما فيه من أهمية وترجمت Déracinement إلى العربية بكلمة الاستئصال، يشرح بورديو بمعية عبد المالك صياد كيف أن تجميع الجزائريين في المعتقلات والمحتشدات أثر على "ضعضعة نظام القبائل" الذي كان العقبة الأساسية للتهدئة فكانت استمرارا للقوانين التي أصدرتها السلطة الاستعمارية خلال القرن 19 التي حولت الملكية القبلية إلى ممتلكات فردية نتج عنه تفكيك الوحدات المجتمعية التقليدية والقضاء على التوازن الاقتصادي التي كانت تصونه الملكية القبلية والعرفية، أنظر: الاستئصال، بيير بورديو، عبد المالك صياد، ترجمة عبد الرحمان بوزيدة، ا لأصالة العدد الثالث، 1971 ص 49.

3 Nouschi, Op.cit, p 33.

هي التي تضررت أكثر من غيرها كمنطقة القبائل والأوراس، والنمامشة، والحضنة والونشريس وهي عموما المناطق البربرية، فكانت الثورة ذريعة فقط لإتمام السياسة الاستعمارية المتناقضة التي كان هدفها واحد هو تحطيم البنى الاجتماعية للجزائريين.[1]

أراد بورديو أن يوضح تأثير السياسة الاستعمارية على المجتمع الجزائري انطلاقا من بحوث ميدانية كما رأينا، وأكد كذلك أنها لم تكن وليدة قمع الثورة التحريرية فحسب بل تعود إلى تراكم القوانين المجحفة، وبهذا يكون ما كتبه عن المجتمع الجزائري اتهاما منه للاستعمار الفرنسي الذي ارتكب جريمة تقويض المجتمع، لذلك فهناك من يصنفه – بالإضافة إلى جاك بيرك– بما أطلق عليه "أنثروبولوجيا القطيعة" التي حاولت دراسة المجتمع المغاربي عامة والجزائري خاصة بطريقة علمية بعيدة عن الايديولوجيا الاستعمارية المسيطرة عهدئذ [2]، رغم اعتراف ب.بورديو في الأخير أن الأنثربولوجيا مرتبطة بالاستعمار، غير أن الكثير من الأنثربولوجيين يحاولون الابتعاد عن هذا الطرح.[3]

المبحث الرابع:مساهمة ب.بورديو في دراسة المجتمع الجزائري اجتماعيا وأنثربولوجيا:

حاول بورديو من خلال مجموعة من الكتابات والتي ذكرناها سابقا "سوسيولوجية الجزائر"، "عمل وعمال في الجزائر" ومؤلف "الاجتثاث" أن يظهر الكيفية التي أنتج فيها النظام الاستعماري من خلال مصادرة الأراضي وتحطيم التنظيمات القبلية والتهجير طبقة "تحت الكادحة" أو "أنصاف بلوريتاريا" Sous-Prolétariat" حضارية في المدن الجزائرية مُهمشة ومُستغلة لكنها بقيت متأثرة بتقاليدها الاجتماعية الفلاحية التي نشأت فيها.

ويركز بورديو في هذا الصدد على الاختلال الذي حدث بين سلوك هؤلاء –أنصاف

1 بورديو، المرجع السابق، ص ص52- 53.

2 عمار بركات، سؤال الايدولوجيا والدراسات الاستشراقية الأنثربولوجية في الجزائر ألفرد بال وبيار بورديو، سلسلة محاضرات الملتقى الدولي محمد بن شنب والاستشراق المنظم بولاية المدية من 07 إلى 10 ديسمبر 2014، شيكو للطباعة والنشر، الجزائر 2015، ص 99

3 Adnani et Tassadit, Op.cit, p 234.

البلوريتاريا– والظروف الجديدة التي فرضت عليهم من طرف نظام العمل المأجور المرتبط بالرأسمالية التي فرضها المستعمر الفرنسي، فالعامل بالنسبة لبورديو مسلوب الأرض، مستغل، مهمش، وفي نفس الوقت لم يهيئ ولم يكيف مع هذا النظام الاستعماري الذي يستغله، وفي هذا النطاق يرى ب.بورديو " أن الجزائري قد فقد جراء هذا التهميش الاستعماري حتى الإدراك والوعي بتهميشه" [1]، لكن كيف نفسر إذن أن الفكر الثوري ترعرع وتبلور في هذه الأحياء المحرومة؟ حيث كانت هذه الأحياء الشعبية قاعدة للحراك الثوري.[2]

مهما يكن فإن التجربة الجزائرية بالنسبة لبيير بورديو قد ساقته إلى اعتماد مقاربة منهجية للظواهر الاجتماعية ليس فقط للمجتمعات المستعمَرة فحسب بل حتى للمجتمعات الأخرى التي ارتبطت بالرأسمالية.[3]

وتفيد كتابات ب.بورديو أيضا في فهم المجتمع الجزائري بين سنة 1950و1960 هذه العشرية التي اكتشف فيها هذا الأنثروبولوجي الجزائريين بشكل فضيع تجلى في انتشار البطالة وأحياء الصفيح *، يعانون من اللاعدالة الاجتماعية وتضييق للأفق في ظل سياسة استعمارية ظالمة، كما تقدم لنا كتاباته المظاهر الحقيقية التي كان يعيشها الجزائريون[4]، خاصة في الريف "لأن التخريب الاستعماري قد بلغ أقصاه في المجتمع

1 Blazin, Op.cit, pp 2-3.

2 صاري، قداش، المرجع السابق، ص 218.

3 Nouschi, Op.cit, p 35.

* لم يكن سكن الجزائريين في الريف أحسن حالا، فقد كتب موريس فيوليت في كتابه "هل ستعيش الجزائر؟" "L'Algérie vivra-t-elle ?" : "ليست مسألة السكن الأهلي بأقل أهمية من مسألة الصناعة التقليدية. فإذا كان تكدس السكان الأهالي في المدن مريعا، فمن المؤسف رؤية مقدار هشاشة المسكن الأهلي في الدواوير" نقلا عن أولفييه لوكور غرانميزن، نظام الأهالي، ترجمة العربي بوينون، الطبعة الأولى، منشورات السائحي، الجزائر 2011، ص249.

4 Kamel Chachoua, Pierre Bourdieu et l'Algérie: Le savant et la politique , In : Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée, , N° 131 , Presses Universitaires de Provence, juin 2012.p 5.

بمساعدة القوى الإقطاعية التي خلقها".[1]

وبهذا تكون كتابات بورديو مستوحاة من تجاربه الأنثروبولوجية الميدانية خاصة عندما زار المناطق الجبلية القبائلية، ذلك أنه لاحظ بقاء السكان أوفياء للتقاليد التي توارثوها أبا عن جد والتي تميزت بوجود دين له خصائص فلكلورية شعبية، فخلص ب.بورديو إلى أنه مجتمع تقليدي خضع لتأثيرات سلبية جراء الاستعمار.[2]

رغم ما يستفاد من كتابات بورديو الأنثروبولوجية في فهم المجتمع الجزائري، إلا أنه في نظرنا انساق وراء تلك الفكرة الفرنسية القائلة أن الجزائر لا تكوّن وحدة ثقافية، فكل المناطق التي يتكلم سكانها البربرية خاصة تلك التي تعيش في الكتل الجبلية بقيت حسبه محافظة على نمط حياتها الأصلي، وأكدت استقلاليتها عن الإسلام بدليل بقاء النظام القضائي العرفي سائدا فيها.

1 المجاهد ، المجتمع الريفي والطاقة الثورية، عدد 107، 1 نوفمبر 1961.

2 Addi Lahouari, Pierre Bourdieu, revisité, Op.cit, pp143-144.

الفصل السابع

الكتابات الأنثربولوجية الفرنسية خلال الثورة التحريرية: جون سارفييه Jean Servier

1 -المبحث الأول: جون سارفييه والمجتمع الجزائري.

2 -المبحث الثاني: جون سارفييه والثورة التحريرية الجزائرية.

3 -المبحث الثالث: موقف جون سارفييه من جمعية العلماء المسلمين.

4 -المبحث الرابع : موقف جون سارفييه من قضايا المجتمع الجزائري.

5 -المبحث الخامس: مساهمة جون سارفييه كأنثربولوجي في العمليات العسكرية الفرنسية في الجزائر.

6 -المبحث السادس: الدفاع من "أجل الجزائر الفرنسية" من خلال كتاب "غدا في الجزائر Demain en Algérie".

يشترك الباحثون الفرنسيون في أنهم كرسوا جهودهم لإنتاج معرفة تخص الشعوب المستعمرة، إذ كانت الإدارة قد استدعتهم لمعرفتهم الكبيرة للمجتمع الجزائري، هذه المعرفة المستقاة من البحث في الميدان [1]، ومن بين الأنثربولوجيين الذين كانت لهم اهتمامات بالمجتمع الجزائري نجد جون سارفيه بكتاباته التي عكست صورة الكثير من الكتاب الفرنسيين، وقبل أن نتعرض لكتاباته ينبغي أن نعرف من هو سارفييه.

المبحث الأول: جون سارفييه Jean Servier* والمجتمع الجزائري:

كانت بدايته المهنية كعسكري حين شارك في جبهات القتال الفرنسية ضد دول الحلف بداية من سنة 1942 ثم زاول تكوينا في الإثنولوجيا على يد مارسيل قريول Marcel Griaule [2] والتحق بعد الحرب العالمية الثانية بالمركز الوطني للبحث العلمي بباريس CNRS فتحصل على منحة لإنجاز سلسلة من التحقيقات [3] حول بعض المظاهر الميتافيزيقية كالخرافات السائدة عند قبائل الأوراس والتي تخص نشأة الكون مابين سنتي 1945 و1954 وانتقل في إطار هذه المهمة إلى عدة مناطق من الجزائر كجبال زكار والونشريس وجبال شنوة ومنطقة القبائل، وبني سنوس بتلمسان، وقد سمحت إقامة ج.سارفييه في منطقة الأوراس والقبائل بأن يتعلم اللهجة الشاوية والقبائلية زيادة على اللغة العربية [4]، وتشير وثائق الأرشيف فيما وراء البحار الموجودة بآكس أنه تلقى المساعدة من الحكومة العامة بالجزائر ابتداء من تاريخ 03 أفريل 1952 كما تلقى منحا مالية لإنجاز أبحاثه قدرت بـ 150000 فرنك فرنسي سنة 1953 والمبلغ نفسه سنة 1954 وفي المقابل كان يبعث بتقاريره التي جاء فيها توزيع اللغة البربرية في منطقة القبائل وقادته هذه الأبحاث حسب ذات

---

[1] Sacriste, Op.cit, p16.

* جون سارفييه من أبرز الأنثربولوجيين الفرنسيين ولد بتاريخ 2 نوفمبر 1918 في مدينة قسنطينة، بعد دراسته في الثانوية ، ويذكر في تعريف لشخصه ،انخرط في الجيش الفرنسي وشارك في الحرب العالمية الثانية، وتحصل بعدها على شهادة الليسانس في الفلسفة وديبلوم في اللغة البربرية من المدرسة الوطنية للغات الشرقية، قام بزيارات أنثربولووجية كمبعوث من المركز الوطني للبحث العلمي حيث زار العديد من المناطق وناقش أطروحته في الدكتوراه سنة 1955، أنظر غلاف مؤلفه : Jean Servier, Les portes de l'Année, rites et symboles l'Algérie dans la tradition méditerranéenne, Robert Laffont, Paris, 1962.

2 Sacriste, Op.cit, p 17.

3 أبوعمران الشيخ، جان سرفيه وثورة أول نوفمبر1954، مجلة الأصالة، عدد22، 1974، ص 79.

4 Courrière, Op.cit, p 219.

التقارير إلى أن يحدد المدارس القرآنية المنتشرة وتأثير الطرق الصوفية في المنطقة، وأشار سارفييه إلى أنه قام بدراسات اجتماعية خصت العائلات المرابطية محاولا معرفة الكيفية التي انتشر فيها الإسلام واللغة العربية في المنطقة.[1]

وعند اندلاع الثورة في الفاتح من نوفمبر سنة 1954، كان ج. سارفييه يقوم بأبحاث إثنوغرافية في مدينة أريس التي تقع في منطقة الأوراس وهي المنطقة التي عرفت أولى طلقات رصاص الثورة، إذ تبنى مباشرة موقفا معاديا للثورة الجزائرية فكان من بين أولئك الفرنسيين الأوائل الذين أسسوا لجان لحماية مدينة أريس المكونة أساسا من المدنيين الأوربيين الذين تم تسليحهم بأوامر من الحاكم العام وتولى هو القيادة من برج هذه المدينة وعين نفسه ضابطا وبدأ في إصدار الأوامر لمحاربة الثوار الجزائريين.

وأول تدخل مباشر لجون سارفييه كأنثربولوجي هو أنه عند ملاحظته تسليح الأوربيين دون الجزائريين قرر أن يكون فرقة مسلحة تضم بعضا من سكان الأوراس واعتمد على سياسة التفرقة – سياسة فرق تسد – واستغل الخلاف القديم الذي كان بين قبيلتي أولاد عبدي وأولاد داود "التوابة" * إذ استطاع أن يجند أفراد من قبيلة أولاد عبدي لمحاربة قبيلة التوابة زاعما أن كل الثوار ينتمون لهذه القبيلة فأسس بذلك أول "خلية للحركة" خلال الثورة التحريرية.[2]

ويذكر سارفييه أن سبب الخلاف القائم بين التوابة وأولاد عبدي يرجع إلى سنة 1893عندما أعادت الإدارة الفرنسية الاستعمارية تقسيم أراضي المنطقة بين هاتين القبيلتين، وبناء على هذا الخلاف القبلي تم تجنيد أفراد من هذه المنطقة، وكان من أول المجندين في "حركى الأوراس" هو الآغا معشي **، والقائد لكحل وتبعه بعض من أفراد قبيلته *الذين تم تسليحهم ببنادق، وأسندت لهم مطاردة الثوار بالمنطقة.[1]

---

1 ANOM, 12 CAB/221, Note.

* عرفت قبيلة أولاد داود (التوابة) ببغضها للفرنسيين فعرفت قبل هذه الفترة بثورتها في الأوراس سنة 1879 أنظر: Delartigue, Op.cit, p 140.

2 أبو عمران، المرجع السابق، ص ص 80، 81.

** هو الآغا مرشي أو"معشي" بن عبد الله المسمى السبتي بن لعلا، عين كقائد لدوار تيغانيمين أفريل 1941، ودوار وادي الأبيض ماي 1949، وآغا بداية من سنة 1953، تحصل على عدة نياشين =

ورغم شهادة سارفييه حول تشكيل فرق من سكان المنطقة المحليين لمواجهة الثورة، إلا أنه لم يكن موضوعيا في تقديم الأسباب الحقيقية التي تكمن وراء هذا التسليح، فتذكر بعض المصادر أن سارفييه تخوف من انتقام المستوطنين المسلحين والذي سينتج عنه انتشار الثورة بشكل أسرع في المنطقة وهو اعتراف ضمني من طرف الفرنسيين بأنهم ليسوا ثوارا، ومن جهة أخرى تثبت شهادته هذه أنه كان من بين أشد الفرنسيين المعارضين للثورة التحريرية إذ كتب قائلا: " لم تصبح حربا تحريرية قام بها المسلمون للتخلص من المسيحية، لكنها ثورة ضد القانون. من جهة نجد مسلمين مع إفشاء النظام والسلام الفرنسي ومن جهة أخرى نجد في الظلام بعض الفرنسيين الفرحين بهذه الاضطرابات يقومون بمساعدة الثوار سرا".[2]

والحقيقة أنه توجد مغالطات تاريخية في هذا الشأن:

أولا: لأن جبهة التحرير في المنطقة قد ضمت الكثير من أفراد قبيلة أولاد عبدي الأمر الذي لم يذكره سارفييه.

ثانيا: لأن سارفييه كان يقوم بأبحاثه في منطقة منعة أي في أرجاء أولاد عبدي هذه القبيلة التي عرفت عند الإدارة الفرنسية بكثرة هجرة أفرادها نحو المتروبول وكثرة المثقفين ثقافة فرنسية بالمقارنة مع قبيلة التوابة وبالتالي فقد خلصت السلطات الاستعمارية إلى معادلة مفادها أن التوابة قبيلة متمردة لأن أحد مفجري الثورة

= كنيشان جوقة الشرف سنة 1953، وكان من بين الشخصيات الأكثر تأثيرا لدى قبيلة أولاد داود (التوابة) ويكون هذا القائد قد انظم لفرقة الأولى للحركة حسب ذات المصدر بسبب العداء الذي يكنه لعائلة مصطفى بن بولعيد أنظر: Nordine Boulhaïs, Des Harkis berbers de l'Aurès au Nord de la France, Presses universitaires du Septentrion, France 2002, p 77, 80

* استغل سارفييه كونه قام بأبحاث إثنولوجية الصراعات القبلية القديمة لتأجيج الأوضاع في المنطقة وتم الانضمام إلى فرق الحركى بشكل جماعي قبلي وعشائري، حيث يذكر أحدهم: " يبدو أن قبيلة التوابة التي ينتمي إليها الأخو بن بولعيد قد التحقت كلها إلى التمرد Rébellion تريد أن تتقدم القبيلة التي تعاديهم منذ القدم وهي بني بو سليمان (أولاد عبدي)، لكننا لا نعلم مدى صدق هذه المعلومات رغم تأكيدها في بعض المصادر، أنظر: Nourdine Boulhais, Histoire des Harkis du nord de la France, L'Harmattan, France, 2005, pp, 44,53.

1 Jean Servier, Dans l'Aurès sur les pas des rebelles, Edition France Empire, Paris 1955. pp 25,259.

2 Servier, Dans l'Aurès, Op.cit, p 28.

التحريرية من بين أفرادها وهو مصطفى بن بولعيد، وأن أولاد عبدي قبيلة يمكن استمالة أفرادها لتأثرهم بفرنسا وثقافتها بسبب عامل الهجرة.[1]

ورغم ارتفاع عدد رجال فرقة الحركى في الأوراس من 40 رجلا إلى حوالي 300 سنة 1955 إلا أن بعض المصادر تؤكد أن مصطفى بن بوالعيد اتخذ مجموعة من التدابير لإحباط مخطط التفرقة القبلية مما أدى إلى تفكيك هذه الفرقة من الحركة وانضمام أغلب أفرادها إلى جيش التحرير الوطني.[2]

ويقدم جاك بايار Jacques Paillard الذي كان يدير مكتب الفصيلة الإدارية الخاصة "SAS" لمدينة آريس جدولا يوضح عدد أفراد قبيلة التوابة "أولاد داود" الذين انضموا للثورة أو انضموا لفرق القومية مابين سنتي 1954 و1955:

العروش	الثورة	القومية
إيزحافن	30	80
آيث عزة	200	10
آيث تاخريبت	60	80
آيث عائشة	70	05
إيحدادن	150	10
آيث اسماعيل	30	100
المجموع	540	295

الملاحظ من خلال استقرائنا هذا الجدول أن عدد الأفراد الذين التحقوا بالثورة هو أكبر من أفراد الحركى، لكن كيف نفسر التحاق الكثير بفرق القومية؟

تشير المصادر أن للنزعة القبلية دورا كبيرا في ذلك، بالإضافة إلى الأحقاد القديمة التي ترجع إلى فترات سابقة سببها التنافس على مناصب القيادة والمشيخة ولعبت عوامل أخرى دورا في تباين جبهة انضمام أعراش أولاد داود فعرش أولاد عزة مثلا

1 Boulhaïs, Des Harkis, Op.cit. 78.

2 أبو عمران، المرجع السابق، ص81.

تأثر بشكل كبير بنشاط جمعية العلماء المسلمين لذلك كان أفراده يمثلون أكبر نسبة للملتحقين بالثورة والشيء نفسه بالنسبة لعرش إيحدادن، أما عرش آيث عائشة فكان من الأعراش الأكثر عداء للإدارة الاستعمارية الفرنسية لذلك ضمت نسبة كبيرة من الملتحقين بالثورة أي 70 مقابل 05 رجال.[1]

وتجدر الإشارة إلى أن سارفييه قدم توصيات للسلطة الاستعمارية تخص تكوين تلك الفرق المتعاونة مع فرنسا كي تكون أكثر عملية وفعالية إذ أصر أن يكون عمل أفرادها في المناطق التي ولدوا ونشؤوا فيها وذلك لمعرفة هؤلاء بهذه المناطق معرفة جيدة، وفي المقابل إذا تم توظيفهم خارجها فستصبح فرق الحركى تحت رحمة جبهة التحرير الوطني مما يؤدي إلى فرارهم من الثكنات العسكرية.[2]

المبحث الثاني: ج.سارفييه والثورة التحريرية الجزائرية :

لقد أبدى هذا الأنثربولوجي منذ الوهلة الأولى لانطلاق الثورة التحريرية الجزائرية موقفه المعارض لها حين صرح "مؤكدا أنها لم تكن ثورة الجزائريين" وبأنها أزمة عابرة واعتبرها حربا نفسية يخوضها الجزائريون ومن هذا المنطلق أوصى المجتمع الكولونيالي في الجزائر أن لا يكترث للأحداث التي يقوم بها الثوار.

وبعيدا عن هذا التصور يرى أن المجتمع الفرنسي في المتربول لا يدرك الأسباب الحقيقية التي أدت إلى اندلاع الثورة الجزائرية، فرفض سارفييه بذلك المزاعم التي ترجع اندلاعها للأسباب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، لكنه يفسرها بأنها تعود إلى عوامل أكثر تعقيدا، لأن لكل منطقة من الجزائر دوافعها الخاصة، فيذكر مثلا أن ما يقوم به سكان منطقة الأوراس هو "جهاد"، بينما ما تعرفه منطقة القبائل من حراك فهو نضال "لحركة انتصار الحريات الديمقراطية MTLD" وهو بذلك يقلل من شأن الثورة التحريرية التي لا تقوم بها إلا أقلية من النخب الجزائرية ذات المطالب الوطنية.[3]

1 Boulhaïs, Op.cit. pp 79-81.
2 Horne, Op.cit. p 246.
3 Sacriste, Op.cit. p 222.

وقد أشرنا من قبل إلى أن هذا الأنثربولوجي قد كان من أشد المعرضين للثورة الجزائرية وفي هذا الصدد يذكر المؤرخ "أليستر هورن Alistaire Horne" أن سارفييه قد زار منطقة القبائل سنة 1956 وامتعض حين لاحظ قيام سكان المنطقة بجمع الأموال والمؤونة لصالح جبهة التحرير الوطني التي تكون قد أجبرتهم وأكرهتهم على ذلك "، وكان سارفييه يعبر دائما عن استيائه من الدعاية الفرنسية التي لم تكن فعالة لقمع الثورة التحريرية[1]، فلا نستغرب إذن من مواقفه الحاقدة على الثورة وتركيزه على منطقة القبائل خاصة إذا ما علمنا أنه ابن أندري سارفييه André Servier* أحد الدعاة الغلاة للأطروحة البربرية في الجزائر.[2]

وما يؤكد هذه النظرة الضيقة تصريح سارفييه لجريدة لوموند الصادرة بتاريخ 08 نوفمبر 1954 قائلا : " لقد استطعت أن ألاحظ العمل الهدام الذي قامت به جمعية العلماء المسلمين الذين تكونوا في مدرسة قسنطينة بنشر مذهب وطني إسلامي، وتمكن هؤلاء جعل من آمن بهم يخجل من عاداته وشعائره وفلكلوره. وقد هيأت الجمعية الطريق لأعضاء حركة الانتصار الحريات الديمقراطية لإيجاد صدى إيجابي"، ويؤكد هذا الأنثربولوجي عن وجود اختلاف بين العرب والبربر في تبني العمل الثوري ويضيف قائلا:" بالكاد اتبع برابرة الجبل صدى الثورة، لكن عرب وادي الأبيض– المسار الطبيعي للغزوات– المكان الذي سيطر عليه في ما مضى صعاليك الشرف فإن إصلاح الأوضاع فيه ليس بالأمر الهين".

---

1 Horne, Op.cit. pp139, 418.

* أندري سارفييه أحد أهم الصحفيين الاستعماريين ومن بين الماسونيين المتعنتين ترأس تحرير برقية قسنطينة Depeche de Constantine ومن هذا المنبر كان من بين دعاة سياسة تحويل البربر عن الإسلام وقد بين هذا الكاتب بوضوح أنه "يجب تفتيت الأهالي وتقسيمهم ومن ثمة اجتثاث أحسن عناصر البربر" بواسطة المدرسة اللائكية أو عن طريق الآباء البيض وحسب أندري سارفييه فإن بقايا الموروث المسيحي واللاتيني مازال حاضر عندهم ونراه بذلك يمجد "الفلسفة المسيحية" التي يراها مناسبة كديانة للقبائليين وتصبح أفضل إذا استطاع هذا المعتقد أن يحطم وحدة المسلمين، وكان أيضا من بين المهللين لهجرة سكان القبائل نحو فرنسا بغرض كسر اللحمة الإسلامية الجزائرية، أنظر: آجرون، المرجع السابق، ص 150.

2 Ageron, De l'Algérie, Op.cit. p150.

وتأكيدا لهذا الموقف اقترح سارفييه أن تتدخل القوات العسكرية الفرنسية "بشكل فعال لإنقاذ سكان الأوراس من العنف الذين أرغموا الدخول فيه".[1]

والحقيقة أن تصريحات سارفييه "أثارت حفيظة بعض الفرنسيين في المتروبول وردود فعل قوية لدى الكشافة الإسلامية التي صدمت بمثل هذه التصريحات الخاطئة التي يتهم فيها سارفييه رجالات الإصلاح ورفضت هذه الأخيرة تدخل هذا الأنثربولوجي المسيحي في أمور تتعلق بالإسلام في حين كان يجب عليه أن يلتزم الحياد".[2]

المبحث الثالث: موقف جون سارفييه من جمعية العلماء المسلمين:

في بعض الرسائل التي بعث بها هذا الأنثربولوجي لجريدة لموند الفرنسية التي نشرت بتاريخ 27 نوفمبر 1954 يظهر لنا موقفه الصريح والمعادي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين والتي يتهمها "بنشر أفكار تؤكد عدم انتماء الجزائريين إلى المجتمع الفرنسي وأنهم ينتمون إلى العالم العربي" وأردف كاتبا : "حتى وإن لم تكن للجمعية صلة بحركة الانتصار الحريات الديمقراطية إلا أنها نشرت منذ سنة 1935 في الأرياف الجزائرية الصحافة والدعاية المصرية المعادية بشكل عام لعمل فرنسا بالجزائر"، كما أكد سارفييه بالحرف الواحد أنه يحتج على الطريقة التي تمت بها عملية محاربة الفلكلور البربري في الأوراس "من طرف جمعية العلماء والتي جاءت ضد إرادة سكان الريف وهو الشيء المنافي حسبه للقوانين الفرنسية" كما عبر عن استيائه مما تقوم به الجمعية في هذه المنطقة من محاربة زيارة القبور والتبرك بها، واستنكر "مداهمة أفراد الجمعية الشابة للاحتفالات، والقيام بتعنيف وضرب المغنين والموسيقيين باسم العقيدة الإسلامية خلال الثلاثينيات".

1 Le Monde : 08/11/1954 En patrouille a Arris avec les " paras " du bataillon étranger de Sétif .

2 Le Monde : 17/11/1954, Quarante bandits en armes ont attaqué le petit village de Pasteur

ليؤكد سارفييه في نهاية رسائله أن الثوار الذين تم القبض عليهم خلال الثورة التحريرية اعترفوا أنهم رفعوا السلاح ضد فرنسا باسم الجهاد وهو يشير بذلك لدور جمعية العلماء بشكل مباشر في الثورة التحريرية.[1]

لكن إذا ما رجعنا لجريدة البصائر لسان حال الجمعية خلال الشهر الأول من اندلاع الثورة لوجدنا أنها كانت تجهل من يقف وراء الأحداث الأولى للثورة، ففي صفحتها الأولى الصادرة بتاريخ 05 نوفمبر 1954 نشرت مقالا معنونا بـ "حوادث الليلة الليلاء... 1 نفامبر 1954" صرحت فيه أنها تفاجأت "لوقوع أحداث ما بين الساعة الواحدة والخامسة من صبيحة الاثنين غرة نفامبر" وأضافت كاتبة: " إننا إلى حد الساعة لا نملك التفاصيل المقنعة عن هذه الحوادث وأسبابها، وليس بين أيدينا إلا ما تناقلته الصحف وشركات الأخبار فلا نستطيع أن نعلق عليها أدنى تعليق، إلى أن تتبين لنا طرق الصواب فليس من شأن "البصائر" أن تتسرع في مثل هذه المواطن".[2] وكتب أحمد توفيق المدني أحد أقطاب الجمعية في مذكراته قائلا: " بعد مذاكرات طويلة، ومفاهمات خاصة وعامة، رأينا أننا من الثورة ومع الثورة، ولا يمكن إطلاقا أن لا نكون مع الثورة، مع الحذر التام" وأصبح بذلك علماء الجمعية جزءا لا يتجزأ من الثورة والكفاح المسلح [3]، وهنا نتأكد أن مزاعم جون سارفييه في أن جمعية العلماء هي التي تقف وراء تفجير الثورة غير صحيحة غير أن الجمعية تأهبت بكل ما لها وعليها لخدمة الثورة التحريرية.

الواقع أن مواقف هذا الأنثربولوجي الاستعمارية الحاقدة لها خلفيتها كغيره من الفرنسيين المعادين للإسلام فحين نقرأ تصريحاته التي أدلى بها لجريدة لوموند بتاريخ 13 جويلية 1955 بعنوان " العلماء المسلمون ساهموا في تعصب بربر الأوراس هم اليوم في تمرد ضد فرنسا" فإننا نخلص لحقده الدفين على الإسلام وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ومن خلال قراءتنا لعنوان المقال فقط نجد دلالة واضحة على

1 Le Monde : 27/11/1954, Une lettre de M. Jean Servier.

2 البصائر: 05 نوفمبر 1954. العدد 292، حوادث الليلة الليلاء... 1نفامبر 1954. ص 173.

3 أحمد توفيق المدني، حياة كفاح، الجزء الثالث، المؤسسة الوطنية للكتاب الطبعة الثانية، الجزائر 1988، ص 23، 62.

وقوفه ضد جهود الجمعية في محاربة البدع والأباطيل ونخلص إلى القول أنه هو الذي كان متعصبا ضد الإسلام.[1]

لم يخف ج سارفييه مواقفه المعادية للإسلام إذ كان من المسائل الأساسية التي تناولها في أطروحته أين ادعى أن إسلام البربر سطحي كونهم مازالوا يخضعون للشعائر والعبادات العتيقة، فاختزل الدين الإسلامي في ممارسات غيبية تنظم حياة البربر مستمدة من ديانات سابقة للاسلام.

وأخذ هذا الكاتب يستطرد مفسرا " بأن الإسلام قد مر بمرحلة غير من ردة فعله وموقفه إزاء التراث البربري القديم من عادات وطقوس ومعتقدات فلم يحاول القضاء عليها في البداية لكن قام بتغطيتها وقولبتها واتبع نفس الخطى التي قامت بها المسيحية في القرون الأولى من بدايتها حين تزاوجت بالعبادة الوثنية، فبنت كنائسها على أنقاض الأضرحة القديمة واعتمدت بعض الأبطال المبجلين ضمن قديسيها".

واعتمادا على ما ذكره سارفييه فإن الإسلام الشمال الأفريقي مليء بالخرافات القديمة الخاصة بالأمازيغ وأصبح فيه أسلاف البربر المقدسين "صلحاء الإسلام".

وتبدأ المرحلة الثانية بالنسبة لسارفييه بعد نشر الفكر الإصلاحي لجمعية العلماء المسلمين في منطقة الأوراس التي أرادت الرجوع إلى الإسلام الصحيح وتطهيره من تلك المعتقدات السالفة الذكر ولاسيما محاربة الشرك ومظاهره ويخلص سارفييه أن الإسلام الذي نشرته الجمعية هو إسلام طائفي متعصب ومتشدد، لكنه يتجاهل أن الدين الإسلامي قد ذم التعصب ونهى الشرع عنه، أما عن تعاليم الجمعية فهي مستوحاة من القرآن والسنة.[2]

ويمكن أن نفسر تهجم سارفييه على الجمعية لأنها قامت بتكوين وتعليم شباب منطقة الأوراس وانتزعت منهم عادات أجدادهم القديمة البالية، وأحيت فيهم شعور الانتماء الذي لم يكن لفرنسا البتة.[3]

1 Le Monde : 13/07/1955. Les Ulémas ont fanatisé les Berbères de l'Aurès aujourd'hui en rébellion contre la France nous déclare M. Jean Servier.

2 المدني، المصدر السابق، ص 21.

3 Servier, Dans l’Aurès, Op.cit, p 248.

المبحث الرابع : موقف جون سارفييه من قضايا المجتمع الجزائري:

رأينا فيما سبق أن هذا الأنثربولوجي قد كان من أشد المعارضين للثورة عندما فسر اندلاعها لأسباب واهية، ورأى من جانب آخر أننا لا نجد وراء المطالب الوطنية التي قامت من أجلها الثورة إلا أقلية من النخب المتوسطة التي تمارس مهن حرة وبعض المثقفين الذين تأثروا بالفكر الغربي وبرجوازية دينية صغيرة ارتبطت بالإسلام الحضري هاتين المجموعتين عارضت النظام الاستعماري لأسباب سياسية وثقافية .[1]

لكن يعترف ج سارفييه في نفس الوقت أن الثورة ستلقى دعما كبيرا ابتداء من سنة 1955 من الجماهير الشعبية خاصة سكان الأرياف الجزائرية لكنه يقر أن الأسباب التي حفزت هذا الدعم تختلف جذريا عن الطموح السياسي والثقافي للنخب الجزائرية في المدن.

فأسباب الثورة عند سكان الأوراس من منظور سارفييه هو صورة رمزية جديدة عن الثورات المتكررة التي عرفتها المنطقة عبر العصور ؛ بسبب الغزو الفنيقي، الروماني وأخيرا الفرنسي. وليس بعيدا عن هذا المنحى فإن الثورة التي كانت انطلاقتها من منطقة الأوراس قد قام بها السكان البربر من قبل عندما ثاروا على الرومان فاستطاع هؤلاء مقاومة الحضارة الغربية، وهاهم الآن يقومون بالشيء نفسه ضد فرنسا حفاظا على تقاليدهم أمام ما جاءت به من حضارة مادية غنية جدا.

والأكثر من هذا فإن سارفييه ينتقد المجتمع البربري الذي اعتبر الثراء الذي يعيشه الفرنسيون جراء عملية النهب التي مورست عليه ولا يرجع ذلك للتفوق التقني أو التفوق في التنظيم الاجتماعي، وهكذا إذن فإن الثورة الجزائرية جاءت كحالة لرفض الحضارة الفرنسية أو ضد سوء الإدارة الاستعمارية [2]، التي اتهمها عديد المرات في كتاباته أنها لم تكن مناسبة ولم تتأقلم مع طبيعة البلد.[3]

وإذا أمعنا فيما كتبه سارفييه يتضح لنا جليا وجود نظرة معادية للعرب بل وعنصرية تشابه موقف بعض الكتاب الفرنسيين العنصريين أمثال "إميل فليكس

1 Sacriste, Op.cit. pp 222-223.
2 Ibid, p 223.
3 Servier, Adieu, Op.cit, p 11.

غوتيي Emile Félix Gautier" حين أبعدهم عن ثقافة الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط وأعتبرهم غزاة أرادوا تقويض الحضارة الغربية في الشمال الأفريقي من خلال نشرهم للإسلام.[1]

لقد أبعد جون سارفييه "العرب" من حقل أعماله كالكثير من الكتاب الفرنسيين الذين تشبعوا بالإيديولوجية الاستعمارية لذلك كان هؤلاء دائما يستميلون العناصر البربرية وأراد هؤلاء الأنثربولوجيين تأكيد أن "العناصر البربرية" لم تعتنق الإسلام إلا مكرهة انجر عنه تمويه البربر لمعتقداتهم الأولى ذات الأصول الوثنية والمسيحية التي استمرت تحت غطاء الاسلام.

لقد كان هذا الأنثربولوجي يميل للاعتقاد أن الوطنية التي حركت الثورة لها خلفيات دينية أكثر منها سياسية، على الرغم أنه يرى أن الإسلام المغاربي هو مزيج من التيارات والتأثيرات لذلك نراه يقسم الإسلام إلى نوعين ذلك الذي نجده في الريف، ويتميز بكثرة البدع والخرافات ومعتقدات سابقة للإسلام، وذلك الإسلام المنتشر في المناطق الحضرية أو المدن سيطرت عليه النخب الدينية.[2]

يؤكد ذات الكاتب أن الطبقة التي وصفها "بالبرجوازية المثقفة" أدركت استحالة التأقلم والاندماج في الحضارة الغربية والفرنسية لذلك حاولت أن تخلق وسط خاص بها ليس فقط في الجزائر بل في كل الأقطار الإسلامية حين ظهرت فكرة "الرابطة العربية" "Ligue Arabe"، في نفس الوقت الذي ظهرت فيه الحركات الوطنية بمفهومها الغربي.

ومن هذا المنطلق فإن النخب الحضرية وأمام التضييق الذي مارسته فرنسا عليها وجدت في الإسلام الملجأ الوحيد الممكن لمعارضة السلطة الاستعمارية الفرنسية إذ لم يكن الإسلام قضية معتقد فحسب بالنسبة للجزائريين أنما هو قضية هوية وانتماء

1 علاوة عمارة، الشيخ مبارك الميلي ومواجهة المشروع الفرنسي لكتابة تاريخ الجزائر، المواقف مجلة الدراسات والبحوث في المجتمع والتاريخ، منشورات المركز الجامعي مصطفى اسطمبولي معسكر، العدد الثالث، 2008، ص 4.

2 Sacriste, Op.cit. pp 223-224.

اجتماعي وعلى هذا الأساس ظهر الإصلاح على يد جمعية العلماء المسلمين لكن ج.سارفييه يرى أنها كانت امتداد لحركة الأخوان المسلمين بمصر.[1]

وإذا كنا نفتقد إلى الكثير من المصادر التي تؤكد أو تنفي علاقة جمعية العلماء المسلمين من خلال بعض أعضائها بحركة الأخوان المصرية بدء من الأربعينيات إلا أننا على يقين أن الجمعية قد حاربت دون هوادة فرنسا التي أرادت ضرب الإسلام منذ بداية الاحتلال، وأكد "الفضيل الورثيلاني" أن من مظاهر مقاومة الجزائريين على الحرب التي أعلنتها فرنسا على الإسلام : " أنهم تعصبوا لدينهم أشد تعصب، وتحدوا كل القوانين المسنونة ضدهم، فمارسوه في بيوتهم سرا وفي شوارعهم علنا، وفي جبالهم وسهولهم... فنقلوا الدعوة إلى عقر ديارها".[2]

ويؤكد الكثير من المؤرخين أن نشاط الجمعية بعد سنة 1945 أصبح واسعا جدا داخل الجزائر وخارجها بفضل جهود أعضائها حتى أصبحت تتمتع بالسمعة العالية في الأوساط العربية والإسلامية، والحق أن للشيخ الفضيل الورتيلاني الدور البالغ في العمل الوحدوي المغاربي خاصة عند انتقاله إلى أرض الكنانة سنة 1938 بعد تيقنه أن نشاطه بفرنسا قد أصبح متابعا من طرف السلطات الفرنسية.[3]

ولعل تأسيس الشيخ الورتيلاني "لجبهة الدفاع عن شمال أفريقيا" بمصر سنة 1944 ذريعة استعملتها السلطة الاستعمارية لربطها بحركة الأخوان المسلمين حين أسندت رئاستها إلى شيخ الأزهر آنذاك محمد الخضر حسين.[4]

وحسب ما ذكرناه آنفا فإن موقف ج.سارفييه لا يختلف عن موقف السلطات الرسمية اتجاه الجمعية عندما اتهمتها بتحويل نشاطها شيئا فشيئا من تحفيظ القرآن إلى إعادة إحياء الحياة الروحية للجزائريين وخرجت عن حيادها لتصبح قوة سياسية مهمة.[5]

---

1 Sacriste, Op.cit. p 225.

2 الفضيل الورتيلاني، الجزائر الثائرة، مطبعة العباد، بيروت لبنان، دون سنة الطبع، ص 89.

3 عبد الكريم بوالصفصاف، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية 1939-1945، عالم المعرفة، 2009 ص ص 318- 323.

4 الجمعي خمري، جبهة الدفاع عن أفريقا الشمالية ودور الأستاذ الفضيل الورتيلاني، الحوار الفكري، عدد05/ أوت، 2003. ص ص 117، 119.

5 Sacriste, Op.cit.p 226.

ونتيجة لمواقف هذا الأنثربولوجي السابقة فإننا نتأكد من حقده على الإسلام الذي نادت الجمعية بالرجوع إليه، وأطلق عليه حكما متعصبا بوصفه "إسلاما خبيثا" يراد منه السيطرة على سكان الريف الذي انتشرت فيه العادات البالية، وتساءل متحسرا سنة 1955 عن مصير البربر بعد مضي عشر سنوات؟

فيجيب: "أن خطر الاستعمار بالنسبة لهم هو أقل وطأة من خطر الإسلام ويشير أن المناطق التي أثر فيها الاستعمار أكثر من الإسلام بقيت العادات والتقاليد فيها أقل تغيرا وأكثر نقاء وصفاء".

ومن هذا المنطلق فإن سارفييه قد نصب نفسه كحام للذاكرة البربرية [1] وكان كتابه" في الأوراس على خطى الثوار" Dans l'Aurès sur les pas des rebelles " ضمن هذا المسعى إذ حاول فيه المساهمة في الحفاظ على معتقدات البربر من الإسلام الذي يريد قطع الصلة بين البربر وماضيهم، ولا يكون الخلاص إلا بالتواجد الفرنسي في الجزائر.[2]

دون شك أن دفاع سارفييه يمت بالصلة إلى الأطروحة البربرية التي وضعها الفرنسيون لتقسيم عناصر المجتمع الجزائري فالغرض من تشجيع العادات البربرية والقوانين العرفية يتلخص أساسا في ضرب الإسلام، وربما أراد سارفييه أن يلمح إلى الخطر الذي أصبح وشيكا في انخراط الكثير من البربر في الجمعية العلماء المسلمين.[3]

وفي هذا الشأن كانت جمعية العلماء على يقين من نشاط دعاة الأطروحة البربرية في وقت مبكر، ففي هذا الصدد كتب الشيخ عبد الحميد ابن باديس في مجلة الشهاب الصادرة في شهر فيفري سنة 1936 مقالا معنونا "بما جمعته يد الله، لا تفرقه يد الشيطان" ردا على الذين استغلوا التفرقة بين عناصر الأمة الجزائرية للتفرقة

1 استلهم سارفييه دراساته من البربر وأراد أن يكون حاميا للتقاليد والأعراف التي كانت سائدة وكان متأثرا بالمناطق البربرية التي زارها بشكل كبير فأصدر دراسة تخصها كانت بمثابة تكريم لها حتى بعد استقلال الجزائر، أنظر : Jean Servier Traditions et civilisations Berbères Editions Du Rocher 1985.

2 Sacriste, Op.cit.p 226

3 Mahfoud Kaddach, L'utilisation du fait berbère comme facteur politique dans l'Algérie coloniale, Actes du premier congrès d'études des cultures méditerranéennes d'influence Arabo-Berbère, SNED, Alger 1973.pp 276,279.

وجاء فيه " إن أبناء يعرب وأبناء مازيغ قد جمع بينهم الإسلام منذ بضع عشرة قرنا، ثم رأبت تلك القرون تمزج ما بينهم في الشدة والرخاء، وتؤلف بينهم في العسر واليسر وتوحدهم في السراء والضراء، حتى كونت منهم منذ أحقاب بعيدة عنصرا مسلما جزائريا، أمه الجزائر وأبوه الإسلام..." بل وأمضى الشيخ هذا المقال باسم "عبد الحميد بن باديس الصنهاجي" وهذا دليل كاف على وجود مؤسسين بربر للجمعية، وعدم وجود أي اختلاف بين عناصر الأمة الجزائرية الواحدة.[1]

إن التنظير الذي طرحه ج.سارفييه استوجب حسبه أيضا اعتراف السلطات الاستعمارية الفرنسية بالأخطاء التي قامت بها في التسيير الإداري حيث استمرت في تطبيق السياسة التركية في الجزائر التي أبعدت سكان الريف البربر رغم كونهم السكان الأصليين للجزائر، لكنه في نفس الوقت يدافع عن الاستعمار حينما صرح قائلا: " لا يمكن للنظام الفرنسي أن يعجب الجميع لأنه يساهم ببطء في تحرير الأقنان والعبيد والمنبوذين من تنظيمات مجتمع غير عادل".[2]

وبهذا حاول هذا الأنثربولوجي أن يبين مظاهر الاختلاف الحضاري بين الإصلاح الذي جاءت به جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والاستعمار الفرنسي من خلال مقارنة التعليم الذي يتم في المدارس القرآنية والتعليم الفرنسي فوجد أن الأول متسلط غير مجاني ولا يقدم إلا شرف قراءة القرآن فإن التعليم العمومي الفرنسي يقدم حسب سارفييه قيم عالمية وإنسانية ويشير هنا إلى شعارات الثورة الفرنسية "عدل أخوة ومساواة"[3]، لكن هل طبقت في الجزائر؟

أراد سارفييه أن يؤسس علاقة تربط الجزائر بفرنسا من منطلق وجود تاريخ مشترك شريطة أن يتم إبعاد كل ما جاءت به الحضارة العربية والإسلامية، فهو يتصور تاريخ خاص يجمع ضفتي البحر الأبيض المتوسط، وبعبارة أخرى كي نفهم المجتمع الجزائري وجب الرجوع إلى الإرث المتوسطي لا للبعد الإسلامي، رغم كونه

1 "بما جمعته يد الله، لا تفرقه يد الشيطان، مجلة الشهاب، عدد فيفري 1936. ".
2 Sacriste, Op.cit, p 227.
3 Ibid. p 227.

تاريخا استعماريا [1]، ومن هنا يبدو لنا جليا أن أفكار هذا الكاتب متطرفة جاءت من شخصية جامعية انحازت وراء تلميع الاستعمار.

لأنه أنكر الهوية الجزائرية وأراد دون حجج تاريخية أن يقرب العناصر الأوروبية من المجتمع الجزائري المستعمر الذي انتفض وثار، ومهما يكن من أسباب فإن الثورة التي انطلقت في الأوراس حسب هذا الأنثربولوجي هي من وحي "علماء الجمعية الذين خلقوا لدى أولئك الذين نعتهم بـ"الفرنسيين المسلمين في الجزائر" الإحساس أنهم ينتمون إلى العالم العربي وليس للجالية الفرنسية" [2]ويبدو أن سارفييه أغفل انتماء الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي للعالم الإسلامي ضاربا بذلك عرض الحائط كل الصلات التي ربطتها به.

وليس من الشك أن سارفييه قد ندد في معظم كتاباته بالثورة من قبيل مساهمته في حماية الحضارة البربرية التي ستقوم حسبه بتشويهها.[3]

واعتبار لذلك صرح في جريدة لموند قائلا: " إنني أندد بالطريقة التي تتم بها عمليه تقويض الحضارة في الأوراس، التي هي ضد إرادة سكان الأرياف وضد مبادئ حقوق الناس كما نتصوره نحن في فرنسا ...أتمنى أن يتم حماية هؤلاء البؤساء، وأن يعاقب كل من بعث بهم في مغامرة دون مخرج..."[4]

ويتضح لنا من هذا التصريح أن هذا الأنثروبولوجي يحث السلطات الفرنسية لحماية السكان البربر كشعب من شعوب البحر المتوسط لأنها مهمة في نظره ، لكننا لا نجده يشير إلى بؤس الجزائريين وعيشهم في ظلم اجتماعي وسياسي، ووفق هذا التصور فإن الاستعمار نعمة بالنسبة لسارفييه وهو محاولة حقيقية لإدماج الجزائريين.

1 Marco Platania, L'historiographie du fait coloniale : Enjeux et transformations, In : Revue d'Histoire des Sciences Humaine, n° 24, 1/2011.p 13.

2 Sacriste, Op, cit.pp 227-228.

3 Platania, Op, cit.p, 13.

4 Le Monde : 27/11/1954, Op, cit.

ومن الأخطاء التي نبه عليها سارفييه هو جهل السلطة الاستعمارية لواقع الريف [1] الجزائري الذي كان من واجبها أن تتواصل مع سكانه، كل ذلك كان سببا في اندلاع الثورة الجزائرية التي أظهرت بالنسبة له العديد من أخطاء الإدارة الفرنسية في التعامل مع سكان أرياف الجزائر، فمثلت الثورة بالنسبة له شيئا ايجابيا ينبغي على السلطة الاستعمارية تداركها للإبقاء على الوجود الفرنسي في أرض الجزائر.[2]

والحقيقة أن احتضان الريف الجزائري للمقاومة والثورة قد كان منذ بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر، وقد عبر "علي كافي" عن احتضان الريف الجزائري للثورة قائلا: "...والريف كان وسيبقى عرين الأخلاق والشيم والتقاليد الأصيلة، هو الذي تحمل أكثر من غيره حملات الابتزاز والاغتصاب والتدمير والحرق والإبادة، والتشريد والإهانة منذ غزو 1830"[3]، ومن هذا المنطلق يمكننا اعتبار الريف مهد المقاومة والثورة على عكس ما يدعيه جون سارفييه.

وفقا للتحليل السابق نستنتج أنه ثمة علاقة شديدة الترابط بين الكتابات الأنثروبولوجية وبين المجتمع الجزائري، ويبدو أن سارفييه ركز على البربر هو أيضا نافيا كل تقارب بينهم وبين الإسلام والعروبة ويكفي أن نشير إلى محتوى مؤلفاته التي سيصدرها وسيأتي التطرق إليها لاحقا حتى نتأكد أنه من دعاة الأطروحة البربرية، وسنرى كيف ترجمت كتاباته الأنثربولوجية على إرض الواقع من خلال مشاركته في بعض العمليات العسكرية الفرنسية الكبرى خلال الثورة التحريرية.

---

1 الحقيقة أن الوضعية المتردية للمجتمع الجزائري تعود أساسا للاستعمار الاستيطاني وتبعاته الذي كان من شأنه ضرب التوازن بين تعداد السكان الجزائريين والإمكانات أمام تجاهل الإدارة الفرنسية ولامبالاتها للأوضاع الاقتصادية الحقيقة الخاصة بالجزائريين، وعجزها أمام ضغوط المستوطنين اقتراح حلول مناسبة، أنظر: عبد الحميد زوزو، محطات في تاريخ الجزائر، دراسات في الحرية الوطنية والثورة التحريرية(على ضوء وثائق جديدة)، المجلد السابع، ديوان المطبوعات الجامعية، طبعة خاصة وزارة المجاهدين، 2010، ص 329.

2 Sacriste, Op, cit. p 230.

3 علي كافي، مذكرات، من مناضل سياسي إلى القائد العسكري 1946-1962، دار القصبة للنشر، الجزائر، 1999، ص 72.

المبحث الخامس: مساهمة جون سارفييه كأنثربولوجي في العمليات العسكرية الفرنسية في الجزائر:

لم يكتف الأنثربولوجيون بتقديم إسهاماتهم للمستعمر الفرنسي في الجزائر من خلال كتاباتهم فقط بل تعدى ذلك إلى مشاركتهم المباشرة في بعض العمليات العسكرية الكبرى التي عرفتها بعض المناطق من الجزائر، نظرا لخبرتهم الأنثروبولوجية الميدانية وكان ج.سارفييه من بين هؤلاء فقد كان المستشار الأول الذي عول عليه جاك سوستيل لإدارة العملية العسكرية الفرنسية التي أطلق عليها "العصفور الأزرق" "Opération Oiseau bleu" وهذا لدرايته بالنظام القبلي الذي كان سائدا في منطقة القبائل.[1]

وتم التركيز على منطقة القبائل لإيجاد جبهة ضد جيش التحرير في محاولة لكسر الثورة من الداخل، فتم خلق قوة عسكرية سميت بـ "القوة كا" "La force K" وكان اختيار منطقة القبائل أمرا مقصودا للعمل على وتر التفرقة بين القبائل والعرب ويبدو أن لجون سارفييه دورا مباشرا في هذا الاختيار [2]، لأنه أراد تكوين فرقة من الحركى مماثلة لتلك التي أنشأها في منطقة الأوراس.

ورغم أن السلطات الاستعمارية الفرنسية قد راهنت على نجاح هذه العملية من خلال إنشاء قوة ثالثة مناوئة للثورة إلا أن هذه الأخيرة عرفت فشلا ذريعا، لأن قائد الولاية الثالثة "كريم بلقاسم" كان على علم بخيوط هذه المؤامرة السرية فاغتنم جيش

---

1 شبه المؤرخ يحيى بوعزيز هذه العملية بالمؤامرة لكن استطاعت الثورة تحويلها إلى نصر امتدت مابين نهاية شهر نوفمبر 1955 إلى نهاية سبتمبر 1956، ويرى أنه تعددت تسمية هذه العملية العسكرية من العصفور الأزرق أو عملية عسكرية سرية لمنطقة القبائل أو كوماندو .كـ أو القوة كـ أو المؤامرة التي نسبها للحاكم العام جاك سوستيل الذي كان يبحث عن "قوة ثالثة" لتطبيق سياسة الإدماج أنظر : يحيى بوعزيز، الثورة في الولاية الثالثة التاريخية (أول نوفمبر 1954-19 مارس 1962)،الطبعة الأولى، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2004. ص 104، ويرى محمد صالح الصديق في كتابه "العصفور الأزرق" أن هذه العملية تدخل في إطار الحرب النفسية أو "حرب التهدئة" التي يتغنى بها الكثير من المسؤولين الفرنسيين آنذاك وعن التسمية فقد عرفت باسم "العصفور الأزرق" خلال سنوات الثورة بينما عرفت عند الأوساط الرسمية الفرنسية "بالقضية الكبرى" أنظر: Mohamed salah essedik, Opération Oiseau bleu, Le complot le plus sordide ourdi par les services spéciaux français pour faire avorter la révolution algérienne, Dar El Oumma, Alger, 2010, pp 71-72.

2 Horne, Op, cit, pp 265-266.

التحرير الوطني تغلغل أفراده بأسماء مستعارة في هذه القوة لتظليلها ونصب كمين لها.[1]

ويذكر أيف كورييز أن جاك سوستيل الحاكم العام هو الرأس المدبر لهذه العملية ونذهب إلى الاعتقاد أنه محق في ذلك ونحن نعلم أنه قبل أن يكون رجل سياسة هو خريج معهد الإثنولوجيا بباريس، ويضيف كورييز أن روبير لاكوست وأعضاء مكتب الحاكم العام بالجزائر والسلطات الفرنسية العليا تسترت على فضيحة هذه العملية لأنها قامت بتسليح رجال كريم بلقاسم بأسلحة مهمة بعد إحباطها.[2]

اثبت فشل عملية "العصفور الأزرق" أن المزاعم التي ذهب إليها سارفييه في استمالة سكان منطقة القبائل باطلة لضرب وحدة الأمة الجزائرية وعزيمة الثورة أمام محاولات الجيش الفرنسي، ويمكن القول أن السياسة الأنثربولوجية التي شارك فيها الحاكم العام سوستيل وجون سارفييه دخلت بشكل مباشرة لخدمة الاستعمار الفرنسي وركزت على البربر لتنفيذ الأطروحة البربرية لوأد الثورة بما أن منطقة القبائل إقليم استراتيجي قريب من الجزائر العاصمة وضواحيها.[3]

إن هذه الخلفية العنصرية أراد سارفييه تطبيقها على المجتمع القبائلي خدمة للاستعمار الفرنسي أين التقت الأنثربولوجيا كعلم مع الجانب العسكري، وجاءت محاولات التطبيق بعد أبحاثه التي قام بها في المنطقة ما بين سنتي 1952 و 1953 وهو الذي كان يظن أنه يعرفها جيدا حين زارها وأمضى ليالي عند قبائلها [4]، ويبدو أنه انتهى إلى أحكام مقتضاها أن القبائليين موالون للفرنسيين، كما خلص هذا الأنثربولوجي إلى أن استقرار هؤلاء بالجبال أدى إلى انعزالهم جغرافيا بل حتى اجتماعيا وسياسيا فلا يكون بذلك أثر الثورة التحريرية عليهم إلا طفيفا يمكن

1 Horne, Op, cit, p 266.
2 Courriere, Op, cit. p 216.
3 Camille Lacoste-Dujardin, « Opération Oiseau bleu », 1956.Géostratégie et ethnopolitique en montagne Kabyle, In : Revue d'Occident musulman et du la Méditerranée, n°41-42, 1986, pp167, 189.
4 Jean Servier, Un exemple d'organisation politique traditionnelle : une tribu kabyle, les Iflissen-Lebhar. In : Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, n°2, 1966. p, 186.

للسلطات الاستعمارية استغلاله لصالحها، ومنه جاءت فكرة تأسيس "قوة ثالثة" من الحركى.[1]

ولم يقدر أن تأثير الاستعمار الفرنسي هو أشد بأسا وظلما على الجزائريين وتناسى سارفييه أن منطقة القبائل قد كانت من المناطق الأولى التي قاومت المحتل الفرنسي فهي جزء لا يتجزأ من المجموعة الوطنية الجزائرية.

واعتقد سارفييه كالكثير من الكتاب الفرنسيين أن أصول البربر تنتهي إلى نفس الأصل الأوروبي اللاتيني فحضارتهم بالنسبة له قريبة من الحضارة الفرنسية وكانت عملية العصفور الأزرق ضمن هذه الإستراتيجية التي من شأنها أن تفصل سكان منطقة القبائل عن الجزائريين.[2]

ومن العمليات العسكرية الفرنسية الأخرى التي سيشارك فيها ج. سارفييه والتي نراها مهمة في توضيح العلاقة الوطيدة التي ارتبط بها الكثير من الأنثربولوجيين بالجانب الاستعماري نجد"عملية الطيار " Opération Pilote" التي تم تنفيذها في منطقة الشلف وأطلقت عليها في بعض التقارير الموجودة في أرشيف ما وراء البحار "بالثورة الجزائرية" أو "بالحرب الثورية الفرنسية" في الجزائر.[3]

فبعد تعيين الجنرال راوول سالان بتاريخ 12 نوفمبر 1956 كقائد أعلى للجيش في الجزائر عوض الجنرال هنري لوريلو Henri Lorillot الذي كانت له علاقة بفشل عملية العصفور الأزرق [4] تم ترقية جون سارفييه كمسؤول عن عملية "الطيار" في منطقة الشلف ووضعت تحت تصرفه مبالغ هامة تمكنه من دفع أجور الجنود بشكل مباشر ومن أجل شراء العتاد والأسلحة.[5]

وتجدر الإشارة إلى أن سارفييه غير من إستراتيجية التعامل مع الثورة في هذه العملية ففكر في توظيف سكان الأرياف بدل توظيف الحركى كمرتزقة، وعلى هذا الأساس تشير التقارير المحفوظة في الأرشيف الفرنسي أنه كان يجب على فرنسا أن

1 Lacoste-Dujardin, Op. cit. pp 189-190.
2 Servier, Un exemple, Op.cit. pp 169-170.
3 ANOM, 12/CAB/237. Note de service.
4 Cornaton et al, Op.cit, p 89.
5 ANOM, 12/CAB/237. Op.cit

تغير من نظامها الدفاعي إلى "حرب ثورية"، والغرض من هذه السياسة في كل مناطق الجزائر التي ستخضع لهذه المعاملة العسكرية والنفسية هو قطع الشك وإثبات الإرادة الفرنسية في البقاء في الجزائر.

وفي هذا المجال تم التفكير في خلق فرق من الدفاع الذاتي ليس لصد جيش التحرير الوطني لكن لمرافقة قوات النظام الفرنسي بغية الحصول على "دعم شعبي".

ولن تتأتى نتائج لهذه العملية إلا من خلال "التعبئة النفسية" بواسطة تدريب أفراد يصبحون بدورهم مدربين على مستوى قبائلهم وفرقهم، كما يتوجب على هؤلاء تكوين لجان يقظة من خلال إشراك النساء والأطفال أيضا، وختم هذا التقرير بأن الحرب الثورية التي تقودها فرنسا يجب أن تناضل من أجل:

-القضاء على البؤس.

-القضاء على الجهل.

- القضاء على الأحكام المسبقة.

وتفيد هذه الوثائق أيضا أنه يجب اختيار المناطق التي تطبق فيها حيثيات هذه العملية بدقة يضمنها ضباط متنقلون، ويتم في نفس الوقت القيام بعمل نفسي واسع.

أما في المرحلة الثانية فيتم تكثيف العمليات العسكرية، وتليها أخيرا مرحلة ثالثة يتم فيها تأسيس شبكة سياسية من طرف دعائيين والتي ستضمن مصالح الجزائر وفرنسا.[1]

والواقع أن هذه العملية تذكرنا بقيام السلطات الفرنسية بالجزائر بتركيز دعايتها في المحتشدات التي عينت بها مختصين في علم النفس مهمتهم غسل أدمغة الجزائريين وإعطاؤهم تكوينا فرنسيا حتى يكونوا ضد الثورة، وتذكر جريدة المجاهد أنه في منطقة عين ولمان " Colbert" يبدأ المختص النفسي خطابه بـ " كلكم نساء... إن الرجال بحق يوجدون في الجبال..."[2]

وحسب وثائق أرشيف الجيش البري الموجودة بقصر فانسان فإن المناطق التي تطبق فيها "عملية الطيار" يجب أن تختار بعد دراسة تركيبة المجتمع الجزائري وبعد

1 ANOM, 12/CAB/237. Op.cit.

2 "من عجائب الدعاية الفرنسية في الجزائر"، المجاهد: العدد 38، 03/18/ 1959.

سبر آراء الوسط الاجتماعي وموقفه من هذه العمليات، ويبدو أن الهدف هو عزل الثورة عن الدعم الشعبي وتحويله لدعم الجيش الفرنسي.

ودون شك فإن تطبيق عملية "الطيار" العسكرية تتطلب توظيف المصالح الاجتماعية التي كان عليها القيام بنشاطات وأعمال معمقة للتغلغل في المجتمع الجزائري المحلي المسلم وذلك من خلال تركيزها على نساء الدواوير.[1]

وتفيد المصادر أن نجاح هذه العملية أدى بالسلطات الاستعمارية الفرنسية إلى التفكير في توسيع نطاق "عملية الطيار لتشمل الجزائر ومدية ومستغانم وفي تقرير كتبه جاك لونوار "Jacques Lenoir" بتاريخ 25 جويلية 1957 " الذي كان يشغل مساعد بيير ميزوناف" Pierre Maisonneuve " مدير ديوان روبير لاكوست قد رأى ضرورة توسيع عمليات "الطيار".

الحقيقة أن سارفييه قد وضع شروطا لإتمام عملية انخراط بعض العملاء فقد كان يفضلهم متزوجين ومرد ذلك أنه بعد إيوائهم بالقرب من المقرات الرئيسية العسكرية يترك هؤلاء عائلاتهم وهو أكبر دليل على وفائهم وولائهم، وتكون فائدة هذه "الكتائب الخفيفة" مزدوجة من ناحية نفسية كتعبير على التعاون الفرنسي الجزائري ضد جبهة التحرير الوطني ومن جهة ثانية فإن هذه الفرق عملية لمعرفتها الجيدة للميدان.[2]

ومن النتائج الأولية لعملية "الطيار" أنه تم تسليح بني مناصر في منطقة زكار الذين أعلنوا لسارفييه معارضتهم لجبهة التحرير الوطني، فعين مسؤولا عسكريا منهم ورئيسا للمجلس الذي أسسه وأطلق عليه "مجلس الشعب" وساعدهم أيضا في تعيين مرشد سياسي يكون له تأثير نفسي مباشر على الوسط التقليدي.[3]

وللتأكيد على إنجاح هذه العملية تم إشراك "المصالح الاجتماعية" التي كانت مكونة من مساعدين اجتماعيين وأطباء ومترجمين كان يطلق عليها "الفرق الطبية الاجتماعية المتنقلة "EMSI "."[4]

1 SHAT : 1/H/2409. Message Action Psychologique, p 2.
2 Sacriste, Op. cit. p 250.
3 Ibid. pp 250-251.
4 SHAT : 1/H/2409. Op. cit.

ولم يكتمل نجاح هذه العملية مما دفع بسارفييه إلى التنقل بنفسه إلى منطقة الشلف حيث لاحظ سوء تسيير هذه العملية خاصة ما تعلق بتوظيف "الحركى" الذين كان يفضل البعض من الفرنسيين تسميتهم "بالكتائب الخفيفة"، فطلب من روبير لاكوست أن يسمح له بإعادة تسيير "عملية الطيار" من أجل السيطرة على المنطقة وفي هذه الغضون كُلف من طرف الحكومة العامة لمراقبة الجيش الوطني للشعب الجزائري الذي يقوده الجنرال بلونيس* « ANPA» .[1]

وإذا كانت وثائق الأرشيف لا تطلعنا عن مدى نجاح هذه العملية فيما نعلم إلا أنه يمكننا أن نستنتج أن إستراتيجية هذا الأنثروبولوجي كانت تكمن في تكوين "مجلس شعبي" يكون بديلا "للجماعة" الموجودة عند السكان البربر تدمج مع فرنسا من خلال إشراكها عسكريا وسياسيا كما تغطي بذلك الغياب السياسي للإدارة الاستعمارية في المناطق الريفية.[2]

ومهما يكن فإن كتابات هذا الأنثربولوجي لم تتوقف خلال هذه الفترة فأصدر كتابا عنونه بـ "وداعا يا جبال" " Adieu Djebels" والذي ألفه عندما غادر الجزائر وأجمل فيه ذكرياته كعسكري وأنثروبولوجي [3]، صدر سنة 1958[4] واعتبره البعض كسيرة ذاتية أبدى فيه بعضا من السخرية اتجاه الإدارة والجيش الفرنسي ربما بسبب الحساسية التي تولدت بين الطرفين بعد نجاح "عملية الطيار" واعتبر إذن هذا المؤلف كنقد للسياسة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر، وتضمن أيضا تثمينا للتاريخ الاستعماري الفرنسي في الجزائر.

ويمكننا أن نلاحظ الخطوط العريضة ضمن كتابه هذا والتي تتشابه إلى حد كبير مع كتاباته السابقة، فنجده دائما مهتما بالمجتمعات البربرية، ومنبها على ضرورة

* بلونيس محمد ولد ببرج منايل درس في المدرسة الابتدائية الفرنسية لكنه تلقى تربية تقليدية، بعد انضمامه إلى حزب الشعب سنة 1938 عرف بمناصرته لمصالي الحاج الذي كلفه لقيادة المجموعات المسلحة التابعة للحركة الوطنية الجزائرية في منطقة القبائل، وبعد حادثة ملوزة في 28 ماي 1957 لجأ إلى الجيش الفرنسي طالبا المساعدة في صراعه مع جيش التحرير الوطني وأصبح جنرالا للجيش للشعب الجزائري.

1 Cornaton et al, Op.cit, pp 105-106.
2 Sacriste, Op.cit.pp 250,252.
3 Le Monde : 19/02/1959." Adieu, djebels Par Jean Servier".
4 Jean, Servier, Adieu Djebels, Editions France-Empire, 1958.

حمايتها من طرف الفرنسيين، متناسيا في كل مرة الانعكاسات السلبية للاستعمار عليها وكأنها مجتمعات جامدة عبر التاريخ، ومن جانب آخر نجده دائما يستبعد استقلال الجزائر.[1]

وأبدى ج. سارفييه في كتابه هذا تمسكه والتزامه بمواقفه الأولى التي تبناها اتجاه جيش التحرير الوطني فهم بالنسبة إليه "مجرد لصوص" إذ صرح قائلا في جريدة لوموند الفرنسية : "فحرب العصابات التي يقوم بها هؤلاء " ما هي إلا انتقام الشعوب الضعيفة من تلك الأكثر رخاء".[2]

ولعله من المفيد اقتباس نص من هذا الكتاب لتأكيد موقفه من الثورة التحريرية إذ كتب قائلا مستعملا مفاهيم تعكس النزعة الاستعمارية المتزمتة للكثير من الفرنسيين:" إن الحرب اندلعت في الجزائر من طرف 50000 لص بأتم معنى الكلمة"[3]، ويواصل متهكما وناقما على العرب، هذه العنصرية التي نجدها في أكثر من مكان في كتابات سارفييه بما فيها كتاب "وداعا جبال فكتب : " سابقا كان عبد القادر– ويقصد الأمير– زعيم قبيلة من الجنوب الوهراني منبوذا من الجبليين وسكان المدن * لأنه أثقلهم بالضرائب...أبدا لم تفوض جماعات الجبليين سلطتهم لهذا البدوي" [4]، ونتيجة لهذه الخلفية أراد أن يكون سارفييه مدافعا عن البربر من قبيل "الأطروحة البربرية".

ومن الوظائف التي شغلها ج.سارفييه بعد مغادرته الجزائر بتاريخ 5 ماي 1958 تعيينه كأستاذ محاضر في جامعة مدينة مون بوليي هMontpellier وفي هذه المرحلة بدأ يرافع من أجل "الجزائر الفرنسية" بشكل صريح.

---

1 Sacriste, Op.cit. pp 257-258.

2 Le Monde : 19/02/1959. Op.cit.

3 Servier, Adieu, Op.cit, pp, 10-11.

* بعيدا عن الاختلاف الإثني (عرب بربر)الذي أراد سارفييه تأكيده فإن أبو القاسم سعد الله كتب عن وجود بعض المعارضين للأمير على أساس ديني عائلي وقبلي ووطني تم التعبير عنه في الشعر الشعبي على يد بعض الشعراء "الذين كانوا معتزين بالانتماء القبلي والرفعة الاجتماعية لأنهم كانوا غالبا من الأجواد المخازنية أصحاب السيف والبارود والجاه والسلطان، ولم يألفوا حكم رجل دين والطرق الصوفية كما كان حال الأمير" ومن بينهم الشاعر قدور بن محمد البرجي المكنى "بونقاب" الذي سخر من الأصل الاجتماعي للأمير ومن عائلته إذ تساءل: هل رأيتم أبدا سلطانا خرج من زاوية؟ وهل رأيتم أبدا حضريا أصبح قائدا للعرب؟ أنظر: سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 8، المرجع السابق، ص 314.

4 Jean Servier, Adieu Op.cit, p 18.

يمكن أن نقول أن هذا الجامعي الذي لبس ثوب العسكري خدم السلطة الاستعمارية بشكل مباشر، أما المناصب التي تقلدها في الحكومة العامة مع روبير لاكوست وسالان فإنها دفعت به إلى أن يكون منظرا للسياسة الفرنسية الاستعمارية في الجزائر أين أصبحت الأنثربولوجيا كمبرر وغطاء للاستعمار [1]، وكان من بين الكتاب الانثربولوجيين الغلاة الذين أرادوا بقاء فرنسا في الجزائر إذ كتب منتقصا من شأن الثورة بعد زيارته لبعض المناطق القبائلية الجبلية : " بقي رجال في الجبال أوفياء لفرنسا... لم تكن الثورة الجزائرية قط ثورة مجاعة وبؤس كما يعتقد البعض ولم يكن الشعب هو الثائر بل العكس من ذلك، الشعب الحقيقي بلباس رث وبطن أجوف ثار ضد جبهة التحرير وضد البرجوازية الجشعة" وهو بهذا يحاول نكران حقيقة الثورة الجزائرية التي أرادت إخراج الفرنسي المستعمر من أرض الجزائر" وفي ذات الوقت أراد أن يبين أن سكان الجبال ويقصد هنا المناطق البربرية بقيت وفية لفرنسا متناسيا أن الجبل هو معقل الثوار والثورة.

ومن جهة أخرى فإن الخصائص التي استخدمها في تصنيف البربر وتمييزهم عن باقي الجزائريين أي على ضوء العادات واللباس والتاريخ القديم واللهجة، هي غير كافية في هذا التمييز، لأن سكان منطقة القبائل انتشروا في كل أنحاء الجزائر وامتزجوا في كامل المجتمع الجزائري، ومن الواضح أن ما يطرحه سارفييه هو "بلقنة الجزائر" محاولا تبرير السياسة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر بدعوى أن هناك خطرا يداهم هذه "المجموعات البربرية".[2]

1 Cornaton et al, Op cit, pp 106-107.
2 El Moudjahid : 16/03/1960.

المبحث السادس: الدفاع من "أجل الجزائر الفرنسية" من خلال كتاب "غدا في الجزائر Demain en Algérie":

من المؤلفات الأخرى لجون سارفييه كتابه "غدا في الجزائر" الذي صدر سنة 1959 عن دار النشر روبير لافونت Robert Laffont بباريس، وما يشد القارئ لهذا الكتاب منذ البداية أن المؤلف أراد أن يبين للرأي العام الفرنسي أن أسباب خسارة الجزائر تكمن في السياسة العرجاء التي انتهجتها فرنسا دون قصد منذ بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر فأولى الأخطاء الكبرى التي أحصاها سارفييه هو الوعد الذي أطلقه الكونت دي بورمون سنة 1830 حين تعهدت فرنسا بحماية المعتقدات والأملاك والتقاليد: " تبقى ممارسة الديانة المحمدية حرة كما أنه لن يقع أي اعتداء على حرية السكان من جميع الطبقات ولا على دينهم وأملاكهم وتجارتهم وصناعتهم ونسائهم." فكان ذلك أول حاجز –حسب هذا الأنثربولوجي– قامت به فرنسا فباعد بينها وبين سكان الجزائر، إذ كان الإخلال ببنود وثيقة الاستسلام وعدم الالتزام بتطبيقها دليلا على سياسة عرجاء كان من نتائجها فقدان الثقة بين الجزائريين وفرنسا.[1]

ويتصور سارفييه في مدخل كتابه وجود "مائة مشكل خاص بالجزائر" نتجت جراء تراكم رعونة الحكومات الفرنسية المتعاقبة على الجزائر لكنه يلخص "مشكل الجزائر" في أسباب اجتماعية واقتصادية تجاهلتها السلطات الاستعمارية الفرنسية عن قصد ووفق هذا التصور فإن سلطات الاحتلال الفرنسي ملزمة بتقديم أشياء ملموسة يدافع عنها سكان الأرياف تكون بديلة عن الثورة، ويكمن مشروعه في منح قطع أراضي زراعية جماعية.[2]

يندد سارفييه في الكثير من مواقع هذا الكتاب بالأخطاء التي ارتكبتها الدوائر الاستعمارية الفرنسية منذ أكثر من قرن في الجزائر فالاستعمار بالنسبة له "إرادة أو نية حسنة ولكن تخللها نقص في الكفاءة"، فقد أبقى الاحتلال الفرنسي على البنى الاجتماعية التي عفا عليها الزمن لصالح قطاع الأراضي في حين بقي سكان الريف

1 Jean Servier, Demain en Algérie, Robert Laffont, Paris, 1959, p11.
2 Ibid, p 8.

يعيشون في بؤس تجاهلتهم الإدارة الفرنسية فلم يعرف هؤلاء إدماجا حقيقيا منذ بداية الاحتلال إلى اندلاع الثورة التحريرية " فيكون بذلك سكان الريف الجزائري سبب البلاء الذي عرفته الجزائر بالنسبة لهذا الأنثروبولوجي.[1]

ويشير سارفييه في معرض حديثه عن البربر وكغيره من الكتاب الفرنسيين الاستعماريين إلى أن الغزو المتكرر للجزائر ولد أجناسا ولغات وحتى ديانات مختلفة كان من نتائج هذا الغزو إبعاد "السكان الأصليين" إلى الجبال وإلى الأراضي الفقيرة وخلف أيضا طبقات اجتماعية وطوائف في الجزائر.[2]

ويعود بنا المؤلف إلى ما ذهب إليه الكتاب العسكريون الفرنسيون الذين رأوا أن فرنسا احتلت الجزائر عن حسن نية قاصدة نشر الحضارة فيها، ولأنها أرادت تخليص الجزائر من القمع "التركي" لكنها أبقت على سيطرة العائلات المتنفذة أو "الارستقراطية" بقايا حكم "الأتراك"، هذه العائلات التي أخفت حقيقة الجزائريين عن الإدارة الفرنسية خاصة في الريف.[3]

ونتفق مع جريدة المجاهد حينما وصفت صاحب هذا الكتاب بأنه "يميني التفكير استعماري النزعة"، فالحقائق التي يذكرها عن طابع الثورة الجزائرية يقصد بها تنبيه الفرنسيين إلى خطورتها لأنها ذات طابع شعبي، ومن جهة أخرى أبدى موقفا معارضا للتفاوض مع الحكومة الجزائرية لأن استقلال الجزائر يؤدي في نظره إلى تكوين مغرب عربي موحد معاد للغرب ويؤدي إلى تعرض كل المصالح الفرنسية في إفريقيا للخطر، ويبدي سارفييه تخوفه بشكل صريح من تقرير المصير الذي ستكون نتيجته محسومة لأن الأصوات المعبرة عنها لفائدة الإدماج الفرنسي من الجزائريين لا تمثل إلا أولئك الذين يعملون في صفوف الجيش الفرنسي كحركى وقومية.[4]

يلوم هذا الأنثربولوجي الإدارة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر حين أكثرت من عدد السجون والمعتقلات وحشدت فيها الجزائريين حيث تحولت في الواقع إلى مدارس سياسية لجبهة التحرير الوطني، وأوردت جريدة المجاهد كاتبة : " فإن

1 Lacoste-Dujardin, Op.cit. pp 188-189.
2 Servier, Demain, Op.cit, pp 12-13.
3 Ibid. pp 11,15.
4 ثورة الجزائر في التآليف الأوروبية، المجاهد، عدد 107، 1 نوفمبر 1961. ص 29.

الوطنيين الأقوياء يزدادون فيها قوة وصلابة والضعفاء المترددون يتكونون هناك ويمتثلون جميعا لجبهة التحرير" [1] لذلك أوصى سارفييه بغلق جميع المحتشدات [2] والمعتقلات كما أوصى بتسهيل رجوع سكان الأرياف إلى قراهم [3]. وفيما يبدو فإن الكاتب ينظر للمستقبل "مستقبل الجزائر الفرنسية" نظرة متشائمة لأن جبهة التحرير "تقوم بنشاط محموم وتستعد للمستقبل"، ويقدم لنا صورا عن هذا الاستعداد للمستقبل فيصرح قائلا : " أن الطلبة الجزائريين في الخارج يهتمون فقط بدراسة العلوم ذات الطابع العملي مثل الهندسة والعلوم الطبيعية والكيمائية مما يدل على اتجاه جبهة التحرير المادي والتكتيكي كما يفعل الشيوعيون " ويناقض نفسه حين يرى أن هؤلاء الطلبة الجزائريين يعيشون حياة زهد وتقشف اقتبسوها من معتقداتهم وتقاليدهم الصوفية.

ولا عجب أن اتهم الفرنسيون أنفسهم أصحاب الفكر اليمين المتطرف بالبلادة والسخف فكيف يقارب بين الاستعداد للمستقبل والشيوعية؟

أما التقشف فهو أمر يفرضه النضال الثوري وتفرضه الظروف، ولم يقف الكاتب عند حدود نقد الإدارة الفرنسية بل اعترف أيضا في كتابه أن الثورة الجزائرية قد أحدثت انقلابا جذريا كاملا على الشباب الجزائري في سلوكه وتفكيره، ولم يتردد في هذا الصدد إذ صرح قائلا : " إن بلدا يستطيع بدون إعداد سابق أن يعطي ضباطا يقودون مناطق عمليات حربية ويواجهون الجيش الفرنسي بنجاح وعمرهم بين العشرين والأربعة وعشرين عاما، بلدا كهذا يستطيع أن يفعل الأعاجيب ".[4]

ومن الأفكار التي طرحها في كتابه "غدا الجزائر" هي فكرة وجوب القيام بإصلاحات زراعية تكون ضمن أولويات سلطة الاحتلال لأن نتائجها ستكون مباشرة

---

1 ثورة الجزائر في التآليف الأوروبية، المجاهد المصدر السابق، ص 29.

2 يتحاشى سارفييه التكلم عن سياسة الأرض المحروقة التي كانت رديفة للمحتشدات، هذه السياسة الدراكونية كانت تتم لإنجاح مخطط المحتشدات ولإجبار السكان البقاء فيها دون رجعة لأراضيهم، أنظر: نظيرة شتوان، الثورة الجزائرية 1954-1962 الولاية الرابعة نموذجا ، أطروحة مقدمة لكلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة أبي بكر بلقايد تلمسان لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ المعاصر، إشراف الدكتور يوسف مناصرية، 2007-2008، أطروحة غير مطبوعة، ص 457.

3 Servier, Demain, Op.cit, p 92.

4 المجاهد، ثورة الجزائر في التآليف، المصدر السابق. ص 29.

على سكان الأرياف الذين تبنوا واحتضنوا الثورة، هذه الإصلاحات التي لن تكون ناجعة في نظره إلا عندما تتعدى مستوى الأفراد إلى الجماعات عن طرق تعميمها.[1]

ولكي يكون هناك توازن جديد في الجزائر بين الفرنسيين والجزائريين يذكر سارفييه أنه يجب إلغاء القضاء الإسلامي حتى فيما يخص عقود الزواج ويقول في هذا الصدد: " إن لفرنسا قانون مدني واضح وموجز تحاول الكثير من الدول تقليد تطبيقه" والسماح للجزائريين بالوصول إلى الوظيفة العمومية. [2]

وإذا ما أردنا أن نحلل هذا الكتاب من زاوية تاريخية واجتماعية تتجلى لنا أفكار هذا الكاتب اتجاه الثورة التي نعتها بأسماء بعيدة عن الظروف التي أحاطت بالثورة وكانت سببا لها فوصفها مثلا بأنها "مأساة" جاءت نتيجة تراكم مشاكل اجتماعية قبل وبعد الاحتلال الفرنسي للجزائر مشيرا إلى وجود طبقات في المجتمع الجزائري لكنه ركز على طبقة "البرجوازية الصغيرة"" Petite Bourgeoisie"* التي تميزت بارتباطها بالإسلام وباللغة العربية والتي سيطرت على المدارس القرآنية وعلى القضاء الإسلامي.

وتمثل هذه الطبقة الوسط الذي تبلورت فيه "الوطنية الإسلامية" " Nationalisme musulman" بمباركة الإدارة الاستعمارية الفرنسية التي يتهمها سارفييه بأنها ساهمت في نشرها على حساب "الشعائر التقليدية" " Rites traditionnels " في

1 Henry Louis, Servier Jean. - Demain en Algérie**.** In: Population, 15e année, n°4, 1960. pp 719-720.

2 Ibid. p, 719-720.

* إذا تمعنا في هذا الكتاب سيلاحظ سخط المؤلف على النخب التقليدية المحافظة ومنها رجالات جمعية العلماء المسلمين والحقيقة أن هذا ليس بغريب فقد تشبع بمواقف أبيه اتجاه هذه النخبة المحافظة حين وصفهم قائلا في منبر برقية قسنطينة : لكونهم غير راضين عن وضعيتهم الجديدة، ولكونهم مغرورين بعض الشيء بسبب شعورهم بامتيازاتهم على إخوتهم، فقد صارت عقول هؤلاء الشباب أرضية خصبة لنمو أصناف من الأحلام المجنونة والأفكار الخبيثة، ولخص شريف بن حبيلس تعبير أندري سارفييه قائلا: " ...هو أن هذه الطبقة مشبعة بالغرور والكبرياء وأنها تحلم بلعب دور في شؤون الحكم، وترتكز على الأهمية الإسلامية مستلهمة من جمعية إيجاد وتقدم أفكارها وآرائها، وتحلم برمي الفرنسيين بالحجر".أنظر: شريف بن حبيلس، الجزائر الفرنسية كما يراها أحد الأهالي، ترجمة عبد الله حمادي، فيصل الأحمر، وسيلة بوسيس، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ، قسنطينة الجزائر، 2009 ص ص 93-94.

الريف الجزائري، حتى أنه في مطلع سنة 1955 أصبحت المدارس القرآنية مركز انطلاق الجهاد "La guerre sainte".[1]

طبقات المجتمع الجزائري حسب ج.سارفييه:

قسم سارفييه المجتمع الجزائري في الفصل الذي عنونه بـ"الثورة La Révolte" إلى فئات اجتماعية كلما زاد الاختلاف بينها كلما زاد الاختلال في المجتمع الجزائري وهي على الشكل التالي:

- الخماسة.
- الحرفيون.
- البدو.
- الموظفون في مناصب بسيطة.
- العمال الكادحون "البروليتاريا الصناعية" والبروليتاريا الزراعية".

ويبدو أن هذا التقسيم الذي أوجده الأنثربولوجي سارفييه هو اختزال لأسباب الثورة في مشاكل اجتماعية[2]، متغافلا بشكل مقصود ذكر الاختلال الحاصل بين المستوطنين والجزائريين في الحقوق والواجبات، فجراء هذا الاحتلال الاستيطاني أصبحت ثلة من المعمرين تعتلي هرم المجتمع وتقود الاقتصاد الجزائري مستفيدة من كل التسهيلات فارضة قوانينها العنصرية والمستبدة على الجزائريين الذين يمثلون الأغلبية ديمغرافيا.[3]

ومن جهة أخرى فإن الاهتمام الذي أولاه سارفييه للبروليتاريا الفقيرة مرده إلى علمه بمدى أهميتها حيث يمكن اعتبارها خزانا للجماهير الشعبية وكأرضية للثورة أو كما عبرت عنه السلطة الاستعمارية بـ "الأرضية الخصبة للمحرضين" : "إن

1 Servier, Demain, Op.cit, pp 17, 19,20,52.
2 Ibid. p33.
3 ناصر جابي،الجزائر الدولة والنخب-دراسات في النخب،الأحزاب السياسية والحركات الاجتماعية، منشورات الشهاب 2008، ص ص 24- 25.

خيبة الأمل التي تعتريهم تجعلهم ينضمون إلى جماهير الساخطين وتنتهي بهم الحال غالبا إلى الخروج على القانون".[1]

وفي هذا الصدد أيضا يشدنا ما كتبه في الصفحة 48 معبرا عن وجود اختلال في تسيير الجزائر من طرف السلطات الاستعمارية حيث كتب: " بداية من أول نوفمبر 1954 بدأت التصعيدات الأولى في مناطق اختيرت لإستراتيجيتها أو لأنها واقعة تحت تأثير العائلات الكبرى" فثورة المجتمع الريفي الجزائري حسب هذا الأنثروبولوجي سببها تسلط العائلات المتنفذة كما ذكرنا سابقا، ولم تكن ثورة من أجل الاستقلال عن فرنسا، مستشهدا بالكثير من الأمثلة خاصة عن منطقتي الأوراس والقبائل.[2] ويريد سارفييه حسب جريدة المجاهد: " إيجاد هوة عميقة وشقاقات دموية بين السكان يستفيد منها الاستعمار ونشر الخلافات القديمة بين مختلف سكان الجزائر".[3]

وليس من قبيل الصدفة إذن تغييب هذا الكاتب للمستوطنين الفرنسيين، فلم يشر إلى العلاقات الاجتماعية بين الجزائريين والمعمرين كما ذكرنا والتي تعكس ظلم السلطات وتحيزها لهذه الأقلية وراح يفسر اندلاع الثورة بوجود اختلال اجتماعي بين طبقات المجتمع الجزائري كان "للصدمة الحضارية" دور في توسيعه.[4]

إن الكثير من الكتابات الفرنسية التي ألفت في نهاية الاستعمار الفرنسي وغداة استقلال الجزائر ليس فقط من طرف الأنثربولوجيين بل كل من كان يتوهم بفكرة "الجزائر الفرنسية "عبروا عن غضبهم ولومهم على السلطات العليا بفرنسا والتي بسياستها العرجاء أفضت إلى طرد المعمرين من الجزائر حتى أن أحدهم عبر قائلا: أنهم فرنسيو فرنسا الذين حاربوا فرنسيي الجزائر، هم الذين طردونا من بلادنا وليس العرب الذين كان معظمهم لا يريد سوى العيش في وفاق معنا".[5]

---

1 محمد حربي، الثورة الجزائرية سنوات المخاض، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغاية، الجزائر، 2012، ص 134

2 Servier, Demain, Op.cit, pp 48-49.

3 رسائل من الميدان المجاهد، العدد 111، 1نوفمبر 1961.ص4.

4 Sacriste, Op.cit, p 263.

5 Charles-Robert Ageron, De l'Algérie française a l'Algérie algérienne, ENAG Réghaia, Algérie, 2010, p 520.

ونستشعر في الفصل الذي عنونه" بالعلاج "" Remèdes " أو الحلول، نزعته الاستعمارية وتطرفه بشكل ملموس اتجاه القضية الجزائرية حين كتب قائلا:" اعتراف فرنسا بهذه الحكومة –ويقصد هنا الحكومة المؤقتة– المخادعة هو بداية مغامرة مأساوية".

ومن النقيض أن نجد سارفييه يستبعد الحلول العسكرية وهو الذي شارك في العمليات الكبرى للجيش الفرنسي لمحاصرة الثورة والقضاء عليها كما رأينا سابقا كون هذه الحلول بعيدة عن "المعادلة الاقتصادية والديمغرافية"، ويتصور هذا الكاتب حلولا واهية لإنقاذ "حلم الجزائر الفرنسية" خاصة في هذه المرحلة المتأخرة من الاستعمار الفرنسي في الجزائر فيقترح الأخذ بيد السكان الجزائريين إلى مستقبل يتعايشون فيه جنبا إلى جنب مع الفرنسيين" ويتساءل هذا المؤلف عن الشيء المتبقي والذي يمكن أن تقوم به فرنسا بما أن أغلب السكان الجزائريين يعيشون في الريف؟ فيقر بوجوب القيام بثورة زراعية "Révolution Agraire " لجعل حياة السكان في الريف كريمة على أن تكون هذه الإصلاحات مستعجلة يتم فيها الإشراك الحقيقي للجزائريين.[1]

ومن التفسيرات الخاطئة التي جاء بها هذا المؤلف وأراد أن يحلل بها أسباب الثورة أو ما أطلق عليه " المأساة الجزائرية أن الشباب الجزائري يتخبط في دوامة إثبات وجوده من خلال استعمال العنف" فيرى أن ما يحتاجه الشباب الجزائري ليس إصلاحات اجتماعية بقدر ما تكون "مراجعة عميقة للهياكل القديمة القائمة" ويقصد هنا الاهتمام أكثر بالتقاليد والأعراف خاصة لدى "السكان الأصليين" ويمكن أن نقول أن سارفييه يحث السلطات الاستعمارية على خلق مناخ ثوري بديل وبشكل مستعجل لتأطير تحمس الشباب الجزائري.[2]

وقد عبرت جريدة المجاهد عن نظرة ج.سارفييه لتحمس الشباب للثورة الجزائرية فأوردت أن الثورة قد أحدثت انقلابا جذريا لدى الشباب الجزائري الذي كان همه الوحيد هو الانعتاق وليس البقاء تحت نير الاستعمار الفرنسي.

1Servier, Demain, Op.cit, pp 72-74, 92, 96,139-140.
2 Ibid. pp 142, 145, 162,167

ويمكننا القول أن سارفييه قدم أفكارا مناقضة لتصوراته الأولى عن الجزائر ويلح أن تستعجل السلطة الاستعمارية في الجزائر تطبيق إصلاحات لإنقاذ "التواجد الفرنسي في الجزائر" من خلال إدماج كامل، وجاءت هذه الحلول بعد تلك التجربة الأنثربولوجية في الجزائر التي مارسها عن قرب وجسدها في العمليات العسكرية ووفقا لهذه الملاحظات نلمس إصراره على الحفاظ على الثقافة البربرية والتقاليد الريفية، وتأكيدا لولعه بالمجتمعات البربرية نشير إلى الكتاب الذي أصدره سنة 1962 بعنوان: Les portes de l'année, Rites et symboles l'Algérie dans la tradition méditerranéenne " أبواب السنة" شعائر ورموز" الجزائر في التقليد المتوسطي"، هذا الكتاب الذي يعكس أراءه اتجاه الثقافة والتقاليد البربرية التي وجب أن تبقى غارقة في الأباطيل والبدع والخرافات.

أ -المجتمع البربري التقليدي عند ج.سارفييه:

في مقدمة كتابه يذكر سارفييه أنه جمع مادة هذا المؤلف خلال سبع سنوات عن طريق الملاحظة الميدانية والرواية الشفوية التي استقاها من الرجال الأكثر من أربعين سنة – أي الرجال الذين لهم حق التكلم في مجالس القرى في منطقتي القبائل الكبرى والصغرى، وقسم مؤلفه إلى ستة فصول تقع في 425 صفحة صدرت عن دار نشر روبير لافونت Lafont Robert .[1]

اهتم جون سارفييه بالشعائر الدينية المتعلقة بالحياة والموت وحاول مقاربتها بالطقوس التي كانت سائدة عند الرومان والإغريق فأورد قائلا: " ما نجده عند رجال الريف الجزائري يوجد في كل البحر الأبيض المتوسط القديم والمعاصر " حيث أراد أن يثبت وجود طقوس عتيقة عند الجزائريين ترجع إلى ما قبل الإسلام" وإذا ما تمعنا في أطروحته هذه لوجدنا حسب هذا الأنثربولوجي أن كل منطقة القبائل غارقة في طقوس بعيدة عن الإسلام [2]، فالصورة التي أراد سارفييه أن يقدمها لنا عن سكان

1 Servier, Les portes, Op.cit, p 15.
2 Ibid. pp 26-27,35.

الجبال البربر أنهم ريفيون يعيشون في نظام تقليدي يتميز بالجمود، أين يحتفظ هؤلاء بثقافة عتيقة.[1]

ولعله من المفيد تقديم بعض الأمثلة من هذا الكتاب للوقوف على محاولة سارفييه تقريب سكان منطقة القبائل من العناصر الأوروبية فيشير في معرض تأكيد هذا التقارب إلى أن الطقوس المنتشرة في المنطقة القبائلية هي ذات صلة مباشرة مع العادات والتقاليد التي نشأت في الضفة الشمالية من البحر المتوسط وتمتد أصولها إلى الحضارة الإغريقية [2]، ونتساءل هنا عن أهداف سارفييه في إحياء التقاليد الجزائرية خاصة البربرية؟ أو هل هو تأكيد لابتعاد الجزائريين عن الإسلام؟

إن الكثير من الكتاب ومن بينهم سارفييه أرادوا إحياء البدع في المجتمع الجزائري لضرب الإسلام، ولعل ما أورده هذا الكاتب في الصفحة 56 كان أكبر دليل:" إن القوى الممنوحة للموتى وما وراء الطبيعة « l'Invisible» مثل ما هي في الجزائر هي نفسها في كل بلدان البحر المتوسط وعند كل الإنسانية، فكل حج تقوم به النساء وكل زيارة تقمن بها فهي لقديسي الإسلام والموتى، وهدف كل هذه الطقوس هو الحصول على الخصوبة"[3] ومن هذا التصور فإن التنظيمات العائلية في المنطقة القبائلية تنظيمات عتيقة لها صلة بالغيبيات والخرافة، لذلك كان ناقما – كما رأينا سابقا– على جمعية العلماء المسلمين التي حاربت الخرافات والبدع التي انتشرت في المجتمع الجزائري وواجهت المشروع الاستعماري بنشر الفكر الإصلاحي * في الأرياف الأمر الذي كان يخيف السلطة الاستعمارية، إذ عبرت إحدى التقارير فيما

1 Digard Jean-Pierre. C. Lacoste-Dujardin, Opération " Oiseau Bleu " : des Kabyles, des ethnologues et la guerre d'Algérie. In: L'Homme, 1997, tome 37 n°144. p 161.

2 Servier, Les portes, Op.cit, pp 48-49.

3 Ibid. p 56 .

* حارب رجالات الإصلاح البدع قبل تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فهاهو الطيب العقبي ينظم شعرا من 68 بيتا نشرها في الواجهة الأولى من جريدة المنتقد بتاريخ 20 آوت 1925 يقول في مطلعها :

أيها الأقوام أن تبغوا الهدى _ ما لكم والله غير العلم هـــاد؟
ماتت السنة في هذي البلاد _ قبر العلم وساد الجهل ســـاد
وفشا داء اعتقاد باطـــــل _ في سهول القطر طرا والنجاد
عبد الكل هواء؟ شيخـــــه؟_ جده؟ ضلوا وضل الاعتقـــاد، أنظر: "إلى الدين الخالص" المنتقد، العدد 8، السنة الأولى 20 أوت 1925. =

نصه: " إن العلماء كانوا يحاولون تنظيم المجتمع الجزائري خارج القوانين الفرنسية.."[1]، ويبالغ في الكثير من الأحيان حينما يقدم لنا مثالا عن عملية الحرث في ذات المنطقة ويرى أنها ترتبط بمجموعة من المحظورات التي قد تؤثر على العالم الخفي-L'invisible- الذي يرتبط بهذه العملية.[2]

هكذا إذن فإن النظرة الفاحصة لهذا الكتاب تحدو بنا إلى استنتاج أفكار وآراء أراد بها هذا المؤلف أن يؤكد ابتعاد المناطق المدروسة عن الإسلام في تفسير كل ما ارتبط بأعمال الريف التي لها صلة بأرواح خفية فكتب قائلا: " أليس من الغريب أن نجد في كل البلدان المسيحية المتوسطية طقوسا مماثلة لتلك الموجودة في المغرب والتي أصبحت طقوسا أقرها الإسلام الشعبي".[3]

ونتساءل هنا هل يذهب ج.سارفييه إلى نفس المنحى الذي ذهب إليه إميل دوركايم في ضرورة تكييف الاستعمار مع المؤسسات المحلية أو "إتباع سياسة بدائية" متنورة تراعي خصوصيات المجتمع التقليدي الجزائري لضمان نجاح المشروع الاستعماري؟

مهما يكن فإن تحليل البنى الاجتماعية التي وصفها الأنثربولوجيون على أنها "بدائية" هو الذي أفضى إلى ظهور الأنثربولوجيا الميدانية.[4]

نخلص في الأخير إلى أن هذا الجامعي المختص في الأنثروبولوجيا اهتم بتقاليد البربر وثقافتهم العتيقة، لكن الأغرب من ذلك أنه كتب عن " L'invisible "أو "القوى الخفية" التي تسير المجتمع القبائلي لكنه عجز عن ملاحظة الانعكاسات السلبية للاستعمار على المجتمع الجزائري.

= وقد واصلت جريدة الشهاب محاربة البدع، ولعله من المفيد هنا اقتباس نص من هذه الجريدة: "وفي يوم النحر من ذي الحجة خاتمة شهور عام ثلاثة وأربعين وثلاثمائ ة وألف برزت جريدة 'المنتقد' تحمل فكرة الإصلاح الديني بتنزيه الإسلام عما أحدثه المبتدعون وحرفه الجاهلون...صدرت جريدة 'الشهاب' إثر تعطيل المنتقد على مباديه وخطته.. "أنظر: "بعد عقد من السنين" الشهاب، 5 أفريل 1935، ص5.

1 بوالصفصاف، المرجع السابق، ص 294.

2 Servier, Les portes, Op.cit, pp 147-148.

3 Ibid. pp 319,353.

4 جيرار لكلرك، الأنثربولوجيا والاستعمار، ترجمة جورج كتورة، الطبعة الثانية ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، 1990، ص ص، 44،45.

ووفق الايدولوجيا السابقة يمكن أن نعتبر سارفييه ضمن المتعاطفين مع البربر Berbérophille والمعادي للعرب، ومن أنصار الأطروحة البربرية، ومن دعاة الإدماج الكامل للسكان المستقرين" البربر" أولا ثم البدو بعد أن يتم تكوينهم لا على الثقافة العربية لكن على الثقافة الفرنسية، إذ صرحت جريدة العالم le Monde بعد الحوار الذي أجرته مع سارفييه: " عرف البربر، عاش بينهم بعيدا عن الحضارة يحبهم، يود أن يدافع عنهم رغما عنهم ضد العرب".[1]

1 Le Monde : 13/07/1955, Les Ulémas ont fanatisé les Berbères de l'Aurès aujourd'hui en rébellion contre la France nous déclare M. Jean Servier.

الخاتمة

عالجت هذه الدراسة مجالا من أهم المجالات التي كتب فيها الفرنسيون خلال فترة الاحتلال وهي الأنثربولوجيا، ذلك العلم الذي ذاع صيته خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين في الدول الأوروبية الاستعمارية، ورغم ابتعاد الكثير من الكتاب الفرنسيين عن هذا العلم الجديد من حيث الاختصاص ومن حيث التكوين الأول إلا أن الكثير من هؤلاء جنح للأنثربولوجيا لأنها واكبت "موضة الاستعمار" كمثل الكثير من العلوم التي ارتبطت بها ارتباطا وثيقا، ورغم تركيز هذه الدراسة على الفترة الثانية من كتابة تاريخ الجزائر خلال فترة الاحتلال الفرنسي أي عهد الكتاب الاختصاصيين –أو كما يحلو للبعض أن يطلق عليه عهد الكتاب الجامعيين– إلا أننا وقفنا على الكثير من الاستنتاجات التي بدت لنا أنها تخدم توجها إيديولوجيا استعماريا.

وبعد هذه الدراسة يمكننا أن نقف على بعض المحطات المهمة في كتابة التاريخ الجزائري من الزاوية الأنثربولوجية، ونعتقد أنه يمكننا القول بأن علاقة الأنثربولوجيا بالتاريخ الجزائري علاقة وطيدة لا يمكن إنكارها، ومن جانب آخر يمكن أن نؤكد ما خلص إليه بعض علماء الاجتماع المعاصرين الذين رأوا أن الأنثربولوجيا الاستعمارية قد كانت عاجزة عن إنتاج تحليل تاريخي موضوعي يخص الجزائر.

كما يتضح لنا بعد تتبع موضوع الدراسة زمنيا أن عددا كبيرا من الكتاب الفرنسيين لا يملكون رؤية واضحة عن المجتمع الجزائري وموروثه الثقافي الذي لم يكن يمثل عامل شتات بقدر ما كان عاملا حيويا في بقائه واستمراره.

وإذا أمعنا عن كثب في الإسهامات العسكرية الفرنسية منذ بداية الاحتلال إلى سنة 1880 فإننا نلاحظ أنها قد غلبت عليها النزعة الاستعمارية فتناولت الجانب الأنثربولوجي مركزة على الدراسات الإثنية لتثبت وجود عناصر مختلفة ومتباينة مكونة للمجتمع الجزائري، وركزت على الآثار والتاريخ القديم فبحثت في أصول "البربر" لتقر بأنهم ليسوا ساميين مثل العرب، مما انجر عنه توسع في الدراسات اللغوية والفيلولوجية والنقوش لتجمع أن السكان الأصليين لشمال إفريقيا لا تربطهم أية صلة "بالعرب".

وقد حاول هؤلاء الكتاب إخضاع المجتمع الجزائري إلى تحليلات أنثربولوجية لكنها كانت دائما وفق مقابلات إثنية ؛ بين العرب والبربر، "البدو والمستقرين"، "الأوربيين و"الأهالي"، واستمرت هذه الصورة النمطية إلى غاية الاستقلال.

ولعل من بين النتائج المهمة التي يصل إليها الدارس لأغلب الكتابات الأنثربولوجية الفرنسية هو تركيزها على البربر ذلك الجنس –حسب الكتاب الفرنسيين– الذي يمكن أن يعول عليه في خدمة السياسة الفرنسية الاستعمارية في الجزائر.

وقد ركز الكتاب الأنثروبولوجيون على اللهجات البربرية التي لا نرى في دراستها ونشرها سوى تدعيما وترسيما للهجات المحلية على حساب اللغة العربية، واهتمت الكتابات الفرنسية اهتماما بالغا بالقبيلة والتنظيم القبلي عند البربر.

أما الكتابات الأنثربولوجية الفرنسية الجامعية الأولى فقد ركزت على مناطق محددة من الجزائر كمنطقة القبائل والأوراس وميزاب والتي تضم "البربر" الذين وصفوا على أنهم ضحايا غزاة الشمال الإفريقي بما فيهم "العرب"، ونتيجة لذلك ظهر مجموعة من الكتاب الفرنسيين الذين تم تصنيفهم ضمن ما أطلق عليه بالمتعاطفين مع البربر "Berbérophiles " بشكل خاص وليس مع بقية الجزائريين أي "العرب".

درس الفرنسيون الجانب الأنثربولوجي للجزائريين لفهم الكثير من المجالات، فركز هؤلاء على القوانين العرفية لأنها تتنافى حسبهم مع التشريع الإسلامي، وتناول الفرنسيون الفلكلور الجزائري ليس اعتزازا بالثقافة الشعبية الخاصة بالجزائريين لكن تأكيدا لوجود طقوس يحرمها الإسلام، تمارس بشكل علني ليس فقط عند البربر بل حتى عند "العرب"، وتجسد ذلك في الكرنفالات والاحتفالات الموسمية فتلخصت النتيجة عند هؤلاء الكتاب أنه إسلام في الظاهر وسحر وشعوذة في الباطن.

ورغم محاولة سلطة الاحتلال إحياء الأعراف لأنها الأكثر نفيا للإسلام حسبها، إلا أنها اصطدمت بالقوانين العرفية التي تخص الملكية العقارية والتي كانت ملكية جماعية لا يمكن أن تتحول إلى الأفراد مما أدى إلى وصفها بأنها قوانين بدائية تضم

عيوبا كبيرة تحتاج إلى الإصلاح، وتطبيقا لهذا التصور كانت هناك مبادرات في كتابة القوانين العرفية لأنها كانت شفوية غير مسطورة، ونتيجة لهذه الخلفية وصفت المجتمعات البربرية على أنها كونفيدراليات تطبق قوانين عتيقة تشبه روما القديمة حسب بعض الكتاب.

ومن بين النتائج التي وقفنا عليها في دراستنا أيضا هو وجود تناقض نلمسه في هذه الكتابات، فتارة نجدها تريد أن يحافظ الفرنسيون على تقاليد المجتمع الجزائري خاصة البربر وتارة أخرى نراها تتهمها بأنها سبب تخلفه.

ركزت الكتابات الأنثربولوجية الفرنسية أيضا على المرأة القبائلية والشاوية لأنها بقيت بعيدة عن الإسلام حسب منظور هؤلاء الفرنسيين قريبة من المرأة الأوربية أمكن الوصول إليها بسهولة من خلال تعليمها وتثقيفها فرنسيا، الشيء الذي سيؤدي إلى تأثيرها إيجابا على الأبناء مما يجعلهم أكثر تقبلا للأفكار الغربية كالإدماج والفرنسة والتجنيس وذلك كله خدمة للاستعمار.

وأضحت الكتابات الأنثربولوجية الفرنسية خلال الثورة دراسات تطبق في الميدان إذ تم تجسيدها على أرض الواقع لتقويض الثورة التحريرية من طرف الحكام الفرنسيين الذين استعانوا بخبرة الأنثربولوجيين لهذا الغرض، بدء بجاك سوستيل وجرمان تيون وجون سارفييه، ووفق هذه الملاحظة نستنتج مجاراة الأنثربولوجيين للسلطة مما أدى إلى ابتعادهم عن الحقيقة فيما كتبوه.

وإذا كانت فرنسا قد استعملت العلوم التطبيقية بشكل كبير لأنها الأساس العملي للسياسة الاستعمارية فإنه تم استعمال العلوم الاجتماعية ومنها الأنثربولوجيا لإعطاء شرعية للاحتلال الفرنسي للجزائر، محاولة من خلال نظريات إثبات عدم وجود مجتمع موحد وأمة واحدة منتقصة بذلك من المجتمعات المستعمرة.

وسلطت الدراسات الأنثربولوجية الفرنسية الضوء على المرأة لأنها حسب هذه الكتابات عامل من عوامل التخلف، أما المجال الثاني الذي كتب عنه هؤلاء الفرنسيون فهو الدين الإسلامي الذي تراكمت فيه كل أشكال التخلف.

ويرجع التناقض الموجود في لدن الكتابات الأنثربولوجية الفرنسية إلى تناقض السياسة الاستعمارية المجحفة والعنصرية، التي كانت تهدف إلى إجبار الجزائريين على الدخول في القالب الذي نحته المستعمر لهم والذي يجعله سيدا عليهم.

كما توصلنا بعد هذه الدراسة إلى أنه تم توظيف الأنثربولوجيا من بابها الواسع في السياسة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر بل وشارك بعض الأنثربولوجيين في بعض العمليات العسكرية الفرنسية الكبرى كجون سارفييه.

مثلت كتابات بورديو أهم نماذج الدراسات الأنثروبولوجية التي أنصفت إلى حد ما المجتمع الجزائري ونتفق معه في أن ثقافة المجتمعات التقليدية قد ضمت عناصر التكافل الاجتماعي رغم إمكاناتها المحدودة مقارنة بالمجتمعات الأوروبية التي وصلت إلى تطور اقتصادي ومادي كبير، لكنها افتقدت هذا التكافل وبالتالي هي أيضا مجتمعات مختلة، إلا أن بورديو تعثر حسب رأينا في تقسيم المجتمع الجزائري إلى وحدات إثنية.

إن محاولة كتابة تاريخ الجزائر يجبرنا على العودة إلى كل ما كتب من طرف الفرنسيين أو غيرهم للوقوف على الحقائق التاريخية، لكن يجب الأخذ بها بتحفظ تام.

إن مساهمة الأنثربولوجيا لإبقاء الاستعمار الفرنسي في الجزائر لا تتلخص فقط في مساعدة ضباط المكاتب العربية حين جلبوا – في السنوات التي تلي الاحتلال – المعرفة التي تخص المجتمع الجزائري، فباختلاف مراحل الاستعمار الفرنسي اختلفت معه الدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجية، من حيث الكم والكيف حسب الظروف التاريخية والاجتماعية التي عرفتها الجزائر.

ويبدو من خلال دراسة بعض النماذج أن هناك تباينا واضحا موجود ا بين الأنثروبولوجيا العسكرية الخاصة با لقرن التاسع عشر والأ نثروبولوجيا الجامعية الخاصة بالقرن العشرين.

فعمال الإثنولوجية العسكرية هم في الغالب ضباط، يتناولون المجتمع الذي يكتشفونه باستعلاء "تفوق" في إطار غالب على مغلوب، وأيضا كمتعلم على أمي.

لكن باحثي الأنثروبولوجيا المدرسية هم غالبا من الأثنولوجيين الجامعيين، أساتذة أو قدماء المدرسة النورمالية، تبنو ا حالة من الاستغراب أمام العادات التي يلاحظونها.

وأغراض الأنثولوجيتين هي أساسا مختلفة، فبينما واجه ت الأنثربولوجيا العسكرية المشاكل الملحة والآنية لأنها تعرقل سير الاستعمار " كالقبيلة، والطرق الصوفية " نلاحظ أن الأ نثروبولوجيا الجامعية توجهت نحو دراسة ا لفلكلور والتقاليد الشعبية "السحر، والكرنفال، والطقوس الخاصة بالحقول"، أو ركزت على مظاهر من الحياة الاجتماعية وكانت المجلة الإفريقية، أين كان الشعب الجزائري غائبا في أغلب هذه الكتابات إذ كان هو الموضوع لكنه غير مخاطب أو بمعنى آخر " الحديث عنه وليس له".

ويمكن أن نقول بأن الدراسات والأبحاث التي خصت المجتمع الجزائري في الفترة الأخيرة من المرحلة الاستعمارية هي دراسات اجتماعية وأنثروبولوجية، امتزجت بالأبحاث الاقتصادية والديموغرافية، لأن العالم عرف في تلك الفترة تغيرات جذرية خاصة على الصعيد الاقتصادي والسياسي، مما أثر على مناهج وتوجه الأنثربولوجيا وعلى هذه الكتابات.

تأثر الكتاب الفرنسيون بالتيارات والنظريات الفلسفية السائدة في أوروبا كالدوركايمية وظهور مفهوم الانقسامية وتأثرهم بالأنثروبولوجيا البنيوية والأمريكية وبعد تبلور الحركات التحررية واستقلال الكثير من الدول أصبحت الأبحاث والكتابات الأنثروبولوجية تسلك اتجاها جديدا داخل حقل الدراسات الاستعمارية التي لا يمكن الاستغناء عنها في دراسة التاريخ بشكل عام وتاريخ الجزائر بشكل خاص.

ورغم ما تبطنه هذه الكتابات إلا أننا لا ننكر أهميتها في صناعة وكتابة تاريخ الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي، كما لا ننكر أيضا أهميتها في فهم الظاهرة الاستعمارية وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية والإنسانية بل وبمختلف العلوم الأخرى.

ولم يتوقع الأنثربولوجيون المتأخرون يوما تستقل فيه الجزائر فاقترحوا في كتاباتهم آخر الحلول التي وجب على فرنسا تطبيقها لإنقاذ "الجزائر الفرنسية" لأنهم لم يتصوروا جزائر مستقلة بل يجب أن تبقى دائما مرتبطة بفرنسا.

ونستنتج أيضا أن الكتابات الأنثربولوجية الفرنسية التي خصت المجتمع الجزائري بقيت سجينة نفس المنطق والنزعة الاستعمارية التي ترى في تنوعه الثقافي نفيا لوجود أمة جزائرية ملتحمة.

وبعد تحليلنا لبعض النماذج من الكتابات الجامعية وخطابها الأنثربولوجي، نخلص إلى أن الأنثربولوجيا لم تكن بمنأى عن الايدولوجيا والنزعة الاستعمارية، رغم أن العلاقة الجدلية بين الايدولوجيا والاستعمار لم تتوضح إلا بعد أن بدأت مرحلة التخلص من الاستعمار خاصة في الدول المستعمَرة.

ورغم وجود الكثير من المغالطات التاريخية حول المجتمع الجزائري في هذه الكتابات إلا أنها أساسية في الكتابة عن المجتمع الجزائري خلال الفترة الاستعمارية من حيث الكم والكيف.

على أننا نود أن ننهي هذه الدراسة بالتذكير بأهمية الكتابات الأنثربولوجية الفرنسية في فهم تأثير الاستعمار السلبي في هدم المجتمع الجزائري وتقويض خاصية التكافل الاجتماعي التي تفتقدها المجتمعات الأوروبية، والرجوع إلى هذه الكتابات يقتضي التعامل معها بالكثير من التحفظ لعسر تحليل خطابها الإيديولوجي الذي تضمره ونحن بحاجة لقراءة متأنية للكثير من المصادر الفرنسية التي يمكن الاستفادة منها في الكتابة التاريخية.

وبعد كل هذه الاستنتاجات التي خلصنا إليها، يبدو أن الأنثربولوجيا كعلم كانت ضحية للاستعمار الفرنسي، ليس فقط في الجزائر بل في كل الدول التي عرفت الاستعمار.

الملاحق

1 https://gallica.bnf.fr/ark:/12148/btv1b84390013, le 15/06/2018

-309-

Ge - D - 85

Ancienne Maison BASTIDE.

CARTE DES ÉTAPES DE LA PROV.CE DE CONSTANTINE

PUBLIÉE PAR

A. JOURDAN,

Libraire-Editeur,

ALGER

Deuxième Edition

1880.

BIBLIOTHÈQUE NATIONALE R.F. GÉOGR.

MÉDITERRANÉE

ALGÉRIE

TUNISIE

Cap de Fer — Collo — Philippeville — Bône — Lacalle — Djidjelli — Bougie — Sétif — Bj. Bouaréridj — CONSTANTINE — Guelma — Soukaras — Ain Beida — Tebessa — Batna — Biskra — Hodna — Bou Saada — Lambessa — Krenchela — Tazoungart — Lac Fedzara — Lac Tarf

Légende.

- Chemin de Fer. (Stations)
- Routes carrossables desservies par des voitures publiques.
- d.o — d.o — non desservies
- Chemins muletiers.
- Villes et villages Européens.
- Gites d'Étapes.
- Grand Haltes.

ECHELLE de 1/1,000,000.

Echelle de 3/400,000

ENVIRONS de CONSTANTINE.

Lith. A. Jourdan. — DÉPOSÉ. — E. Corny, Graveur

21996.

Ge-D. 85

1 الملحق رقم 1: خريطة تمثل مراحل مقاطعة قسنطينة 1880

الملحق رقم 2: القبائل القديمة في الشرق الجزائري 1863-1887

LES ANCIENNES TRIBUS
DE L'EST.ALGÉRIEN
(1863 - 1887)

LÉGENDE
Chott, Sebkha, Guerrah, Lac.
Centre de colonisation, Azel.
Limite de tribu.
Tribu morcelée.
Limite de province.
Limite d'Etat.
Tifra — Nom de tribu
274 — Numéro du P.V. de la tribu au Cadastre

Echelle : 1/400.000e
0 5 10 15 20 25 30 35 40 45 50km

Abdelkrim BADJADJA D.E.A. Géographie 1974 Constantine

Reproduction, modification, même partielles, interdites. — Dépôt légal Bibliothèque Nationale - 292/1976 — Dépôt légal Wilaya de Constantine : 1753/R/1975

الملحق رقم 3: القوانين العرفية المطبقة في بعض مناطق الأوراس حسب إميل ماسكاري التي نشرها في المجلة الإفريقية[1]:(*)

- القوانين العرفية المطبقة في بني فرح[2]:

كانت الأعراف السياسية والشرعية لبني فرح قبل الاحتلال الفرنسي حسب إيميل ماسكاري على الشكل التالي:

السلطة العمومية كانت بين أيدي "المجلس" الجماعة المكونة كليا من الرجال، كلهم تقريبا من الأعيان. هذه الجماعة ليس لها رئيس، ولا يمكن أن نميز فيها الجهات أو بعض التحزب.

السلطة العمومية–عدا حالات القوة العظمى "القصوى"– كانت ممثلة بواسطة عشرة قوبجي* وهم من رجال البلاد يشبهون الشرطة أو القوة المسلحة [3]، لا يتقاضون أجرا، مهمتهم شرفية تخص توقيف المتهمين باسم القانون، ويجبرون كل زملائهم القادرين (الأصحاء) على حمل السلاح في حالة الحرب ، وكانت الجماعة تحكم وتقاضي استنادا على الأعراف التالية:

أ- جريمة السرقة:

إذا تم القبض على سارق متلبس في أحد البيوت في الليل أو في النهار، يجبر على دفع غرامة مالية قدرها 20دورو** كعقوبة له وتعطى للجماعة، إضافة إلى

---

1 Masqueray, Documents historiques recueillis dans l'Aurès (juillet 1876) in : (R.A) Vol N°21 Année1877 (O.P.U) 1, Place Centrale de Ben-Aknoun (Alger)1985.pp 97-123.

(*) تمت ترجمة هذه القوانين العرفية بمساعدة أحد المختصين في الحقوق ونشرت هذه الترجمة سابقا في رسالتنا الخاصة بالمجستير أنظر: عبد النور غرينة، الأوراس في الكتابات الفرنسية إبان الفترة الكولونيالية 1840-1939م السنة الجامعية 2009-2010 جامعة الحاد لخضر باتنة. (مذكرة غير منشورة وغير مطبوعة).

2 من القبائل الشاوية تقع حاليا في مدينة عين زعطوط التابعة لبسكرة (في السفوح الجنوبية للأوراس الغربي) أنظر: أكاردو، المصدر السابق، ص ص 55-56.

* القبجي أو الكبجي، هي كلمة أصلها تركي تعني حكام الثكنات، أو أعوان الشرطة، أنظر: صالح عباد الجزائر خلال الحكم التركي 1514-1830، دار هومة للطباعة النشر والتوزيع، 34حي لابرويار-بوزريعة-الجزائر، 2005. ، ص ص. 284،297 . أما ماسكاري فيرى أنه معناه يشبه الكلمة العربية التي تعني" الوكيل" أنظر: Masqueray, Voyage, Op.cit p, 52.

3 Delartigue, Op.cit p.207

** لقد تنوعت النقود المتداولة في الجزائر في أواخر العهد العثماني فمن القطع النقدية نجد السكين أو السلطاني أو الدينار، ومن أجزائه النصف والربع، ومن القطع النقدية الفضية الريال بوجو. وفي سنة 1821 ضرب الداي حسين الدورو الجزائري وهو يساوي 2 بوجو(3.60فرنك)، أنظر:عباد، المرجع السابق، ص.344.

غرامة قدرها 20 دورو لمالك البيت، وإذا لم يقبض المالك على السارق بنفسه متلبسا ليس له الحق في أي تعويض.

سارق الماعز إذا قبض عليه متلبسا، يجبر على إعطاء عنزتين عن كل واحدة مسروقة للمالك، ويدفع غرامة تقدر بـ 5 دورو للجماعة.[1]

ب- جريمة القتل:

يعاقب القاتل المتعمد بإحراق حقله ويصادر منزله من طرف عامة الناس، وينفى مدة سنتين؛ ويدفع أيضا غرامة قدرها 150دورو، نصفها أرضا ونصفها الآخر نقدا.

وبعد انقضاء فترة منفاه يرجع ليقبل أيدي الجماعة كعقوبة معنوية ويعيد بناء منزله، وغالبا ما يقتل ثأرا، ويحظى قاتله بنفس العقوبة.

أما القتل الخطأ أي غير المتعمد دون إصرار أو ترصد وبعدم وجود نية قتل – مثل قتل شخص لشخص آخر أثناء ممارسة ألعاب الفروسية- فيدفع غرامة قدرها 75دورو كدية وينعزل في بيته، وبالنسبة لجريمة قتل المرأة فكانت تسوى العقوبة بنفس الطريقة، لكن الدية تكون أقل بالنصف.[2]

ج- جريمة الضرب و الجرح: الذي يفقأ عين أحد يدفع غرامة تقدر بـ75 دورو قصاصا للجريح ؛ والذي يكسر أسنان شخص ما يدفع غرامة قدرها 20دورو للجريح والذي يهشم رأس شخص ما "دون موت الجريح " يدفع غرامة من 15 إلى 20 دورو للجريح، حسب تقدير الطبيب.

د- جريمة الزنا والسب اتجاه النساء :

إذا ما شوهد رجل في بيت شخص آخر غائب، في محادثات مع زوجة هذا الأخير، تختلف العقوبة الصادرة من طرف الجماعة على ذلك الفعل حسب الحالات التالية:

– في حال اعتراف المرأة بذلك، يدفع المتهم غرامة تقدر ب . 150 دورو للزوج الذي اعتدي على شرفه إن قبل ذلك وإذا رفض يقتل المذنب.[3]

---

[2] Masqueray, Documents historique, Op.cit. pp.99-100.
[3] Ibid.p.100.

– وفي حال إنكار ونفي الزوجة بالرغم من شهادة الشهود، فيبرأ المتهم، ومنه نستنتج أن عقوبة جريمة الزنا الخاصة بانتهاك الآداب العامة تعادل عقوبة القتل. فللزوج الحق في قتل أي شخص غريب انتهك شرفه.[1]

– إذا لمس رجل امرأة ذاهبة لجلب الماء أو إلى الجبل، دفع غرامة تقدر ب 150. دورو للزوج، الذي يمكنه أن يرفض ويقتل المذنب، ومهما يكن فالمرأة تطرد من بيت الزوجية.

هـ- الزواج:

كان يتم الزواج و يعقد أمام الطالب أو الجماعة [2] وهي التي تحدد قيمة المهر[3]فكانت قيمته تقدر بحوالي 30 دورو، وفي حالة فرار الزوجة يسترجع ماله.

و- الميراث:

كان للأبناء من الذكور والأحفاد الحق في الميراث دون النساء [4]، ويعتقد ماسكاري أن سكان الأوراس قد ألغوا تعاليم التشريع الإسلامي فيما يخص حق توريثهن، لكن العرف يحفظ لهن بالخمس من الممتلكات في حالة إن كن مسؤولات عن عائلاتهن.[5]

ز- الضرائب:

كان أناس بني فرح خلال حكم الأتراك يدفعون كل سنة إلى بسكرة غرامة قدرها 30 دورو، وعند قدوم (النوبة، المحلة) نحو منطقتهم يضيفون 70 حصيرة.[6]

2- منعة[7]:

قبل وصول الاحتلال الفرنسي لمنطقة الأوراس، كانت السلطة المطلقة تطبق في منعة من طرف الجماعة، وكانت سلطتها مستمدة من العرف حتى أن أحدهم صرح: " نحن لا نعرف إلا الجماعة".[8]

---

1 Bocher, Prise, Op.cit p.859.
2 Masqueray, Documents historique, Op. cit p 100.
3 Bocher, Prise, Op. cit p.859.
4 Masqueray, Documents, Op. cit p.101
5 (S.A) Kanoun Kabyles « S.L.N.É»1895, p.XXXV.
6 Masqueray, Documents historique, Loc. cit p101.
7 تقع 52 كلم شمال- شرق بسكرة، أنظر: أكاردو، المصدر السابق ص 158.
8 Masqueray, Formation, Op. cit p 39

أ- جريمة السرقة:

يعاقب من أتهم بالسرقة الموصوفة بدفع غرامة 10 دورو للجماعة، ويدفع لصاحب المنزل المسروق 5دورو، ولا يختلف الأمر بالنسبة للسارق في النهار، أما سارق الماعز فيدفع للجماعة غرامة قدرها 15دورو، ويجبر على أن يعوض المعتدى عليه بعنزتين، وحتى الأطفال كانت تمارس ضدهم عقوبات مماثلة فإذا كان السارق طفلا وقبض عليه متلبسا خلال النهار يسرق في إحدى البساتين فعقوبة ذلك دفع غرامة 1فرنك بالإضافة إلى تعويض لقيمة الشيء المسروق.

ب- جريمة القتل:

كل من يقتل متعمدا يدفع للجماعة غرامة 50 دورو، و 550 فرنكا كدية، وتحجز الجماعة كل ما تبقى من ممتلكاته، ومن جهة أخرى تدمر محاصيله، وتقطع أشجاره، و يخرب منزله، في حين يبقى مالكا للأرض فقط.

ج- جريمة الضرب و الجرح:

من جرح شخصا آخر بالسلاح مثلا على سبيل الحصر (بندقية) يدفع غرامة قدرها 50دورو، ويعاقب بدفع 5دورو كل من يجرح بأية وسيلة دون ذلك، والذي يضرب شخصا ما بحجر أو بعصا يدفع إذا ما أراق دما غرامة قدرها 2 دورو، وسوى ذلك يدفع غرامة تقدر ب1 دورو، ومن ضرب بلكمة يدفع نصف دورو.

د- جريمة السب اتجاه النساء:

كل من يسب عرض امرأة أو يتهمها زورا يدفع غرامة قدرها 25دورو.[1]

3-نارة:

كان لمدينة نارة أعراف مميزة هي جديرة بالذكر خاصة عقوبة القتل، فهي على اختلاف المناطق الأخرى لا تعترف بالدية ومن أهم القوانين العرفية المطبقة في هذه القرية نجد:

أ- جريمة القتل المتعمد:

[1] Masqueray, Documents historique, Op.cit. pp,106 -107.

القاتل إذا ما أصيب يعدم في الحين. وإلا ينفى للأبد وتسلب أملاكه وتقوم الجماعة بتخريب بيته وتقطيع أشجاره، ولا تختلف عقوبة القتل في الشجار. أما القتل الخطأ فعقوبته بقاء الجاني في بيته ولا يدفع دية.

ب- جريمة الضرب و الجرح:

الذي يجرح شخصا بطلقة بندقية يفقد جزء من ممتلكاته لا تتجاوز ربع قيمتها وذلك حسب نوعية الإصابة، ويدفع غرامة تقدر بـ 40 باسطة [*]، وكل من ضرب بسيف أو بفأس شخصا آخر عقوبته دفع غرامة قدرها 20 باسطة ؛ وكل من يضرب بحجر عقوبته دفع غرامة تقدر ب 5 ريالات ؛ ومن يضرب بحجر في قبضة يده عقوبة ذلك دفع 1ريال، ومن عض شخص آخر يدفع نفس الغرامة، والذي يشد بعنف رجلا أو امرأة يدفع 10باسطات، والذي يشهر بندقيته المسلحة ولا يطلق النار يدفع كمثل الذي ضرب بالحجر أي 5ريالات.

ج- جريمة السرقة:

الذي يسرق في منزل شخص ما يدفع ضعف الشيء المسروق ويدفع 30 باسطة. وهو جزاء كل سارق. أما الذي يسرق الفواكه أو الخضار من بستان شخص ما، يعاقب بدفع غرامة من 1ريال إلى 30 ريالا حسب سنه.

د- جريمة الشتم وانتهاك حرمات الدين:

- من يسب عقوبته دفع 5 ريالات.
- الذي يتكلم مع امرأة متزوجة أو غير متزوجة، في حالة (بكائها أو ادعائها)، يدفع الجاني حسب اتفاق الجماعة غرامة تقدر بـ30 إلى 40 ريال.
- الذي ينتهك حرمة الدين يدفع غرامة قدرها 10 ريالات.

كانت نفس أحكام المواريث، وقضايا الأحوال الشخصية لاسيما ما تعلق منها بأحوال المرأة سائدة في منطقة نارة كغيرها من المناطق الأخرى.[1]

[*] هي من العملات المستعملة آنذاك، و تقدر الباسطة الواحدة بـ 2 فرنك و 50سنتيم، أنظر:
Bocher, Prise, Loc.cit. p.859.

[1] Masqueray, Documents, Op.cit. pp.108-109.

4- أولاد عبدي[1]:

لقد كان أولاد عبدي يجهلون الجماعة مثل تلك التي نجدها في المناطق التي ذكرناها سابقا، فلقد كان كل فرع من هذه القبيلة يمثل بأحد كبار القوم "أمقران[**]" وهو شبيه بالقاضي يفصل في كل الخلافات والنزاعات الموجودة في الفرع نفسه، و بما أن قبيلة أولاد عبدي تنقسم إلى أربعة فروع مهمة [*]فقد تمخض عنه أربعة كبار يمثلون وحدهم كل القبيلة. وعندما تحتج بعض الفروع فيما بينها ترفع القضية أمام اثنين من الكبار أو ثلاث أو حتى أمام أربعتهم؛ لكن من النادر أن يكتمل هذا المجلس من الشيوخ.

والملاحظ أنه لم يكن هؤلاء الكبار ذوي سيادة مطلقة، فهم لا يحكمون إلا بالعرف الذي كان رسميا

في جميع قرى أولاد عبدي، ولقد كانت شير عاصمة سياسية بالنسبة لمنعة ؛ حيث يقيم فيها الأربعة الكبار الذين يحاكمون كل أفراد قبيلة أولاد عبدي فيها.[2]

- **شير**[3]:

كل من يقتل شخصا متعمدا يعاقب بدفع غرامة قدرها 4000فرنك، وتخرب أملاكه ويذبح قطيعه ، وتقطع أشجاره.

- كل شخص يضرب شخصا ما بسيف أو بفأس أو بخنجر، يعاقب بغرامة قدرها 20 فرنك.

- كل شخص يضرب أو يجرح بحجر شخص ما بعد معاينة الطبيب يعاقب بدفع غرامة قدرها 20 فرنك.

- كل شخص يضرب بالبارود ولا يجرح شخصا ما يعاقب بدفع غرامة 20فرنك.

- كل شخص ضرب شخصا ما و اقتلع أسنانه يعاقب بدفع غرامة قدرها 12فرنك.

---

1 تتواجد هذه القبيلة 25 كلم جنوب مدينة باتنة على الضفة اليمنى من وادي عبدي الذي سمي على هذه القبيلة تتكون من مجموعة من العشائر، أنظر: أكاردو، المصدر السابق ص 171.

[**] وهي كلمة شاوية تعني الكبير.

[*] وهي بالترتيب، أولاد عامر بن داود، أولاد علي بن يوسف، أولاد ماضي، أولاد مسالم.

2 Henri Buisson, Les vallée de l'Aurès, In : Annales de Géographie, Tome, IX, 1900, Librairie, Armand colin, Paris5, Rue de Mézières, p 48.

3 من عشائر أولاد عبدي، تابعة لدائرة وقسمة باتنة، أنظر: أكاردو، المصدر السابق ص 90.

- كل شخص قطع أذن امرأة يعاقب بدفع غرامة مقدراها 12فرنك.
- كل شخص يرفع يده على امرأة غيره يعاقب بدفع غرامة قدرها 80فرنك.
- كل شخص يفر رفقة امرأة متزوجة يفقد حصاده ومنزله، ويمكن للزوج أن يطالب بتعويض يقدر قيمته بنفسه.
- من يتزوج يدفع 50 فرنك كمهر، ومن تزوج بامرأة وهي في العدة يدفع 20فرنك.

ومن قتل شخصا خطأ بطلقة بندقية يعاقب بدفع نصف الدية، أي 2000فرنك.[1]

5- تاقوست[2]:

نجد الجماعة كما هي موجودة عند كل من مناطق بني فرح، منعة، ونارة، وتتمثل القوانين العرفية في تاقوست كما يلي:

- (قانون) قيمة الدية تقدر بـ750دورو.

يجبر القاتل على دفع غرامة مقدارها 100دورو للجماعة، وتخرب حقوله، ومنزله، وينفى لمدة سنة.

- تقدر دية قتل امرأة بـ370دورو.
- تقدر دية قتل طفل بـ370دورو.
- عقوبة الجرح في الرأس38 دورو.
- عقوبة التهديد 50 دورو.
- كل من يضرب شخصا آخرا بسيف يجبر على دفع 20 دورو.
- كل من يضرب شخصا بعصا عقوبته دفع 12 دورو.
- كل من يضرب شخصا بحجر عقوبته دفع غرامة مقدارها 12 دورو.
- كل من ضرب شخصا بيده يعاقب بدفع 2 دورو.
- يعاقب السارق بدفع غرامة قدرها 80 دورو بالإضافة إلى قيمة الشيء المسروق.[3]

---

[1] Masqueray, Documents historique, Op.cit, pp.113-114.

2 من عشائر أولاد عبدي أيضا تابعة لمقاطعة وقسمة باتنة، أكاردو، المصدر السابق ص 278.

[3] Masqueray, Documents historique, Op.cit, p, 121.

الملحق رقم 4: القانون الأساسي لمصلحة المراكز الاجتماعية في الجريدة الرسمية الفرنسية[1]

CENTRES SOCIAUX. — Arrêté du 27 octobre 1955 portant création du Service des Centres Sociaux et nomination du chef de service.

Le Gouverneur Général de l'Algérie,
Vu la loi du 20 septembre 1947 portant statut organique de l'Algérie et, notamment, ses articles 5 et 47 ;
Vu le décret du 27 novembre 1946 modifié par le décret du 30 mai 1948, portant création d'une Direction Générale de l'Education Nationale en Algérie ;
Vu la décision n° 49-017 de l'Assemblée Algérienne rendue exécutoire par l'arrêté du 10 juin 1949, relative à l'application aux fonctionnaires de l'Algérie de la loi du 19 octobre 1946 portant statut général des fonctionnaires ;
Vu la décision de M. le Ministre des Finances et des Affaires Economiques, portant mise à la disposition de l'Algérie d'un crédit de 25 millions de francs à titre de fonds de concours ;
Sur la proposition du Secrétaire Général du Gouvernement,

Arrête :

Article 1er. — Il est créé au sein de la Direction Générale de l'Education Nationale en Algérie un « Service des Centres Sociaux ».

Ce Service a pour mission de créer et d'animer des Centres Sociaux, urbains et ruraux.

Le Centre Social a pour but :

— de donner une éducation de base aux éléments masculins et féminins de la population qui n'ont pas bénéficié ou ne bénéficient pas de la scolarisation et de mettre à la disposition de ces populations des cadres spécialisés dans les différentes techniques de l'éducation et spécialement l'éducation agricole ;

— de mettre à la disposition de ces populations un service d'assistance médico-sociale polyvalent, dont le fonctionnement sera réglé ultérieurement par un arrêté ;

— et d'une manière générale, de susciter, de coordonner et de soutenir toutes initiatives susceptibles d'assurer le progrès économique, social et culturel des populations de son ressort.

Art. 2. — M. Aguesse, Chef du Service des Mouvements de Jeunesse et d'Education populaire en Algérie, est chargé d'assurer la direction de ce service tout en conservant ses attributions antérieures.

Art. 3. — Le nombre et les emplacements des Centres Sociaux seront ultérieurement fixés par arrêté du Gouverneur Général de l'Algérie pris sur propositions du Recteur, Directeur Général de l'Education Nationale, compte tenu des besoins et des disponibilités budgétaires.

Art. 4. — Le personnel du Service des Centres Sociaux est composé de deux cadres divisés en grades et classes ou échelons.

[1] Journal officiel de l'Algérie 04/11/1955. p 2118.

تابع للملحق رقم 4: القانون الأساسي لمصلحة المراكز الاجتماعية في الجريدة الرسمية الفرنسية[2]

1° le cadre d'inspection et d'animation pour l'ensemble des Centres Sociaux, comprenant des Inspecteurs chargés de l'étude des points d'implantation, de l'inspection, de l'animation des Centres et de l'étude des méthodes pédagogiques. Le nombre des Inspecteurs sera fixé ultérieurement dans la limite des disponibilités budgétaires.

2° le cadre sédentaire attaché aux divers centres sociaux et comprenant, pour chaque centre, un Chef de Centre, un ou plusieurs adjoints au chef de Centre, des moniteurs et aides-moniteurs dont l'effectif sera fixé d'après le chiffre de la population confiée au Centre Social.

Art. 5. — Des arrêtés ultérieurs fixeront le statut du personnel du service des Centres Sociaux et son classement hiérarchique.

Art. 6. — Pour la première formation des cadres, en attendant l'intervention de l'arrêté prévu à l'article 5, les nominations aux emplois énumérés à l'article 4 pourront être effectuées, à titre provisoire, sur simple examen des titres, par arrêtés du Recteur, Directeur Général de l'Education Nationale en Algérie.

En attendant la fixation par les arrêtés prévus à l'article 5 ci-dessus, du classement indiciaire applicable au personnel des Services des Centres Sociaux, les Agents recrutés sur contrat à titre provisoire percevront des indemnités dont les taux mensuels seront fixés d'après les titres, les capacités et l'ancienneté des intéressés et selon les barèmes actuellement en vigueur dans les cadres de l'Administration Algérienne.

Les intéressés ne pourront, en aucun cas, se prévaloir d'une situation acquise, dans le cas où la rémunération définitive, fixée par l'arrêté pris en vertu de l'article 5, serait inférieure à celle qu'ils auront provisoirement perçue en application de l'article 6.

Les fonctionnaires de la Métropole ou de l'Algérie qui pourraient être détachés auprès du Service des Centres Sociaux continueront à percevoir le traitement attaché à leur grade dans leur cadre d'origine.

Art. 7. — Le Secrétaire Général du Gouvernement est chargé de l'exécution du présent arrêté qui sera publié au Journal Officiel de l'Algérie.

Fait à Alger, le 27 octobre 1955.

Le Gouverneur Général de l'Algérie,
Signé : Jacques SOUSTELLE.

[2] Journal officiel de l'Algérie 04/11/1955. Op.cit, p 2119

البيبليوغرافيا

1 المحفوظات:

-أرشيف ما وراء البحار: Archive nationale D'Outre-Mer

1- ANOM 10H90, Une nouvelle phase de l'histoire turbulente de l'Aurès: Le conservatisme berbère aux prises avec le réformisme des Ouléma algérien,
2- ANOM 11/CAB/62. Arreté relative a la composition du cabinet civil.
3- ANOM 12/CAB/237.
4- ANOM 3L/1. "Projet de Decret"
5- ANOM 3R/286. "Dossier Mademoiselle Tillion."
6- ANOM 3R272. Note a l'attention du gouverneur général.
7- ANOM 6SAS / 51 Bulletin de la Presse d'Algérie (Questions Musulmanes).
8- ANOM 93/4292, Lettre signé : L. Massignon.
9- ANOM, 12 CAB/221, Note.

- الأرشيف التاريخي للجيش البري الفرنسي: Service Historique Armée de Terre

01-SHAT: 1/H/2409. Message d'action psychologique),(La lute contre le terrorisme a Alger et dans les grands centres urbains),(instruction provisoire sur l 'emplois de l'arme psychologique)…

- أرشيف ولاية قسنطينة:

01-"AWC", Statistique, Alimentation des, Indigènes, Commune, Mixte de L'Aurès, N°13/25.
02- Carte "AWC", Les Anciennes Tribus de l'Est algerien (1863-1887).

2 المصادر باللغة العربية:

1 أفينو باتريك ، جون بلانسايش، **حرب الجزائر ملف وشهادات** ، ترجمة بن داود سلامنية، ج4، دار الوعي للطباعة والنشر والتوزيع، 2013.

2 بن حبيلس شريف ، **الجزائر الفرنسية كما يراها أحد الأهالي** ، ترجمة عبد الله حمادي، فيصل الأحمر، وسيلة بوسيس، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع،الطبعة الأولى ، قسنطينة الجزائر،2009.

3 بول أوساريس، **شهادتي حول التعذيب، مصالح خاصة 1957-1959**، ترجمة مصطفى حركات، دار المعرفة باب الوادي، الجزائر، 2008.

4 تيليون جرمان ، **الجزائر سنة 1957**، ترجمة العيد دوان، تنسيق وإشراف، أ.د محمد الأمين بلغيث، دار التنوير الجزائر، 2013.

5 فرعون مولود ، **ابن الفقير**، ترجمة نسرين شكري، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، الطبعة الأولى، 2014.

6 كافي علي ، **مذكرات، من مناضل سياسي إلى القائد العسكري 1946-1962**، دار القصبة للنشر، الجزائر، 1999.

7 المدني أحمد توفيق ، **حياة كفاح**، الجزء الثالث، المؤسسة الوطنية للكتاب الطبعة الثانية، الجزائر 1988.

8 المدني أحمد توفيق، **كتاب الجزائر**، (ط 2)المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.

9 الورتيلاني الفضيل ، **الجزائر الثائرة**، مطبعة العباد، بيروت لبنان، دون سنة الطبع.

-الصحف:

01 - سير الإصلاح بجبال أوراس، 1937/12/03، **البصائر**، العدد 89، السنة الثانية،

02 - حوادث الليلة الليلاء...1 نفامبر، **البصائر** 05 نوفمبر 1954.

03 - بما جمعته يد الله، لا تفرقه يد الشيطان"، **الشهاب**، عدد فيفري 1936 ".

04 - "بعد عقد من السنين"، **الشهاب**، 5 أفريل 1935.

05 - "سير المعركة في الشمال القسنطيني"، **المجاهد** العدد65، 04 أفريل 1960.

06 - " من عجائب الدعاية الفرنسية في الجزائر" **المجاهد** العدد 38، 17 /03/ 1959".
07 - " المجتمع الريفي والطاقة الثورية، **المجاهد** عدد 107، 1 نوفمبر 1961.
08 - " ثورة الجزائر في التآليف الأوروبية"، **المجاهد** عدد 107، 1نوفمبر 1961.
09 - رسائل من الميدان، **المجاهد**، العدد 111، 1نوفمبر 1961.
10 - " مسؤولية ديغول في استمرار التمرد"، **المجاهد** 1961/05/08.
11 - مشروع قسنطينة وأهدافه الحقيقية" **المجاهد** عدد 94 25 أفريل 1961.
12 - " إلى الدين الخالص" **المنتقد**، العدد 8، السنة الأولى 20 أوت 1925.

3 المصادر باللغة الأجنبية:

01- (S.A) **Kanoun Kabyles** « S.L.N.É»1895
02-Bourdieu Pierre Sayad Abdelmalek, **Le Déracinement**, La crise de l'agriculture traditionnelle en Algérie, Les Editions de Minuit, 1964.
03-Bourdieu Pierre, **Sociologie de L'Algérie**, Que sais-je ? 8ème Edition Presses Universitaire de France 1958, 6 Avenue Reille, 75014, Paris.
04-Bourdieu,Pierre **Sociologie de l'Algérie**, Presses Universitaire de France, 2e Edition,"Quadrige" Paris, 2012.
05-Burdeau Auguste, **Auguste Burdeau**, A, Storck, Imprimeur- éditeur, 1895.
06-Carette et Warnier, **Description et division de l'Algérie**, imprimerie de A.Guyot, rue Neuve des Mathurins, 18.1847.
07-Carette, E. **Exploration scientifique de l'Algérie**, Origine et migration des principales tribus de l'Afrique septentrionale et particulièrement de l'Algérie. Imprimerie Impériale, Paris, 1853.
08-Chellier, Dorothée **Voyage dans l'Aurès, Notes d'un médecin**, Tizi-Ouzou Imp. Nouvelle J. Chellier-Tizi-Ouzou, 1895.
09-Colette et Francis, **L'Algérie hors la lois**, Editions ANEP, Rouiba-Alger 2006.
10-Daumas M., Fabar M., **La grande Kabylie**, études historique, Imprimerie, CH. Monginot, Alger 1847.
11-Delartigue LT.Colonel **Monographie de l'Aurès**, Constantine, 1904.
12-Demontès Victor, **l'Algérie Agricole,** suivie de quelques renseignements sur les produits de la steppe et des forets, Librairie Larose, 11 Rue Victor Cousin, Paris, 1930.

13- Doutté Edmond, E.F Gautier, **Enquête sur la dispersion de la langue berbère en Algérie**, typographie Adolphe Jourdan Imprimeur-Libraire-éditeur, Place du gouvernement, Alger, 1913.
14- Doutté Edmond, **L'Islam algérien en l'an 1900**, Alger Mustapha, Giralt, Imprimeur photograveur, Rue des Colons, 17,1900.
15- Doutté Edmond, **Magie & Religion dans l'Afrique du nord**, typographie Adolphe Jourdan Imprimeur-Libraire-éditeur, 9 , Place de la Régence, 9, Alger, 1909.
16- Doutté Edmond, **Notes sur L'islam Maghrébin** ; les Marabouts, In Revue de l'histoire des Religion, Tome Xl XLI, 1899, Paris, imp. Garnis et Cie. Section orientale A. Burdin, Angers.1900.
17- essedik Mohamed salah, Opération Oiseau bleu, Le complot le plus sordide ourdi par les services spéciaux français pour faire avorter la révolution algérienne, Dar El Oumma, Alger, 2010.
18- Fallot Ernest, (précédé d'une notice par Charles Simond) **Les Monts Aurès,** Publication, Plon, Paris.
19- Faucon, Narcisse, **Le livre D'Or de l'Algérie**,(Histoire politique, militaire, administrative, événement et Faits principaux, biographie des hommes ayant marque dans l'armée, les sciences, les lettres,ect.de1830 a 1889) Tome 1,Challamel et Cie éditeurs, librairie Algérienne et coloniale 5,rue Jacob,et Furstenberg, 2,Paris 1889.
20- Féraud Charles **Les interprètes de l'armée d'Afrique**, Alger A, Jourdan, Libraire-éditeur, 4 Place Du gouvernement, 4,1876.
21- Ferhat Abbas, **Autopsie d'une guerre**, l'Aurore, Imprimerie Mourad Hasnaoui, Algérie, 2011.
22- Forget Nelly, **L'engagement de Germaine Tillion dans le service des centres sociaux en Algérie**, L'engagement a travers la vie de Germaine Tillion, sous la direction d'Armelle Mabon et Gwendal Simon, Colloque parrainé par Simone Paris de Bollardiere et Stéphane Hessel, Editions Riveneuve, Paris, 2013.
23- Forget Nelly, **les services des centres sociaux en Algérie.** SLND.
24- Général Faidherbe, **Instructions sur l'anthropologie de l'Algérie**, considérations générales, Instructions particulières par le Docteur Paul Topinard, Typographie A. Hennuyer, Paris, 1874.
25- GGA, **Délégations financiers Algériennes, administrative** Mai-Juin, Victor Heintz, Alger, 1937,
26- GGA, **Délégations financiers Algériennes, administrative** Victor Heintz, Alger, 1927.
27- Gouillon Charles, **Annuaire général de l'Algérie**, année 1880, imprimerie Pézé & Cie, Rue de la Casbah, 4 Alger, 1880.
28- Gouvernement général de l'Algérie, Tableau général des communes de plein exercice mixte et indigènes des trois départements de l'Algérie, Imprimerie P. Fontana et Cie, Alger, 1892.

29- Hilton-Simpson M.W, **Among, The hill-folk of Algeria**, Journys Among The Shawia of the Aurès, T, Fisher Unwin LTD, London.
30- Le général Duvivier, **La solution sur la question de L'Algérie**, Imprimerie et librairie militaire De Gautier-Laguionie, rue et passage Dauphine, 36, Paris 1841.
31- Leroy-Beaulieu Paul, **De la colonisation chez les peuples modernes**, Guillaumin , Paris, 1882.
32- Liorel Jules, **Races Berberes Kabyles du Jurjura**, préface de E, Masqueray, Paris, Ernest Leroux éditeur, 1892.
33- Masqueray Emile, **Note concernant les Aoulad-daoud, du mont Aurès**(Aourès) Adolphe Jourdan Imprimeur-Libraire-éditeur, 4 place du Gouvernement, 4, 1879.
34- Masqueray Emile, **Souvenirs et visions d'Afrique**, Orléans. Imprimerie G.Morand, 47, Rue Bannier. 1894.
35- Masqueray. E, **Chronique D'Abou Zakaria**, Alger Imprimerie de l'Association Ouvrière V.Aillaud et Ce, 1878.
36- Memmi Albert, **Portrait du colonisé précédé du portrait du colonisateur** et d'une préface de Jean-Paul Sartre, Presse de L'imprimerie Bussière, Saint-Arnaud (Cier) France, 1973.
37- Mercier Ernest, **L'Algérie et les questions algériennes**, étude historique, statistique et économique, Challamel Ainé, Paris. 1883.
38- Montagne Robert, **Etude sociologique de la migration des travailleurs musulmans d'Algérie en métropole** (L'émigration dans les arrondissements de Constantine et d'Ain-Beida), cahier n8, 1957.
39- Morand Marcel, **Etudes de droit musulman et de droit berbère**, Jules Carbonel, imprimeur, Alger, 1931.
40- Pomel A., **Des races indigènes de l'Algérie et du rôle que leur réservent leurs aptitudes**, topographie et typographie Veuve Dagron, Oran, 1871.
41- Quérard, Joseph Marie, **La littérature française contemporaine XIXe siècle** T1.Paris, Imprime, Béthune et Plon, 1842.
42- Rambaud Alfred, **Jules Ferry**, Plon-Nourrit et Cie, Imprimeurs -éditeurs, Paris, 1903.
43- Rozet et Carette, **l'Algérie**, Imprimeur de l'institut, rue Jacob, 56, Paris, 1850.
44- Servier Jean **Traditions et civilisations Berbères** Editions Du Rocher 1985.
45- Servier Jean, **Adieu Djebels**, Editions France-Empire, 1958.
46- Servier Jean, **Dans l'Aurès sur les pas des rebelles**, Edition France Empire, Paris 1955.
47- Servier Jean, **Demain en Algérie**, Robert Laffont, Paris, 1959.
48- Servier Jean, **Les portes de l'Année, rites et symboles l'Algérie dans la tradition méditerranéenne**, Robert Laffont, Paris, 1962.
49- Tillion Germaine, **Combats de guerre et de paix**, Editions du Seuil, Paris, 2007.
50- Tillion Germaine, **L'Afrique bascule vers L'avenir**, L'Algérie en 1957 et autres textes, Les Edition de Minuit, 1960.

51-Tillion Germaine, **les Ennemis complémentaires**, les Editions de Minuit, 1960.

-الصحف باللغة الأجنبية:

01-Bourdieu Pierre, l'Unité de l'Algérie : Le monde diplomatique, Juillet 1961.
02-Documents Nord-Africains, Etudes sociales Nord Africaines, Document N° 214 février 1956 7eme Année, 6 Rue Barye Paris 17e.
03-El Moudjahid : 16/03/1960.
04-Journal des débats politiques et littéraires 12/01/1883.
05-Journal des débats politiques et littéraires 16/12/1892.
06-Journal des débats politiques et littéraires 21/06/1883.
07-Journal des débats, politiques et littéraires 13/04/1895.
08-Journal des débats, politiques et littéraires 28 /03/ 1891.
09-Journal l'Attaque 23-30/ 01/1892.
10-Journal officiel de l'Algérie 04/11/1955.
11-L'Echo d'Alger, 01 /06/1929.
12-L'Effort algérien, 05/07/ 1930.
13-Le Monde : 08/11/1954. En patrouille a Arris avec les " paras " du bataillon étranger de Sétif
14-Le Monde : 17/11/1954. Quarante bandits en armes ont attaqué le petit village de Pasteur.
15- Le Monde : 27/11/1954. Une lettre de M. Jean Servier
16-Le Monde : 13/07/1955. Les Ulémas ont fanatisé les Berbères de l'Aurès aujourd'hui en rébellion contre la France nous déclare M. Jean Servier
17-LeMonde : 13/12/1960." Le colonel Gardes parle de l'encadrement des centres sociaux en Algérie."
18- Le Monde : 19/02/1959. Adieu, djebels Par Jean Servier
19-Le Monde : 19/03/1962." La bêtise qui froidement assassine"
20-Le Monde : 19/05/1958. Un article de Germaine Tillion dans " Preuves " " Nous avons chacun - nos adversaires et nous -la moitié du remède qui peut sauver ce peuple algérien ".
21-Le Monde : 28/05/1957. La Carrière de M. Ali Chekkal
22-Le Monde : 28/07/1959 Les détournements de médicaments au profit du FLN.
23-Le Monde : 30/07/1959. L'affaire de détournements de médicaments au profit du FLN.

4 المراجع باللغة العربية:

1 ابن خلدون عبد الرحمان ، **تاريخ ابن خلدون،** المسمى **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر** ، طبعة مستكملة ومقارنة مع عدة نسخ ومخطوطات ومذيلة بحواشي وشروح وتمتاز بفهارس للموضوعات والأعلام والأماكن الجغرافية، الجزء السادس، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 2000.

2 بن سالم ليليا ، كلنير إرنست ، الحمودي عبد الله ، فافري جان ، بيرك جاك ، عروي عبد الله ، **الأنثربولوجيا والتاريخ** ، حالة المغرب العربي، ترجمة عبد الأحد سبتي وعبدالله الفلق، مطبعة سبو، الدار البيضاء المغرب، الطبعة الأولى 1988.

3 بن سليمان فريد ، **مدخل إلى دراسة التاريخ**، مركز النشر الجامعي، تونس، 2000.

4 بن ضيف الله محمود ، **ملاحظات حول بعض الكتابات الغربية عن الأوراس** ، تاريخ الأوراس ونظام التركيبة الاجتماعية والإدارية في أثناء فترة الاحتلال الفرنسي من 1837-1954.

5 بن نعمان احمد ، **فرنسا والأطروحة البربرية** ، الخلفيات، الأهداف، الوسائل، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، أكتوبر 2011.

6 بوالصفصاف عبد الكريم ، **جمعية العلماء المسلمين الجزائريين** ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية 1939-1945، عالم المعرفة، 2009.

7 بوعزيز يحيى ، **الثورة في الولاية الثالثة التاريخية (أول نوفمبر 1954- مارس 1962)**، الطبعة الأولى، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2004.

8 بوعزيز يحيى ، **ثورات الجزائر قي القرنين التاسع عشر والعشرين** ، دار البصائر للنشر والتوزيع، طبعة خاصة، 2009.

9 بيرتي ج بيلتو، **دراسة الأنثربولوجيا، المفهوم والتاريخ** ، ترجمة كاظم سعد الدين، بيت الحكمة بغداد، ط1، 2010.

10 جربال دحو ، **المنظمة الخاصة لفيدرالية فرنسا لجبهة التحرير الوطني** ، تاريخ الكفاح المسلح لجبهة التحرير الوطني في فرنسا (1956-1962)، ترجمة سناء بوزيدة، منشورات الشهاب، 2013.

11 - جوليان شارل-أندري ، **إفريقيا الشمالية تسير** (القوميات الإسلامية و السيادة الفرنسية)ترجمة المنجي سليم-الطيب المهيدي الصادق المقدم-فتحي زهير-الحبيب الشطي مراجعة فريد السوداني،الدار التونسية للنشر، تونس، 1976.

12 -الجوهري محمد ، علياء شكري، سعاد عثمان، نجوى عبد الحميد، منى الفرنواني، هدى الشناوي، آمال عبد الحميد، **الأنثروبولوجيا الاجتماعية** ، قضايا الموضوع والمنهج، دار المعرفة الجامعية- الإسكندرية، 2004.

13 -الجوهري محمد ، علياء شكري، **مقدمة في دراسة الأنثروبولوجيا** ، القاهرة، دون دار الطبع، 2007.

14 -حسنين محمد، **الوجيز في نظرية القانون(في القانون الوضعي الجزائري)** المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.

15 -حسين محمد محمد، **حصوننا مهددة من الداخل** ، الطبعة الرابعة، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، 1977.

16 - خليفة عبد اللطيف محمد ، **دراسات في سيكولوجية الاغتراب** ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2003.

17 -دوس فرنسوا ، **التاريخ المفتت من الحوليات إلى التاريخ الجديد** ، ترجمة محمد الطاهر المنصوري، مراجعة جوزيف شريم، الطبعة الأولى، بيروت، 2009.

18 -ريفيير كلود ، **الأنثربولوجيا- الاجتماعية للأديان** ، ترجمة وتقديم أسامة نبيل، الطبعة الأولى، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 2015.

19 -الزبيري حمد العربي ، **تاريخ الجزائر المعاصر** ، (1954-1962) دراسة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ج2، 1999.

20 - زكي رمزي ، **المشكلة السكانية وخرافة المالتوسية الجديدة** ، عالم المعرفة، 1984.

21 - زوزو عبد الحميد ، **الدور السياسي للهجرة الجزائرية الى فرنسا فيما بين الحربين**(نجم شمال إفريقيا وحزب الشعب 1914-1939) ديوان المطبوعات الجامعية بن عكنون2007.

22 – زوزو عبد الحميد ، **محطات في تاريخ الجزائر** ، دراسات في الحرية الوطنية والثورة التحريرية(على ضوء وثائق جديدة)، المجلد السابع، ديوان المطبوعات الجامعية، طبعة خاصة وزارة المجاهدين، 2010.

23 – زوزو، عبد الحميد، **ثورة الأوراس 1879**، المؤسسة الوطنية للكتاب 3، شارع زيروت يوسف، الجزائر، 1986.

24 – سعاد علي حسن شعبان، **الأنثربولوجيا الثقافية لإفريقيا** ، طباعة قسم التصوير جامعة القاهرة، 2004.

25 سعد الله أبو القاسم ، **أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر** ، ج4، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية 2005.

26 سعد الله أبو القاسم ، **الحركة الوطنية الجزائرية** ، 1860–1900. الجزء الأول، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000.

27 سعد الله أبو القاسم ، **تاريخ الجزائر الثقافي**، الجزء5،الجزء7، 1830–1954، عالم المعرفة الجزائر، 2011.

28 – سعد الله، أبو القاسم، **الحركة الوطنية الجزائرية 1860–1900**، ج1، دار الغرب الإسلامي ، ط2000،1.

29 – سعيدي محمد، **الأنثربولوجيا**، مفهومها، وفروعها، واتجاهاتها، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، القبة القديمة–الجزائر،2013.

30 الشماس عيسى ، **مدخل إلى علم الإنسان(الانثربولوجيا)** ، منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق – 2004.

31 صاري الجيلالي ، محفوظ قداش، **الجزائر في التاريخ** ، المقاومة السياسية 1900–1954 الطريق الإصلاحي والطريق الثوري ترجمة: عبد القادر بن حراث.

32 عباد، صالح، **الجزائر خلال الحكم التركي، 1514–1830** ، دار هومة للطباعة النشر و التوزيع، 34حي لابرويار–بوزريعة–الجزائر،2005.

33 – عدي الهواري، **الاستعمار الفرنسي في الجزائر** ، سياسة التفكيك الاقتصادي الاجتماعي 1830–1960، ترجمة جوزيف عبدالله، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1983.

34 -العربي إسماعيل ، **الدراسات العربية في الجزائر** (في عهد الاحتلال الفرنسي) المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية وحدة الرغاية– 1986.

35 -عروي عبد الله ، **مجمل تاريخ المغرب**، الطبعة الخامسة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، 1996.

36 –عميراوي حميدة، زاوية سليم، زغداوي محمد، **آثار السياسة الاستعمارية الاستيطانية في المجتمع الجزائري** ، سلسلة المشاريع الوطنية للبحث، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر 2007.

37 -غرانميزن أولفييه لوكور ، **نظام الأهالي** ، ترجمة العربي بوينون، الطبعة الأولى، منشورات السائحي، الجزائر 2011.

38 -فاروق مصطفى إسماعيل، **الأنثروبولوجيا الثقافية**، مطبعة الجيزة بالإسكندرية.

39 -فالنسي لوسيت ، **المغرب العربي قبل سقوط مدينة الجزائر** 1790–1830، ترجمة الياس مرقص، دار الحقيقة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى 1980.

40 -فهيم حسين ، **قصة الأنثربولوجيا** ، فصول في تاريخ علم الإنسان، مطابع الرسالة، الكويت، 1986.

41 -قنان جمال ، **قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر** ، طبع المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار وحدة الطباعة بالرويبة، 1994.

42 -قنانش محمد ، **الحركة الاستقلالية في الجزائر بين الحربين 1919–1939**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1982.

43 -كولونا فاني ، **آيات الصمود، الثوابت والمتغيرات الدينية في الجزائر المعاصرة** ترجمة : لطيف فرج، دار العالم الثالث.

44 -لابورت–تولرا فليب ، جان .بيار فارنييه ، **إثنولوجيا أنثربولوجيا** ، ترجمة د مصباح الصمد، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 2004.

45 محجوب محمد عبده ، **الاتجاه السوسيوأنثروبولوجي في دراسة المجتمع** ، وكالة المطبوعات، الكويت.

46 معريش محمد العربي ، **الاستشراق الفرنسي في المغرب والمشرق من خلال المجلة الآسيوية (1822-1872)**، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 2009.

47 منديب عبد الغني ، **الدين والمجتمع دراسة سوسيولوجية للتدين بالمغرب** ، إفريقيا الشرق، المغرب، 2006.

48 مياسي، إبراهيم **مقاربات في تاريخ الجزائر 1830-1962**.دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر،2007.

49 مؤنس حسن ، **التاريخ والمؤرخون دراسة في علم التاريخ** ماهيته وموضوعاته ومذاهبه ومدارسه عند أهل الغرب وأعلام كل مدرسة وبحث في فلسفة التاريخ ومدخل إلى فقه التاريخ، دار المعارف، 1984 .

50 - الناصري سيد أحمد علي ، **فن كتابة التاريخ وطرق البحث فيه** ، الطبعة الأولى، دار النهضة العربية للنشر، القاهرة 1982.

51 هلال عمار ، **نشاط الطلبة الجزائريين، إبان الحرب التحرير، 1954**، دار هومة للطباعة النشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، 2009.

52 يزبك قاسم ، **التاريخ ومنهج البحث التاريخي** ، دار الفكر اللبناني، الطبعة الأولى، 1990.

5 المراجع باللغة الأجنبية :

01-. Ageron, Charles-Robert, **France coloniale ou parti coloniale ?** Presses universitaires de France 108, Boulevard Saint-Germain, Paris, 1978

02-Addi Lahouari, **Pierre Bourdieu revisité**, La notion de capital social, L'anthropologie du Maghreb, Les apports de Berque, Bourdieu, Geertz et Gellner,Actes du colloque organisé a l'IEP de Lyon21-23 septembre 2001 sous la direction de Lahouari Addi, Ibis Press, Paris 2003.

03-Addi Lahouari, **Sociologie et anthropologie chez Pierre Bourdieu**, le paradigme anthropologique kabyle et ses conséquences théoriques, Editions el Maarifa, 2014.

04-Addi. Lahouari, **De l'Algérie pré-coloniale a L'Algérie coloniale** (Economie et Société) entreprise Nationale du Livre, Alger 1985.

05-Ageron Charles-Robert, **De l'Algérie française a l'Algérie algérienne**, ENAG Réghaia, 2010.
06-Ageron Charles-Robert, **Histoire de l'Algérie contemporaine**, Tome 2 De l'insurrection de 1871 au déclanchement de la guerre de libération (1954), Presses universitaires de France, 1979.
07-Ageron, Charles-Robert, **Les Algériens Musulmans, et la France**, (1871-1919) T1, Presses Universitaire De France, 108, Boulevard Saint-Germain, Paris, 1968.
08-Ainad Tabet Redouane, **8 Mai 45 Le genocide**.
09-Boukhobza M'hamed, **L'agro-pastoralisme traditionnel en Algérie** (de l'ordre tribal au Désordre coloniale) Office des publications Universitaires 29, rue Abou Nouas, Hydra, Alger, 1982.
10-Boulhaïs Nordine, **Des Harkis berbers de l'Aurès au Nord de la France**, Presses universitaires du Septentrion, France 2002.
Boulhais Nourdine, Histoire des Harkis du nord de la France, L'Harmattan, France, 2005.
11-Bromberger Christian, Tzvetan Todorov, **Germaine tillion, une ethnologue dans le siècle**, Actes sud, France, 2002.
12-Colonna Fanny, **Aurès/Algérie, 1935-1936** Photographies Thérèse Rivière, Elle a passé tant d'heures, Éditions de la Maison des sciences de l'homme, Paris,1987 .
13-Colonna Fanny, **Instituteurs algériens 1883-1939**, Office des publications universitaires-Alger.
14-Colonna, Fanny, **Savants Paysans** (Eléments d'histoire sociale sur l'Algérie rurale) Office des publication Universitaire.1, Place Centrale de Ben-Aknoun1987.
15-Coquet Michèle, **Un destin contrarié, La mission Rivière-Tillion, dans L'Aurès (1935-1936),** Les Carnets de Bérose, 2014.
16-Cornaton Michel, Forget Nelly, Marquis François, La Guerre d'Algérie, Ethnologues de l'ombre et de la lumière, L'Harmattan, 2015.
17-Djender Mahieddine, **Introduction a l'histoire de l'Algérie**, ENAG, 2006.
18-Dore-Audibert Andrée, **Des français d'Algérie dans la guerre de libération**, Editions Karthala, Paris, 1995.
19-Fort Pierre-Louis,Christiane Chaulet-Achour, **La France et l'Algérie en 1962**, De l'histoire aux représentations textuelle d'une fin de guerre, Editions Karthala, 2014.
20-François Maspero, Editeur, 1967.
21-Gallissot René, **Les Accords d'Évian, en conjoncture et en longue durée**, Casbah Éditions, Alger, 1997.
22-Garillon George, **De la Loraine a l'Algérie, Une aventure sociale et humaine** au tournant des années soixante: Les centres sociaux éducatifs, Editions la Bartavelle, 2008.
23-Goldzeiguer Annie- Rey, **le Royaume Arabe**, SNED, Alger, 1977.

24-Henni Ahmed, **La colonisation agraire et le sous-développement en Algérie**, ENAG Editions, Alger, 2009.
25-Herskovits, Melville J. (1950) **Les bases de l'Anthropologie** culturelle,
26- Horne Alistair, **Histoire de la guerre d'Algérie**, Editions Albin Michel, Paris, 1987.
27-Hylland Thomas Eriksen, And Finn Sivert Nielsen, **A History of Anthropology**, Pluto press, London, 2001.
28-Jouin Serge, Marcel Lesne, Louis Rigaud, Jacques Simon, **Historique des centres sociaux d'Algerie, L'Ecole en Algérie**: 1830-1962 De la Régence aux Centres sociaux éducatifs, Edition, Pub sud, 2001.
29-Julien Charles-André, **Histoire de L'Algérie contemporaine**, tome1 La conquête ET les débuts de la colonisation, 1827-1871 Presses Universitaire de France, 108, Bd Saint-Germain, 75006 Paris 1964
30-Julien.Charles-Andrée, **Une pensée Anti-coloniale** positions 1914/1979, Sindbad 1et3 Rue Feutrier, Paris18, 1979.
31-Kaddache Mahfoud, **Le 8 Mai 1945**, Editions ANEP, 2012.
32-Kelle Michel, **5 Figures de l'émancipation Algérienne**, Éditions, Karthala et Publisud, 2013.
33-**L'émigration algérienne en France**, Un cas exemplaire en hommage a Abdelmalek Sayad (1933-1998), Actes du colloque, sous la direction de Kamel Chachoua,CNRPH, Les presses de l'imprimerie Mauguin Blida Algérie, 2012.
34-Lachraf Mostefa, **L'Algérie nation et société**, S.N.E.D.1978.
35-Lacouture Jean, **le témoignage est un combat**, une biographie de Germaine Tillion, Edition du Seuil, 27, rue Jacob, Paris VI, 2000.
36-Le Sueur, James D, **Uncivil War** : Intellectuals and Identity Politics During the Decolonization of Algeria, Second édition, University of Nebraska Presse, 2005.
37-Malye François, Stora Benjamin, **François Mitterrand et la guerre d'Algérie**, Pluriel, 2012.
38-Mathias Grégor, **Les sections administratives spécialisées en Algérie**, entre idéal et réalité(1955-1962), Achevé et imprimer sur les presses ENEG, Réghaia, Algérie, 2013.
39-Mauss Marcel, **Manuel d'ethnographie**, Un document produit en version numérique par Jean-Marie Tremblay,2002 .
40-Megherbi Abdelghani, **La Paysannerie algérienne face à la colonisation**, Pour comprendre l'impératif historique de la Révolution agraire. Presses de l'E.N.A.P, Alger, 1973.
41-Meyer Jean, Tourade Jean , Goldzeiguer Annie rey, Thobie Jaque, **Histoire de la France coloniale, des origines a 1914**, Armand Colin, Paris, 1991.
42-Moussaoui, Abderrahmane **La pratique de l'anthropologie en Algérie,** La méditerranée des anthropologues, fractures, filiations, contiguités, Maisonneuve e Larose, Paris, 2005.
43-Nora Pierre, **Les français d'Algérie**, Christian Bourgois éditeur, 2012.

44-Nouschi André, **Enquête sur le niveau de vie des populations rurales constantinoise, de la conquête jusqu'en 1919**, Edition Sedia, Algérie, 2010.
45-Ould Aoudia Jean Philipe, **L'assassinat de Château Royale** Alger : 15 Mars 1962, Editions, Tirésias, Michel Reynaud, Paris, 1992.
46-Ould Aoudia Jean-Philippe, **Les Centres sociaux et la guerre d'Algérie**, L'engagement à travers la vie de Germaine Tillion, sous la direction d'Armelle Mabon et Gwendal Simon, Colloque parrainé par Simone de Bollardiere et Stéphane Hessel, Editions Riveneuve, Paris, 2013.
47-Rivière Thérèse, **Aurès/Algérie, 1935-1936** Photographies. Suivi d'Elle a passé tant d'heures… par Fanny Colonna Alger/Paris (O.P.U)1987 .
48-Sacriste Fabien, **Germaine Tillion, Jaque Berque, Jean Servier, Des ethnologues dans la guerre d'indépendance, algérienne** l'Harmattan, Paris, 2011.
49-Todorov Tzvetan, **Le siècle de Germaine Tillion**, Editions du seuil 2007.
50-Valette Jacques, **La Guerre d'Algérie du général Salan**, les presses de Corlet imprimeur SA, Octobre, France, 2008.
51-Wood Nancy, **Germaine Tillion, Une femme-mémoire**, D'une Algérie a l'autre, Traduit de l'anglais par Marie-Pierre Corrin, Editions Autrement, 2004.
52-Yahiaoui-Merabet Massaouda, **Société musulmane et Communautés Européennes dans L'Algérie du XXe siècle** (Réalités, Idéologies, Mythes et Stéréotypes), Tome 1et 2, Houma-2009.

6 -المقالات باللغة العربية:

01 -أبوعمران الشيخ، جان سرفيه وثورة أول نوفمبر 1954، **الأصالة**، السنة الرابعة، العدد 22، أكتوبر-ديسمبر 1974م.

02 -بن عميرة محمد ، حول منهج كتابة المؤرخين الفرنسيين لتاريخ الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، **مجلة الدراسات التاريخية**، العدد 05 السنة 1408هـ-1988 (Presses, d'I.A.I.G) 1991.ص 79.

03 -بورديو بيير، عبد المالك صياد، الاستئصال، ، ترجمة عبد الرحمان بوزيدة، **الأصالة** العدد الثالث، 1971.

04 -بورك إدموند ، فرنسا وسوسيولوجيا الإسلام الكلاسيكية 1798-1962، ترجمة يونس الوكيلي، **التفاهم**، مجلة فصلية فكرية إسلامية، العدد الثاني والثلاثون لسنة 1432هـ / 2011، دون ترقيم الصفحة.

05 -خمري الجمعي ، جبهة الدفاع عن أفريقا الشمالية ودور الأستاذ الفضيل الورتيلاني، **الحوار الفكري**، عدد05/ أوت، 2003.

06 -دمبري محمد صالح ، الفرنكوفونية الأدبية والسياسة الاستعمارية في الجزائر(1830-1962) صورة الجزائر في الأدب الجزائري الناطق بالفرنسية، ترجمة حسن بن مهدي، **مجلة الثقافة** العدد 101-1988 طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية وحدة الرغاية الجزائر 1989.

07 -سعيدوني ناصر الدين ، مذكرة حول إقليم قسنطينة ، Notice sur la province de Constantine sans nom d'auteur sans date postérieure a 1839 **الأصالة** عدد 70-71 جوان جويلية 1979، مطبعة البعث قسنطينة الجزائر.

08 -عمارة علاوة ، الشيخ مبارك الميلي ومواجهة المشروع الفرنسي لكتابة تاريخ الجزائر، المواقف **مجلة الدراسات والبحوث في المجتمع والتاريخ** ، منشورات المركز الجامعي مصطفى اسطمبولي معسكر، العدد الثالث، 2008.

09 -فلوسي مسعود، من علماء الجزائر المعاصرين المؤرخ والمحقق والمترجم الأستاذ إسماعيل العربي، دون دار الطبع وسنة الطبع وترقيم الصفحات.

10 -المالكي عبد الرحمان ، السوسيولوجيا الكولونيالية أمام ظاهرة الهجرة القروية في المغرب، **عمران**، العدد 5/17، 2016.

11 -ولد خليفة محمد العربي ، سوسيولجية الجزائر تأليف: ب. بورديو، **الأصالة**، العدد الثاني،1971.

-المقالات باللغة الأجنبية :

01-Addi Lahouari, **Les limites idéologiques du nationalism algérien**, In: Awal, Cahier d'études Berbères, n° 27-28, Fondation Maison des sciences de l'homme, Paris, 2003.

02-Adnani Hafid et Yacine Tassadit, **L'Autre Bourdieu, celui qui ne disait pas ce qu'il avait envie de cacher**, in : Awal, Cahier d'études Berbères, n° 27-28, Fondation Maison des sciences de l'homme, Paris.

03-Ageron Charles-Robert, **Jules Ferry et la question algérienne**, en 1892 (d'après quelques Inédits) In : Revue, d'histoire moderne et contemporaine, Tome X Avril Juin 1963 (P.U.F) France, 1963.

04-Arripe. H-J. Essai sur le Folklore de la commune mixte de L'Aurès. In : Revue. Africaine Vol N°55 Année1911.

05-Aubry, J. Arab **medicine and surgery, A study of the Healing art** in : Algeria by M.W Hilton, London Oxford university press, 1922, in : Bulletin de la société de géographie d'Alger et de l'Afrique du nord, volume 23, Vingt-septième année 1er trimestre 1922.

06-Basset André, **Mathéa Gaudry La femme Chaouia de L'Aurès**, In : Le journal des Savants, Année 1932, Langers ،Imprimerie Champenoise.

07-Bazin Laurent. **La sociologie des travailleurs algeriens de Pierre Bourdieu en regard d'une ethnologie du présent**. In : At-Tadwin. Revue annuelle pour les études de philosophie, sciences sociales et humaines, sciences de l'information et de la traduction, 2013.

08-BEL Alfred **L'Islam mystique**. In : Revue. Africaine. Vol N°68 année 1927 (O.P.U) 1, Place Centrale de Ben-Aknoun (Alger) 1986.

09-Bel Alfred. **René Basset**, In : Revue. Africaine. Vol N°65 année 1924 (O.P.U) 1, Place Centrale de Ben-Aknoun (Alger) 1986.

10-Bernard Augustin, **Émile Masqueray**, In : Revue. Africaine. Vol N°38 Année1894 (O.P.U) 1, Place Centrale de Ben-Aknoun (Alger).

11-Bernard Augustin, Revue de l'Afrique Française et des antiquités africaines, Tome IV-5eme Année, 1886.Macon imprimerie et lithographie, Protat Frères.

12-Bocher Charles**, Prise de Narah** (souvenirs d'une expédition, dans le djebel-Aurès)In : Revue Des Deux Mondes, Tome Neuvième, Imprimerie de J.Glaye, rue Saint-Benoît, Paris, 1857.

13-Bouhadja Salah, **IL était un parmi les Dix autour de l'enquete sur les camps de regroupement dans le déracinement**, entretien réaliser par Tassadit Yacine, In: Awal, Cahier d'études Berbères, n° 27-28, Fondation Maison des sciences de l'homme, Paris, 2003.

14-Bourdieu Pierre, **Entre Amis**, In: Awal, Cahier d'études Berbères, n° 27-28, Fondation Maison des sciences de l'homme, Paris.

15-Bourdieu Pierre, **l'Unité de l'Algérie** In : Le monde diplomatique, Juillet 1961.

16-Bousquet.G, **Enquête sur le domaine respectif de la législation française, de la loi musulmane et de la coutume, en Afrique du Nord**, In : Revue. Africaine. Vol N°76 année 1935 (O.P.U) 1, Place Centrale de Ben-Aknoun (Alger).

17- Boussard Isabel. **Roland Maspétiol, une figure marquante de l'Economie Rurale**. In: Économie rurale. N°223, 1994.

18-Buisson, Henri, **Les vallée de l'Aurès**, In : Annales de Géographie, Tome, IX, 1900, Librairie, Armand colin, Paris5, Rue de Mézières.

19-CÆsarea Julia, **(Cherchel**) In : Revue. Africaine Vol N°1 année 1856.

20-Camps Gabriel. **E Masqueray, Formation des Cités chez les populations sédentaires de l'Algérie** : (kabyles du Djurdjura, Chaouia de l'Aouras, Beni Mezab, In : Revue de L'Occident musulman et de la Méditerranée, Edisud, Aix-en-Provence, Année 1983, Volume 36, Numéro 1.

21-Chachoua Kamel, **Les montagnes et la montée des clercs dans l'Algérie coloniale**. Viticulture, montagnes et réformisme (iṣlāḥ) aux xixe-xxe siècles , In: Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée, N° 135 , Presses Universitaires de Provence, Juillet, 2014.

22-Chachoua Kamel, **Pierre Bourdieu et l'Algérie**: Le savant et la politique , In : Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée, , N° 131 , Presses Universitaires de Provence, juin 2012.

23-Chiva Isaac, **Pierre Bourdieu : « Une ethnographie particulière** » In: Awal , n° 27-28, Fondation Maison des sciences de l'homme, Paris, 2003.

24-Colonna Fanny, **Questions à propos de la littérature orale comme savoir**. In : Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, N°22, 1976. Édisud, Aix en-Provence.

25-Colonna, Fanny **Saints furieux et saints studieux ou, dans l'Aurès, comment la religion vient aux tribus**, In : Annales. Economies, Sociétés, Civilisations, Année 1980, Volume 35, Numéro 3.

26-Conklin Alice, **Le paradoxe coloniale du musée de l'homme** 1878-1945, in : Le musée de l'Homme, Histoire d'un musée laboratoire.

27-Deschamps Hubert. **Nécrologie**. Henri Labouret. In : Journal de la Société des Africanistes, 1959, tome 29, fascicule 2.

28-El Qadéry.Mustapha, **Les Berbères entre le mythe colonial et la négation nationale. Le cas du Maroc** In : Revue dhistoire moderne et contemporaine, Tome 45-2, Avril Juin 1998 Imprimerie CHIRAT 42540 Saint-Just-la-Pendue, 1998.

29-Émerit Marcel. **Pierre Bourdieu Sociologie de l'Algérie**, Collection "Que sais-je?", In: Annales. Économies, Sociétés, Civilisations, 15e année, N. 2, 1960.

30-Émerit Marcel. Roland Villot, **Auguste Pomel, démocrate et savant (1821-1898)**. In : Annales. Économies, Sociétés, Civilisations. 14e année, N. 1, 1959.

31-Féraud, Charles **Bougie, Notices ET mémoires**, Revue Africaine Vol N°13, Année 1869.

32-Féraud, Charles **Les Harar, seigneurs des Hanencha** Revue Africaine. Vol N°18 Année1874 (O.P.U) 1, Place Centrale de Ben-Aknoun (Alger).

33-Féraud, Charles **Mœurs ET costumes Kabyles**, Revue. Africaine. Vol N°6 année 1862 (O.P.U) 1, Place Centrale de Ben-Aknoun (Alger).

34-Féraud, Charles **Notes sur Tebessa** In : (R.A) Vol N°18 Année1874 (O.P.U) 1, Place Centrale de Ben-Aknoun (Alger).

35-Gadoffre-Staath Alice, **Le rendez-vous de Saint-Mandé**, In : Revue Esprit, Editions du Seuil, Février, 2000.

36-Gautier E. F., **Considérations sur l'histoire du Maghreb**. : Revue. Africaine. Vol N°68 année 1927 (O.P.U)1, Place Centrale de Ben-Aknoun (Alger) 1986.

37-Gognalons L., **Fête Principales des sédentaires d'Ouargla (Rouagha)**. In : Revue. Africaine. Vol N°53 année 1909 (O.P.U) 1, Place Centrale de Ben-Aknoun (Alger) 1986.

38-Goldzeiger Annie- Rey, **Les problèmes Algériens du second empire vue par les historiens Français**, In : Revue d'Histoire moderne et contemporaine, Tome XXI Janvier-Mars1974. Imprimerie Bellanger et Files, 1974.

39-Gollier Théophile. **Revue d'ethnographie**. In: Revue néo-scolastique. 11° année, N°42, 1904.

40-H.P, **Bourdieu Pierre**, **Sociologie de l'Algérie**. In: Population, 20e année, n°1, Editions de L'E.N.E.D, 23 Avenue F.D. Roosevelt, Paris, 1965.

41- Hamet Ismaël, **Les musulmans de l'Afrique du nord In** : Revue du monde musulman, Ernest Leroux Editeur, Paris, Juin 1913.

42-Hanoteau. M (Général.), **Quelques souvenirs sur les collaborateurs de "la Kabylie et les coutumes kabyles**" In : (R.A). Vol N°64 année 1923 (O.P.U) 1, Place Centrale de Ben-Aknoun (Alger).

43-Henry Louis, **Servier Jean. - Demain en Algérie**. In: Population, 15e année, n°4, 1960.

44-Hovelacque A. **Ethnologie et ethnographie**. In: Bulletins de la Société d'anthropologie de Paris, II° Série. Tome 11, 1876.

45-Joly. A, **Le Chaouiya des Ouled Sellem**, In : Revue. Africaine. Vol N°55 Année1911 (O.P.U) 1, Place Centrale de Ben-Aknoun (Alger).

46-Joly. A, **Étude sur les Chadouliyas**, In : Revue. Africaine. Vol N°51 Année1907 (O.P.U) 1, Place Centrale de Ben-Aknoun (Alger).

47-Journal de l'année, Editions 2003 du 1er Janvier au 31 décembre 2002,21 Rue du Montparnasse 75283 Cedex 06 Paris.

48-Kaddach Mahfoud, **L'utilisation du fait berbère comme facteur politique dans l'Algérie coloniale**, in : Actes du premier congrès d'études des cultures méditerranéennes d'influence Arabo-Berbère,SNED, Alger 1973.

49-**L'émigration algérienne en France, Un cas exemplaire en hommage a Abdelmalek Sayad (1933-1998)**, In : Actes du colloque, sous la direction de Kamel Chachoua,CNRPH, Les presses de l'imprimerie Mauguin Blida Algérie,2012.

50-La Revue politique et littéraire, deuxième série-tome XIV 7eme Année-2e semestre, Janvier a Juillet 1878.Paris 1878.

51-Lacoste-Dujardin Camille, **« Opération Oiseau bleu »,** 1956.Géostratégie et ethnopolitique en montagne Kabyle, In : Revue d'Occident musulman et du la Méditerranée, n°41-42, 1986.

52-Lallemand Suzanne. **Atelier "Histoire et ethnologie**". In: Bulletin de l'Association française des anthropologues, n°14, Décembre 1983. XIe congrès international des sciences anthropologiques et ethnologiques.

53-Lauraire Richard**, Pierre Bourdieu et l'éthnologie rurale**, In: Awal, Cahier d'études Berbères, n° 27-28, Fondation Maison des sciences de l'homme, Paris, 2003.

54-Laurens Sylvain, **Martín-Criado Enrique, Les Deux Algéries de Pierre Bourdieu**, In: Sociétés politiques comparées, n°13, mars 2009.

55-Leimdorfer François, **Objet de la sociologie coloniale** (L'exemple Algérien) In Revue Tiers-monde, Année1982 Volume 23 Numéro 90, Avril Juin 1982 (P.U.F) France.

56-Luciani. D, **Un souvenir de l'insurrection de 1879**, In : Revue. Africaine Vol N°66 année 1925. (O.P.U) 1, Place Centrale de Ben-Aknoun (Alger) ,1986.pp.191, 194.

57-Maler Henri, **Quarante ans d'interventions, politique**"La radicalité de Pierre Bourdieu, In: Awal, n° 27-28, Fondation Maison des sciences de l'homme, Paris, 2003.

58-Marie-Catherine et Paul Villatoux, **Le 5éme Bureau en Algérie**, in : Militaires et guérilla dans la guerre d'Algérie, Act du colloque de Montpellier des 5et 6 mai 2000, Editions Complexe, 2001.

59-Marie-France Garcia-Parpet, **Des outsiders dans l'économie de marché Pierre Bourdieu et les travaux sur l'Algérie**, in: Awal, Cahier d'études Berbères, n° 27-28, Fondation Maison des sciences de l'homme, Paris, 2003.

60-Masqueray Emile, **Avant-propos**, In : Bulletin de correspondance Africaine, Antiquités Lybiques puniques grecques et romaines, Fascicule 1 Janviet et Fevrier, 1882, Imprimerie de l'association ouvriere P. Fontana et Compagnie, Alger, 1882.

61-Masqueray Emile, **La Stèle lybique de Souama**, In : Bulletin de correspondance Africaine, Antiquités Lybiques puniques grecques et romaines,

Fascicule 1 Janviet et Fevrier, 1882, Imprimerie de l'association ouvriere P. Fontana et Compagnie, Alger, 1882.

62-Masqueray, E. **Lettre de M Masqueray, sur quelques inscriptions trouvées à Thamgad**, Notices ET mémoires, In : Revue. Africaine Vol N°17 Année1875.

63-Masqueray, E. **Rapport a M.Le général Chanzy gouverneur général de l'Algérie**, sur une mission dans le sud de la province de Constantine, In : Revue. Africaine Vol N°20 Année1876 (O.P.U) 1, Place Centrale de Ben-Aknoun (Alger).

64-Masqueray, Emile, **Voyage dans l'Auras**, Etudes Historique, In : Bulletin de la Société de Géographie de Paris, Tome 14eme, 1876, Imprimerie. De Martinet, Rue Mignon, 2 Paris, 1876.

65-Masqueray, **Rapport a M. Le général**, In : Revue. Africaine Vol N°21 Année1877 (O.P.U) 1, Place Centrale de Ben-Aknoun (Alger).

66-Masqueray, **Ruines Anciennes de Khenchela** (**Mascula**) A Besseriani (Ad majores) In : Revue. Africaine Vol N°23 Année1879 (O.P.U) 1, Place Centrale de Ben-Aknoun (Alger) 1985.

67-Masqueray. E., **Le djebel Chechar** : Revue. Africaine Vol N°22 Année1878 (O.P.U) 1, Place Centrale de Ben-Aknoun (Alger) 1985.

68-Masqueray.E, **Inscription de Ouad Abdi**, In : Bulletin de Correspondance Africaine, Novembre Décembre, 1882, P.Fontana et Compagnie, Alger, 1883.

69- Masqueray.E, **Le bour des Aouled Zeian et le Fedj près Khenchela.** In :Bulletin de Correspondance Africaine, Septembre et Octobre, 1882, Imprimerie de L'Association ouvrière P.Fontana et Compagnie, Alger, 1882.

70-Masqueray, **Documents historiques recueillis dans l'Aurès (juillet 1876)** (R.A) Vol N°21 Année1877 (O.P.U) 1, Place Centrale de Ben-Aknoun (Alger)1985.

71-Maunier René, **Recherches Collectives dans l'ethnologie et le folklore,** in : Revue de Synthèse tome XI, n°1 Février 1936.imprimerie d'ouvriers sourds-muets, 31 villa D'Élisia, Paris XIVe.

72-moutassem-Mimouni Badra, In memoriam : **Germaine Tillion (1907-2008) De l'ethnologie du sauvage a L'anthropologie**, In : Insaniyat, Revue Algérienne d'anthropologie et de sciences sociales. 13e Année 44-45 Avril-Septembre, CRASC, 2009.

73-Nouschi André, **Autour de la société de l'Algérie**, In : Awal Cahier d'études Berbères, n° 27-28, Fondation Maison des sciences de l'homme, Paris, 2003.

74-Nouschi Andrée, **Réédition de la thèse d'E. Masqueray, Formation des cités chez les populations sédentaires de l'Algérie**. In: Cahiers de la Méditerranée, n°26, 1, 1983. Cités et nations au Maghreb.

75-P.L.M, **Algérie, Magie et religion du nord Africain**, In : Revue du Monde Musulman Vol°VII, Janvier, Février, 1909, Ernest Leroux, Editeur, 28, Rue, Bonaparte (Vie).

76-Paysant L., **Un Président de la Société Historique Algérienne. Laurent-Charles Féraud**, Revue. Africaine, Vol N° 55 année 1911, Alger (O.P.U), 1986.
77-Pitt-Rivers, Julian **Pierre Bourdieu anthropologue, sociologue,et philosophe**, In : Awal, n° 27-28, Fondation Maison des sciences de l'homme, Paris, 2003.
78-Platania Marco, **L'historiographie du fait coloniale** : Enjeux et transformations, In : Revue d'Histoire des Sciences Humaine, n° 24, 1/2011.
79-Racine Nicole, « **Paul Rivet, Vichy et la France libre 1940-1944.** », In : Histoire@Politique, vol. 1, no. 1, 2007.
80-Rambaud Alfred, **Un pionnier d'Afrique, Emile Masqueray**, In : La Revue politique et littéraire, Quatrième série-tome III 32eme Année-1e semestre, Janvier a Juin, Paris 1895.
81-Raymonde Deblé Isabelle, **Une exception éducative: Les Centres sociaux en Algérie (1955-1959)** In : Revue Esprit, Editions du Seuil, Octobre 2004.
82-Rémond M., **L'élargissement des droits politiques des indigènes. Ses conséquences en Kabylie**. In : Revue. Africaine Vol N°53 année 1909 (O.P.U) 1, Place Centrale de Ben-Aknoun (Alger) 1986.
83-Rinn L., **La femme Berbère**, In : Bulletin de la société de Géographie d'Alger et De l'Afrique du Nord, 9ème Année1905, Imprimeur- Gérant, S. Léon.
84-Rinn. L, **Essai d'études linguistiques et ethnologique sur les berbères,** In : Revue. Africaine Vol N°33 Année1889 (O.P.U) 1, Place Centrale de Ben-Aknoun (Alger).
85-Rivallain Josette. Schmidt Nelly, **La correspondance de Victor Schoelcher**. In: Journal des africanistes, 1997, tome 67, fascicule 1. L'Afrique vue du Brésil.
86-Seibel Claude**, Travailler avec Pierre Bourdieu sur Travail et travailleurs en Algérie**, in : Awal, l'imprimerie Corlet France, juillet 2005.
87-Servier Jean, **Un exemple d'organisation politique traditionnelle** : une tribu kabyle, les Iflissen-Lebhar. In: Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, n°2, 1966.
88-Thénault Sylvie, **Mouloud Feraoun, Un écrivain dans la guerre d'Algérie,** In : Vingtième Siècle, revue d'histoire, n°63, juillet septembre
89-Tillion Germaine, **Dans l'Aurès le drame des civilisations archaïques**, In : Annales. Économies, Sociétés, Civilisations, 12e année, N° 3, Juillet-Septembre, Armand Colin, 1957.
90-Tramond,b J. **La femme Chaouia de L'Aurès, études de sociologie berbère,par Mathéa Gaudry**, In : La Quinzaine Critique, des livres et des revues, N° 25 Décembre 1929 Vol.1.
91-Vaissière. A, **Les Ouled-Rechaich**. In : Revue. Africaine Vol N°36 Année1892 (O.P.U) 1, Place Centrale de Ben-Aknoun (Alger) 1985.
92-Vidal-Naquet Pierre,"**La Justice et la patrie.Une française au secours de l'Algérie**" In : Revue Esprit, (numéro spécial intitulé "les vies de Germaine Tillion" février 2000.

93-Werner Jean-François. **L'ethnographie mise à nu par l'écriture** In : L'Homme et la société, N° 134, 1999. Littérature ET sciences sociales.

7 المعاجم، القواميس والموسوعات باللغة العربية:

01 -أكاردو. ف ، **معجم قبائل ودواوير الجزائر** ، مرفق بخارطة قبائل ودواوير الجزائر، تحت إشراف لومي ردي فيلر، ترجمة حمزة الأمين يحياوي، مالك بن خدة، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، طبعة خاصة 2015.

02 بدوي عبد الرحمان ، **موسوعة المستشرقين** ، طبعة جديدة ومنقحة، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، الطبعة الثالثة، 1993.

03 الجاسور ناظم عبد الواحد ، **موسوعة علم السياسة** ، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع عمان الأردن، الطبعة الأولى –الإصدار الثاني، 1420هـ - 2009.

04 خطاب رشيد ، **أصدقاء الخاوة، الدعم العالمي لثورة التحرير الوطنية الجزائرية،** قاموس بيوغرافي، ترجمة مصطفى ماضي، دار خطاب للطباعة والنشر، بودواو، الجزائر 2013.

05 خطاب رشيد ، **الخاوة والرفاق** ، قاموس بيوغرافي للجزائريين ذوي الأصل الأوروبي واليهودي والحرب التحريرية الجزائرية (1954-1962) ترجمة محمد رضا بوخالفة، نسرين لولي، دار خطاب الجزائر 2012.

06 دارتيه جان فرونسوا ، **معجم العلوم الإنسانية** ، ترجمة د.جورج كتورة، كلمة ومجد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية منقحة، 1432هـ -2011م.

07 سليم شاكر مصطفى ، **قاموس الأنثربولوجيا**، إنكليزي-عربي، ط1، 1981.

08 شرفي عاشور ، **قاموس الثورة الجزائرية(1954-1962)** ترجمة عالم مختار، دار القصبة،2007.

09 شويقة فاروق عبد الجواد ، توفيق الحسيني عبده، سلوى يوسف درويش، سعاد علي شعبان، عادل علي مصطفى، سعد عبد المنعم بركة، **الموسوعة الأفريقية** – المجلد الرابع: **الأنثربولوجيا**، دار مجدي محمود للطباعة والنشر،1997.

10 فيريول جيل ، **معجم مصطلحات علم الاجتماع** ، ترجمة وتقديم أنسام محمد الأسعد، مراجعو وإشراف بسام بركة، الطبعة الأولى، دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر، بيروت لبنان، 2011.

11 مارشال جوردن ، **موسوعة علم الاجتماع** المجلد الأول ترجمة محمد الجوهري، محمد محي الدين، عدلي السمري، أحمد زايد، محمود عبد الرشيد، هناء الجوهري، مراجعة وتقديم محمد الجوهري، الطبعة الثانية 2007.

12 -مدكور إبراهيم ، **المعجم الفلسفي** ، طبع بالهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية (1403هـ - 1983.

13 **المعجم الوجيز**، طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم (دون دار الطبع) 1994.

14 هولتكرانس إيكه ، **قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفلكلور** ، ترجمة محمد الجوهري، حسن الشامي، الأمل للطباعة والنشر، دون سنة الطبع.

- المعاجم، القواميس والموسوعات باللغة الأجنبية:

01-Boudon Raymond, Besnard Philippe, Cherkaoui Mohamed, Lécuyer Bernard-pierre, **Dictionnaire de Sociologie**, Saint-Amand-Montrond (Cher) 2005.

02-Darity Jr William A., **International Encyclopedia of the Social Sciences**, 2nd édition, volume 1 Abortion–Cognitive Dissonance, Printed in the United States of America.

03-Encyclopaedia Universalis, corpus 2, Aluminium-Arnold France, 2002.

04-Gaillard Gérald, **Dictionnaire des ethnologues et des anthropologues**, Armand Colin/Masson, Paris, 1997.

05-Journal de l'année, Editions 2003 du 1er Janvier au 31 décembre 2002,21 Rue du Montparnasse 75283 Cedex 06 Paris.

06-Le petit Larousse illustré 2007, Maury imprimeur S.A- Malesherbes, France, 2006.

07-Masqueray Emile, **Dictionnaire Français- touareg** (dialecte des Taitoq), Ernest le Roux Editeur, Paris 1893.

08-Pouillon François, **Dictionnaire des Orientalistes de langue française**, Editions Karthala, 2008.

09-Vapereau G, **Dictionnaire universel des Contemporains**, 5eme édition, 5525, Imprimerie, A Lahure, Paris, 1880.

8 الرسائل الجامعية:

01 شتوان نظيرة ، **الثورة الجزائرية 1954-1962 الولاية الرابعة نموذجا** ، أطروحة مقدمة لكلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة أبي بكر بلقايد تلمسان لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ المعاصر، إشراف الدكتور يوسف مناصرية، 2007-2008.

02 -لحمر كمال ، **صورة المجتمع في (La Revue Africaine)** 1856م-1962م، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في علم اجتماع التنمية، أطروحة غير منشورة، جامعة منتوري قسنطينة، السنة الجامعية 2010-2011.

03 عبد النور غرينة، **الأوراس في الكتابات الفرنسية إبان الفترة الكولونيالية** 1840-1939م السنة الجامعية 2009-2010 جامعة الحاد لخضر باتنة. (غير منشورة).

04- Yahiaoui Massaouda**, Louis Lecoq**, Histoire et roman coloniale, Diplôme d'études Approfondies, juin1975.

9 المواقع الالكترونية:

1- Laurière Christine, « Paul Rivet (1876-1958), Le savant et le politique », Nuevo Mundo Mundos Nuevos, consulté le 02 décembre 2015. URL : http://nuevomundo.revues.org/3365.

2- Les Images oubliées de Germaine Tillion, http://www.youtube.com/watch?v=hnopGBNGW6o Consulté le 21/02/2015.

3- https://gallica.bnf.fr/ark:/12148/btv1b84390013, Consulté le 15/06/2018.

الفهارس

1- فهرس الأعلام:

(أ)
ابن خلدون 42، 48، 49، 63، 91، 96
آجرون شارل روبير 40، 51، 57، 77، 110، 111، 155
الإدريسي 42
آدمسون هوبيل 21
إدوارد ويليم فردريك 22
أرمنياك نقيب 158
آريب 68 .
آغاس شارل 174، 186 ،187، 190
إمري مارسيل 253.
الأمير خالد 159
أونفنتان 36
أيف كوريار 282
أيمار روبير 193
(ب)
ابن باديس عبد الحميد 156، 159، 277
بارت بول 78، 95
باسي أندري 135
باسي روني 117
باسي مارسيل 194.
باكويز 21
بالنديه جورج 27
بايار جاك 268 .
براي جاك257.
برتراند لويس 67
برنار أغسطين 60
بروكوب 91
بروهل لوسيان ليفي 143
البكري 63.
بلوخ مارك 28
بلومنباخ ي ف16
بلونيس الجنرال 286 .
بن بلقاسم أحمد 63.
بن بولعيد مصطفى 267، 268.
بن جلول صالح 160
بن صادوق محمد 222
بواريه جون 16
بواس فرانتز 252
بوبر كارل 29.
بورديو بيار 234، 235، 236، 237، 238، 239، 240، 241، 242، 243، 244، 245، 246، 247، 248، 249، 250، 251، 252، 253، 254، 255، 256، 257، 258، 259، 260، 261، 162، 263.
بولوش أندري 225، 231
بوليو بول روا 75، 110
بومال أوغيست 50، 51، 52.
بيربروجر أدريان 35، 36
بيردو 138
بيرك جاك 261
(ت)
تايلور إدوارد 18، 19
تريز ريفيار 148، 149، 152، 153، 155
توبينار بول 44،45،46.
تيون جرمان 141 ، 142 ، 145 ، 146، 149، 152، 153، 154، 155، 159، 160، 161، 162، 163، ، 165، 166، 167، 168،177، 178، 180 ،182،181، 187 ،188، 193 ،194، 195، 196 ، 197 ، ، 199 200 ، 202 ، 205،

206، 207 ، 208 ، 209 ، 210، 211، 212، 213 ، 214 ، 215، ، 216، 217، 218، 219، 220، 221، ،222 ، 223، 224، 225 ،226 ،227 ، 227، 228، 229، 230، 231، 232، 252، 257 .

(ج)

جولي الكسندر 67

جويليي جاك 169 .

(ح)

حموتان علي 193، 194

دردوري بلقاسم 156، 158

(د)

درمنغهام إيميل 167.

دوتي إيدموند 91، 117، 118، 119، 121،120، 122، 123، 124، 125، 126، 127، 128

دوركايم إميل 28، 29، 161

دوفيفيي (الجنرال) 39.

دولارتيق(العقيد) 127، 246 .

دوماس (العقيد) 39.

دومون آلبير 78

دي بورمون 289.

دي بوفوار سيمون 224

دي رينو بيليسيه 36

دي سان فانسان بوري 36

دي فيرييه هنري71

دي هوتوبول 47

ديبارمي جوزيف91.

ديغول شارل 169، 227، 256

ديفو جنرال 107

(ر)

راتيل قوترون هيلين 189

روزي نقيب 41

رومبو آلفرد 110، 113

ريفي بول 143، 144، 150، 151

رين لويس 65

رينيي ليون 58

(س)

سارتر جون بول 223

سارفييه أندري 270.

سارفييه جون 265، 266، 267، 269، 270، 271، 272، 273، 274، 275، 276، 277، 278، 279، 280، 281، 282، 283، 285، 287، 288، 289، 290، 291، 292، 293، 295، 296، 298، 299.

سال جون (بروفيسور) 167.

سالان راوول192

سالوست 91

سان سيمون 28

ستارن 21

سترابون 91

ستراوس ليفي 27، 30، 259

ستينر آني 189

سعد الله أبو القاسم 58، 70، 74، 130، 229

سعدان (الدكتور) 160

سعيدوني ناصر الدين 32

سكوتو جون 188

سوستيل جاك 154، 169، 180، 180، 185، 195، 222، 224، 226، 282

سيرا إيما 180

(ش)

شانزي أ 57، 58

شكال علي 222
شميث 21
شولشر فيكتور 110
شون(العقيد) 166، 167
شيافي 35
(ص)
صياد عبد المالك 256، 260
(ع)
عباس فرحات 230
عبد القادر الأمير 287
عدي الهواري 257
عربان إسماعيل 77.
العربي إسماعيل، 118، 127
العقبي الطيب 159.
عمروش جون 87.
(غ)
غزال ستيفان 38، 53، 105
غوتيي إميل فليكس 274
غوتييه إميل ف 117
(ف)
فاني كولونا 60، 92، 137، 155، 159، 160
فايدارب جنرال 50،44،43.
فرعون مولود 173، 193، 194، 224
فورجي نيلي 172، 181، 190
فيرو شارل 47، 48، 49
فيري جول 109، 113، 116،
فيسيار .أ 65.
(ق)
قارد جون (العقيد) ، 189، 190
قداش محفوظ 190
قريول مارسيل 270.
قودار إيف 188
قولدزقر آني راي (المؤرخة) 50،
القيرواني 91
(ك)
كاترفاج 52
كامو ألبير 197
كانت إيمانويل 16
الكاهنة 58
كروبر أ.ل 21
كريت 36، 37، 40، 41، 63، 101، 102
كريم بلقاسم. 281
كسيلة 58
كولان غبريال، 117
كومبس 138
كومبون جول 77.
(ل)
لافونت روبير 289، 296
لافيجري شارل 112
لاقارد (عقيد) 191
لاكوتير جون 224.
لاكوست روبير 196، 221، 235، 282، 284، 286، 288
لبوري هنري 148
لكحل القائد 266
لهنري سيمون 148
لوتورنو 82، 98.
لوريلو هنري الجنرال 283
لونوار جاك 285

ليتاج أندري 172
ليكرك جيرار 253
ليون الإفريقي 63.
(م)
ماتيا قودري 131، 132، 133، 134، 135، 136، 151
مارسي ج 86
مارشون ماكس 173، 193، 194
ماسبيسيول 179
ماسكاري إميل 56، 57، 58، 59، 60، 61، 62، 63، 64، 65، 66، 67، 70، 71، 73، 74، 75، 76، 77، 78، 79، 84، 85، 86، 90، 91، 92، 93، 94، 95، 96، 97، 98، 99، 100، 101، 102، 103، 104، 105، 106، 108، 109، 110، 111، 112، 113، 114، 115، 116، 126
ماسو جاك 190، 222، 227
ماسينيون لويس 147، 163، 166
مالتوس توماس روبير 203.
محمد بن عباس 72، 107.
محمد ﷺ 248
المسعودي 91
معشي(الآغا) 266
موس مارسيل 142، 143، 146، 149، 161،
موسكاتلي فانسان 152، 158
مولي غي 209، 224
مونتان روبير 201
مونتاي فانسان 169، 195
ميتيران فرنسوا 166
ميد مارغريت 15.
ميزوناف بيار285

(ن)
نابليون الثالث 47
نوشي أندري 253، 254
(هـ)
هانونتو 82، 98
هورن أليستر 195، 269
هيرودوت 91
(و)
وارنيي 36، 40، 76، 204
الورتيلاني الفضيل 275، 276
ولد عودية صالح ، 193، 194
وهلار جيرار 185

2- فهرس الأماكن والبلدان:

(أ)

آريس 158، 266، 268

اسيا 25 .

الأغواط 126

إفريقيا 26، 44، 51، 59، 65، 79، 97، 98

الآقر 142

آكس أون بروفانس 162، 265

ألمانيا 165

امريكا 25.

الأوراس 48، 47، 49 ،58، 57 ،59، 60 ،61 62 ،63، 64 ،71 ،72 ،73 ،74 ،76 83 ،85 ،87 ،91 ،97 ، 103 ،104، 106 ،107، 111، 114، 120، 126، 133، 134، 148، 149، 157، 159، 161، 168، 169،241، 242، 266، 272، 281

اوروبا 15، 18، 44، 52، 90، 103،

(ب)

باريس 16، 25، 43، 52، 114، 160، 173

بجاية 49

برلين 16

بروكسيل 144

البليدة 185

بني يني 98

بوقرة روفيقو 184

(ت)

تبسة 49 57

تونس 212

تيبازة 186

تيزي راشد 98

تيمقاد 58، 71

(ج)

الجزائر العاصمة 256

الجزائر31، 33، 35، 36، 37، 38، 40، 41 ،42، 43، 45، 46، 48، 49، 50، 53، 54، 56، 57، 58، 60، 61، 65، 77، 78، 80، 81، 82، 85، 92، 93، 100، 108، 109، 111، 112، 125، 128، 129، 130، 137، 138، 145، 165، 171،168، 245،197، 248، 250، 270، 277، 285

(خ)

خنشلة 64، 126

(ر)

روما 57، 106، 107

(ز)

الزعاطشة 98

زكار 265، 285،

(س)

سطيف 31

سكيكدة 31، 257، 260

(ش)

الشلف 283

(ع)

عنابة 31

عين ولمان كولبير 284

(غ)

غرناطة 119

(ف)
فانسان 32، 284
فرنسا 28، 50، 52، 53، 56، 69، 70، 87، 97، 107، 112، 115، 116، 125، 137، 142، 144، 146، 165، 201، 206، 289، 294
فيينا 16
(ق)
قسنطينة 32، 33، 42، 49، 69، 117، 157، 159، 161، 169،168، 270
(ك)
كلارمون فيرون142
(ل)
لندن 16،
(م)
المتروبول ، 50 ،52، 130، 143، 150، 176،182 ، 185، 187، 191، 206، 234، 235، 267، 269، 270،
المدية 285
المرتنيك 182
مستغانم 285
مصر 276
المغرب 212
مون بولييه 287
ميرة 98
ميزاب 83، 91، 97، 102، 126
ميونيخ 16
(ن)
نقاوس 68
نقرين 98
(و)
ورقلة 126
الولايات المتحدة الأمريكية 18، 255
الونشريس 265
وهران 33، 117، 194

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

المقدمة:.....(أ- و)
الفصل الأول: مصطلحات ومفاهيم، التحديد الجغرافي للشرق الجزائري:.....13
المبحث الأول: ضبط المصطلحات والمفاهيم:.....13
تعريف الأنثربولوجيا:.....13
الأنثروبولوجيا الطبيعية:.....16
الأنثروبولوجيا الثقافية.....17
الإثنولوجيا:..... 20
علم اللغة : Linguistique أو اللسانيات: 23
الإثنوغرافيا Ethnographie:..... 24
العلاقة بين الأنثروبولوجيا والإثنولوجيا والإثنوغرافيا.....26
العلاقة بين الأنثربولوجيا والتاريخ:..... 28
المبحث الثاني: التحديد الجغرافي لإقليم الشرق الجزائري:.....31
الفصل الثاني: المجتمع الجزائري في الكتابات الأنثربولوجية العسكرية الفرنسية:.....34
المبحث الأول : الأنثربولوجيا واللجنة العلمية لاكتشاف الجزائر:.....36
المبحث الثاني : الكتابات الأنثروبولوجية العسكرية والمرأة الجزائرية:.....47
الفصل الثالث: مجتمع الشرق الجزائري في الكتابات الأنثربولوجية الفرنسية (الصحافة الدورية).....55
المبحث الأول: المجلة الإفريقية مرآة الأنثربولوجيا الفرنسية في الجزائر:.....56
المبحث الثاني : نشرة الجمعية الجغرافية الباريسية Bulletin de la société de géographie de Paris:.....*71*
المبحث الثالث: مجلة المراسل الإفريقي Bulletin de correspondence Africaine:...78
- المبحث الرابع: الكتابات الأنثربولوجية القانونية والمجتمعات البربرية:.....81
الفصل الرابع باكورة الكتابات الأنثربولوجية الفرنسية الجامعية والمجتمع الجزائري:.....89
المبحث الأول: المجتمع الشرق الجزائري في الكتابات الأنثروبولوجية الجامعية: أطروحة إيميل ماسكاري:.....90
المبحث الثاني: المجتمع الجزائري وأنثربولوجيا الدين إيدمون دوتي أنموذجا:.....117
المبحث الثالث: الكتاب الأنثربولوجيون الفرنسيون والفلكلور الجزائري:.....126
المبحث الرابع: المرأة الجزائرية في الكتابات الأنثربولوجية الفرنسية:.....131

الفصل الخامس الأنثربولوجيا بين العلم والسياسة: "جرمان تيون":.....141
المبحث الأول: كتابات جرمان تيون Germaine Tillion الأنثربولوجية والمجتمع في الشرق الجزائري:.....143
المبحث الثاني: جرمان تيون والثورة التحريرية الجزائرية "الأنثربولوجيا والسياسة":.....166
المبحث الثالث: المجتمع الجزائري في كتاب جرمان تيون "الجزائر سنة 1957" L'Algérie en 1957":.....197
الفصل السادس الكتابات الأنثربولوجية الفرنسية خلال الثورة التحريرية"بيار بورديو Pierre Bourdieu":
المبحث الأول : المجتمع البربري عند بيار بورديو معرفة علمية أو معرفة من أجل الاستعمار :.....235
المبحث الثاني: مجتمع الشرق الجزائري في كتاب بورديو "سوسيولوجية الجزائر Sociologie de l'Algérie":.....238
المبحث الثالث: الإسلام عند بورديو في كتاب "سوسيولوجية الجزائر":.....249
المبحث الرابع: مساهمة ب.بورديو في دراسة المجتمع الجزائري اجتماعيا وأنثربولوجيا:.....262
الفصل السابع: الكتابات الأنثربولوجية الفرنسية خلال الثورة التحريرية: جون سارفييه Jean Servier :.....264
المبحث الأول: جون سارفييه والمجتمع الجزائري:.....266
المبحث الثاني: جون سارفييه والثورة التحريرية الجزائرية:.....270
المبحث الثالث: موقف جون سارفييه من جمعية العلماء المسلمين :.....272
المبحث الرابع : موقف جون سارفييه من قضايا المجتمع الجزائري:.....275
المبحث الخامس: مساهمة جون سارفييه كأنثربولوجي في العمليات العسكرية الفرنسية في الجزائر:.....282
المبحث السادس: الدفاع من "أجل الجزائر الفرنسية" من خلال كتاب "غدا في الجزائر Demain en Algérie":.....290
-الخاتمة:.....301
-الملاحق: 308
-القائمة البيبليوغرافية.....320
-الفهارس:.....345
فهرس الأعلام.....346
فهرس الأماكن والبلدان.....350
فهرس المحتويات:.....352